HASSAN HAMID

رواية
NOVEL

حسن حميد

مدينة الله

مكتبة 1602

مدينة الله

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

مدينة اللّه / رواية عربيّة
حسن حميد / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى ، 2009
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 ، الأردنّ
هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والخطوط والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف : **سليمان منصور / فلسطين**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

مكتبة
20 12 2023
t.me/soramnqraa

روايـة
NOVEL

مكتبة | 1602

حسن حميد

مدينة الله

إلى

ناديا . . .

ملاكي الحارس . . . أبداً .

إشارة لابدَّ منها

مكتبة
t.me/soramnqraa

أعترف ،

أنه ليس لي يد في هذه الرسائل ، فأنا لا أعرف السيد فلاديمير الذي كتبها ، كما لا أعرف السيد إيفان الذي كُتبت إليه . . فقد عرفت الاسمين من الرسائل ، ومن العنوانين : عنوان المُرسل السيد فلاديمير ، وعنوان المرسل إليه السيد إيفان . .

كنت في مكتبي ، في بيت الشرق ، في القدس . . حين جاءتني السيدة وديعة عميخاي ، كان الوقت صباحاً يلفه مطر خفيف . . فوجئت مرتين : مرة بمجيئها وسؤالها عني ، ومرة لأنها دفعت إليَّ هذه الرسائل .

كنت ، وقبل أربعين سنة ، قد اتبعت دورة تأهيل في الأرشفة ، وكانت السيدة وديعة عميخاي واحدة من الدارسين في الدورة . معرفتي بها بسيطة ، وعادية . . لا تتعدى حدود أنها تعرف مكان عملي في بيت الشرق ، وأنني أعرف مكان عملها في البريد المركزي ، في حي زخرون موشيه ، لا أخفي على أحد أنني تخوفت ، بل خفت ، من زيارتها . . لكنها بددت خوفي ، وبضربة واحدة ، حين قالت لي : جئت أزورك ، وأودعك ، وأعطيك!! قلت : خيراً ، سيدة عميخاي . قالت : أنا مريضة جداً ، وأيامي معدودة ، السرطان أكلني أو كاد (بدت كذلك فعلاً) . . إن صدقت توقعات الأطباء ، فأنا لن ألحق بتوديع معارفي كلهم . . قلت متأثراً : خسارة ياسيدة عميخاي . قالت : أشكرك ، هذه هي الزيارة ، وهذا

هو الوداع . . فـأنا لا أنسـاك . . لأنك كنت . . من أبدى طلاب دورة الأرشفة التي انخرطنا فيها معاً . . قبل أربعين سنة . . كان فهمك ، وسرعة إنجازك يغيظانني دائماً . فابتسمتُ ، وأضافتْ : أما ما سأعطيك إياه فهو هذه الأوراق ، وهي رسائل كنت أراقبها في مركز البريد ، وهي لزائر روسي كان يكتبها لأستاذه الجامعي في جامعة سان بطرسبورغ الذي علّمه اللغة العربية . . . وسبب مراقبتي لها هو أخبارها ، وقصصها ، وسبب احتفاظي بها هو أسلوبها الأدبي الرائع ، لعلك تعرف جيداً محبتي للغة العربية وشغفي بها ، فقد سحرتني هذه الرسائل . . على الرغم مما فيها من غُصّات . . وأكاذيب .

قلت : ولماذا تعطينني إياها؟! قالت : أنا أريد الذهاب إلى الجنة ، ولهذا أتيت بها إليك كي أكفر عن ذنبي باحتجازي لها وقتاً طويلاً . قلت : أليس لك معارف ، هم أجدر بها مني . قالت : معارفي إن عرفوا ما فيها لن يرسلوها ، بل سيحرقونها . قلت : وما المطلوب مني؟ قالت : أن تقرأها ، وأن تتخير الطريقة المناسبة لإرسالها إلى عنوانها ، أعني إلى السيد إيفان . . . فلعله ما زال ينتظرها . . قلت : كم مضى من زمن والرسائل بحوزتك؟ قالت : عشر سنوات أو أكثر بقليل . قلت : وقت طويل . قالت بأسى : وقت طويل . . فعلاً ، سامحني يا رب . .

ومضت السيدة عميخاي ، كانت متهالكة تماماً ، يجرها أحد معارفها في كرسي طبي . . مضت ولم تشرب شيئاً من شاي بيت الشرق أو قهوته ؛ رُغم إلحاحي عليها ؛ كانت تمتص بعض الرشفات من زجاجة الماء التي بحوزتها . وحين غادرتني شيعتها إلى باب المركز ، وحين صارت الرسائل إلى يدي ، حرت ماذا أفعل بها . ولم أجرؤ على قراءتها إلا عندما علمت بموت السيدة عميخاي .

الآن ، وبعد أن قرأتُ الرسائل التي أدهشتني حقاً . . ، أرسلتُ رسالة

صغيرة ، موجزة إلى عنوان السيدة جورجي إيفان في جامعة سان بطرسبورغ . . أُخبره بموضوع الرسائل ، وسألته أن يرشدني إلى الطريقة المثلى كي أرسلها إليه ، فهي من حقه . . وانتظرت الإجابة .

ولكم صدمت حين كاتبتني أمانة سر الجامعة تخبرني أن السيد جورجي إيفان ترك التدريس في الجامعة ، وأنه غادر بطرسبورغ إلى جهة لا يعرفون عنها شيئاً . . فحزنت . ولم أقف عند هذا الحد ، فأرسلت رسالة إلى الجامعة نفسها ، أسألها عن السيد فلاديمير بودنسكي ، وانتظرت الإجابة . فقيل لي إنه ذهب إلى إسرائيل في زيارة ، ولم يعد منها . لذلك . . قمت بنشر إعلان في الصحف الإسرائيلية والعربية معاً ، رجوت السيد فلاديمير ، أن يتصل بي ، أو الذين يعرفونه أن يتصلوا بي لأمر ضروري وجوهري . . وتركت للجميع أرقام هواتفي ، ولكن دون جدوى .

ولم أقنط من البحث عنه ، فذهبت إلى إدارة السجون ، وسألت عن السيدة سيلفا (. . .) صديقة فلاديمير ، فقيل لي ، بعد ألف عذاب وعذاب ، إنها ماتت منتحرة . . ، ولم أقنط ، فبحثت عن السيدة أم أهارون مؤجرة فلاديمير ، في سجلات المكاتب العقارية . . لكنني لم أحظ بمعرفتها . .أيضاً .

. . ولم أقنط ، فسألت في دائرة السياحة ، قسم (الأدلاء) عن السيد جو مكملان ، الحوذي الذي عمل دليلاً للسيد فلاديمير بودنسكي ، فقيل لي إنه غادر البلاد ، ولا يعرفون له عنواناً .

ولم أقنط ، فذهبت إلى مقهى في قلندية ، وسألت عن السيد فلاديمير ، فتأسف صاحب المقهى لأنه ما عاد يراه ، وامتدحه كثيراً .

لكل هذا . . ، ولأن المرء قليل بنفسه ، استشرت أصدقائي ، وسألتهم ماذا أفعل بالرسائل ، فأشاروا عليَّ بنشرها في كتاب . . فوقعت على رأيهم ، وهذا هو ما أفعله هنا . لم أتدخل بمادة الرسائل إطلاقاً ، لم أغيّر ، أو

أحوّر ، أو أدوّر سطراً واحداً فيها . . كل ما فعلته هو أنني محوت الأرقام المتسلسلة التي وضعتها السيدة وديعة عيمخاي للرسائل بالقلم الأحمر . . لأنها ليست من وضع السيد فلاديمير بودنسكي .

القدس

«ها أنذا ،

أكتب إليك من القدس .

لم أشأ الكتابة إليك مباشرة قبل أن أمكث فيها ليلة أو ليلتين ، تعرف جيداً أنني عبَّأت روحي لمثل هذه الزيارة ، وقرأت عن القدس الكثير ، والتهمت معظم تاريخها خلال أشهر ، ولم أترك ، قدر استطاعتي خبراً ، أو حادثة ، أو موقفاً ، أو علماً ، أو مكاناً ، إلا وجالسته كي أعرف هذه المدينة أكثر وإن كان من خلال قراءاتي . لم أدع كتاباً من كتب الرحلات المقدسية القديمة والحديثة إلا وأتيت عليه كي أعرف سرانية المدينة ، ودهشة النفوس ، وحيرة العقول ، وبهجة الخواطر التي رأت المدينة وعرفتها أو عاشت فيها أياماً أو شهوراً أو سنوات .

تعرف جيداً أنني مفتون بالقدس مكاناً ، وتاريخاً ، ومعتقداً ، ومعنى ، لهذا ، وقبل أن أهم بزيارتها مغادراً مدينتي سان بطرسبورغ . . ذهبت إليك ، وأنت المؤرخ ، والسياسي ، ورجل الفكر ، وصاحب الرحلات الشهيرة وأستاذي في اللغة العربية . . كي أتزود بوصاياك لزائر مثلي يزور القدس للمرة الأولى .

أذكر أنك قلت لي ، ستدهش ، وتصاب بسحر المكان ومغناطيسيته حالما تصل إليه ، وهذا ما حدث فعلاً ، فأي مكان خرافي هذا الذي أراه ، فالبيوت هنا أشبه بالدوالي عناقاً وتعريشاً وتآخياً وهمساً وجمالاً ، وهي

على الرغم من تطاولها . . دانية مثل العناقيد ، وطرية كالثمار ، وذات رائحة تشبه رائحة الحناء والزعفران ، عتبات البيوت متشابهة مثل أولاد أسرة واحدة ، والشبابيك الوسيعة طولاً وعرضاً مملوءة بنداءات الترحيب . . لأول مرة أشعر هنا بأن شبابيك البيوت تشبه المرايا الصقيلة ، تشبه وجوه ساكنيها . . يا لطلات النساء المقدسيات من الشبابيك الحانية ، ويا للنباتات التي تزينها كبساتين الدروب . .

هنا ، وفي منفسح رحب تتلاقى فيه الدروب . . تلاقيك شجرة خروب مذهلة في اتساعها ، وامتدادها ، واصطفاف أوراقها وأغصانها ، وزقزقة طيورها ، وكثرة قرونها السود لذيذة المذاق . . لكأنها قرون السكر التي حدثتنا عنها الأساطير ؛ تلك القرون التي كان يتهاداها العشاق في الأمسيات الرخية . . أتذكر ما قالته الأسطورة عن بنات القدس ، من أن رضابهن الحلو . . حلوٌ لأن أمهاتهن أكلن الكثير من قرون الخروب ، هنا ، وفي الظلال الطويلة لهذه الشجرة تفترش النساء البلاطات الحجرية وهن يبعن العطور ، والثياب ، والحناء ، والزعتر ، والزعفران ، والعنبر ، والقرفة ، وجوزة الطيب ، وأعواد القرنفل ، والبخور ، والسمسم ، وحبة البركة ، والرمان ، والتين ، والكعك ، والمكاحل ، والأصبغة ، وأعواد الند والصندل ، والأساور ، والخرز ، والخواتيم ، والأقراط ، والريش ، والقهوة ، والسكر الفضي ، والقمردين ، والجوز ، واللوز ، والبندق ، والزنجبيل . . وإلى جوارهن نساء أخريات يخبزن أقراص الزعتر ، والسبانخ ، والحميضة ، والهندباء ، والكشك ، والفليفلة الحمراء ، والجبنة ، والقريش .

سألت عنهن فقيل لي تنذر المرأة المقدسية نذراً لله ، تقول : يا رب إن رزقتني ولداً ، أو بنتاً أو فككت أسر زوجي المسجون ، أو عدت لي بغائبي ، أو شفيت لي مريضي ، فإنني سأقوم بالخبز يوماً كاملاً أمام بيت المقدس ، وأوزعه أنا وأولادي على المارة هبة وشكراً ، لك يا رب . . فإن استجاب الله

لها ، توفي بنذرها . . فتأتي إلى هنا أمام بيت المقدس مع أولادها وطحينها ؛ وصاجها ، وزعترها ، وجبنها ، وقريشها . . فتخبز طول النهار ، وأولادها يوزعون ما تخبزه على المارين هبة ونذوراً . . وإلى الجوار حاملو قرب الماء يوزعون أكواب الماء المبرد مناولةً ، وقرب زوايا البيوت عازفون يسيلون من آلاتهم الموسيقية أنغاماً آسرة ، وبقربهم صناديق خشبية وضعت عليها أجمات الورد . . راح المارون بالشوارع يستلون الورد وردةً وردةً ، وثمة عازف ناي ينفخ في نايه فتلفّه الأبصار وهو يمشي رهواً كالخيول .)

(هنا ، لا تدري ، وفي أي وقت تتعالى التكبيرات ، ودقات النواقيس ، كما لا تدري من أي الجهات تأتي الروائح الطيبة ، ومن أين يتوافد الناس ، والدراويش ، وأصحاب العربات ، والسلال ، وكيف تجري الأسواق والحارات نحو بعضها بعضاً وتتلاقى مثل السواقي ، هنا تسلم روحك للشوارع . . فتماشيك الظلال ، والأنسام ، وتباريك الوجوه التي تشبه أرغفة الخبز ، ويدور بك التلفتُ والانتباه والصحو كي تلفّك غواية المكان ، وكي تظل على مبعدة كفٍّ من غيبوبة الافتتان .)

أصارحك بأنني مدهوش ، ومسحور ، أجلس ، وأمشي ، وأنا في حذر مشتهى أتمنى أن يطول ، أشعر كأنني أرى ولا أرى ، وأحسُّ بأن ضباباً أبيض فضياً أو يكاد يغشى المدينة . . فتستدير الهالات هنا وهناك وتتعالى في مرجحة كأنها مشدودة إلى حبال خفية تحجبها الغيوم .

هنا ، لا تدري من بلل يديك ووجهك بالرذاذ النثيث ، ومن منح هذه الوجوه الطالعة من كل الأمكنة نثار الضوء ، ومن حباها بالبهجة الحالمة . . ومن أطلق طيور الحمام المتفلتة من أقفاص الهواء . . مثل الفلاحات لتمنح الدروب ، والبيوت ، والساحات ، والحقول ، والأشجار ، والمفارق ، والشبابيك . . نعمة النشور .

هنا ، تشعر بأنك كائن أثيري ، تمشي وراء حواسك مندفعاً . . تماماً

مثلما تمشي الأنهار في مجاريها هبوطاً نحو مصباتها الدانية . .

هنا . . لا شيء يفسد المكان ، أو الهواء ، أو الصفاء سوى هذه البغال السمان التي يعتليها الجنود السمان الثقال . . وقد اعتلتهم خوذ الحديد الشاحبة ، يهزون أيديهم بهرواتهم الغليظة ، وقد أُغلقت وجوههم . . لا شيء حولهم ، أو قربهم سوى الكلاب ، وسيارات الجيش ، وحواجز الحديد ولا شيء يلفهم سوى النظرات الكارهة . . يبدون مثل كتابة بالفحم آيتها السواد . . تمرُّ بلوحة زاهية الألوان . لا شيء يضيّع إيقاع الخطا ، والشوارع ، والحارات الحانية ، والأشجار ، ووداعة الطيور . . سوى نخر البغال السمان ، ونهرِ من اعتلوها .

بلى ، يبدون ، في هذا المشهد الرائق . . مثل نقطة سوداء حائرة» .

ملحوظة :

أعذرني ، أطلت عليك ، وربما أحزنتك . . فسامحني ، أنتظر رسالتك باللهفة الكاملة .

سلوان

«أعذرني ،

ما عدت قادراً على انتظار بريدك الذي لا يأتي ، لعلك على سفر ، أو أن متاعب العمل تكاثرت عليك ، أو لعل مرضاً ألمَّ بك ، لا سمح الله . اكتب إليَّ ، أو هاتفني كي تزداد الروح صفاء ، وأنا هنا ، في بلاد الضوء ، والفيء ، والدهشة الضافية .

ها أنذا ، أفتكُّ روحي من أسر أحياء القدس ، من جمال الحارات ، والبيوت ، والشرفات ، والساحات ، والأبواب ، والأشجار ، والصباحات ، والمساءات ، والناس . . وأمضي نحو نبعة سلوان ، تماماً كما قلت لي . . أمشي وسط أجمات القصب التي تحاذي الساقية الآتية قدوماً من النبعة العالية ، ساقية صافية ، غرّيدة ، تمرُّ بالبيوت كساعي البريد ، مسيّجة بأعواد القصب المتعانقة في الأعالي مثل الدوالي ، تترك خريرها العذب أمام كل بيت مقدسي تمرّ به هنا ، وقرب الشرفات موسيقى حباها الله بالوقع الرنيم . . أماشيها وكأنها طفلة تتهجى حروف الأبجدية . . فأصعد معها وقد ضاففتها البيوت ، وشجيرات الورد ، وأرى اندفاعات الماء وتقلبه بين ضفتين نظيفتين زاهيتن مثل جديلتي طفلة أفلتت للتو من بين يدي أمها الماشطة . .

هنا وقرب نبعة سلوان تتسع الأمكنة ، وتبدو أسطحة البيوت رويداً رويداً ، وهنا تبدو التلال كعش من الخضرة العابقة ، تمر بي عربات جر ،

وسيارات ، ونساء يحملن في السلال التين والرمان وأكواز الصبارة . . وجوههن أشبه بهالات الضوء التي مسَّتها الحمرة القانية . . وثيابهن المحتشدة بالتطريز أشبه بالحقول التي زينتها الألوان الآسرة ؛ يا لهذا الصباح الندي ، ويا لهذا الضوء الذي يتشكل على ريث ومهل شديدين ، ويا لوقع الخطا فوق بلاطات الحجارة السود ، ويا لتغريد الطيور الدانية . . ويا لسعادتي بهذا البكور . . ونظرات الناس تلفني ، والهمهمات تصل إليَّ بالتحية والسلام . . ويا لهذا المنظر البديع الفتان . . فها هي نبعة سلوان ، دائرة ماء وسيعة ، لمعانها يخطف الأبصار ، وحصاها سجادة ذهبية الألوان ، تتحرك صفحة الماء ، فيتحرك الحصى في تماوجات تشبه حمحمة الخيل قبل الطراد ، لكأن الماء يهمُّ بالصعود أو الجولان . . صخور وردية ندَّاهة لكأن الصباح أضاءها ، أو لكأن الضباب الأبيض الرخي خصها بالبيان . . هنا ، وحول النبعة أحواض ، وقنوات ، وحجارة ناهضة على شكل عتبات ، وأشجار تين ، وصفصاف ، وزيزفون ، وخروب ، وأجمات من القصب كيفما تمايلت تهبُّ منها أنسام شجيرات الريحان والغار والطيّون . . وحين أدنو أرى صبايا فارعات الطول يدنين جرارهن من صفحة الماء ، ثم ينهضن بها ، وما من أحد يدري هل النبعة أعطت ماءها للجرار ، أم أن الجرار استلت ماءها قطرة قطرة حتى ارتوت . . صبايا شبيهات بأعواد الخيزران . . يمضين في ذهاب وإياب ونشور واجتماع . . كأنهن الطيور ، وعربات جرّ فوقها براميل ملونة من لدائن البلاستيك . . يملؤها شبان ينشدون أغنيات وأهازيج لا يدري المرء من يخصون بها . . الماء ، أم الأشجار ، أم الصبايا القمريات .

هنا ، وقد رأيت جمال الصبايا يسيل مثل العسل من أقراص الشمع ، تذكرت الحكاية التي قصصتها عليَّ ، حكاية البنت سلوان التي أعطت النبعة اسمها ، كما أعطت المكان روحها . . أذكر أنك قلت لي . . إن القدس كانت حوضة ماء بين عديد من الجبال المحيطة بها ، الجبال التي

تبدو حين تنظر إليها أشبه بالكفوف الحاضنة لحوضة الماء الصافي . . وإن الماء هو الذي أنبت البيوت ، والأشجار ، والأعشاب ، وهو الذي شقَّ حاراتها ، وهو من سيّج شبابيكها بنباتات الحبق والريحان ، وهو الذي وزّع الدوالي المعرشة فوق عتبات البيوت ، وهو الذي فرش الحصى بكفه العريضة دروباً وساحات . . وحين نهضت البيوت ، والأشجار ، وبدت الدروب والشوارع ، انحسر الماء وغار . . ولم يبقَ من شاهد على وجوده سوى حوضة النبع الرطيبة التي ساهرها الناس لتعود بمائها . . كي تصفو الحياة ، وخاف الناسُ العطش ، والجفاف . . فكان أن انتدبت أجمل صبايا القدس نفسها ، واسمها سلوان ، كي تبيت كل ليلة قرب حوضة النبع تدعو وترجو السماء لتملأ بيدها الرحيمة حوضة النبع بالماء الزلال . . وكان لها ذلك في ليلة يضيئها قمران ، قمر يجول في السماء ، وقمر يجثو جثوة العابد قرب حوضة الماء . . وتعالى الماء حتى طفح ، فابتلَّ ثوب سلوان ، ابتل جسدها ، فتنبهت وقد رأت الماء يتعالى كالأناشيد . . فأرادت أن تشكر السماء . . فدخلت الحوضة . . وأسلمت جسدها للماء . . وما إن طلع الصبح حتى ابتهج الناس ، وقد رأوا السواقي ملأى ، والطيور تحوّم تحويمات الجذل ، والعتبات مغسولة لامعة . . ولم تكن غصة سوى افتقاد سلوان . . التي طفا جسدها فوق صفحة الماء . . مثل ورقة لا لون لها سوى لون الذهب . . وحولها تساقطت وطفت أوراق الورد ، والغار ، والطيون ، والزيزفون . . فغطت جسدها الذي لم يبن منه سوى وجهها الذي استدار حتى صار هالة تشبه هالة القمر .

بلى ، أكاد أرى جسد سلوان طافياً الآن فوق سرير النبعة . . هو الذي يضيء الماء ، وهو من يعطي للحصى لونه الذهبي الشفيف» .

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملحوظة :

حمدت الله لا لأنني لم أر البغال هنا ، ولا أصحابها . . وحسب ، وإنما لأن هذا المشهد الجميل . . لا يحتمل وطء البغال ، ولا نهر أصحابها . . الثقال . أرجوك اكتب إليَّ ، فأنا بحاجة لروحك كي ترافقني .

في الطريق إلى المغارة

«أعترف ،

أنني ما كنت أود الكتابة إليك مرة أخرى قبل أن تصلني رسالة منك ، أو قبل أن تكلمني عبر الهاتف ، ولكن ما حدث جعلني أنهض إلى ورقي كي أكتب إليك ، فأنت مرآتي ، ولابد من أن أرى نفسي فيها .

ها أنذا ، أعود من سلوان ، النبعة الوسيعة المخبأة بين أشجار الطيون والغار ، وأجمات القصب ، وقد باتت حياً من أحياء القدس ، صحيح أن لها إيهاب قرية ، وعفوية ريف تلفها ، ولكن روح المدينة شاعت فيها فشملتها . كانت ثمة مساحة واسعة مكشوفة تفصلها عن القدس ، لكن البيوت ، والأبنية العالية ، والشوارع العريضة والضيقة . . . امتدت نحوها فأخذتها شداً باليدين حتى صارت حيّاً من أحياء المدينة .

أعود ماشياً بمحاذاة الساقية التي تقودني مثل دليل إلى وسط المدينة ، وإلى جواري تماماً سور القدس الحجري الأبيض العريض يباريني وقد علته الطيور حذرة ، وجاورته الأشجار ، وقربي فلاحات يجالسن الظلال ، وقد بدت أمامهن قففٌ وسلالٌ مملوءة بالتين ، والزبيب ، واللوز ، والجوز ، والخبز . . لكأنهن مشهدٌ أو صورة في مجلة ملوّنة . أودّ الاقتراب من إحداهن لأسألها عن زبيبها ، وعن رائحة الخبز العابقة كالبخور ، لكن رجلاً عجوزاً نحيلاً ، أبيض البشرة ، بشاربين أشقرين يوقف عربته إلى جواري ، ويناديني : سيدي ، سيدي .

فألتفت إليه بكليتي ، أستدير نحوه تماماً ، فأرى بوضوح شديد عربته الخشبية الصغيرة الملونة ، وكرسي الجلد الطويل الذي يعلوها ، وأرى حصانه الأشهب الذي وقف وقفة الحيرة والانتظار . يهبط الرجل من عربته ، ويدنو مني . يسألني إن كنت راغباً بزيارة مغارة سيدنا . قلت : أية مغارة . قال : مغارة سيدنا العجيبة . قلت : أين هي؟ قال : على مبعدة من هنا ، اصعد ، سترى عجباً . ودونما إبطاء ، ودونما التفات نحو الفلاحة بائعة الزبيب والخبز ، صعدتُ العربة ، وجلست في المقعد الجلدي المريح النظيف ، تظللني واقية جلدية مزينة بصور القدس . سألت الرجل عن المغارة وأهميتها ، فقال : بدايةً ، لا بد لي من أن أقول لك شيئاً كتعريف ، أنا من ايرلنده ، واسمي جو مكملان ، جئت إلى هنا من أجل أن أقضي أسبوعاً أو أسبوعين في القدس ، وأعود إلى دبلن ، فلدي هناك أعمالي ومشاغلي ، ناهيك عن أن لي فيها عشيقة عزيزة عليَّ ، أدم قلبي حتى قبلت بي ، عشيقة تساوي في أهميتها دبلن نفسها ، وأن لي فيها صديقاً نادراً كلما عصفت بي ريح الأذى كان سياجي ، ووالدة . . كلما جفت روحي ذهبتُ إليها لأرتوي ، صحيح أنها تزوجت بعد وفاة والدي بحادثة القطار المشؤومة ، إلا أنها ظلت أمي التي تهفو روحي إليها على الدوام . يا إلهي ما أكثر أُنس الأُمهات ، وما أكبر الطمأنينة التي يمنحنها ، لكن ما إن وصلت إلى هنا ، إلى القدس ، حتى أحسست أن أعمالي ومشاغلي صارت هنا ، وأن عشيقتي التي حاولت ودّها سنوات سنوات هي هنا ، وأن صديقي النادر صار أصدقاء نادرين هنا ، وأن أمي الحنون ، اليد المباركة ، الصوت الدافئ المطمئن هي هنا أيضاً . لم يكن في الأمر غواية ، ولا غيبوبة ، وإنما كان سحراً ، فأنا لا أدري ، حتى ساعتي هذه ، من أبقاني هنا ، قلبي أو عقلي ، وكيف قضيت عمري هنا أجول في المكان فلا أشبع من رؤيته ، وأخالط الناس فلا أرتوي من محبتهم . . . أنظرُ إلى البيوت ، والشرفات ،

والعتبات ، والنوافذ . . فأراها أكثر سحراً ودهشةً في كل يوم ؛ أشعر بأن تلويحاتها تخصني بالنداء والدنو ، وأن وجوه الناس الرَّضية ، رغم الأسى والعذاب والمكاره ، تخصني برضاها ، وأن ظلال الأشجار لي ، وتحويمات الطيور هالات ضوء تحرسني ، وأن السواقي ، كيفما مشيت ، تماشيني ، وأن هفيف الأنسام يعبر قميصي للسلام والتحية ومباركة الجسد ، وأن الروائح الزكية تنثال من هنا وهناك لأجلي ، والناس يمرون بي للمؤانسة والمسرة ؛ دائماً ، وكلما فكرت بـ دبلن العزيزة تنهض جمالية القدس العزيزة ، روحانيةُ المكان ، قدسية الخطا التي مشاها سيدنا الجليل ، روائحُ البخور ، طيبةُ الناس التي يُراد الفتك بها . هنا ، وفي كل صباح ينفتح أمامي كتاب الصلوات والمحبة ، وكتاب الصبر الذي يعيش معانيه الناس ، وقد صارت المكاره التي أصابتهم أذيات وندوباً ومواجعَ أبدية ؛ دائماً ، وفي كل صباح ، أسأل السماء . . . ذراعاً أو سياجاً أو قميصاً أو سيفاً أو كلمةً تحمي هؤلاء المظلومين أهل الأرض كي لا تموت المحبة ؛ كي لا يموت السلام . أصارحك بأن وجودي هنا راح يشعرني بقيمتي ، بإنسانيتي . . . كي أناصر أهل سيدنا الناصري .

ويصمت الرجل الناحل ، فيتعالى ضجيجُ العربة الرشيقة ، وأميل نحوه ، أسأله كي لا يغرق في حزنه : أرجوك انظر إلى اليمين ، فيرفع رأسه ، وقد تلامع الدمع في عينيه ، ما هذا البرج الواسع هنا . ينظر إلى حيث أشير ، ويهمهم بصوت متهدج : إنه برج اللقلق . أسأله : برج اللقلق . فيقول : برج تعشش فيه اللقالق ، تأتي إليه في مثل هذا الوقت من كل عام كي تديم حياتها .

أسأله : وأين هي الآن ، إنني لا أراها؟ يقول بأسى : ولن تراها . لقد أتيت إلى هنا منذ أربعين عاماً ، ولم أرها . أسأله : ولماذا لا تأتي ، هل ضلّت طريقها إلى هنا؟ ، يقول : لا . أقول : إذاً ما بها؟ فيوقف العربة ،

وينظر إليّ مباشرة ، ويقول : اللقالق طيور الربيع ، طيور الطمأنينة والسلام . وهؤلاء ، ويشير بيده إلى نفر من الجنود الذين يركبون بغالهم السمينة منتظرين قربنا في أحد مفارق الطرق ، ويضيف : هؤلاء الذين يحرسون المكان بعصيهم ودويهم ودخانهم وبغالهم . . . ما داموا هنا ، لن تأتي اللقالق .

ويرخي العنان للحصان ، فتسير العربة صعوداً نحو المغارة ، ويلفنا صمت ثقيل» .

ملحوظة :

في الطريق أخبرني الحوذي جو ، أنه تعلم اللغة العربية هنا ، وأنه بات ، لعشقه لها ، يكتب بها أشعاره . . وأنه أحب فتاة من هنا ، حيّرته وعذّبته ، فحضورها وغيابها من الأسرار العواصي ، أحياناً تأتيه مثل سيل جارف ، وأحياناً تنقطع عنه مثل مطر حرون .

أصارحك بأنني ارتحت إليه ، وسررت بمعرفته لذلك رجوته أن يكون دليلي . أستاذي ، أرجوك ، اكتب إليّ لتفرح روحي .

المغارة

«يا إلهي ،

ما أجمل هذا الدرب العصي الصاعد نحو المغارة ؛ وما أبهى هذه الأشجار الحانية عليه من اليمين والشمال حتى لتكاد تأخذه بين الذراعين ، وما أطرب هذه الساقية البادية والمتخفية بين الأشجار والأعشاب ، وما أكثر لمعان هذه البلاطات الحجرية السود ، وما أوقع الموسيقى التي تتركها العربة وراءها كالنثار ، وما أبدع تحليقات هذه الطيور فوق ذؤابات الأشجار ، فوقنا ، وما أصفى صوت هذا الحوذي الذي راح يتعالى ويمتد ، ما أشجاه!!

تنهض العربة ثم تنهض صعوداً . . فتتبدى جمهرة من الناس ، وبعض المظلات المخططة ، والمحلات الخشبية الصغيرة الملونة ، فيلتفت الحوذي نحوي ، ويهتف فرحاً ، هي ذي المغارة . وصلنا . . قلت معاتباً : وصلنا إليها ، ولم تحدثني عنها . قال : المعرفة الحقّة لا تحتاج إلى تعريف . قلت : كان لابدّ من تمهيد ؛ من عتبات . قال ، وقد راح يتخيّر مكاناً فسيحاً لوقوف العربة : لذة الاكتشاف كامنة في الحدس . قلت : لكن . . ، قال مقاطعاً : عدل من الجوز المقشر لا يساوي حبة جوز واحدة تكسرها بيديك ، وتستخرج ما فيها ، قلت ونظري معلق على المغارة : يبدو أنها وسيعة . قال : ستدهش! اهبط .

فهبطت ، وهبط هو أيضاً ، وسكنت العربة خلف الحصان الأشهب

الذي أدخل رأسه في عليقة كتانية طويلة أدارها الحوذي جو نحوه ، وتعالى صخب الناس من حولنا وسط الساحة الصغيرة التي تتقدم مدخل المغارة . هزّني من ذراعي ، وقال لي : هيّا ، فتبعته ، وأنا أسوي حقيبتي فوق ظهري . بدا نشيطاً ، مثل طائر الماء ، وكأنه ظفر بي صيداً كي يريني المغارة . . مشيت وإياه ، وسط الناس ، يقودنا درب فضي نحو باب المغارة التي يعلوها تلٌ يحاول أن يكون جبلاً صغيراً . . نثيث من رذاذ المطر الربيعي الخفيف يهمي فوقنا فيبعث الانتباه والصحو فينا . أيد كثيرة تمد نحونا أوراقاً ، وكراسات صغيرة ملونة لعلها تحتوي تعريفات بالمغارة ، أنظر إليها على عجل ، فأدرك أنها مطبوعات دعاية تعرف بالفنادق ، والحمامات ، والمطاعم ، ومكاتب السيارات ، وأمكنة اللهو والسهر . . أقلبّها ، فلا أجد فيها شيئاً عن المغارة . .

فجأة تغيب الأشجار تتوارى ، ويبدو باب المغارة المقوس الوسيع ، وتتبدى الأضواء الذهبية البهّارة ، ويبدو شبان وشابات في ملابس موحدة ، نظيفة ، وملونة . . يهمهمون بأنهم أدلاء المغارة ، أحاول الوقوف عند أحدهم ، لكن يد الحوذي جو تسحبني ، فتمحو تلبثي ، أسمعه يقول لي : تعال أنا أحسن دليل لهذه المغارة . . فأتبعه باسماً . الفتاة الطويلة صاحبة الجديلتين الشقراوين التي ظنت بأنني سأكلمها . . نظرت بازدراء إلى الحوذي جو ، وقد رأته يشدني نحوه . نظرت إليها باسماً لكنها ظلت عابسة .

ها أنذا في مدخل المغارة ، وسط الأضواء الشديدة التي لا يدري المرء مصدرها ، هل هو السقف أو الجدران . . ووسط ازدحام الناس الذين رأيتهم يصلون وهم داخلون ، ويصلون وهم خارجون . . كان نظري شائحاً ، جوالاً يجوب هذه العجيبة المكانية الفريدة . . ثمة متدليات صخرية هابطة من السقف ، مشدودة إليه ، يحسبها المرء ستسقط بين لحظة وأخرى مثل نقاط الماء ، وثمة تجاويف ، ومسطحات ، وطاقات أشبه بالنوافذ ، وعتبات ،

ودرجات ، وأعمدة ، وأجران ، ومصاطب مسطحة ، وطيور حمام تجول في المغارة كأنها تبحث عن شيء ما ، كل شيء داخل المغارة وردي اللون ، الصخور ، والتجاويف ، والجدران ، والسقف الشاسع ، والناس ، حتى الطيور لولا الضوء الذهبي البهّار لما بدت ألوانها ، صمت يشوب المغارة ، فلا يسمع فيها سوى وقع الأقدام المتنقلة بحذر ، وهمس الأدلاء للزائرين . . رهبة غير عادية تظللني والآخرين ، العيون مفتوحة على وسعها ، والخطا قصيرة محتشدة بالحذر . . لكأن الجميع ينتظرون مفاجأة ما . . يأخذني الحوذي جو من يدي ، ويهمس لي ابقَ قريباً مني ، لازمني ، واستمع إليَّ . يا إلهي ، أي كلام؟! ولماذا الكلام . فهذا المرأى هو الكلام ، ولا كلام بعد هذا الكلام . البصر هنا هو الكلام ، هو البلاغة ، والترقب والحذر والدهشة والانبهار والمفاجأة كلها هي الكلام . . أحاول طيَّ خطاي كي لا تذهب بي بعيداً عن هذه النتوءات التي تتبدى على شكل أشجار ، وأزهار ، وطيور ، وأعشاب ، وسواق جارية . .

لكأن النتوءاتً استحالت هنا إلى بستان . أسمع الحوذي جو يقول لي : هنا فوق هذه المصطبة ، هنا بالضبط ، جلس سيدنا ، وحوله تحلق المريدون ، وبدأ يعظ ، كان المكان ضيقاً جداً ، والهواء ثقيلاً ، والأشواك والأتربة والحجارة تداهمهم . . وعندما نطق سيدنا قولته أيها الفقراء تعالوا إليَّ . . تعالى هدير أصوات الناس المنادية . . سيدنا سيدنا . . فذعر المريدون ، وخافوا من أن يدهمهم الناس إذا ما دخلوا ، فالمكان يضيق عليهم . . الوحيد الذي كان مطمئناً باسماً هو سيدنا . . الذي رفع يده وأشار للناس أن ادخلوا . . انظر هنا ، هنا تماماً . . أرأيت هذه هي ذراع سيدنا ، وهذه كفه ، انظر كيف ارتسمتا على الصخر . أرأيت . فأهزّ له رأسي مؤكداً ، فعلاً هذه ذراع ناحلة ، وكف أكثر نحولة ، وقد بدت أصابعها الوردية الطوال محفورة مثل أعواد الخيزران . . وأضاف الحوذي

جو : ودخل الناس يحملون مرضاهم ، واشتدَّ الزحام . . لكن المغارة اتسعت لهم جميعاً . جدرانها تباعدت ، وسقفها علا وانشق لأن رجالاً دلّوا من السقف مفلوجاً مشدوداً إلى سريره فأوقفه سيدنا في هواء السقف ، قبل أن يصل إليه ، وقال له : خذ سريرك وامش . فقام ومشى وأخذ سريره . انظر إلى السقف ، هنا ، ليس هنا ، بل هنا . . أترى السرير ، والمريض . فأهزّ له رأسي ثانية ، فعلاً أراهما ، ويقودني خطوة أبعد ، ويقول لي موضحاً : انظر هنا ، هذا هو الرّجل يمشي ، وهذا السرير خلفه . . انظر جيداً ، تمعن . فعلاً الصورة واضحة ، فالرجل يمشي والسرير يتبعه . وحين دنا الغروب خاطب سيدنا الناس : هيّا اذهبوا ، ودعوا متاعبكم لديَّ . . فمضوا ، ومضى هو نحو النهر المقدس . . تاركاً المغارة تشدّ على سعتها ورحابتها وأضوائها . . وصور ناسها . . باليدين .

ويستدير الحوذي جو ، فأستدير ، نظل نطوف داخل المغارة طويلاً ، فكلما أراد الحوذي جو إخراجي ، أرجوه أن يمهلني بعض الوقت لأنني أشعر بأنني لم أر شيئاً بعد ، فيوافقني ، أمر بما أراه مرات ومرات ، فلا أراه كما رأيته ، لكأن كل شيء هنا يتحرك ، ويدور . . أسمع الحوذي جو يقول لي : إنني خائف عليك . تعال . فأستجيب له . أراه يخرج من المغارة ، فأخرج خلفه . . وحين صعدت إلى العربة ، قلت له بهلع : انتظر ، نسيت قلبي داخل المغارة . فنظر إليَّ مبتسماً وقال : وأنا كذلك!! ومشت العربة ، فحفّ بنا اصطفاق أوراق الأشجار موسيقى لا أصفى منها ولا أحن» .

ملحوظة :

لعلك زرت هذه المغارة . أخبرني أرجوك . كي لا أظل صوتاً مفرداً في البرية .

الرامة

«أصارحك ،

بأنني أشعر بدوار خفيف .

دوخة أشبه بخلطة ألوان عبثت بها يد طفل صغير . فسمعي ليس هو سمعي ، وبصري ليس هو بصري ، وعنقي مشدودة إلى الوراء ، تُلفتني نحو المغارة ، فأديم الالتفات إليها قبل أن تغيب طيَّ غابة الأشجار المديدة ، وقبل أن تنحدر العربة أكثر في الدرب الذي راح يجاري الساقية في سقوط حر شبيه بسقوط الثلج .

أسمع الحوذي جو يهمهم ويغمغم ، ولكني لا أفهم من كلامه شيئاً . أظلُّ أرقب غروب المغارة ، تماماً كمن يرقب غروب الشمس ، ها هي ذي ظلالها النورانية تتوارى رويداً رويداً ، وتعلو الأشجار ؛ تعلو أكثر فأكثر حتى لتصير ذؤاباتها سقفاً عشبياً يظلل العربة ، والهواء ، وتغاريد الطيور ، أستدير نحو الحوذي جو . أعتذر إليه لأنني لم أكن معه ، فالخدر الخفيف لفّني ، وسحر المغارة شدّني إليها . قال باسماً : لا تقلق ؛ هذه دوخة المغارة . قلت : كيف؟ . قال : لا بدَّ من الدوخة لأن الفرق ما بين الصعود والهبوط كبير . قلت : تعني الفرق النفسي . قال : لا ، أعني الفرق ما بين هناك ، وأشار إلى المغارة ، وهنا ، وأشار إلى الدرب الذي ينحدر . فهززت رأسي له مؤمناً على كلامه . قال : أتود أن ترى ما يدهشك أيضاً أم أنك تود العودة إلى بائعة الزبيب والخبز . قلت : سامحني لأنني أشعر بالارتواء ؛ لا أريد أن

أضيف شيئاً إلى ما رأيته في المغارة . أظن أن نهاري اكتمل ، وأن الروح امتلأت . وسألته : أنت ، ماذا تريد من أجر؟ قال : أجر! ، قلت : نعم ، أجر . قال : أنا صاحب رسالة ، لا أريد أن أفسدها بالمال . قلت : لكنني أتعبتك ، وأتعبت حصانك . قال : أهمية الرسالات ليست في أعمالها وحسب ، وإنما في مشاقها . وصمتَ ، وصمتُّ . ثم سمعته يضيف : أقترح عليك أن تتريض هنا لبعض الوقت ، دعني معك . قلت : لا بأس ، ولكن لبعض الوقت فقط . قال : سندخل من ذلك المدخل ، وأشار إليه ، فقلت : لا بأس .

بدت الأشجار لامعة بنثيث المطر الخفيف ، وكأن الأغصان والأوراق تراشقت به للتو ، وبدت هالات الضوء دوائر من نور مسّه غبش طفيف ، تحوّم فيها طيور لا شغل لها سوى الرفرفةِ والزقزقة .

تميل بنا العربة في درب ناحل تسيجه شجيرات العليق ، والورد ، وتحفُّ به شجيرات الزيزفون ، خطوات فقط ، وبدت كروم العنب ، شجيرات أشبه بالعرائش والأكواخ تتوازع المكان الفسيح وقد حاذى بعضُها بعضها الآخر في قبب خضر تحركها الأنسام فتعلو وتنخفض مثل ثياب عبّتها الرياح ، ورجال ونساء وأطفال ناشطون يعشبون الأرض ، ويسقون ، ويجرّفون ، ويزرعون ، ويحملون الدلاء ويغنون . تمرُّ بهم العربة فيرفعون أيديهم بالتحية والسلام . وغناءٌ شجي يصل إلينا من عند النساء والصبايا ، وأصوات نايات الرعيان تتناهى إلى أسماعنا ، تتردد بترجيع بعيد ، يا لانتشار قطعان الغنم والمعيز ، ويا لتلك الأبقار والجواميس التي تبدو مثل نجوم في صفحة الجبل البادية ، ويا لهذه البيوت المتآخية اجتماعياً كي تصير قرية لها لافتة مكتوب عليها اسم (الرامة) ، يفجؤني الاسم ، فأسأل الحوذي : أهذه هي الرامة التي هبط إليها سيدنا ليلاً؟ التفت الحوذي نحوي ، وهمهم : الحمد لله ، بدأت الدوخة تزايلك ، قلت :

أرجوك ، قل لي أهذه هي الرامة؟ . قال : نعم هي هي .

يا إلهي ، ما لهذا اليوم الذي لا يريد أن يكتمل أو ينتهي ، وما لهذا الجسد الذي لا يريد الانطفاء ، وما لهذه الروح التي تبدي عطشها على الدوام ، أرى البيوت تقترب أكثر كلما انحدرت العربة بنا أكثر ، يقول الحوذي جو : أترى البيوت؟ قلت : إنها تضيء . قال : منذ أن دخلها سيدنا وهي تضيء . قلت : هل سندخل إليها ، قال : إن أردت . قلت : حدثني عنها . قال : كانت بضعة بيوت حجرية ، وبضعة حقول ، وطاحونة ، ومعصرة زيت ، ودرب واحد ، ووادٍ عميق ، هو هناك ، وأشار إلى حيث هي قطعان الغنم والمعيز ، وبضعة حمير وبغال وخيول ، وقطيع واحد من الغنم والبقر والمعيز والجمال . لكن . . ها أنتذا تراها ، فقد غدت البيوت القليلة بيوتاً كثيرة ، والقطيع قطعاناً ، والدرب دروباً ، والمعصرة والطاحونة طواحين ومعاصر ، والناس تكاثروا بعد أن كانوا نفراً قليلاً . وأضاف : انظرْ ، هناك إلى اليمين ، حيث هي شجيرات السدر ، هناك جلس سيدنا ومريدوه في الظلال ، كانوا جوعى ، فامتصوا قصب المص ، وأكلوا من دوم شجيرات السدرة كي يمسحوا شحوب وجوههم ، وكي لا يطلبوا من الأهالي طعاماً ؛ ها هي الشجيرات تبدو أكثر ، أترى ضخامتها ، وظلها الممدود؟ فأهمهم له بأنني أراها .

وتقترب البيوت أكثر ، يبدو مدخل القرية المظلل بقوس حجرية عالية ، يبدو أكثر وكأنه مفروش بالصوف أو القطن أو السجاد أو الخيش الملون ، أسأل الحوذي الجو ، فيقول : تريث قليلاً سترى عجباً ، وتمشي العربة ، تقترب أكثر من المدخل الذي راح يتسع على شكل ساحة ، يا إلهي ، ما هذا ، إنها أكوام من الورد ، أجل أكوام من الورد الزاهي الألوان ؛ لا ، بل هي بيادر من الورد المقطوف ، أسأل الحوذي عنها ، فيقول : هنا وفي مكانها تماماً جلس سيدنا مقابلة للبيوت ، لذلك وكي يظل المكان طاهراً لا تدوسه

قدم ، تقوم صبايا القرية في كل صباح بقطف الورد من أمام بيوتهن ، ومن أسيجة الدور ، ويأتين به إلى هنا ، يفرغن مغمقانات القش المملوءة بالورد حتى يصير الورد على هذا النحو الذي تراه كالبيادر تماماً ، وأقول للحوذي جو : لكنها تغلق المدخل ، فيضحك ، وهو يهمهم : لا ، سنمر من فوقها إلى داخل القرية ، انتظر ترَ ، وتتحرك العربة ، فيتهيب الحصان تلال الورد ، فينهره الحوذي ، فيندفع نحوها ويعبرها ، وقد أفسح الورد له طريقاً لا ضجة فيه ولا قرقعة ، فيغطينا الورد من الجانبين ، وينثال علينا ، وتمتلئ العربة به . وما إن نعبر المدخل حتى تتبدى البيوت الحجرية أكثر فأكثر ، تتبدى أسيجة الورد ، والسجاجيد المدلاة من فوق الأسطحة ، وعرائش العنب . . . فنمرُّ بها ، والناس يطلون من أبوابها ونوافذها ملوحين مبتسمين ، أرى بعضهم يقتربون من العربة ، فيرمون فيها صرراً وأكياساً وسلالاً ، أسأل الحوذي عما يحدث وقد راحت الصرر والأكياس والسلال تغمرني ، فلا يجيب ، أرى أيدي الناس تمر بالعربة فترمي صررها وأكياسها وسلالها فيها تماماً مثلما نمرُّ نحن بالبيوت فنرمي لها محبتنا ، وأرى بعض الناس يعلقون الصرر والأكياس والسلال على العربة تماماً مثلما نعلق أبصارنا على البيوت والناس والسجاجيد المدلاة من فوق الأسطحة . وتجوز العربة بنا البيوت ، فنخرج من القرية . . تاركين البيوت وناسها وورودها وسجاجيدها خلفنا ، والعربة تترنح من ثقل ما حملته ، والحصان يكاد يفقد قدرته على الجر لولا هذه الإمالة الخفيفة للدرب .

أسأل الحوذي جو وأنا أهزه بقوة : ما هذا يا سيدي ، ما الذي حدث ، ومن نحن حتى نُقابل بكل هذه المودة ، وبكل هذا الترحاب؟ فيقول : هي ذي عادة أهل القرية كلما مرَّ بها الغرباء ، أقول وأنا ألتفت نحو البيوت التي نأت : هذه ليست قرية ؛ إنها كتاب ، وأعيد بصري إلى ما هو حولي ، فأرى السلال والصرر والأكياس المملوءة بالقمح ، والشعير ، والذرة ، والكتان ،

والجلبانة ، والكرسنة ، والسمسم ، والتين المجفف ، واللوز ، والجوز ، والزبيب ، والدوم ، والحمص ، والخبز ، وجبنة القريش ، وقرون الخروب ، وحبال القنب ، والرمان ، والصوف ، والثياب ، واليقطين ، والقرع ، والبيض ، وطيور الدجاج والحمام ، والكشك ، والملح ، والزيت ، والزيتون ، والدبس ، والعسل ، والسمن ، والصمغ ، والشمع ، والصابون ، والتمر ، والهقط ، والقهوة ، والماء ، والشاي ، واللبن ، والحليب ، والفطير . . . أهتف بالحوذي : أنظر يا أخي ماذا أعطت البيوت . فيقول مصححاً : ماذا أعطى الناس . إنها المباركة التي اعتادوها ، فحين جاءهم سيدنا كانوا فقراء ، لم يعطوه شيئاً سوى أن امرأة عقدت في رسغه خيطاً من الفتل الأسود ، وعجوزاً سقاه حليباً من حليب ناقته الولود ، وصبية قدمت له إكليلاً من الورد . فقال لهم هذه مباركة مقدسة سأصونها ، واليوم . . . ها هم يقدمون هذه الأعطيات كي تظل المباركة مقدسة ومصونة .

فجأة صمت الحوذي جو ، وتوقفت العربة بصخب واندفاع ، فارتجفت الأكياس والصرر والسلال ، ومال بعضها على بعضها الآخر ، ووقع بعضها على الأرض ، وحين انتبهت رأيت نفراً من الجنود البغالة يعترضون الطريق ، يا لوجوههم المغلقة ، ويا لضخامة بغالهم . أشار أحدهم إلى الحوذي أن يهبط ، فهبط ، ثم أشار إليّ أن أهبط أيضاً فهبطت ، واقتربنا منه استجابةً لإشارة من يده ، طلب أوراقنا والتصاريح ، فناولناه أوراق التعريف ، وتصاريح المرور والجولان . نظر فيها ، ثم احتبسها داخل كفه الثخينة ، ثم طلب منا أن ننزل الأكياس والصرر والسلال من العربة إلى الأرض ، فشرعنا بإنزالها ، كمية كبيرة من الأعطيات افترشت مساحة واسعة من الأرض قرب العربة ، بدت السلال الواقفة أشبه بحراسٍ يحيطون بالصرر والأكياس . أُخافتُ الحوذي جو ، أقول له : ما أكرم أهل الرامة . ويخافتني ، فيقول : ما أقدس المباركة ، سنصونها ، ودونما انتظار ،

وحالما أفرغنا العربة ، ناولنا البغّال الضخم أوراقنا وتصاريحنا ، وطلب منا الصعود إلى العربة والمضي في الدرب المنحدر بعيداً عن الرامة ، فصعدنا ، ومشى الحصان ، فمشت العربة ، في حين ظلت الصرر والأكياس والسلال مثل حقل تُرك للصوص ، ولم نبتعد سوى خطوات فقط حتى رأينا البغال الضخمة تدوس الصرر والأكياس والسلال دونما هوادة أو رحمة ، فتعالت وقوقة الدجاج المذعور ، وتعالى هديل الحمام الحزين» .

ملحوظة :

أعترف لك ، لأول مرة ، أحس بأن قلبي يبكي ويدمع ، تماماً مثلما هي العين تبكي وتدمع ، حين رأيت حوافر البغال تقتل طيور الدجاج والحمام ، وتفسد الأطعمة ، كم أنا بحاجة إليك ، أكتب إليَّ . . . أرجوك .

ليلى

«اعذرني ،

لعلي تأخرت عليك في الكتابة ، لهذا فأنا أكتب إليك من أجل أن أبدد قلقك عليَّ ، فهل كتبت إلي كي أبدد قلقي عليك . بعد عودتي من الرامة ، وقعت طريح الفراش ، لا أدري كيف تماوت جسدي وثقل عليَّ إلى الحد الذي ما عدت قادراً على قضاء شؤوني الخاصة . جفاف في حلقي ، ورجفة في أصابعي وركبتيَّ ، وبصري يرى ولا يرى ، وخطواتي رخية باهتة ، وروحي ذائبة مثل أصابع الشمع ، لا شهية لي لطعام أو جلوس أو كلام ، كلما فتَّحت عينيَّ شعرت بالتعب ، وكلما نهضت ومشيتُ خطواتٍ فقط شعرت بالإعياء والمشقة ، لم أقو على القراءة أو التفكير أو المساءلة ، ثلاثة أيام مرَّضت نفسي بنفسي ، لم أر فيها أحداً سوى الحوذي جو الذي التقيته مصادفة عند نبعة سلوان ، فأخذني إلى مغارة سيدنا ، وقرية الرامة ، إنه يأتي إليَّ يومياً ؛ يأتي بالطعام والشراب والطبيب والأدوية ، وحين يقنط من قبولي على الطعام والشراب ، يجلس مجاورة لي ويحدثني . قال لي إنه كان كاتباً في إحدى كنائس دبلن الكبيرة ، وقد قرأ وطالع الكثير عن التاريخ المسيحي ، وقصص القديسين ، والأساطير ، وكتب الكثير من المقالات للصحف حول القديسين ، والأمكنة المسيحية المقدسة ، وقد جاء إلى القدس كي يكتب تحقيقاً عن كنائس القدس وبيت لحم ، وعن الأماكن التي وجد فيها سيدنا ، أراد أن يرسم خريطة مكانية

لجولان سيدنا ، جمع الكثير من المعلومات التي حار كيف يكتبها في تحقيق واحد أو اثنين أو ثلاثة أو عشرة ، وراح ينسقها وينقحها ويوازيها بالصور غير أنه لم يرسل أي شيء منها إلى الصحيفة التي تعاقد معها ، بل لم يغادر القدس قط ، ذلك لأنه تعرف إلى فتاة من هنا ، قال لي إن اسمها ليلى ، كانت دليلته إلى الأماكن التي رغب بزيارتها ، وإنه خلال أسبوعين من معايشته لها أحسَّ بأن حياته باتت هنا قرب هذه الفتاة التي خلبت لبه ، والتي أسماها ليلى المقدسية ، فتعلق بها ، ودار حولها مثلما يدور الفراش حول الضوء ، هي من كانت السبب وراء عدم إرسال التحقيقات إلى صحيفة الشروق في دبلن ، لقد حاول التواصل مع الصحيفة ، غير أن ليلى حالت دون ذلك لقناعتها بأن ما كتبه جدير بكتاب ، ولا تستحقه صحيفة يومية تموت عندما تولد في الصباح ، وقالت له إن مثل هذه الكتابة كفيلة بأن تجعله كاتباً مشهوراً جداً لأن أسلوبه يجعل أسطره تضيء وتشرق ، فكيف إذا كان موضوع الكتاب هو نفسه يضيء ويشرق ، وقد اقتنع جو بفكرة ليلى ، فراح ينمي اقتراحها ، ويعتني بكتابته ويكاثرها كي تصبح كتاباً ذا شأن ومكانة .

وأضاف ، أن ليلى ساعدته كثيراً في إنجاز مادة الكتاب ، فلولاها لما تهيأت الصور الساحرة للأمكنة الساحرة التي زارها ، ولولاها لما استطاع رود مكتبات قرأ في مراجعها القديمة ما أعانه على الانتهاء من مادة الكتاب التي كانت بحق غنيةً ومتميزة . وقد اعترف لي أنه وجد نفسه ، وأحس بأهميته حين أنجز مادة الكتاب وتممها ، فقرر أن يطبعه ، وأن يهديه لليلى المقدسية لأنها علة الكتاب ، ولم يفكر ، ولو للحظة واحدة ، أن يهديه لأمه ، أو لعشيقته في دبلن ؛ لا ، بل اعترف لي أنه لم يكتب رسالة واحدة لوالدته ، أو لعشيقته ، ولا لصديقه طوني الذي قال لي إنه نادر وصدوق ، فقد أغلقت عليه ليلى المقدسية ، كما أسماها ، كلَّ الدروب ،

وسيجته بعاطفة لم يرَ لها مثيلاً طوال حياته ، ومنحته من الحب ما لم يحلم به قط ، وسألت عنه ، وخافت عليه ، وفكرت به ، وساهرته . . . ما جعله يحار بهذه المرأة التي لم يعرفها إلا منذ أسابيع فقط ، هدايا ، وموسيقى ، وكلام ، وحب ، ورحلات ، وأسئلة ، وأجوبة ، وخوف ، وقلق ، واحتضان ، وطعام ، وشراب ، وسهر ، وأوقات ، ورقة ، ولطف ، ودماثة ، ومفاجآت ، وكتب ، وصور ، وأصدقاء ، وأمكنة ، وخدمات ، ومؤانسة . . . بها كلها أغلقت عليه بمفتاحها السحري ، فما عاد يرى إلا بعينيها ، وما عاد يسمع إلا بأذنيها ، وما عاد يفكر إلا بعقلها ، وما عاد يرتوي إلا برؤيتها ، لا شيء جميل ومفرح إلا بقربها . . . فالأمكنة ، والرحلات ، والأحاديث ، والزيارات ، والليالي . . . لا دهشة لها إلا بوجودها . أحسَّ أنها الطمأنينة التي كانت تشدّه إلى المكان ، وهي الروح التي تصعد به إلى الرتب والمنازل العالية ، وأنه بات مخلوقاً آخر ، فقد تغيرت دورته الحياتية ، وأنه مدين بهذا التغير لها وحدها ؛ لقد سقته ما لم يدركه من سعادة ومحبة ، وأعطته ما هو أكثر من الوجد ، أكثر من الذوبان . . . فبات أشبه بكائن أثيري يعيش على خبز المحبة ، ونداوة المودة الصافية . قال لي إنه ، وعلى الرغم من كرِّ السنوات وتتاليها ، لا يزال يشعر أن رائحتها تعشش في خلايا جسده ، وإن صورتها تتبدى بين عينيه كلما لاح طيفها ، وهيهات له أن ينساها ، امرأة ذات مشية خاصة ، وصوت خاص ، وجسم خاص ، وروح خاصة ، وصباحات ومساءات خاصة ؛ كلامها ، وهمسها ، ويقظتها ، ومنامها ، أكلها ، وشربها ، ونظرتها . . كلها خاصة وآسرة . ويبوح لي أنه لم يعرف طعم النوم ولذته إلا بقربها ، ولم يشرب قهوة أطيب من قهوتها ، ولم يرَ وجهاً أجمل من وجهها ، ولم يُسحر بقوام مثل قوامها ، ولا فتن بشعر مثل شعرها ، ولا ذاب عطشاً إلا بابتعادها .

وسألته عنها ، عن مشاعرها هي تجاهه ، فغصَّ ، ثم ابتلع ريقه ، وقال :

أوهمتني بحبها ، كانت أكبر مخادعة في التاريخ . لم أعرف ساحرة مثلها . قلت : كيف ، وهل كان الحب من طرفك فقط؟ . قال : أسرتني عندما تركت عملها وتفرغت لأجلي ، لأجل خدمتي ، ومساهرة كتابي الذي أقنعتني بإتمامه . تركت أبويها العاجزين في دار المسنين وتفرغت لرعايتي ، غسلت ثيابي ونظفتها ، وصنعت لقمتي ، وهيأت شرابي ، وسيّجتني بأحاديثها التي دارت حول عبقريتي وإبداعي ، وحول رجولتي وقدرتي الفائقة ، وحول حدسي وإشراقي ، ولكم ضبطتها وهي تنظف حذائي وتغير فراشي أسناني ، وتتخير ملابسي وألوانها ، وتنسخ كتاباتي وتصورها ، وكنس داري ، وترتب سريري ، وتبدي صوري ، وتتفقد أقلامي وأوراقي وكتبي ، لقد ظننتها ملاكاً حارساً أرسله الله لا لكي يحميني من الشرور وحسب ، بل لكي يسعدني بأيامي هنا .

قلت له : وماذا كانت تعمل؟! قال ، وكأنه يطلق طلقة في الهواء : سجّانة . قلت : سجّانة! قال : سجانة . قلت : ولديها كل هذه العاطفة ، وكل هذه الأنوثة والحساسية ، وكل هذا الجمال الذي تحدثت عنه . قال : كنت أعمى . قلت : والنهاية؟ قال : قادتني إلى السجن . قلت : السجن؟ قال : السجن! قلت : كيف؟ قال : أخذت بعض أفكاري ، وآرائي المكتوبة . . . وبها سجنتني . قلت : مثل ماذا؟ قال : قلت إن هذه البلاد ، بلاد سيدنا ، تعيش محنة وغربة ، محنة الظلم وغربة القوة والغطرسة ، وإن في هذه البلاد معامل للظلم ، والأذى ، والعدوان ، وإن دخانها هو آهاتُ أهلِ سيدنا وأحفاده ، وإن الحياة لا تحرس بالعصي والدوي والقتل ، ولا بالبغال السمينة ، ولأن البلاد ، بلاد سيدنا ، بلاد محبة . . فالمعامل ، والبغال ، وأسيادُها إلى زوال ، وإن السماء سترى ، لا بدَّ ، في مرآتها الصافية خط الفحم العريض الذي يشوّه بلاد سيدنا وألوانَ قراها الساحرة ، وإن كف الله الرحيمة ستدنو ، لا شك ، كي ترفع المظلمة القاتلة ، قلت :

وحين خرجت من السجن؟ قالت : بحثت عن ليلى فلم أجدها ، بحثت عنها في كل مكان ظننتها فيه ، ولكني لم أجدها ، سألت عنها بعض الذين عرفتني إليهم ، فما أفادوني بشيء ، بحثت عنها في السجون ، فلم أجدها ، وبحثت عنها في دور المسنين لعلي أجدها قرب أبويها العجوزين ولكن دون جدوى .

ما وجدته حقيقةً هو كتابي الذي كنت أنوي إصداره ، وجدته مطبوعاً ومنشوراً ، وفي صدر غلافه نهض أمام ناظري اسمها فغصصت ، ودارت بي الأرض . وحين تمالكت نفسي ، سألت عنها دار النشر التي أصدرت الكتاب ، فقيل لي إنهم ، ومنذ صدور الكتاب ، ما عادوا يعرفون عنها شيئاً .

وإن حقوقها ، حقوق التأليف ، أخذتها كاملة ، وإنهم منذ سنوات ، لم يسمعوا عنها خبراً . وصمت الحوذي جو وقد غشّاه الحزن والأسى ، فظللت صامتاً مخافة أن أسأله عنها أكثر فينفجر أمامي مثل بالون ، احترمت ذكرياته الحزينة فواسيته ، ورجوته ألا يعود للحديث عنها مرة أخرى ، فهزّ رأسه موافقاً ، بينما يده تدفع نحوي كأساً من عصير البرتقال البارد» .

ملحوظة :

أغرقني الحوذي بحزنه ، فسامحني إذا ما تسرّب شيء من الحزن إليك ، بانتظار رسالتك ، أكتب إلي . . أرجوك .

قلندية

«**الصديق العزيز ،**

لا أدري لماذا بريدك لا يصل إليَّ . لعل المانع خير . بتُّ أتحسب من أن تكون متوعكاً ، أو عدم محبتك لسيارتك الجديدة قد أدَّى إلى مكروه لا سمح الله . أسألك أن تبدد مخاوفي بالكتابة إليَّ كي أفتك روحي من قلقي عليك .

واعذرني لأنني أشركك فيما أراه ، وفيما أسمعه ، وفيما أعيه ، وفيما أفكر به هنا ، صدقني إن ما أراه ، وما أسمعه ، وما أفكر به لا أستطيع حمله وحدي ، لهذا فأنا أمطرك برسائلي كي تناصفني حملي .

ها آنذا أكتبُ إليك من مقهى صغير ، في بلدة صغيرة اسمها (قلندية) هي المدخل الشمالي المتدلي من الأعلى نحو القدس ، مقهى فيه بضعة كراسيّ ، وبضع طاولات ، ونادل ممصوص ، نتأت عروق رقبته وساعديه وقدميه ، ينادونه (أبو العبد) ، يدور بين الكراسي والطاولات مثل ساعي البريد ، جاءني بقهوة ، وكأس ماء ، ووردة . سألته لماذا الوردة ، فقال : للحبايب ، وابتسم لي ، فابتسمت له . جلست في المقهى منتظراً عودة الحوذي جو . لقد تركني بعد أن قال لي إنه يود الغياب عني ثلاثين دقيقة فقط . يريد أن يسأل أحدهم ، يسكن هنا في الجوار ، سؤالاً خاصاً . قلت له ممازحاً : سؤال عن ليلى المريضة ؛ فهزَّ رأسه مؤكداً ، وأغمض عينيه أسىً ، ومضى من أمامي منكمشاً كالمبلول . مضت الثلاثون دقيقة ،

وشربت قهوة النادل (أبو العبد) اللذيذة ، ووضعت الوردة في كأس الماء البلورية الصافية . ولم يأتِ الحوذي جو . حين مرَّ أبو العبد ، ورأى الوردة في الكأس ، قال ملاطفاً : ينقصك نصفك الحلو يا حلو . فشكرته باسماً .

أطال الحوذي جو غيابه ، فصارت الثلاثون دقيقة ستين دقيقة ، ولم يأتِ . فجاءني أبو العبد بفنجان ثانٍ من القهوة . قال : الأول ضيافة عمك (أبو العبد) ، أما الثاني : فهو على الحساب .

سألته ، وقد مرَّ بي عشرات المرات ، وبعد أن انصرف أكثر من زبون كانوا يشغلون أكثر من طاولة ويشغلونه : هل هذه مهنتك أو أنها أعمال إضافية . قال وهو يوافقني : خواجة ، هنا ، في هذه البلاد ، وبوجود هؤلاء (وأشار إلى نفر من الجنود يعتلون بغالهم ، ويواقفون الحواجز الحديدية) ، هنا . . . عليك أن تتعلم ألف مهنة كي تعمل في مهنة واحدة . قلت : لم تقل لي إن كانت هذه هي مهنتك . قال : هي مهنتي ما دام البغالة بعيدين عني . قلت : وما علاقتهم بك؟ قال وهو يمرجح رأسه يميناً وشمالاً : هؤلاء لهم علاقة بالطيور الطايرة ، وبدود الأرض .

قلت : أراك تدير المقهى وحيداً ، ألا يساعدك أحد . قال ضاحكاً : يا خواجة ، خمس ست طاولات لا تحتاج إلى أكثر من واحد . أبو العبد لو كانت الأيام تماشيه لكان وزيراً ، أو حاكم بنك ، أو رئيس بلدية . لكن الأيام ، ، بوجود هؤلاء البغَّالة ، طين يكاد يغرقنا .

قلت : كيف؟ قال : أتريد أن تعرف؟ قلت : نعم . فهزَّ رأسه ومضى من أمامي ، ودخل كوخه الخشبي ، ثم عاد ومعه إطار بلوري واسع ، ما إن وصل به إليَّ حتى دفعه نحوي . قال : تفضل .

فدهشت لأنه جاء إليَّ بشهادة جامعية ، شهادة بكالوريس في الرياضيات ، وقد حازها صاحبها بدرجة امتياز . قلت وأنا أنظر إليه : أهذه لك ، قال : نعم ، ها هي مؤطرة ومرمية منذ عشرين سنة ، خلالها لم أدخل

مدرسة ، ولم أقف أمام تلاميذ في صف ، ولم أدرس . أتسمعني؟ لم أفرح بحل مسألة حساب واحدة على اللوح للطلاب ، ولم أبرهن على صحة نظرية هندسية واحدة أيضاً . كل التعب مع الرياضيات ، وكل السهر ضاع لأن هؤلاء البغّالة (وأشار إلى الجنود مرة ثانية) منعوني من التدريس ، انتظرت كثيراً ، وحاولت كثيراً كي أعمل بموجب هذه الشهادة لكنني لم أفلح .

خلال تلك السنوات تدربت على الصبر يومياً كي لا يطق عقلي ، وكي أرتقي في عينيّ والدتي فألبس في يوم من الأيام قميصاً أبيض ، وحذاء أسود لامعاً ، وأحمل كتباً ، وأودعها في الصباح قائلاً : باركيني أيتها العجوز ، فأنا ذاهب إلى المدرسة . شهادة الرياضيات (الفالصو ، الستوك) البايرة هي التي قادتني إلى هذا المقهى ، إلى هذا الكوخ ، إلى جذع هذه الشجرة ، إلى هذه التلة . . كي أموت في اليوم الواحد ألف ميتة وأنا أرى ما يفعله هؤلاء البغّالة هنا على الحاجز ، ودلّى رأسه كمذنب ، فقلت : ماذا يفعلون؟ قال مردداً سؤالي : ماذا يفعلون؟ سأقول لك ، لكن لا بدَّ من الشاي ، أتشرب الشاي ، فهززت له رأسي موافقاً . فقال وهو ينهض : الشاي على حساب (أبو العبد) ، ودقَّ على صدره ، ثم أضاف : سأشرب الشاي معك يا خواجة إن أذنت لي ، فابتسمت له ، واستدار .

أصارحك ، يا صديقي ، أنني أحسست بأن الرجل يكاد يختنق أو ينفجر ، وأن حديثه مع الآخرين هو ما يجعله يستمر في الحياة ، أو هو ما يجعله يتفلت من الاختناق وينجو من الانفجار ، قربي ثلاث بطات وإوزة يتنقلن بين الطاولات ، فجأة تعالى صوت الجنود الناهرين ، فزعقت الأوزة بغضب ، ونظرت إلى الجنود ، فرأيتهم يواقفون سيارة ، ويأمرون ركابها بالنزول ، فينزلون وهم يحملون أوراقهم أو ربما هوياتهم ، وراحوا يتقدمون نحو الجنود . الجندي البغّالُ الأقرب إليهم أمطرهم بهراوته ضرباً ، ودفعاً ،

وصوته الناهر الشاتم يتعالى ، ورؤوس الركاب ، وأكتافهم ، وقاماتهم تتقاصر وتنحني كي لا تصيبهم هرواته الضاربة بمقتل . البغال تدور حولهم في حلقة مغلقة ، والبغّالون يتسابقون على ضربهم ، وصراخ الركاب راح يتعالى ، أرى الدماء تنفر من رؤوسهم ووجوههم ، تبدو بينهم امرأة طويلة ملأى تلبس ثوباً طويلاً أسود مزيناً برسوم كيفما تحركت ضربت ، راحت تصرخ وترجو وتولول ، والبغّالة لا يحفلون بها ، بل يضربونها أكثر ربما لكي تصمت . المرأة تقع على الأرض جثة هامدة ، تصير بين أرجل البغال ، أحد الركاب ينحني عليها ، الهروات تطاله ، فيرتمي إلى جوارها ، الآخرون يهرعون نحوهما ، الهروات تطالهم واحداً واحداً ودونما استثناء ، أراهم يرتمون إلى جوار بعضهم بعضاً حتى لكأن المشهد مشهدٌ لقبور متجاورة ، فالأجساد فقدت الحركة وانطفأت . هممت أن أقترب منهم ، أن أقول للبغالة شيئاً ، أن أسأل عن سبب كل هذا العنف ، غير أن النادل أبو العبد حال دون تقدمي . قال لي : أرجوك . ابق هنا . أمسك بالطاولة جيداً . قلت : لا بدَّ من عمل . قال : لا عليك ، ستأتي سيارة الإسعاف ، وتحمل عاثري الحظ هؤلاء إلى المشفى ، قلت : والمرأة؟! ربما ماتت! قال : إن ماتت سيعطونها رقماً ، رقماً ليس أكثر مثلها مثل الكثيرين . قلت : ولكن هذه البلاد بلاد سيدنا! قال : إنهم يفعلون هذا لأن البلاد بلاد سيدنا ، لهذا لا بدَّ من الصبر . ورأيته يدفع يده إلى صدره ويستعيدها وطيها صليب خشبي يكاد يلمع ويضيء ، ويضيف : هذا هو الذي يمنحنا الصبر . إنه من خشب الزيتون ، وما دام الزيتون باقياً فنحن هنا باقون .

تعالى صوت سيارة إسعاف ، فأنظر إلى ناحية البغّالة ، فأراها فعلاً ، وأرى نفراً من الذين شاهدوا ما حدث يهرعون فيحملون الجرحى إليها ، والبغال والبغّالة ينظرون إليهم فقط ، بدت وجوه المسعفين وثيابهم وأيديهم مصبوغة بالدم ، وبدت المرأة الطويلة الملأى صاحبة الثوب الأسود المطرز

أشبه بشال طويل راح يتلوى ويتدلى من بين أيديهم من كل جانب . وحين مضت سيارة الإسعاف تعالى هرج البغالة وصخبهم ، كما تعالت من عندهم موسيقى ضاجة مملوءة بالزهو والظفر .

ولم ندر كيف عدنا معاً ، أنا وأبو العبد ، إلى جوار الطاولة مرة أخرى ، قال وهو يعض على شفتيه : كنت أود أن أحدثك عما يفعله البغالة ، ولكن ها أنتذا رأيت مشهداً بسيطاً جداً من أفعالهم ، من مسرحياتهم الدامية . وهمهم وهو ينهض : أظن أن الشاي برد . سأغيره في الحال . ورأيته ينهض ويستدير ماضياً نحو كوخه ليغيب فيه ، بدت حركته بطيئة ، ورشاقته ذابلة .

صدقني ليس لدي الآن سوى فضولي الذي يأكل رأسي كي أعرف ما فعله ركاب السيارة ، ومن بينهم تلك المرأة الطويلة حتى نالوا كل ذلك الضرب العنيف المدمي ، عاد أبو العبد بالشاي الساخن ، وبصحن نعناع صغير ، وآخر فيه شرائح الليمون المدورة . قال : يا خواجة ، الحياة هنا لا تطاق ، ولكن ماذا نفعل ، وما العمل؟ على حد قولة البلشفي الجميل لينين! ليس أمامنا سوى الصبر . لعلك تعلم أن الفلسطينيين يزرعون الزيتون ، أتعرف لماذا يا خواجة؟! قلت : لماذا؟! قال : كي يتعلموا الصبر . صدقني ، إنهم يزرعونه ليس من أجل حبه أو زيته ، أو ظلاله ، لا ، إنهم يزرعونه من أجل أن يتعلموا الصبر . قلت وقد التهمني فضولي : لكن ماذا فعلوا حتى يضربوا على هذا النحو المُهين . قال : لا شيء . قطعاً لا شيء . البغالة يختلقون أتفه الأسباب كي يفعلوا ما يفعلونه ، لا بل إنهم لا يحتاجون حتى إلى أتفه الأسباب ، إنهم يتصرفون دون أن يسألوا لماذا!

فالجنود هنا أرباب (ربيون) على حدّ قولهم . قلت : ألا نستطيع سؤالهم ، قال ضاحكاً : بلى . قلت : كيف؟ . قال : السؤال ، هنا ، بصينية شاي ، والعوض بسلامتك من كاسات الشاي ، سوف يشربون الشاي ،

ويكسرون الكاسات على الصخور ، هناك ، وأشار بيده إلى الصخور التي تحاذيهم . قلت : ماذا تقول؟! . قال : سآخذ لهم صينية شاي ، وأسألهم عن السبب ، وأعود فأقول لك . قلت : ثمن الصينية ، والكاسات ، والشاي عليَّ . فقط أريد معرفة السبب . قال : حاضر يا خواجة . ونهض أبو العبد فعلاً . دخل إلى كوخه ، ثم وبعد لحظات خرج ، وبين يديه صينية شاي فيها ست أو سبع كاسات . أنظر إليه غامزاً ، ثم مضى نحو الجنود البغالة ، فسمعت أصواتهم المتداخلة ترحب بقدومه . كنت أراقب المشهد والأسى يفترش صدري مثل بقعة زيت . وحين عاد أبو العبد ، وضع الصينية داخل كوخه ، ثم مضى إلى طاولة جلس عليها ثلاثة أشخاص للتو ، سألهم عن شرابهم فأجابوه ، فعاد إلى كوخه كي يحضّر طلباتهم . فعلاً ها هو ذا يخرج ومعه ثلاثة فناجين من القهوة . وضعها على طاولتهم ، ورحَّب بهم ، ثم جاء إليَّ ، قلت : ها ، خبرّ . قال : مثلما قلت لك ، السبب تافه جداً ، وهو أن سائق السيارة ، وحين اقترب منهم ، قال لهم مرحباً ، فسألوه من أين يعرفهم حتى يسلم عليهم ، وعندما لم يجب انهالوا عليه بالهروات ، وحين خرج الركاب من السيارة لنجدته ، انهالوا عليهم جميعاً بالهروات أيضاً . قلت : أهذا سبب؟ . قال : في الصباح فعلوا الأمر ذاته ، ولكن لأن السائق تقدم نحوهم صامتاً ولم يسلم عليهم . فقالوا له ساخرين : هل هو باشا أو مختار أو وزير حتى يتجاهلهم . فانهالوا عليه بالهروات حتى كسروا ذراعيه وجمجمته . قلت : أين سيدنا؟! قال : سيدنا باعوه ثم قتلوه . ونكس رأسه مثل راية ، ثم نظر إليَّ ، وسألني أن أشرب الشاي قبل أن يبرد مرة أخرى .

قلت : شاي! أي شاي يا رجل؟!

فجأة ، دلف إلى المقهى شاب ، فنهض أبو العبد ، ومشى نحوه ، وسأله بصوت عالٍ : ها ، عبودة ماذا حدث ، قال الشاب بألم : المرأة

أجـهـضـت لأ نهـا نزفت كـثـيـراً ، ورأس أحـدهـم مـفـلوق ، في تلك اللحظة زعقت الأوزة مرة ثانية ومضت مسرعة من بين الطاولات كـأنها تنذر بمطر قادم ، عندئذٍ ، رجوت الله أن يعيد إليَّ الحوذي جو كي أمضي من المقهى قبل أن أرى مشهداً آخر للظلم» .

ملحوظة :

كم أفتقدك ، ليتك معي لتنقذ روحي مما أراه من أسى وجور ، وليتك معي لترى طيبة الناس ، فأبو العبد رفض أن يأخذ مني مليماً واحداً . قال لي : أنت ضيف على بلاد سيدنا ، وضيف سيدنا ضيفنا .

أرجوك ، أكتب إليّ كي أُنهض روحي مما هي فيه .

صباح مقدسي

«أعترف لك يا صديقي ،
أن بكاءً داخلياً يمطر في قلبي .

فما رأيته في قلندية يملأ عينيَّ أسى ، ذلك لأنني لم أتصور قط أن تكون قسوة الإنسان على الإنسان ظالمة إلى هذا الحد من الجور . ولم أتصور أن أكثر من نصف أهالي بلاد سيدنا ينتظرون على مفارق الطرق كي يعبروا نحو أشغالهم ، كي يعيشوا بعض الحياة .

هنا حواجز منتشرة في كل مكان مثل الفطر المسموم ، وهنا بغال وبغّالة واقفون على حذرهم ، ومشدودون إلى قلقهم لكأنهم اختطفوا شيئاً ، أو سرقوا شيئاً فيخافون عليه ، لا مؤنس لهم سوى أصواتهم الناهرة ، وصراخهم الضاج ، وهراواتهم الطوال ، ووقفاتهم المتجهمة المتجبرة تبدو كأنها أقفال بها تقفل الطرق ، والدروب ، والأسئلة ، والخُطا .

لم أنم كعادتي . . . لأن الهروات الضاربة ، والدماء النازفة ، وأهات الألم سيَّجتني ، فاستحالت إلى ذرات رمل خشنة ملأت جفوني .

في الصباح جاءني الحوذي جو مكتئباً ، حزيناً أيضاً مثلما تركته في الأمس ، فهو لم يعد إليَّ ، وقد غادرت المقهى وحيداً ، سألته : حمامة بيضاء أو سوداء ، فقال بأسى : حمام أسود ، غابة فحم . قلت : إذاً ، لا أخبار عن ليلى . قال مهمهماً : لا أخبار ، قلت مؤكداً : لا أخبار لا أخبار! قال : صديقها الذي ذهبت إليه لأسأله عنها قابلني بجلافة غير عادية .

قال لي لا أريد أن أسمع باسمها إطلاقاً ، دعني من سيرتها ، ولا تسألني عنها ، ولا أين هي . . . وإن كنت أتمنى أن تكون الآن في جهنم الحمراء .

حاولت أن أغير مزاج الحوذي جو ، أن أخرجه من حزنه ، فنهضت وصنعت قهوة ، رجوت الله أن تكون لذيذة ، وسألته ونحن نشرب القهوة إن كان على استعداد لكي يتناول معي صحناً من البيض المقلي . . . كافتتاح لهذا الصباح المندى بمطر الليلة الماضية . قال : لا أريد لأنني أفطرت . قلت : إذاً سأعد بعض السندويشات لنأخذها معنا . فهزَّ رأسه موافقاً .

فعلاً أعددت حقيبتي ، وتفقدت دفاتري ، وكتيبات التعريف ، ورتبت السندويشات ، وملأت الحافظة بالقهوة ، وأخذت تفاحة وبرتقالة وموزة ، وقطعة كيك محلاة . . . وأعلنت للحوذي جاهزيتي . فنهض ذابلاً منحنياً مثل شجرة صفصاف طلع عليها الصباح وهي متلبسة في عتابها الطويل المُرّ للنهر الذي ضافته .

خرجنا إلى العربة ، وصعدنا إليها ، ومشى الحصان ، فتعالى وقع أقدامه فوق البلاطات الحجرية السود موسيقى تمنح هذا الجولان الصباحي إيقاعه الملكي .

ملت نحو الحوذي ، وسألته : إلى أين؟! قال : سنبقى في القدس ، سآخذك إلى كنيسة القيامة أولاً ، ثم إلى بيت الشرق ثانياً . ثم سأتركك في مقهى ، وأذهب لأتبع سؤلي . قلت : عن ليلى . قال : عن ليلى! قلت : أتظن أنها هنا في القدس . قال : ربما ، ثم أضاف : هنا ، في القدس ، مقهى صغير فتان ، بداخله يعشش الحمام ، كانت مجنونة بارتياده يومياً ، وخصوصاً في الصباح كي تشرب قهوتها . قلت : وهل سنشرب القهوة فيه . قال : سنشرب القهوة فيه .

بدا مهموماً ، ومتألماً مثل جندي يعود من غزوة خائبة ، قلت : أتشعر ، أي هواء رضي ناعم هذا الذي يقابلنا ، وأي شروق ذهبي هذا الذي يلف

البيوت ، والشوارع ، والأشجار ، والحدائق ، والناس .

انظرْ إلى الناس الماضين في ذهاب وإياب ، انتبه لمشيتهم الراقصة ، أي عزم في خطاهم ، ألا ترى؟ كأنهم ذاهبون إلى حفلة موسيقى . قال : هؤلاء الناس يشبهون حبة الجوز ، صلابة خارجية صلدة ، وطيابة داخلية آسرة ، قلت : أقترح عليك أن نذهب إلى مقهاك أولاً لعلك تصادف ليلاك ، ومن ثم نذهب إلى الكنيسة ، وبيت الشرق . قال : حاضر ، وانحدر بالعربة ليوازي صفاً من الأشجار العالية المقصوصة بعناية شديدة ، حتى لتبدو أعاليها وكأنها مصاطب قطنية أعدت للطيور الحومة .

ساحرة القدس ، ساحرة بيوتها ونوافذها ، وأبوابها الخشبية اللامعة ، وشوارعها الوسيعة ، ودروبها التي تضيق ، وأقواسها الحجرية المنحنية مثل كف دانية فوق العابرينِ ، ساحرة حركة الناس ، والعربات ، والسيارات ، ورائعة هي الأحاديث ، والوجوه ، والتحيات ، والتلويحات ، وآسرة هي هذه الثياب المعلقة ، وتلك الشباك والسلال ، وأقفاص الطيور ، والحبال ، ومدوخة روائح البخور ، والعطور ، والزنجبيل ، والقرفة ، والحلبة ، واليانسون ، والشومر ، وجوزة الطيب ، والكمون ، والصندل ، والند ، وقشور الرمان والبرتقال والنارنج والكباد ، والورد ، والياسمين ، والغاردينيا ، والكينا ، والكولونيا ، والعنبر ، والحبق ، والريحان ، والطيون ، والغار ، والنعناع ، والعطرة ، روائح متصاعدة في الهواء الرهو ، لكأن النوافذ ، والشوارع ، والبيوت . . هي التي تطلقها ، أو لكأن الطيور هي التي تطير بها فتنشرها هنا وهناك . . .

تقف العربة ، أمام المقهى الناهض على رابية معشوشبة ، تقابلنا بوابته الخشبية ببسط ملونة تزينها رسوم لطيور البط ، والأوز ، والكراكي ، يهبط الحوذي جو ، فأهبط ، ونتقاود إلى داخل المقهى الذي راح يضيق علينا ، لكأنه مغارة متدلية من خاصرة الرابية ، نوافذ سقفية دائرية ، وأخرى

جانبية مستطيلة ، وتشكيلات خشبية بديعة ، وشموع ، وأقفاص طيور معلقة على الجدران ، مقهى طويل مستطيل . . . تتجاور طاولاته بحميمية غير عادية ، طاولات من خشب عسلي اللون تجاورها كراسي الخيزران الواطئة . . . ونادلات باسمات طويلات يتناوبن على خدمة الرواد ، مكان حميم ودافئ ، الجلوس فيه خشوع يشبه الصلاة ، فأضواء الشموع الخافتة ، يجعل الأحاديث خافتة إن لم تكن هامسة ، التفتُ إلى الحوذي جو ، وأقول له : معها حق ليلاك ، فالمكان مدهش . قال وهو يتلفت هنا وهناك : لكنها ليست هنا ، هذه الطاولة القريبة منا وأشار إليها هي الطاولة المفضلة لديها . تعال . وأخذني من يدي ، قادني نحو الطاولة ، وحين اقتربنا من شاب وفتاة يجالسانها ، اعتذر منهما ، فابتسما له ، وقال لي : انظر هنا ، وأشار بيده إلى ظهر الطاولة ، فرأيت حرفين متعانقين داخل قلب واسع محفورين على خشب الطاولة . فهززت رأسي واستدرنا . كان الحرفان الحرف الأول من اسمه ، والحرف الأول من اسمها ، وحين جلسنا ، قال لي : كم سقينا ذلك القلب من قهوة الصباح . ولكم قلت لها : قد نأتي يوماً ونراهما نبتين طالعين من خشب الطاولة . . . فتضحك . ولم نطل جلوسنا رغم جمالية المقهى وسحره البادي ، فقد شربنا القهوة على عجل لإحساسي بأن الحوذي لا يرغب في المكث أكثر كي لا تلتهمه الذكريات . . فنهضنا . . . وعند مدخل المقهى رأيته يواقف إحدى النادلات ويحدثها ، لعله يسألها عن ليلى . ابتسمت النادلة له ، وابتسم لها وافترقا ، فصعدنا إلى العربة ، ثمة غيم أبيض موشى بالرمادي يلفّ القدس ، غيم ألوف دانٍ يكاد يلامس البيوت وذؤابات الأشجار لولا الحياء ، تمشي بنا العربة ، فيقول الحوذي : سترى الآن بيت الشرق لأنه الأقرب إلينا ، قلت : وماذا يعني بيت الشرق . قال : متحف ، مختبر تاريخي ، دار كبيرة للوثائق ، والكتب ، والمخطوطات ، والصور ، والخرائط ،

مكان للمقتنيات المقدسية من حجارة، وآجر، وبلور، ولوحات، ومجوهرات، ومنحوتات، ورُقم، ومعادن، ورايات وأعلام.. باختصار هو بيت مقدسي فيه من الحصير إلى الخريطة إلى كأس الماء منذ أن كانت خشبية حتى أصبحت ما هي عليه اليوم من أشكال وتقنيات، ليضاف إلى ذلك مشهديات لطقوس الناس الاجتماعية، وعباداتهم الدينية، وصور الأعلام والمشاهير، وأهم المؤلفات والكتب المخطوطة والمطبوعة.

قلت: والداخل إليه. قال: يخرج مسروراً ومتألماً في آن، قلت: كيف: قال: سيسر بالقدرة العجيبة للمقدسيين الذين حافظوا على الذاكرة والتاريخ مثلما هم يحافظون الآن على الحاضر والجغرافية، وسيتألم ويحزن لأن كل ما حافظوا عليه سرق أو يكاد، وكل ما يدافعون عنه عرضة للانتهاب. قلت: هكذا إذاً؟ فقال وهو يوقف العربة أمام حاجز للبغالة: نعم، هكذا. هبط من العربة، فسألته: أأهبط؟ قال: لا. انتظر كي أرى، واقترب من البغالة، وأخرج أوراق التعريف والتصاريح بالتنقل وتقدم منهم، وتبادل الحديث مع أحدهم. رأيت البغَّال الأقرب إليه يرفع يده في الهواء كأنه يشير إلى أمر محسوم، فعاد الحوذي جو بوجه مغلق، وشفتاه تتمتمان بارتجافة واضحة، وحين صعد، سألته إن كنا سنهبط، فقال: لا، لقد أغلقوا بيت الشرق، ومنعوا موظفيه والناس من الدخول إليه، قلت: والعمل؟ قال: كما ترى، إنهم يحرسونه بهذه البغال السمينة، والهراوات الغليظة، والغطرسة الدائمة.

واستدارت بنا العربة، فقلت: لكأن هذه البلاد مظللة بمظلة سوداء. قال مهمهماً: ستزول. قلت: كيف؟ قال: النهارات كفيلة بها.

ومضينا في درب راح يضيق علينا بأشجاره ودواليه، وعرائش الياسمين، درب لامع تتقابل فيه البيوت مثل ضفاف الأنهار، ونساء باهرات الجمال تبدو وجوههن من النوافذ مثل المرايا، وأخريات جالسات

في الشرفات يشربن القهوة كأنهن أميرات . . . يصعد الدرب بالعربة فتعلو ، ونعلو ، ومن بعيد تبدو الكنيسة طالعة كالضوء فأسأل الحوذي : أهي كنيسة القيامة ، فيقول : إنها هي ألا تراها تضيء . قلت : أجل ، ورحت أصلي . ثم طلبت منه أن يسوي شعره ، ويمسح وجهه ، ويصلي .

فقال وهو ينظر إليَّ باسماً : حاضر .

قلت ، وقد أحسست بأن مزاجه بدأ يتغير : وماذا سنرى فيها . . . قال : عالم آسر ، بناء خرافي . رسوم مدهشة ، أيقونات تفوق الخيال ، وبشر ، وأدعية ، وصلوات لا يرتوي المرء منها ، وآباء ، لولا الحياء ، لغدوا أشجاراً ، وراهبات كتبن على أنفسهن الصلاة ، والسعي ، ومسرة الناس ، والطيبة .

قلت : وماذا أيضاً . قال : سترى الرضا هواءً يجري داخل أبهاء الكنيسة تماماً مثلما تجري الأنهار ، وسترى الطمأنينة طيوراً محوّمة في كل ما تراه ، الخبز هنا ليس كالخبز ، والزيت ليس كالزيت ، والبركة ليست كالبركة ، والصلاة ليست كالصلاة . . . هنا ، وفي هذه الكنيسة تصنع المهابةُ الفرق .

ستدرك ، وأنت تجول في الكنيسة ، أن آلافاً مؤلفة من الأيدي مرت في هذه العجائب التي ستراها ، وأن آلافاً مؤلفة من الأقدام سعت لكي يكون هذا المكان كنيسة قيامة بحق ، ستمشي مجللاً بالأمان .

يا إلهي ، ها هي الكنيسة تنهض ثم تنهض ثم تنهض ، تبدو وبكامل حجمها ، لكأنها مدينة مثقلة بالشبابيك الطويلة والأقواس الرخامية ، والأسطحة المدينة ، ها هي ذي ساحتها الخارجية وأشجارها ، وحدائق العشب ، وهذه هي أيقونة سيدنا تتصدر المدخل والقوس الرخامية ، يا إلهي لكأن الزيت يسيل منها ، وإلا ما هذا اللمعان ، وها هي ذي أجراسها النحاسية الكبيرة ، وحبالها الثخينة . . . ولكن أين هم الناس؟!

سألت الحوذي جو : أين الناس؟

فقال بأسى : انتظر . ها نحن نقترب من بغالة آخرين أيضاً .

أوقف العربة إلى جوار أشجار كينا خرافية في الحجم والامتداد والظلال ، وهبط مع أوراقه الشخصية ، واتجه نحو البغالة : هؤلاء معهم كلاب مخيفة مشدودة إلى أيديهم بسيور جلدية غليظة ، يواقف الحوذي البغّال الأقرب إليه ، يريه الأوراق ، ويحادثه ، ثم يستدير راجعاً إليَّ بوجه مكفهر غاضب ، فلم أشأ أن أسأله عن شيء . قال ، وهو يصعد العربة : الدخول ممنوع أيضاً فقلت : والسبب . قال : لهم أسبابهم ، قلت : وما العمل؟ قال : كما ترى إنهم يحرسون الكنيسة كي لا يدخل المؤمنون إليها ، يحرسونها بالبغال والكلاب ، وسيارات الجيش ، والأسلحة .

ودارت بنا العربة ، فدرنا معها ، ورحنا نهبط في طريق العودة ، قلت ، وقد أحسست بأن روحه انكسرت : خذنا إلى الطبيعة ، إلى حقول الزيتون ، إلى الظلال التي جالسها سيدنا . . . قال : لا فائدة ، هي أيضاً محروسة بالبغال والكلاب والهروات ، قلت : هي أيضاً ، قال : هي أيضاً .

بدا صوته مجرّحاً ومتهدجاً . . . وأحسست وإياه أن نهارنا كحلي أو يكاد . . فأسلمنا قيادنا للعربة ، وللحصان . . . يمشيان بنا في شوارع القدس التي راح نثيث المطر يهمي فوقها لكأنه يد الله تمسح البيوت ، والوجوه . . . بزيتها المبارك» .

ملحوظة :

كم أنا خجل منك لتكرار كلمات البغال والكلاب والهراوات الغليظة . . تصور يا صديقي العزيز بلاداً مثل بلاد سيدنا تحرسها البغال والكلاب والهروات الغليظة . صلِ لأجلي . . . كي تطيب إقامتي هنا . وأكتب إليَّ أرجوك لآنس بك .

الفتاة الجنرال

«صدقني ،

وأنا هنا في هذا المقهى الصغير الذي أحببته ، في قلندية ، عاودني خوف من أن رسائلي لا تصل إليك ، لهذا هاتفتك مرات ، لكن هاتفك لايقابلني إلا بالرنين الطويل ، ثم يتعب ويخور . . فينطفئ . إذا كانت رسائلي لا تصل إليك ، فهذا يعني أنك تشاركني القلق ، لأني قلق عليك ، ولا بدّ من أنك قلق عليَّ ، ولعل قلقك أكبر وأعظم ، فقد كنت هنا ، وتعرف البغالة وما يفعلونه ، ها هم إلى جواري لا ينفكون طوال الوقت ، يتصايحون ، ويأمرون ، وينهرون . . . هي ذي لغتهم ، وهي ذي مهنتهم . . أشعر أنهم مشغلٌ للأذى ، لا همَّ لهم سوى تربية الظلم ، وإدامة الغطرسة . .

كل بغال هنا ، يا صديقي ، يشعر بأنه ملك ، وأن الآخرين ، كل الآخرين الذين يريدون العبور من جهة إلى جهة ، هم عبيد ، أو أقل من عبيد ، ها أنذا أرى واحداً منهم ، ضخم الجثة ، يحيط نفسه بالذخائر ، ويشد إلى صدره رشاشاً مخيفاً . . . يواقف عجوزاً . يصرخ به كي يخلع ثيابه ، والرجل العجوز يرجوه ويتوسل إليه .

أسمعه يقول له : بحق ربك لا تفضحني قدام أهل بيتي ، عيب تشلحني قدام زوجتي ، وقدام الخلق . والبغَّالُ يصرُّ عليه أن يخلع ثيابه . يقول العجوز له : يا ابن الناس ، والله صار لي متزوجها ، ويشير إلى

زوجته ، أربعين سنة ، ولم تر صدري عارياً . . . ولو! والبغال بكل البرودة يأمره بأن يخلع ملابسه . أرى زوجته تتقدم من البغال ، تقول له بصوت فيه حدة وجرأة : عيب ، كل هذه البواريد ، والحواجز ، والخوف يأكل ويشرب معكم . هذا ختيار ، وأنتم جيش ، الجيش خايف من ختيار ؛ استحوا!

امرأة نمرة ، شديدة مثل عاصفة . لكن البغال الذي راح يدخن يشير للعجوز بيده كي يخلع ملابسه ، فيزّم العجوز شفتيه ، ويهزّ رأسه هزة المغلوب على أمره ، ثم يشرع بخلع ثيابه قطعة قطعة ، والبغال المسترخي في وقفته ينظر إليه باستخفاف وتعال ، في حين أرى زوجته ترفع كفيها للسماء ، وتقول بملء الصوت : ربي ينتقم منكم .

بدا جسد العجوز نحيلاً ضامراً يتلوى كأنه يبعد نظرات الآخرين عنه بتلويه ، ولم يتبق له من لباس سوى لباس السترة ، عندئذ ، يشير البغال إليه بالعبور ، فيجمع العجوز ثيابه ، ويهمُّ بعبور الحاجز ، غير أن البغال يعيده ناهراً كي يلبسها ثانية ، ومن ثم يعبر . والمرأة ، زوجته ، تسوقها جنديةٌ واقفة مع البغالة ، لعلها بغّالةٌ مثلهم ، تسوقها إلى غرفة خشبية مجاورة ، لعلها تريد منها أن تخلع ثيابها أيضاً . أظل أتابع خطو المرأة والجندية السمينة خلفها . . حتى تغيبا داخل الغرفة .

يواقفني النادل أبو العبد ، يقول لي : خواجة ، بحق هذا الصباح ، اشرب قهوتك قبل أن تبرد للمرة الثالثة ، فأبتسم له ، وأرى المرأة ، والجندية البغالة تخرجان من الغرفة ، الجندية تمشي على خطوها الرخو الباهت ، والمرأة تمشي على خطوها الناري العجول ، أسمع المرأة تقول بأسى : نحن بشر ، أهل بيوت وأدب ، استحوا . وتعبر المرأة لاحقة بزوجها الذي وقف في الجهة الثانية منكسراً لكأنما البلل أصابه ، أو لكأنما رجفة أخذت جسده فجعلته يهتز مثل قصب الذرة . أرفع نظري للسماء لأسألها الخاتمة ،

فتواجهني طيور حيرى تجول في أقفاصٍ من الهواء .

أعود إلى قهوتي فأرتشف منها ، وأبتسم ، حتى القهوة الباردة هنا لها طعم لذيذ . أنظر إلى ساعتي ، فقد واعدني الحوذي جو على المجيء . قال لي : اسبقني إلى مقهى (أبو العبد) في قلندية ، وسأوافيك إلى هناك ، وها أنذا ، ومنذ خمسين دقيقة تقريباً أنتظره ، قال لي : سنزور كنيسة القيامة ، سألته : وهل ابتعد البغالة عنها ، فقال : ابتعدوا ، اسبقني ، سأوافيك ، وها أنذا أنتظره .

فجأة ، تقترب مني فتاة شقراء ، بيضاء ، ملأى ، لا هي طويلة ، ولا هي قصيرة ، اللافت في وجهها ابتسامتها ، والإغراء الجاذب في شفتيها المكتنزتين . قالت وهي تهم بالجلوس قربي : تسمح . قلت : أسمح ، تفضلي . كانت تقصدني تماماً ، لأن الطاولات الفارغة بادية أمام عينيها ، قالت : أراك وحيداً ، قلت : لأنني وحيد . قالت : أنت من هنا ، قلت : لا من هناك ، وأشرت بيدي مطوحاً ذراعي في الهواء . قالت : من أين؟ قلت : من سان بطرسبورغ ، قالت : بلاد الليالي البيض . قلت : الليالي البيض ؛ كم أفتقدها هنا . قالت : أتشعر بغربة؟ قلت : كثيراً . قالت : لكن بلادنا جميلة ورائعة ، إنها بستان . قلت : بستان يفسده هؤلاء ، وأشرت بيدي إلى البغالة ، قالت : إنهم حراسه . قلت : لا إنهم شوكه . قالت : هل أزعجوك . قلت : ألم يزعجوك؟!

قالت : هل سمعت عن بستان لا حراس له . قلت : سمعت عن بساتين لا شوك فيها . قالت : حتى الحواكير الصغيرة بحاجة إلى فزاعات . قلت : ما أصعب أن يكون الإنسان رقيباً على الإنسان كي لا يمارس إنسانيته . قالت : أنت متحاملٌ . قلت : ألديك وقت للجلوس . قالت : جئت للجلوس إليك . قلت : إذاً ترقبي ما يفعله هؤلاء البغالة على الحاجز . قالت : البغالة ليسوا ضدي وضدك . إنهم ضد هؤلاء الجرذان ،

وأشارت إلى الناس المجتمعين . قلت : هؤلاء أهل البلاد . قالت : هم غاصبوها . قلت : لا أحد يقول هذا ، حتى التاريخ المزور لا يجرؤ على قول هذا . قالت : كتبنا تقول هذا ؛ وعقيدتنا تقول هذا أيضاً . قلت : كيف . قالت : هذه الأرض هبة من الله ، منحة . قلت : وهل أنتم يوسف يعقوب المدلل . قالت : تماماً . نحن يوسف الله على الأرض ، قلت : ألهذا تفسدون حياة الآخرين . قالت : كي نعيش بأمان . قلت : تعذيب الآخرين والتضييق عليهم ، وقتلهم ، وسجنهم . . هو أمانكم . قالت : تماماً . قلت : وأين الله؟ أين أبوته لكم ، قالت : معنا ، يرى ، ويسمع . قلت : لو كان معكم لوقفتم من دون خوف ، ولنمتم من دون قلق ، ولمشيتم من دون هلع ، قالت : الخوف صفة إنسانية . قلت : لكن الخوف عندكم جنون ، هستيري ، قالت : والاطمئنان سكينة كاذبة . قلت : لو كان الله معكم لما كان هذا السلاح معكم ، قالت : السلاح يد الله . قلت : السلاح . . . عصا الجبان ، صوت السارق ، مرآة الخائف ، قالت وهي تبتسم : أنت محاور جميل ، أريد قهوة ، فأشرت لـ (أبو العبد) فجاء مهرولاً ، وهو يدعك يديه كالمبرود ، ونظرته منكسرة ، قال : قهوتك المعتادة . . أيتها الجنرال . ورامقني غامزاً ، وهزت الفتاة رأسها . واستدار أبو العبد ، قلت لها : أنت منهم ، ومعهم . . وأشرت إلى البغالة ، قالت : نعم ، وهزّت رأسها ثانية ، فاهتز شعرها الأشقر الجميل ، ورمشت عيناها ، فعلاً لها عينان جميلتان ، لكني ما عدت أرى أي جمال فيها . قلتُ لها : يبدو أنني مراقب من قبلكم . قالت : أمر بدهي . فالأمن أكثر من أولوية لدينا . قلت : لكنكم تفسدون الحياة . تحوّلون المدن والقرى ، والطرق ، والدروب ، إلى حواجز ، ومعازل ، وسجون ، قالت : بقاء الأمن يعني بقاء الحياة ، والتهاون في الأمن يعني التهاون في الوجود . وجاءتها القهوة ، وضعها أبو العبد وانصرف . قالت : هل أعجبتك بلادنا . قلت : أعجبتني بلاد سيدنا . فابتسمت ، وقالت :

عليك أن تخرج من الكنائس ، كي ترى جمال الحياة . قلت : دروب الحياة ، خطوتي الأولى تبدأ من الكنائس ، قالت : قصدت أن تعيش الحياة الراهنة . الواقع ، قلت : كيف . قالت : لو قلت لي أين سهرت البارحة لقلت لك إن كنت تعيش في الراهن أو الماضي . قلت : سهرت في غرفتي مراجعاً ما رأيته وعشته نهاراً ، قالت : إذاً لم تذهب إلى نادٍ ليلي . قلت : لا ، قالت : إذا أنت في الماضي . . .

أُخرجْ ليلاً ، لأن بلادنا أكثر جمالاً في ليلها ، قلت : لكن النهارات وما يحدث فيها لا تشجع على معرفة لياليها . قالت : النهارات للحراسة والعمل ، والليالي للحياة والسرور . قلت : سأرى . قالت ، وقد شرعت تدخن : ماذا تعمل في بطرسبورغ . قلت : أستاذ جامعة . أُدرّسُ اللغة العربية وآدابها . قالت : أتحب العربية . قلت : كثيراً ، قالت : لماذا؟ قلت : لأنها جميلة ، وساحرة . قالت : فقط . قلت : فقط . قالت : ألك زوجة وأولاد . قلت : زوجتي ماتت بحادثة سير . قالت : روسية ، قلت : لا ، فلسطينية . صرخت : فلسطينية ، قلت : فلسطينية من مدينة عكا ، قالت : وكيف التقيتها؟ قلت : جاءت إلى بطرسبورغ كي تدرس في الجامعة . قالت : كنت تحبها . قلت كثيراً . قالت : فلسطينية وتُحَب . قلت : الحب خلق للفلسطينيات ، ألم تقرئي الأساطير الكنعانية . قالت : لا ، لم أقرأ شيئاً . الآن هل أنت متزوج . قلت : لي عشيقة . لها شعر أشقر أكثر طولاً من شعرك ، فابتسمت . وقالت : أتكتب إليها كثيراً . قلت لا ، قالت : قليلاً ، قلت : لا . . . لقد وعدتها بأن أحدثها عن زيارتي إلى هنا . . حين أعود . قالت : لكن مثل هذا لا يحدث عادة ، قلت : للأسف لديَّ طباع خاصة بي ، قالت : أتكتب انطباعاتك ، يومياتك . قلت : بلى ، قالت : أتحتفظ بها ، ألديك بعضها لأقرأه ، قلت : لا أحتفظ بها ، أرسلها مباشرة لأستاذي الذي علّمني اللغة العربية ، فهو أكثر من صديق . . . قالت :

وماذا تقول له؟ قلت : هو يعرف هذه البلاد أكثر مني . زارها مرات ومرات ، وهو من شجعني على زيارتها . لا أكتب له سوى انطباعاتي ، ودهشتي بما أراه ، وبما أسمعه . قالت : زرت المخيمات الفلسطينية ، قلت : لا ، لأنني جئت منذ أيام ، قالت : ستزورها . قلت : طبعاً ، فاعتكر وجهها ، وجرضت بريقها ، قلت : حقاً أنت جنرال ، فهزت رأسها بالإيجاب ، قلت : فتاة جميلة ، ذكية ، تلعب في الحياة دور الحارسة المؤبدة ، قالت : الحراسة قداسة ، هكذا تعلمت في المدارس . الأرض مثل قطعة جبنة في كفك ، إن تركتها للهواء تعفنت ، وإن غفلت عنها خطفها الغراب ، قلت : أهل البلاد . . غربان ، قالت : هؤلاء ليسوا أهل البلاد ، بلادهم هناك في الجزيرة العربية ، الأرض هناك واسعة ليذهبوا إليها ، فهي أقرب لديانتهم ، وقبر نبيهم . . . ليدعوا الأرض هنا لأهلها ، وليدعوا أهلها لأنبيائهم ، قلت : عجيب هذا المنطق ، قالت : كيف : قلت : وفق هذا المنطق الفرس لهم نصيب في هذا البلاد ، وللمقدونيين نصيب أيضاً ، وللفراعنة نصيب ثالث . قالت : الأمر بالنسبة إلينا مختلف . قلت : مختلف بماذا ، اقرئي تاريخ الهجرات ، كل الهجرات مهما تعاظمت لم تؤسس بلداناً ، لم تبنِ أوطاناً ، انظري للعرب في الأندلس ، ظلوا ثمانية قرون ، ثم خرجوا ، لماذا؟ لأنهم أهل هجرة . نحن في مستهل الألف الثانية الميلادية أتينا إلى هنا ، ومكثنا قرنين من الزمن ، وبنينا قلاعاً ، ومدناً ، ورسخنا الحياة بالحديد والنار والدم . . كنا أشد حراسة منكم ، كان أرناط في الكرك ، هو من يتحكم بحركة الحجيج إلى مكة . . ولكن في النهاية خرجنا . . لأننا لم نكن أكثر من هجرة . . وأنتم اليوم كذلك . قالت : نحن هجرة . قلت : أنتم أكثر هجرة بادية في التاريخ . قالت كيف : قلت : انظري إلى أبنية القدس ودروبها ، وقارنيها بهذه الأبنية القرميدية التي أنشأتموها . . ستجدين الجواب . قالت : وما هو الجواب؟ قلت : أبنية القدس لها جذور مثل

الأشجار ، وتلك البيوت القرميدية لا جذور لها . . إنها أشبه بأعشاش الطيور . . رياح رخية تأخذها . . والسلام ، بيوت القدس مبنية بأيد مطمئنة ، وتلك البيوت القرميدية بنيت بأيد خائفة ، قالت : وماذا أيضاً : قلت : الخوف والحياة لا يجتمعان ، إنهما مثل الخمر والماء . . . أحدهما يفسد الآخر ، قالت : وماذا أيضاً : قلت : أسألك كيف تنامون؟! قالت : مثل البشر . قلت : لا ، أنتم تنامون في ظلِّ الأسلحة ، وبيوتكم واقفة في الطرق وحيدة ليس في ظل الأشجار ، وإنما في ظل الأسلحة ، لماذا البشر ينامون وأحلامهم ، وأنتم تنامون وخوفكم . . قالت : لماذا؟ قلت : لأنكم آخيتم الخوف . قالت : تعجبني أفكارك . قلت : انظري إلى أي كائن في الحياة ، يشعر أن الجميع أعداؤه يكرهونه ، وينبذونه ، ويحتقرونه ، ويخافون منه ، أو لا يطمئنون إليه . . هذا الكائن كيف يعيش بالحراسة؟ وهل هو قادر على العيش والبقاء . . وإلى متى ستظل الحراسة . التاريخ يقول بأن الدعة والاسترخاء . . . آتيان لا بدّ ، فهل أنتم تنتظرونهما؟ ولم تجب ، أطفأت سيكارتها ، ونظرت إليّ نظرة عميقة ، ثم نهضت ، فنهضت ، قالت : أتأتي إلى هنا كثيراً ، قلت : أنا مراقب . وأنت تعرفين أكثر مني فابتسمت ومدت يدها مودعة وهي تهمهم : أنصحك أن ترى ليل بلادنا . وإن شئت اصطحبتك . قلت : سأرى . واستدارت كتلة واحدة ، لعلها لم تنسَ أنها جنرال ، وما إن ابتعدت وغابت ، حتى هرع أبو العبد إليَّ . وقد امتقع وجهه . قال : يؤسفني يا خواجة أنني لم أخبرك بمجيء هؤلاء إلى هذا المقهى المنحوس ، وتحرشهم بالزبائن ، والتحقيق معهم . فابتسمت له ، وقلت : أنا محتاط لمثل هذا الأمر ، فليس لدي ما أخفيه . قال : الأحسن أن تبتعد عنها ، إنها فخ ، تحاشها ، أرجوك . قلت : هات قهوة يا أبو العبد ، يبدو أنني سأنتظر وقتاً آخر حتى يأتي صديقي الحوذي جو .

واستدار ، فأطلقت البصر نحو أشجار الرصيف المتجاورة ، والمتقاربة

إلى جوار بعضها بعضاً . . . لكأنها أمضت ليلها في تقريب المسافات فيما بينها كي تشعر بعزلتها ، أشجار واقفة باستسلام وبلاهة . . لعلها تنتظر الغيوم الجوالة في السماء . . . كي تدنو بمطرها المنتظر» .

ملحوظة :

بسبب غياب الحوذي جو ، أكتب إليك الآن ، وأحمد الله أن الفتاة الجنرال ، لم تفسد مزاجي وأنا أهم بزيارة كنيسة القيامة ، سأقترح على الحوذي جو أن نمشي في درب الآلام الذي مشاه سيدنا كي أرى مواقع ركعاته وقد أثقل الصليب كاهله ، أسألك ألا تشعر بأن روحي أصابها التشقق . . أكتب إلي كي أبلها . . . أرجوك .

في درب الآلام

«سامحني ،

لأنني لم أكتب إليك منذ ثلاثة أيام ، فالحوذي جو لم يأخذني إلى كنيسة القيامة لأن البغالة عادوا مرة أخرى وأغلقوا محيطها ، وحالوا دون دخول أحد إليها سوى رعاتها ، ما أصعب أن ترى كنيسة القيامة مكاناً للطهر والعبادة ، يسيجه البغالة كي يمنعوا المؤمنين من الدخول ، كي لا تقام الصلاة ، وكي لا تشفى الأرواح .

ذهبت أمس ، برفقة الحوذي جو إلى الكنيسة . قال لي ، لقد أخطروا نقطة المراقبة القريبة من الكنيسة أن الإغلاق رفع ، وبمقدور الآخرين أن يزوروا الكنيسة ، وما إن وصلنا إلى محيط الكنيسة ، إلى شجيرات السرو العالية ، حتى رأينا انتشاراً غير عادي للبغالة . بغال سمينة تتواثب في وقفاتها ، وذيولها أشبه بالمراوح تذب عنها الذباب الذي لحق بها من اصطبلاتها ، وبغّالة سمان يتوازعون ظهورها ، وآخرون يتوازعون المداخل ، ويواقفون حواجز الحديد ، والزائرون ، يرنون من أمكنتهم البعيدة ، إلى مدخل الكنيسة . . بعض من الناس قالوا لنا : ربما يرفع الإغلاق فجأة فانتظروا ، نظر الحوذي جو إليَّ مستفسراً ، فقلت : ننتظر . لهذا أوقفنا العربة بجوار شجيرات السرو ، وجلسنا في أحد المقاهي المنتشرة أمام الأكشاك البلورية قرب الكنيسة . . أهم ما لفت انتباهي في هذا الانتظار القسري فرح البغالة وسعادتهم بمنع الزائرين من دخول الكنيسة . . نبهت الحوذي

جو ، قلت له : انظر كيف يضحكون ، لكأنهم يحضرون مسرحية هزلية ، أو لكأنهم يلاعبون أولادهم . قال : تمرنوا كثيراً حتى أصبحوا بلا مشاعر ، بلا أحاسيس . قلت : أيعد السجّان ما يقوم به عملاً . قال : بلى ، إنه ينفذ عمله كما ينفذ الكاهن صلاته!

ورحنا نشرب القهوة ، قهوة بلا طعم ، بلا معنى . . وراحت أفواج الزائرين تتكاثر حولنا ، لا سؤال لهم سوى متى يرفع المنع ، ولا غاية لهم سوى رؤية الكنيسة والصلاة فيها . كان البغالة يسدون درب الآلام الذي مشاه سيدنا . والبغال تفرغ أحشاءها ومثاناتها فوق البلاطات الحجرية التي لولا الحياء لأضاءت . . قلت وأنا أشير إليها : انظر ماذا يحدث فوق الدرب الذي مشاه سيدنا .

قال الحوذي : لكأنهم يدغدغون بغالهم كي تفعل فعلتها هذه . قلت : لماذا لا تأخذهم السماء بجريرة أفعالهم . قال : المكان في امتحان إلهي . وهممت أن أقول شيئاً إلا أن نادلة المقهى واقفتنا ، وقالت لنا : بأن الزوار شرعوا بالدخول إلى الكنيسة ، ولكن من الباب الخلفي . فنهضنا ، وقد رأينا بعض الزائرين يمضون في مسار دائري ربما لكي يصلوا إلى الباب الخلفي . وأضافت النادلة : عادة ما يلجأون إلى مثل هذا الأمر كي يقللوا عديد الناس الموجودين هنا . سألتها : وهل من المتوقع أن يرفع المنع بعد قليل . قالت : أجل . فأخذت يد الحوذي جو وأعدته إلى الجلوس ، وأنا أهمهم : دعنا ننتظر قليلاً كي نمشي في درب الآلام ، فلا معنى لدخول الكنيسة من بابها الخلفي كالخطاة .

فعلاً ، ها هم البغالة يتحركون في أمكنتهم ، بعضهم يستدير نحو الطرق الفرعية ، والدروب الضيقة ، أرى عددهم يتناقص . بعض الحواجز الحديدية تجمع إلى الزوايا ، يبدو الدرب بادياً متلوياً مثل نهر يمر بالبيوت محاذياً الأبواب والنوافذ والأشجار والأرصفة . أشير للنادلة كي تقترب .

فتضع ما بين يديها ، وتدنو مني . أسألها وأنا أشير إلى الدرب : أتظنين أن المنع رفع . قالت : انتظر ، سينادون على الناس بمكبرات الصوت .

فانتظرنا ، قال لي الحوذي جو : ما أشق الأذى . قلت : وما أتعس الأرواح العاملة عليه . فعلاً ، لحظات وتعالى صوت خشن في مكبر الصوت يقول بما معناه إن الطريق إلى كنيسة القيامة باتت مفتوحة ، وإن المنع كان بسبب معلومات وصلت إليهم تفيد بأن عملاً تخريبياً كان سيحدث في الكنيسة ، لهذا قاموا بفعل استباقي كي لا يحدث مكروه للزائرين .

قلت للحوذي جو ، ونحن نصعد العربة : أحقيقة ما يقولونه؟ قال : هذه حجة أبدية دائمة ، لقد روى لي أحدهم هنا أن ضابطاً في الجيش أراد أن يلتقي بصديقته في أثناء دوامه ، فجاء بنفر من هؤلاء البغالة ونشرهم في مدخل الحي ، وعلى مفارق الطرق ، وذهب هو إلى بيت صديقته بحجة أنه سيحقق مع السكان ما إذا كانت لديهم معلومات عن عمل تخريبي سيحدث ، وما إذا كانوا قد رأوا تحركات مريبة غريبة . . والناس ، أهل الحي ، منعوا من الدخول إلى بيوتهم طوال وجود الضابط في بيت صديقته ، والحجة أن معلومات وصلت إليهم بأن الحي مستهدف بعمل تخريبي . وأن ما يفعلونه هو خطوة استباقية ، فهززت رأسي له وأنا أهمهم : مهزلة . قال : دعنا منهم وانتبه جيداً . . من هنا ، من هنا ، من هذا المدخل تماماً . . تقدم سيدنا ، أترى ضيقه ، تقدم وعلى كتفيه صليبه ، انظر إلى الحيطان ، هذه الدوائر المرسومة ، علامات تشير إلى اصطدام الصليب بالحيطان ، انظر ، هنا ، وهنا ، وهنا ، وأضاف : سترى هنا ، قرب شجرة البلوط الخرافية ، هذه التي بدأت تدنو ، سترى ركعة سيدنا الأولى . . سترى بقعة الدم الذي نزفته ركبتاه ، انظر ، ها هي . . أترى ، أتسمعني ، كانت أصوات الطيور تشكل ضجيجاً عالياً ، فهززت له رأسي ، وأنا أنظر إلى بقعة شكلتها

نقاط الدم ، تبدو حمراء أكثر مما ينبغي ، وحولها قطع حجرية لها زرقة لامعة مرتفعة قليلاً كي لا تدوسها الأقدام ، قال انظر ، هذا هو خيط الدم ، تابع النقاط ، أتراها ، فأهزّ له رأسي . . نقاط واسعة مثل الدنانير ، قال هنا ، وبسبب تداخل البناء ، وانحراف المدخل ، اصطدم الصليب بالحائط ، فركع سيدنا ركعته الثانية ، ونقاط الدم هذه من يديه ، من رسغيه تحديداً ، فقد راحت الحبال تحزّ لحمه ، وهذه الحنفية المسيجة بألواح الرخام ، كانت عيناً للماء ، قربها ركعته سيدنا ركعة الثالثة ، فحيل بينه وبين الماء ، وشدوه جراً والصليب على كتفيه . . انظر ، هنا الحجارة متماهية ، لا حواف لها لا حدود ، هنا فسد الماء وهو محرم على المؤمنين ، لذلك لا ترى أحداً يشرب منه ، كثيراً ما رأيت ، وفي أثناء مروري هنا ، البغال وهي تشرب من هذا الماء الجاري .

ويستدير بنا الدرب ، يفضي إلى ساحة صغيرة . فيقول الحوذي جو : هذه الساحة التي اجتمعت فيها النساء المقدسيات في أثناء مرور سيدنا ، وقد تعالى بكاؤهن ، ونشيجهن متألمات . هنا مسحن عرقه ، وهنا شرب جرعة ماء . . لكن لم يحفل بهن أحد . هنا ، هنا بالضبط ، حيث هذا هو القبر . ماتت إحداهن ، حين ركع سيدنا وتدحرج ، فنزّ الدم من وجهه ، ويديه ، وقدميه وركبتيه ، وصدره . . فقد ركعت النسوة كردة فعل على ركوع سيدنا ، وتكومن بعضهن فوق بعض ، وقد لفهن الذهول ، وكانت شهيدة المشهد ، المرأة التي سقطت النساء فوقها ، وكانت أماً مرضعاً ، تركت وليدها ، وخرجت كي ترى سيدنا ، ولم تعد بالبكاء والصراخ والألم ، بل عادت بخبر موتها ، هذا هو قبرها ، وهذه الساقية التي تحيط بالقبر ، وما من أحد يعرف من أين جاءت ، وهذه هي الأعشاب كيف نمت وما من تراب هنا ، فالساحة كما ترى مبلطة بالحجارة السود ، وهذا السياج الحديدي للقبر البادي على شكل ذراعين رمز لذراعي ابنها الذي كان

يجلس معانقاً القبر بذراعيه . . انظر من هذه الشرفة الخشبية ، أتراها ، ليست هنا ، هنا ، هذه التي تدلّي طاساً كبيرة ، وكأن ملحاً أو سكراً ينهمر منها . . من هذه الشرفة رشت بنات القدس الملح على سيدنا كي تكتوي جروحه ، كي تشفى . . . وإلى جوار مخزن الغلال هذا ، أترى الطيور ، أترى هذه الألفة والطمأنينة ، هنا اصطدم صليب سيدنا بإحدى العوارض الخشبية فهوى على وجهه فدمّي فمه وأنفه وجبينه فكانت ركعته الخامسة . أترى ، نحن ندور حول الكنيسة ، صحيح أنها بادية مثل قلعة ، وأنها دانية ، إلا أننا ندور حولها كي أريك مواضع الركعات ، وكي ترى المسافة الطويلة التي مشاها سيدنا والصليب على كاهليه . . أترى هذه الفوانيس ، إنها موقدة ليل نهار . . هنا ركعة أخرى لسيدنا ، وقد نظر خلالها إلى السماء حتى كادت عيناه تخرجان من رأسه ، وقد لمع نور أضاء المنطقة كلها ، وهذه الفوانيس إشارة إلى ذلك النور . . يا إلهي ، أي درب ناحل هذا ، وأي دوران ، وأي صعود ، وأي بيوت هذه ، وأي أبواب أرى . . إنها أشبه بالأيقونات التي يكاد زيتها يسيل . . ينبهني الحوذي جو يقول لي ، هنا ركعة أخرى ، فقد اندفعت نحو سيدنا عجوز ، مسحت عرقه ، ودمه النازف ، ثم طوقت عنقه بقطعة جلد كي لا تحز خشبة الصليب عنقه . . لهذا ترى هذه البيوت وقد تدلت من نوافذها ، وشرفاتها ، وأبوابها وأسيجتها قطع الجلد تخليداً لفعل تلك المرأة الناحبة .

ها أنت الآن أمام قصر قيافا ، انظر إلى حجارته الكالحة ، ونوافذه المتدلية مثل ثياب عتيقة ، وهذا الجدار المهدم بقايا لبرج داوود ، وهذه الساحة الوسيعة المسورة تسمى ساحة الغنم ، هنا كانت تجتمع الأغنام استعداداً لذبحها وتقديمها قرابين ، وهذه العتبة ، هنا ، هنا تماماً ، كانت إحدى ركعات سيدنا ، فقد ظللته غمامة كبيرة حتى كادت تخفيه عن أعين الآخرين ، وبنداها غسلت وجهه ، وبللت شفتيه ، وهذه القبة المرتفعة

على الأعمدة الأربعة هي رمز لتلك الغمامة السماوية ، وهذا المدخل هو مدخل اصطبل سليمان ، ها أنت ترى المذاود ، والأجران الخشبية ، والحجرية . . وتشم روائح الحيوانات . . منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا والروائح منتشرة في المكان ، وقد جعلوا طريق سيدنا من هنا للمزيد من الأذى والإهانة ، وهذا الحجر الضخم الذي تراه ، هو الحجر الذي تنحى عن درب سيدنا حين كاد يصطدم به . . .

وهذه الأشجار الظليلة تحف به من جهتين كي يظل في ظل ممدود ، وقد ركع سيدنا إلى جواره ركعة طويلة بعدما أصابه الإجهاد والتعب ، وقد أغرق بالماء كي لا ينام فنهض ، لهذا أنت ترى هذه البركة ، واسمها بركة الفيض . . . وهذه الشجرة الكبيرة جداً ، شجرة خروب ، وهذه البادية منها قرونها السود ، انظر ما أكبر جذعها ، وما أطول أغصانها ، وما أجل علوها . . . هذه الشجرة تسمى شجرة العشرة ، نسبة إلى تلاميذ سيدنا ، وقد كان اجتماعهم هنا ، حين علموا بأن يهوذا باع سيدهم ، وقد تمهل سيدنا هنا ثم تعثر فركع وهناك قرب تلك المحال البادية ذات الأروقة الكتانية ، مغارة تسمى مغارة الحمام ، ها نحن ندنو منها ، لعلك ترى الحمام كيف يحوّم حولها وكأنها نبعة ماء . قلت : أرى . قال : في أثناء مرور سيدنا من أمام المغارة ، اجتمع عليه الحمام حتى غطاه ، وقيل إن الحمام سقاه وأطعمه ، وقد ظن الحرس الذين يقودون سيدنا بأن الحمام سيحمله ويطير به ، فخافوا ، لذلك انهالوا على الحمام بالضرب ، وقيل إنهم قتلوا آلاف الطيور . . وقد كانت لسيدنا ركعة اختلط فيها دمه بدم الحمام .

وأوقف الحوذي جو العربة مواجهة لدرج حجري ضيق ، وقال لي هيا نهبط ، سوف ندع العربة هنا ، ونصعد في هذا الدرج الحجري . . وصولاً إلى الكنيسة ، ورأيته يسلم العربة لرجل عجوز ، فاستدار العجوز بها كي

تواقف العديد من العربات ، والخيول التي دفنت رؤوسها في مذاود خشبية وسيعة ، وإلى جوارها رانات خشبية ، وأجران حجرية مملوءة بالماء . .

ومشينا خطوات فقط ، ولم نتسلم الدرجات الحجرية المرتبة على شكل سلم بعد ، حتى قال لي الحوذي جو . . هنا ، كانت الركعة الأخيرة لسيدنا ، فقد انهار جسده تماماً ، وبات الصليب حملاً لا يقوى جسده على حمله . . هنا جيء له بالخبز ، والحليب ، وأقراص العسل والزيتون ، والماء . . غير أنه لم يأكل شيئاً ، ولم يشرب قطرة ، وهنا قيل . . جسده خبز البشرية ، وروحه الفدية . . وأضاف : لهذا أنت ترى من حولنا أفران الخبز ، والبائعات ، كما ترى النحالين وقد جاؤوا بعسلهم من الجبال والمزارع ، كما ترى بائعات الجبن والحليب واللبن ، وبائعي الزيتون . . هنا العتبة الفاصلة ما بين الجسد والروح ، العتبة التي يسمونها ، عتبة الخلاص . .

عند عتبة الخلاص ، وقرب الدرجات الحجرية . . بدت لنا كنيسة القيامة بحيطانها النورانية ، ومدخلها الوسيع ، وأشجارها ، وحدائقها ، وساحاتها ، وقبابها ، وصلبانها النحاسية . . ورأينا الناس وهم في زهوهم ، وألوانهم ، وحبورهم . . . لكأنهم هنا . . . كائنات من ضوء ونور لا يدري الناظر إليهم من هم الداخلون إلى الكنيسة ومن هم الخارجون . . أعرف أنني أغرقتك بحديثي ، لهذا اسمح لي بأن أريحك قليلاً» .

ملحوظة :

في الطريق ، أخبرني الحوذي جو عن فتاة يعرفها ، قال لي إنها صافية مثل عين الديك ، وقد حدّثها عني ، فرجته أن تراني وتتعرف إليَّ ، أسألك ما رأيك ، وهل تظن قلبي يحتمل جولات جديدة مع النساء ، أرشدني ، أرجوك .

كنيسة القيامة

«باركني يا صديقي ،

فهأنذا وجهاً لوجه مع كنيسة القيامة ، أمشي إليها على شوقي ، وأنفاسي الحرّى . أمرغ كفي اللاهبة بأول حجر من أحجار مدخلها ، وأفتح عينيَّ على وسعهما . الآن ليس في البال خاطر ، أو صور ، أو مشاهد سوى هذه النورانية التي تفيض على روحي . . لكأنني أغتسل بضوء هذا الصباح ، ولكأن الرياح الرخية تهبُّ من هذا المدخل الحاني على الداخلين والخارجين معاً . . بناء عال ، مسوّرة قوسه بالتيجان ، والتطريزات النباتية ، أوراق ، وأغصان ، وأزهار ، ومشربيات ، وطيور ، وثمار . . كلها مجدولة مثل قبضة اليد كيما تنهض بهذا المدخل الوسيع المضيء . ثمة راهب هنا ، زاهي الثياب ، وراهبة باسمة ، أراهما يناولان الداخلين الشموع وأعواد البخور . إلى يميني معبد مار يوحنا الأرمني ، وقد التف حوله بعض المؤمنين الأرمن ، امرأة تقف في المدخل ، وبيدها حقيبة ، تقول للقيم ، معي شمع ، وزيت ، وزيتون ، وزعتر ، وورق طيون . . جئت بها من أجل مباركة الصلاة ، وطلب الرضا والمغفرة ، والقيّم يبش في وجهها ، ويدعوها إلى الدخول . وإلى جوار معبد مار يوحنا الأرمني ، معبد مار ميخائيل القبط ، صرح آخر من الرخام والمرمر ، وإلى يساري برج الأجراس الخرافي ، أجراس نحاسية كبيرة وواسعة مثل الدلاء ، وحبال غليظة ، وأخشاب عريضة بلون الجلد المدبوغ ، تحيط بها فلا تترك لها سوى نوافذ هنا وهناك ، وإلى الجوار معبد

الأربعين شهيداً ، وخلفه مباشرة بطريركية الروم ، ما أكثر الداخلين إليها ، أبنية متداخلة ، مشدودة بعضها إلى بعض ، وأخرى حانية بعضها على بعض ، وأمامي تتبدى سلالم الجلجلة الحجرية النظيفة . . فأدخل عميقاً وأنا في حيرة من أمري ، لا أدري إلى أين أذهب ، إلى اليمين أو إلى اليسار ، وما الذي أراه أولاً ، وما الذي أراه تالياً . ألتهم وجهي براحة كفي كي لا يأخذني التلفت الحائر ، أو الحذر ، أو السحر ، أو المرأى الجميل . . ها هي ذي الفوانيس الزجاجية الضخمة تتدلى فوقنا فتغمرنا بنورها ، ولولا أنها مشدودة إلى السلال النحاسية والحبال لطافت مثلنا مشياً في المكان ، وها هي ذي الأيقونات بادية مثل النوافذ على الجدران ، مثل القرى ، يكاد لمعانها يسيل على الأرض كالزيت ، وحزنها يكاد يطلق آهته الأخيرة ، شموع طويلة تراصفها شموع قصيرة تتراقص ذبالاتها على الشمعدانات الصغيرة والكبيرة كورق الشجر ، ومقاعد للجلوس ذهبية برّاقة نداهة للآخرين ، أمسح باطن كفي بها ، فأحسُّ برعشة الدفء تسري في قلبي ، راهبات ، ورهبان ، ومؤمنون يجولون في المكان هائمين لكأنهم يبحثون عن أمر ما ، أو سر ما ، أو مشهد أخير . أمشي مثلهم كالهائم على وجهي . أنسى ترتيب الأمكنة وتتاليها ، أنسى أنني مررت بها ، أنسى معالم المداخل والمخارج والساحات والأروقة . . لكأن ذاتي تمحوها كي أعود إليها . . أقف أمام حجر المغتسل ، أرى جرنين واسعين أحدهما من رخام ، وثانيهما من خشب ، وإلى جوارهما مصطبة رخامية عالية تكاد تضيء ، المدخل قوس من حجر الصوان الأبيض اللامع ، يستدير تحته جدار دائري متوسط الارتفاع ، وماء يترقرق في الأحواض كأنه الضوء ، وراهبة تواقف امرأة تبكي ، تأخذ دموعها على أطراف أصابعها ، وتبتسم لها ، ثم تقودها من يدها ، وتغيب وإياها بين الجموع . أسمع الحوذي جو يحدثني فلا أفهم من كلامه شيئاً ، يأخذني بين ذراعيه ، يدير وجهي نحوه تماماً ، يسألني ما

بي . لعله لاحظ شرودي ، فأقول له : لا أدري . فيماشيني وكفي حشو كفه ، يقول لي : انظر هنا ، دقق جيداً ، لقد أصبحنا في منتصف القوس الدائرية التي تظلل بهو الكنيسة ، هنا تماماً ، اقتسم الجنود ثياب سيدنا ، وهنا اقترعوا على قميصه . أرى تجسيداً للثياب والقميص الطويل ، ويجذبني إليه كي لا أطيل الوقوف ، أسمعه يقول :

استدر كي ترى كنيسة هيلانه ، إمبراطورة روما ، انظر إلى الأعمدة الذهبية ، وإلى الفوانيس الزجاجية المدلاة ، وإلى الخشب المشع ، أترى مرتسمات الشموع على الأعمدة ، والجدران ، والأخشاب . هنا ، استدر قليلاً ، انظر إلى هذه الأيقونات ، أترى . . كأننا في حقلٍ لعباد الشمس ، مايز الألوان ، انظر كيف يتناسل بعضها من بعضها الآخر ، وكيف يتعشق بعضها بعضها الآخر ، أترى . . أي نسيج بديع نراه ، أي سجاد نباتي هذا الذي يفترش الحيطان فيعرش مثل الدوالي ، وينحني علينا كالغمام ، انظر للأيدي ، أيدي الناس ، أترى الضوء المتطاير منها ، كيفما تحركت ، مثل الشرر ، انظر إلى الوجوه اللامعة لكأنها منداة مثل النباتات في الصباح ، ويهزني ، ويسألني : أترى ، فأهمهم له بأنني أرى دون أن أدرك بأن همهمتي صارت كلاماً ، ويمشي أمامي بعيداً عن القوس الدائرية فأتبعه ، ويستدير بنا المكان ، أسمعه يقول لي هنا صليب سيدنا ، ادنُ وانظر ضخامة الخشبة التي حملها على كاهليه صعوداً ، ها هي ذي ، انظر . . فأراها حقاً ، إنها جذع شجرة مخيف ، قشرتها الخارجية الثخينة مصبوغة بالدم ، لعلها ، وفي هذه المنطقة تحديداً ، كانت تحزّ رقبة سيدنا وكاهليه ، لأول مرة أشعر بوحشة الشجر وغربته في هذا المكان الآمن الأنيس ، وبالقرب من الخشبة ، وفوق صخرة ذات فجوات ، كالحة اللون . . إكليلُ الشوك الذي وضعوه على رأس سيدنا ساخرين ، أي شوك هذا الذي تخيّروه لهامة سيدنا ، إنه مخارز حديدية . يدور بي المكان وأنا أجول فيه ،

أرى ما لا أستطيع وصفه ، وأحار عن أي شيء أخبرك ، أتلفت حولي بحثاً عن الحوذي جو ، فلا أجده ، لعله أفلت مني ، أو لعلي أُفلت منه ، أمشي كمن يمشي نائماً .

الأمكنة تأخذني كالطرق فأماشيها مفتح العينين والقلب ، لكأن روحي مقودة بيد الرضا تتهادى هنا وهناك ، هي ذي مغارة الصليب . أسأل عنها ، فيقولون لي : إنها المغارة التي أخفوا فيها صليب سيدنا لأن صالبيه أرادوا حرقه من أجل إخفاء جريمتهم ، لهذا ، وهنا في هذه المغارة ، أخفى التلاميذ الصليب وإكليل الشوك ، والحبال ، وقطع الجلد لأنها أدوات الجريمة كي تظل شاهداً على حقدهم وخطيئتهم الأزلية .

وهذا هو القبر ، هنا وفي الجهة الغربية من الكنيسة ساحةٌ دائرية مقابلة للساحة الدائرية المماثلة لها في الجهة الشرقية من الكنيسة ، هنا مسار وسيع مبلط بالحجارة السود ، وفي وسطه القبر المقدس .

يا لهذا البيت الذي حوى جثمان سيدنا لأيام ثلاثة ، يا لهذه الوحشة المنارة بالشموع ، ويا لهذه الحيطان المزينة بالرسوم والحافة بالقبر لكأنها بستان . هنا ، وحول القبر ، يتصاعد بكاء ، وتعلو نهنهات ، وتتداخل تمتمات ، وأسى يسيل ، هنا مشهدية الظلم ، هنا دروبها وآلامها ، هنا اجتماع الرجاءات ، هنا الحزن العميم .

أعمدة رخامية طوال وعالية تواقف القبر وقفة الشهود ، وإلى الجوار هيكل مريم المجدلية . . لكأنها الآن تبدو لي وهي في جثوتها تبكي سيدنا ، وبصرها المغبّش بدمعها يرى ملاكين اثنين بثيابهما البيض يجالسانه ، الأول يركع عند قدميه ، والثاني يركع قرب رأسه ، وسؤالها المر : أين سيدي؟ جرس الألم الطويل يرنُّ في أذنيَّ . هنا ، وعلى مبعدة أمتار قليلة ، تراءى سيدنا لسيدتنا الجليلة ، طيفاهما يلوحان ها هنا كأنهما يجولان في مرآة ، وها هي ذي الجرار ، جرار الغلال ، والماء تحيط بالمكان . . أمرُّ بها فأرى

فـتـحـاتهـا تعلوني . أظلُّ أطوّف بالمكان ، أدور به ، وأواقف الحـيطان والأيقونات ، هذه إحداها ، يكاد نورها يخطف بصري ، أرى سيدنا جالساً على أرجوحة لهـا جناحـان في مرتفع سـماوي عـالٍ ، وإلى يمينه ويسـاره تلاميذه ، وقد حل القديس متّى محل يهوذا الخائن ، وفي الوسط تبدو سيدتنا ترفع يديها ، تصلي ، تماماً مثلما هو سيدنا يصلي ، فأصلي .

فجأة ، أجد نفسي وجهاً لوجه مع الحوذي جو . يسألني عن تعب قدميَّ ، وكثرة طوافي في المكان ، وصعودي وهبوطي للسلالم ، فأقول له مصارحاً : لكأنني لم أر شيئاً بعد ، فيبتسم وهو يشدني من ذراعي ، ويتمتم : تعال ، سنعود إلى هنا مرة ثانية وثالثة ، فهذه الأمكنة لا تُرى من مرة واحدة . أسأله إن كنا سنخرج ، فيقول : سنخرج . قلت : إلى أين؟ قال : تعال . وأخذني من يدي ، ومشينا إلى العتبات المفضية بنا إلى الخارج ، إلى حيث يقف راهب طويل نحيل ، وراهبة طويلة نحيلة أيضاً ، وفي يد كل منهما جرة صغيرة مملوءة بزيت الزيتون ، رأيتهما يباركان الخارجين بمسح جباههم بالزيت ، والخارجون يتركون ما بأيديهم من شموع ، وقناديل وأيقونات ، وبخور ، وصلبان خشبة ، وزجاجات زيت ، ومناديل أمنيات ، وخبز مرقوق . . في السلال الكبيرة المجاورة لهما .

يصارحني الحوذي جو قائلاً : تعال أريد الجلوس في أي مكان ، فما عدت قادراً على المشي أو الوقوف . ندنو من أحد المقاهي المحيطة بالكنيسة ، ونجلس في أدناها منا .

قلت للحوذي جو ، ونحن نشرب القهوة : يبدو أن أعراض الشيخوخة تعصف بنا . قال : أنا كذلك ، فما عدت كما كنت . لم أكن أعرف التعب حتى لو مشيت النهار كله على قدميَّ . مال ناحيتي ، وأضاف : ألديك ارتباطات مساءً . قلت : لا . قال سنزورك ، أنا والفتاة المعجبة بك . قلت : ما اسمها؟ قال : سيلفا . قلت : في المساء؟ قال : في المساء . قلت : لا ، يا

جو ، أرجوك . دعني أراها صباحاً . قال : رؤية النساء في الليل طمأنينة وأشواق . قلت : أعرف هذا ، لكن دع المرة الأولى للصباح . ونهضنا ، نقدنا النادلة ثمن القهوة ، ومضينا نحو العربة ، أعطى الحوذي جو قطعة نقدية للحارس ، وصعدنا إلى العربة التي مشت بنا مشياً هيناً دائرياً حول الكنيسة ، فرأيت ساقية جارية تماشينا مثلما يماشينا الدرب الدائري ، وأشجار عالية لها زهور زرقاء أخّاذة تبارينا وتظللنا بفيئها الندي ، وطيور حمام ، وبط ، وإوز تضافف الساقية ، ومرجة عشب برّاق يذرعها بستاني عجول ، واسع الخطا ، يدفع أمامه دولاباً صغيراً راح يقصّ بشفرته اللامعة العشب وينثره خلفه مثل نشارة الخشب . وهنا ، قرب الأكشاك الخشبية المرقشة رسامون جالسوا لوحاتهم وقد بدت ألوانها الزاهية ، بعضهم يرسمون وجوه الناس ، وبعضهم الآخر يرسمون جنبات الكنيسة ، وآخرون يرسمون المناظر الطبيعية ، وحولهم جلس بعض الناس على مقاعد خشبية طويلة ينتظرون أدوارهم في الرسم ويتأملون اللوحات ، وإلى الجوار يتناثر عازفو الموسيقى ، أسمعهم يعزفون وسط الضجة القائمة ، لكأنهم يهدهدون أرواحهم بالموسيقى الهادئة .

أقربهم إلينا ، عازف إكارديون يعزف وهو يدور حول نفسه مبتهجاً لكأن موسيقاه تلفّ به ، فيدور ، يبدو الوقت وقتاً للرضا والطمأنينة .

فجأة ، تتوقف العربة ، ويجفل الحصان ، لكأنه اصطدم بحائط أو شجرة ، أو لكأنه أحجم عن السقوط في حفرة مباغتة . . فنكص إلى الوراء ، فارتجفت العربة بنا واهتزت . . وحين رفعنا نظرنا رأينا حشداً من البغال ، والبغّالة يتقدمون . . من الجهة المقابلة ، يسدون الدرب علينا ، ويطلبون منا العودة والاستدارة والابتعاد عن المكان ، فنستدير بالعربة دونما كلمة ، ونرى الجميع يتراجعون إلى الوراء دونما كلمة ، وتصمت الموسيقى ، ويفر الحمام ، وتتوارى طيور البط والإوز ، ويغيب العازفون ، ويختفي

البستاني ، والرسامون ، والناس . . فلا يبقى في المشهد سوى الكنيسة ، والساقية ، والأشجار ، والظلال . . وقولة الحوذي جو : معهم لا أمان . وأشار إلى البغالة . ونمضي بعيداً عن المكان مبللين بالأسى والخذلان» .

ملحوظة :

لم أنم ليلتي ، مع أن جسدي مهدود ومتعب ، لهذا كتبت إليك على عجل . أصارحك بأنني فكرت بـ سيلفا التي حدثني عنها الحوذي جو . . . سأكتب لك عنها ، لعلك تكتب إليّ راشداً .

مكتبة
t.me/soramnqraa

سيلفا

«ها أنذا ،

أكتب إليك ، كي أفي بوعودي ، فقد جاءني الحوذي جو ومعه سيلفا . ابتسمت له ، وقد رأيته يبتسم ، فهو لم يوافقني على رأيي ويأتي بها في الصباح كي نتعارف ، وإنما خالفني في الرأي وأتى بها ، كما أراد هو ، في المساء .

لم أر أحداً في حياتي سواي مفتوناً بالمساءات مثل الحوذي جو ، ولكم حدثني عنها وأطال ؛ فالمساءات عنده كائنات شفيفة مثل ورق الورد ، فعلاً ، المساءات هي الضوء ، أوقات للطمأنينة ، والهدأة ، والسكينة ، ومجالسة الذات ، والتأمل ، والتشوف ، أوقات رخية يجول المرءُ فيها كيفما يشاء . فهي مرآة أكثر صفاءً وضوءاً من أي مرآة أخرى ، فالمساءات هي خلاص الجسد من سموم النهارات وأذيات الآخرين ، وسطوة الأمكنة ، وأنانية الكلام ، وهي رواء الروح بالأشواق والأمنيات ، والأحلام ، وهي طائر الخيال المشتهى ، والدرب الملكي المفضي إلى النائيات البعاد ، وهي البصيرة التي تتكلم حين يغدو الصمت سلطاناً ، وهي الخطا التي تمشي بنا في هجعة الليل ، وهي نداوة الروح وقد انثالت عليها الصور والمشهديات ، وهي اليد الحنون التي تمسح الجسد كي يهدأ وينام . وهي النساء ، وذبالات الشمع ، هي بهجة القناديل ، ودفء الأكف ، ورجفة الأهداب ، ومفاتيح المعاني ، وهي وسادة الرجاء ، ومطر العزلة الألوف ، هي المطهر ؛ بلى

وجدت في الحوذي جو رجلاً مجنوناً مثلي بالمساءات لكأنها دنيانا ، ولا شيء عداها .

جاءني ، ومعه سيلفا ، امرأة كرهجة الضوء ، رمح قصب ، فرس أو تكاد ، وجهها مصقول كالمرآة ، وشعرها كثيف كغابة ، وقدها طويل يتثنى على مهل كالدروب . كنتُ وقبل دخولهما ، قد أضفت فوضى شعري ، وثيابي ، وذقني ، وأوراقي إلى فوضى غرفتي العجيبة ، لذلك اعتذرت من الحوذي جو ، ومن الجميلة سيلفا ، وقلت لهما إن حضورهما مفاجأة جميلة في مساءٍ جميل ، وغمزت بعيني الحوذي جو ، فقال : لا عليك ، سيلفا تعرف أنك لم ترغب برؤيتها مساءً . وقد وافقت على ذلك ، لكنني شجعتها على المباغتة ومداهمة الأعداء بالمحبة الصافية ، بدوت أمامهما مثل صبية خجول تحار ماذا تفعل بفوضاها وقد باغتتها صديقتها الحميمة بزيارتها الأولى المفاجئة ، أخذت معطفي ، وقبعتي ، وبعض قمصاني . . وعلقتها ، رفعت صحن الفواكه ، وبعض علب البسكويت ، أخفيت الزجاجات داخل الخزانة ، رتبت أوراقي فوق الطاولة ، واريت مناشفي داخل الحمام ، وسويت البطانية واللحاف فوق السرير ، وعدت بإبريق القهوة والفناجين ، وكأس الماء إلى داخل مطبخي الصغير ، رأيت سيلفا تساعدني . أخذتْ برنس الحمام إلى الحمام ، فغصَّ قلبي فأنا لا أدري ما هي حال الحمام هناك ، وعادت فأخذت صحن السكائر وإبريق الماء ، وسلة الخبز . . إلى المطبخ ، المطبخ هو أيضاً فوضى لا أول لها ولا آخر ، على باب المطبخ ، وقرب المرآة التقينا ، أخذتني من كتفي ، وقالت لي : انظر ، وأشارت إلى المرآة حيث بدونا ، أنا وهي ، ثم أضافت : . . انسجام موسيقي ، فابتسمت لها مثلما ابتسمت لي . رأيتها حين دلفت إلى المطبخ تغمس إصبعها فيما تبقى من قهوتي في فنجاني الكبير وتتذوقها ، وتهمهم : ما أطيبها . ثم تغمسها ثانية وتمسح بها على شفتيَّ وهي تقول :

تذوقها . فأخذتها بطرف لساني ، وودت أن أقول لها إنها طيبة بالفعل ، لكنها فاجأتني بقبلة كالبرق على طرف خدي ، واستدارت ، وهي تتمتم : هكذا صار المذاق أطيب . فأدهش من جرأتها ، ويرتج عليَّ ، وأنا أراها تمضي إلى حيث هو الحوذي جو . يا إلهي أي سيلفا هذه ، وأي افتتاحية لهذا المساء لم أكن أتوقعها . أقف متنبهاً للحظات . . فأدرك أنها عرفت ما في البيت خلال دقيقتين أو أقل ، وأنها استولت عليَّ خلال دقيقتين أو أقل أيضاً . آخذ وجهي براحة يدي كي أخرج من دهشتي ، وأعود إليهما ، كي أنهي ما تبقى من فوضاي ، فأراهما يتضاحكان . لعلها قالت للحوذي جو بأنها أجهزت عليَّ . يبادرني الحوذي جو قائلاً : اسمع سيلفا ، تقول إنك رائع تماماً كما حدّثتها عنك . فأحار ماذا أقول ، وأبدو أمامهما مبلولاً بحيرتي ، يهامسها الحوذي جو : انظري إليه . . كيف احمرّ وجهه مثل وردة . لكأنه لم يغادر طفولته بعد ، فتقول هي : هذا هو المطلوب ، أريده قطاً مغمض العينين كي أريه دروبي وعالمي ، وكي أغلق عليه بمفتاحي الخاص .

أنتشل نفسي مما أنا فيه ، فأسألهما : قهوة . فيقول الحوذي جو مؤكداً : قهوة ، قهوة . وتقول سيلفا : أنا من سيعدها ، ولكن تعال معي لترشدني إلى البن والفناجين والملاعق ، وتأخذني من يدي دونما إمهال ، فأجاريها تاركاً الحوذي جو يقهقه عالياً ، وصوته يتعالى : وقعت في خلية نحل .

تبدو سيلفا وكأنها الهواء الرهو الذي أراح نفسي ، فأشرقتُ ، وقد مست جسدي خفةٌ لم أعهدها من قبل . أراها إلى جواري كائناً بحرياً بهذا الثوب النيلي الشفيف البراق الكاشف عن صدرها ، وذراعيها ، وساقيها . . تبدو مثل حبة اللؤلؤ وقد تركت معطفها على ذراع الكرسي ، يا لهذا القوام ، ويا لهذه الأنوثة الفياضة . . قارورةٌ مملوءةٌ بالضوء . أواقفها للحظات وقد أشعلتني حرارةُ كفها . وأقول لها : هنا البن ، والسكر ، وهنا

الفناجين والملاعق ، وكاسات الماء . وهذه هي الملعقة الطويلة ، وهذا هو الموقد . . كانت تنظر إليَّ ، وبيني وبينها خطوة أو تكاد ، فتقدمتها نحوي ، فصرنا جسداً واحداً واقفاً في فضاء لا أرض له ، لا اتجاهات . . أخذتها إليَّ ، وأخذتني إليها فصرنا غيمة تجول في فضاء لا حدود له ، ولم أفلت نفسي منها ، ولم تُفلت نفسها مني . . إلا وقد سال عسلها على شفتيَّ . . مررنا بلحظات من الغيبوبة والخدر . . ثم شطرتنا شطرين ، مضت هي إلى القهوة ، ومضيت أنا إلى الحوذي جو ، وقد أشرقت عيناي ، والرجفة بادية في كفيَّ وشفتيَّ . وقلت له : فاجأتني . فقال : هي أرادت أن تراك وأنت في فوضاك . قلت : طباع النساء مثل طباع المطر . قال : كيف رأيتها؟ قلت : بات النبع في بيتنا . قال : هي أكثر من نبع . امرأة مجنونة بالقراءة ، وحب الآخرين ، والسفر . روح عطشى للمعرفة والجولان والسؤال .

حدثتها عنك طوال الأيام الماضية ، ولم أكف عن ذلك إلا عندما قالت لي : بتُّ أعرفه ، خذني إليه ، فجئناك . قلت : بطبعي لا أحب المفاجآت . صحيح أنا فوضوي في بيتي ، لكنني أحترم المواعيد . قال : لكن هذه مفاجأة جميلة . قلت : فعلاً هي مفاجأة جميلة . قال : يبدو أنك أعجبت بها . قلت : ما أجمل النساء في المواعيد الأولى . وهزَّ رأسه ، لكأنني نكأت له جرحاً ، لذلك حاولت استرداده ، فقلت له : وماذا تعمل؟ قال : سيلفا . قلت : سيلفا . قال : باحثة اجتماعية . قلت : في المدارس . قال : لا ، في السجون . قلت بصوت مرتفع : في السجون؟ هذا الجمال موجود في السجون . قال : في السجون . وتعالى وقع حذاء سيلفا القادم نحونا فوق البلاط .

فقلت للحوذي جو : الموسيقى قادمة . قال : أخاف عليك من الغرق . ولم أجب ، فقد دلفت سيلفا تسبقها رائحتان ، رائحة عطرها ، ورائحة القهوة . بدا عقدها الأصفر ، وكلما خطت ، يرفُّ مثل الطيور فوق صدرها

الممتلئ الرجراج . دنت ، ثم انحنت كي نأخذ القهوة ، فبان بياضها المشوب بالحمرة الآسرة . . يا لهذا الدنو ، ويا لهذه الانحناءة ، وجالستنا ، وهي تقول : ما أبسط هذا المكان ، لكأنه عش طير . فعلق الحوذي جو : عش باز خطير . قالت : أريده عشاً لروح آمنة . قلت مجاملاً : باتت الآن آمنة . قالت : كيف؟ قلت : بات لها ، الآن ، ملاكٌ يحرسها ، فضحكت ، وضحك الحوذي جو ، ونهض واقفاً ، وقال ممازحاً : بعدما التقيتما ، أظن أنه لا أهمية لوجودي ، فاسمحا لي ، وود أن يخطو نحو الخارج ، فسددت طريقه بذراعي القريبة منه ، وأخذنا الحديث ، واستغرقنا الوقت إلى ما بعد منتصف الليل ، وحين خرجا مودعين ، أخذتني سيلفا بين ذراعيها ، وشدتني إليها وقبّلتني ، وحين تباعدت عني أحسست برجفة قلبي . . ومضت تهبط السلالم الخشبية خلف الحوذي جو الذي تعالى صوته : لا أظنك ستنام ، ولكن غداً في الصباح ، جهز نفسك ، وطعامك ، وشرابك ، وأحضر كوباً إضافياً لـ سيلفا . ولا تنس معطفك ، فالصباح ماطر لا شك .

وغابا في العربة التي استدارت بهما في المنحدر . بدوت واقفاً مثل حارس حقل الشوفان ، وحيداً لا أقوى على الحركة في أعلى درجات السلم . ولم أدخل إلا عندما سمعت العجوز أم أهارون التي أجرتني إحدى غرف بيتها ، تقول لي : بدأ الآخرون يأتون إليك ، ولم نتفق على هذا . قلت لها : هذه زيارة على عجل ، صديقان تعرفت إليهما هنا . واستدرت دون أن أدري من أين نبتت العجوز في هذا الليل الغامض ، ودون أن أدري ماذا قالت أيضاً . وحين دخلت ، واقفت مرآتي الطويلة ، واستعدت مشهد الوداع ، وأخذ سيلفا لي بين ذراعيها ، ورضابها يمسح شفتيَّ ، فمرّرتُ أصابعي على شفتيَّ . . كانتا في ارتجافتهما الأخيرة ؛ لحظتئذ لم يكن في البال سوى رؤيتي لـ سيلفا في الصباح رفيقةً لي أحوّم وإياها والحوذي جو مثل الطيور كي نعرف الأمكنة ، والناس ، والآتي من الأيام . قالت بأنها

ستأخذنا في رحلة حميمة أسمتها رحلة الأصدقاء ، وجلستُ في طرف السرير وشردت ، فليس مثل المرأة من ميئناس ، وليس مثل روحها روح . . لكأن شرودي استغرقني فلم أعد منه إلا عندما تناهى إليَّ طرق على الباب ، فقلت في نفسي ، ربما عادت العجوز مؤنبة ، سأتحمل قولها مهما كان ثقيلاً عليَّ . . لأنني أريد الاحتفاظ بمسائي جميلاً ومدهشاً كما عشته ، لكن ما إن فتحت الباب حتى رأيت جنوداً سماناً يسدونه ، والعجوز أم أهارون من خلفهم تهمهم وتتمتم وترطن فلا أفهم من قولها شيئاً . قلت لنفسي : أي خاتمة هذه!

ودخل الجنود السمان ، ونهضت أسئلتهم ، والعجوز واقفة بالباب . ولم يمض وقت طويل ، حتى تعالت ضجة أخرى فوق درجات السلم الخشبي ، واقتحم الباب جنود سمان أيضاً ، وكلب سمين مخيف ، ولكن معهم الحوذي جو وسيلفا . فانقبض قلبي ، فهمهمت لنفسي يا لهذه العودات الخائبة . اقتربت سيلفا مني وشدت على يدي وهامستني : الأمر اعتيادي ، لا تقلق . يا لهذه السيلفا . تعود لكي تشد من أزري . ولم ينته الليل إلا عندما عاد الجميع . . الجنود السمان ، والكلب ، والعجوز ، والحوذي جو ، وسيلفا ، بعد أسئلة مرة ، وأجوبة باهتة . . دارت كلها حول ضرورات الأمن .

كانت الخاتمة سوداء بحق ، وما كان لي أن أتحملها لولا وجود سيلفا» .

ملحوظة :

سامحني ، أيها الصديق العزيز ، إن قلت لك : هؤلاء البغّالة السمان هم غصة المكان . فاكتب إليَّ كي أقوى بك . . أرجوك .

كنيسة القيامة مرة ثانية

«**أكتب إليك ،**

لأنني لم أنم ليلتي البارحة . .

بعد ذلك الذي حدث .

فقد عكرت العجوز مؤجرتي ، مزاجي ، ومحت فرحي بتعرفي إلى سيلفا . تمنيت لو أنني عانقت وسادتي وطيف سيلفا حشو عينيَّ المغلقتين . لكن العجوز دمرت كلَّ شيء باستدعائها للجنود السمان ، والتحقيق معنا ، والسؤال عن أوراقنا وتصاريحنا ، وسبب اجتماعنا . سيلفا لعبت دوراً مهماً في طيِّ التحقيق وعدم ذهابنا إلى نقطة المركز . قالت للجنود : إننا أصدقاء جداً ، وعليهم أن يتركوا أثراً طيباً في نفوسنا . لكن تدقيق الجنود في كلِّ شيء ، وتشقيق الأسئلة ، واستنبات الأجوبة جعل ليلتنا أشبه بالمرمدة . وحين رحلوا جميعاً نسيت أن أؤكد موعدنا الصباحي مع الحوذي جو وسيلفا كي نذهب إلى بيت لحم . في أثناء سهري حاولت أن أستعيد ما رأيته في كنيسة القيامة ، فلم أستطع ، كل ما قدرت على تجسيده هو أنني دخلت إليها ، فرأيت الأضواء والأنوار والناس والدرجات والأقواس . . ثم خرجت .

تألمت لأن ذاكرتي أفلتت كل ما رأيته من جمال وسحرٍ في الكنيسة ، المشهد الوحيد الذي ظلَّ حاضراً بقوة هو تفرقُ الناس وخروجهم من محيط الكنيسة أمام البغالة المندفعين ، وخروج كل من دخل إليها على وجه

السرعة استجابة لصراخ البغالة المتعالي الضاج ، وكأن زلزالاً وشيكاً سيصيب الكنيسة ، لقد ظلّ مشهد الجنود البغالة والبغال وهم يتقدمون نحو الناس مثل كتلة الجليد الضخمة كابوساً مؤرقاً طوى كل المشاهد الجميلة التي رأيتها ، والتي تشتاق نفسي الآن لرؤيتها مرة ثانية . .

لهذا قررت أن أحاول مع الحوذي جو ، وسيلفا إذا ما أتت ، أن نعاود زيارة الكنيسة مرة أخرى ، سأحاول مع سيلفا أولاً كي تضغط على الحوذي جو النفور من الرتابة كي يقبل ؛ جو الذي سيعدُّ العودة لزيارة الكنيسة رتابةً ومبعثاً للملل . سأقول له بأن روحي محتشدة بالشوق لكل ما في الكنيسة ، أريد رؤيتها ثانية كي أعي ما رأيتها فيها في المرة الأولى . وأنني إذا ما ذهبت معه إلى بيت لحم أو إلى غيرها من الأمكنة فإن نفسي لن تكون سعيدةً ومبتهجة بما تراه .

ها هي ذي أضواء الفجر تنبلج .

أراها صبية خجولاً وهي تقتحم بابي ، وبلور نافذتي ، أفتح الباب وأخرج كي أحييها ، يا لهذا الهدوء ، ويا لجمال هذا الضوء المنبعث بقوة من خلف التلال القريبة المغطاة بأشجار الزيتون ، ويا لهذه الزقزقات الرائعة التي تطلقها الطيور مثل جوقة الموسيقى ، أرى الضوء يتخفف من حمرته القانية وينتشر كلما تعالت زقزقات الطيور . فجأة أسمع باب العجوز يصرُّ ، ثم يفتح على وسعه ، أراها تدفع بجسدها السمين إلى الخارج ، تقف تحتي مباشرة . إنها شبح ، كتلة سوداء مدورة ، أراها تنظر ناحيتي دون أن أرى ملامح وجهها ، لعلها فوجئت بوجودي واستنادي إلى مشابك الحديد التي تسيّج محيط غرفتي . أقول لها : صباح مبارك أيتها السيدة ، فلا تجيب ، وتستدير متحركة ، لكأنها اغتاظت وقد رأتني أتمتع بسحر هذا الفجر الجميل . ولم أهتم بها ، ورحت أراقب الضوء وهو ينتشر ويتسع . . فتتوضح المعالم ، وتبدو أشجار الزيتون فوق التلال ، كما تبدو أشجار الطرق ،

والبيوت ، والشوارع ، والسيارات ، وها هي ذي العجوز تبدو بشعرها المنفوش وهي تحمل سلة راحت تجمع فيها حبات التوت الساقطة تحت شجرة التوت الكبيرة التي تتقدم البيت ، أسمعها تهمهم فلا أفهم من كلماتها شيئاً لعلها ترنم دعاءً أو تغني أغنيةً . وظللت أراقب الفجر النامي حتى بزغت الشمس . . يا لإطلالتها المدهشة ، قرص من العسل المشع ، غربال وسيع من النور المشتهى ؛ أكاد آخذه بين ذراعيَّ . . أراها تنهض بثقل وسمو ، فتنبعث الحياة . أسمع الأبواب والنوافذ تُفتح ، وأرى الشوارع والدروب وهي تضجُّ بالأقدام ، وحركة السيارات والعربات تموج هادرة ، والأشجار وهي تعصف ، والطيور وهي تزقزق ، والحمام وهو يهدل ، وصراخ الجنود البغالة وهو يتعالى متداخلاً . ها هو ذا نهر الحياة يندفع في كل الاتجاهات ، فتشرق روحي وتبتهج . أراقب الفجر قليلاً ثم أستدير إلى الداخل كي أُكرّم نفسي بفنجان قهوة ، وقد طاوعتني كي أتمتع بهذه الرؤية البكورية الساحرة ، أدخل على عجل كي لا أفسد رؤيتي ، وقد غرقت الشوارع والدروب التي أراها بالبغال والبغّالة ، وبالنهر ، والصراخ ، والصفير المتعالي .

في داخل مطبخي الصغير ، حرصت أن أواقف المرآة الطويلة مضيفاً لصورتي البادية صورة سيلفا المتخيلة ، وقد كانت ليلة البارحة تجاورني ، أبتسم للصورة ، وأمسح يدي بالمرآة ، وأنصرف إلى إعداد قهوتي ، وبينما أنا أعدها رأيت شريطة حريرية بنفسجية اللون ، لعلها لـ سيلفا ، وبجوارها ملقط شعر ، آخذهما في كفي احتضاناً ، ثم أعيدهما إلى حيث كانا فوق قطعة البللور . آخذ قهوتي وأخرج بها إلى الشرفة ، أجالس طاولتي ، ونظري مثل طائر فطن يجوب كل ما يراه . يا إلهي ما أجمل هذه البيوت التي تبدو كأنها نباتاتٌ متآخيةٌ مبللةٌ بالندى ، وما أجمل هؤلاء النساء الدانيات من الشبابيك مثل العناقيد ، ما أجملهن ، وقد باكرن الحياة ماشطات وغاسلات ، وناشرات ، وواقفات ، وجائلات ، وباسمات ، ومناديات ،

وحاملات ، وماشيات ، وباديات ، وطاعمات ، وساقيات ، وجالسات ، وناظرات ، وملوحات . . بدا كل ما أراه مصبوغاً بالضوء واللمعان ، ورويداً رويداً انبعثت روائح القهوة ، والخبز ، والنباتات ، والأزاهير . . ثم توارت وانسحبت تحت ثقل روائح البارود والدخان والغاز . . ويتلاشى الهدوء ويتبدد بعدما علا صراخُ البغّالةِ ونهرُهم ، فجأة يصبح المشهد أشبه بطائر جميلٍ رهين محبسٍ قذر .

أنهض قبل أن يعتكر مزاجي أكثر ، أرتب فراشي ، وأنظف مطبخي ، وأملأ الحافظة بالقهوة ، وأعدّ السندويشات ، وأجهز كاميرتي ، ومظلتي ، ثم آخذ حماماً ، وأتقيف أمام مرآتي ، ففي هذا الصباح ستراني سيلفا ، ولا بدّ لي من أن تراني كما أحبُّ وأشتهي في المرة الأولى ، فالمرة الأولى هي الأصل في الانطباع ، وما عداها تشبيهات ليس إلا . سأصارحها بأنها كانت نجمة الصبح في الليلة الماضية ، وأنها كانت ساحرة ومغوية ، أشبه بحجر المغناطيس الذي اجتذبني إليها كليةً ، وهذا ما لم أعهده في نفسي ، وسأشكرها لأنها كانت مبهجة وسارّة . وسأعتذر إليها لأن العجوز أفسدت ليلتنا ، كما سأعتذر من الحوذي جو الذي بات يقاسمني متاعبي ، ومخاوفي ، وقلقي ، وسهري أيضاً .

ها . . . قد جاءا .

أرى الحوذي جو يوقف العربة في طرف الشارع أمام البيت تماماً . فتهبط سيلفا مثل ملاكٍ بثيابها البيض ، تدنو من البيت ، فأرفع يدي بالتحية ، هي لا تراني لأنها كانت تلتقط دربها المندى المبلط بالحجارة السود بحذر شديد . الحوذي جو هو من رآني ، فرفع يده ملوحاً ، وصوته يتعالى مخوّفاً : احترس ، جاءتك .

أرى سيلفا تواقف العجوز التي انشغلت بنثر الحبِّ لدجاجاتها . أسمعهما تهمهمان ، وأرى سيلفا تُخرج من حقيبة يدها ورقة وتريها

للعجوز ، فتنظر العجوز فيها ، وتبتسم وتهزّ رأسها ، ثم تربّت على كتف سيلفا بمودة بادية . فتستدير سيلفا ، وتبتعد عنها ، وتدنو من الدرج الخشبي فتعلوه درجةً درجةً ، وبصري يتساقط فوقها مثل الحبال ، وهمهماتي تلفّها كالثياب . تصل إليَّ ، فتعانقني بذراع واحدة ، وآخذها إلى الداخل . تبدو مشرقةً ، وحيويةً مثل طفلة . أقول لها إنها تشبه الصباح ، ضوءاً ، وحمرة خفيفة ، وابتساماً ، ونشاطاً ، ورضا . . فتضحك ، وهي تتمايل بين يديَّ وتتثنى .

أتمتم لها وقد لاحمت خدها الدافئ بخدي . . معتذراً عن ما حدث ليلة الأمس ، فتقول لي عليها هي أن تعتذر لأنني لم أكن المقصود ، وإنما كانت هي المقصودة ، فقد خاف الجنود من أن يحدث لها مكروه .

قلت : مهما يكن ، عليَّ أن أعتذر . فمالت بجسدها عليَّ ، وهي تهم بالجلوس على طرف الكرسي ، وقالت : أتيتك بزبيب ولوز . وأراها تخرج من حقيبتها كيسين ورقيين صغيرين ، فأشكرها . وأسمعها تسألني : أنمت جيداً؟ قلت :لا . قالت : لماذا؟ قلت : لأن الجنود أخذوا نومي معهم . فتضحك . أخبرها برغبتي أن نذهب في هذا الصباح إلى كنيسة القيامة لا إلى بيت لحم . فتقول لي : لكنك زرتها . قلت : لم يبق منها في بالي شيء . قالت : لكن جو هيأ نفسه كي نذهب إلى بيت لحم . قلت راجياً : عليكِ أن تقنعيه كي نؤجل زيارة بيت لحم لوقت آخر . قالت : ليست مشكلة . سأحاول .

وأنهضتها ، فواقفتني ، ثم دنت مني أكثر ، فخاصرتها . يا لهذه الطراوة ، ويا لهذا العبق . . مالت عليَّ بعنقها فمرغت شفتي بشفتيها ، وجلت بهما على خديها ، وأنفها ، وعينيها ، وجبهتها ، وأذنيها ، وجيدها . . ثم أبعدتني وهي تهمس همهمة : ذوّبتني . تعال . وخرجتْ ، هبطتِ الدرج الخشبي ، ثم لحقت بها بعد أن أخذت حقيبتي ، وأغلقت

باب غرفتي . وفي الممر الحجري ، تمهلت ورامقت العجوز ، فرأيتها تنظر إليَّ ، للمرة الأولى ، دونما ريبة أو قلق!

تُرى ما الذي قالته سيلفا لها عني ، وما الذي أرتها إياه من أوراق حتى انقلبت من حال التبرم والضيق إلى حال الرضا والمهادنة .

وابتعدت عنها ، وما إن وصلت إلى العربة حتى صعدت إليها ، بعدما صعدت سيلفا إليها واستقرت في مقعدها .

وما إن جلست حتى سمعت الحوذي جو يقول لي : إذن ، إلى كنيسة القيامة مرة ثانية . قلت : أرجوك يا جو ، فقد حاولت ليلة الأمس أن أتذكر ما رأيته فيها ، فلم أتذكر شيئاً . قال : حاضر ، نؤجل زيارة بيت لحم . وأضاف : سيلفا اليوم معك ، ستمنح ذاكرتك قوة إضافية ، فنظرت إلى سيلفا ، وأخذت يدها في كفي ، وضممتها إليَّ ، وقلت : ستمنح قلبي أيضاً ما أرجوه من قوة .

بدا الجو مشرقاً ، لا مطر ، ولا برد ، ولا غيوم داكنة كلٌّ شيء واضح ، السيارات تجري في الشوارع ذاهبة آيبة ، والعربة تمشي نحو كنيسة القيامة في صعود مريح ، وسيلفا إلى جواري تشير بيدها نحو الأمكنة ، فتعرفني بها ، وأنفاسها العطرة تأخذ بأنفاسي ، والجنود البغّالة ، والبغال ، والكلاب السمينة في كل مفرق ، ووراء كل حاجز يقفون إلى جوار سياراتهم المصفحة وقفة الانتظار ، والترقب ، والحذر ، والحوذي جو يغني أغنية أسمعها منه للمرة الأولى ، أغنية تقول على لسان امرأة : على مقعد الحديقة . والمطر رذاذ ، وأوراق الخريف تجول أمامي مثل كرة خيطان ، والهواء يلاعبها مثل قطة . . أنتظرك كي تبدو ، روحي عطشى . وحولي العشاق يجالسون عشيقاتهم . والبطات يتنافشن قرب حوضة الماء بكسل . والغيوم تدنو هابطة فتماشي الأشجار . وأنت لا تأتي ، منذ ثلاثين سنة أنتظرك في الموعد الذي حددناه ، وأنت لا تأتي . اسمعني ، أرجوك . . فأنا لا أريد أن

أصدق بأن الحرب أخذتك .

ترتقي العربةُ الدربَ صعوداً ، فتبدو كنيسة القيامة ، وتبدو البيوت من حولها مثل الأكف وهي تحتضنها . ها هي ذي جهتها الجنوبية ، فضاء شاسع ، حدائق ندّاهة ، وحوضات ماء ، وطيور حمام لا يعد ولا يحصى عديدها ؛ حين تطير تغلق الواجهة بأجنحتها ورفرفاتها الخفّاقة ، وها هي ذي القبة العالية ، الضوء ينيرها فيسيل على نوافذها ، وأقواسِها الحجريةِ ، والعتبات . قناطر متداخلة ومتتالية كأن واحدتها تتناسل الأخريات . وأعمدة رخامية لامعة ومضيئة تنهض بها . وظلال ممدودة على الأرض مثل سجاجيد ملوّنة ، ندنو أكثر فتبدو المحال التجارية الصغيرة المتشابهة المتجاورة في حلقة دائرية تلتفُّ حول الكنيسة كالسوار ، وقد تصدرتها يافطة واسعة مكتوب في وسطها : وقف الكنيسة . خلق كثيرون يتوازعون واجهات الكنيسة وأبوابها ، زائرون ، وحجيج ، وعربات جر ، وخيول تقف على مبعدة في ساحة الكنيسة المبلطة ، وساسة خيول ، وحراس ، يأخذون بعضها إلى مذاود التبن ورانات الماء ، ها هي ذي المحال تبدو أكثر فأكثر . .نساجون ، وزجاجون ، ونجارون ، وخياطون ، ونحّاسون ، وصاغة ذهب وفضة ، وصانعو خزف وجرار ؛ وصوف ، وصلبان ، وخرز ، وسروج خيل ، وقناديل ، وفوانيس ، وشمع . . وإلى جوارهم بائعو الزيت ، وسلال الجوز ، واللوز ، والتين المجفف ، والرمان اليابس ، والزبيب ، والصابون ، والخبز ، والمناديل ، والقبعات . . ها هي ذي الكنيسة تحت بصرنا تماماً ، إنها أكثر من بناء ، وأكثر من كنيسة ، هذه قباب كثيرة ، وصلبان نحاسية كثيرة ، وهذه المملوءة بالظلال والناس ممراتٌ تفصل ما بين كنيسة وأخرى ، ومعبد وآخر ، وتنحدر العربة بنا ، تميل نحو الكنيسة ، فتهمس سيلفا : ها . . قد وصلنا ، ندنو من ساحة الكنيسة حيث هي نوافير الماء ، وأشجار السرو بجذوعها الكبيرة وارتفاعاتها الشاهقة ، حولنا طيور محتشدة تزاحم

الزائرين والحجاج على المكان ، وباعة متجولون ينادون على بضاعتهم ، ومتسولون ومتسولات ، غلمان وصبايا ، يمدون أمامهم قطع الخام ، والمناديل ، والقبعات ، والكاسات ، والسلال ، وأصابع الشمع ، وأواني الفخار ، وأطراف أثوابهم ، وبين حين وآخر تتساقط قطع النقد التي تسحبها من جيوب الزائرين والحجاج نداءاتُهم الشجية ، ورجاءاتهم الحزينة ، ، وبين الحشود يجول جنود سمان وراء نظراتهم الحذرة الفاحصة . يا إلهي . . . لكأنني لم أرَ كل هذا في المرة الأولى!

يوقف الحوذي جو العربة ، فيتراكض نحوه غير سائس ، فيعطي مقودها للأقرب إليه ، وتهبط سيلفا ، فألحق بها . نواقف بائع الشموع أشتري منه رزمة من الشمع ، وسلتين صغيرتين في إحداهما لوز ، وفي الثانية زبيب ، ويشتري الحوذي جو ثلاثة صلبان خشبية كبيرة ، وتشتري سيلفا ثلاث شرائط ملونة ، فأتذكر شريطتها البنفسجية وملقط شعرها ، أخبرها عنهما ، فتقول : تركتهما لك كي تتذكرني .

فأضمُّ كفها إليَّ ونحن نتجه نحو مدخل الكنيسة الوسيع المزدحم . أسمع الحوذي جو الذي حمل السلتين والشموع يقول : احرصوا على أن نكون معاً ، فالازدحام شديد ، فنهز له رأسينا . أشعر وكأن قوس باب الكنيسة أكثر دنواً وانحناءً فوقنا . ومنذ الخطوات الأولى أرى الضوء والنور يهبطان من السقف العالي ، أرى الفوانيس والقناديل المترادفة هنا وهناك فوق الأعمدة ، وعلى النوافذ ، والأفاريز ، والأقواس ، وتيجان الأعمدة ، والشرفات ، وأرى المصابيح الكبيرة المدلات من القبب الوسيعة الملوّنة بالأزرق البرَّاق ، سلاسل ذهبية توقفها فوق رؤوسنا تماماً كي لا تماشينا ، الآن ، أرى على نحو أوضح ، أرى ما لم أره في المرة الماضية . الحوذي جو يواقف درجات حجرية بالكاد تبين لكثرة الصاعدين عليها ، أسمعه يقول لي : سنصعدها ، ويشير إلى الدرجات ، كي نرى المكان الذي نُزع فيه

الصليب عن كاهلي سيدنا ، وكي نرى أيضاً المكان الذي جاءت إليه مريم المجدلية كي تحنطه في الصباح . . ها نحن نصعد الدرجات بعد انتظار طويل ، وازدحام شديد ، وفوقها ، في السدة الحجرية البادية في صدر المكان ، نرى بقعةَ دم مضاءة بالنور ، وحربةً طويلةً مسننةً ، ورمحاً من الخشب ينتهي طرفه العلوي بقطعة قماش مطوية . يقول الحوذي جو : هذا هو دم سيدنا حين ضربه الحراس برأس الحربة في جنبه ، فاندفع الدم ، وها هي ذي الحربة ، وهذا هو رمح الخشب الطويل الذي رفعت على طرفه الأعلى قطعة القماش كي يبلل سيدنا شفتيه بالماء حين صرخ (عطشان) ، وبدلاً من أن يُعطى الماء ، سقوه خلاً . وهذه الفسحة الترابية هي موضع جلوس مريم المجدلية ، وهذا الحجر المستطيل هو المكان الذي كان سيحنط عليه سيدنا . لقد جاء المجدلية صباحاً ، والحزن يهدها ، فتراءى لها جسد سيدنا هنا قرب هذا الحجر المستطيل فجالسته فوق هذه الفسحة الترابية ، وحين فتحت كيسها ، وهمت بتحنيطه ، لم تجده ، فقد اختفى الجسد . وظلت هي وحيرتها وكيسها الكتاني هذا الذي تراه هنا .

ولم نطل المكث ، فقد راحت جموع الناس تزاحمنا ، وتدفعنا . . فمشينا مرغمين ، وفوق رؤوسنا تدور طيور الحمام ، فتزيد الأضواء سحراً ؛ أحياناً كنتُ أظنها معلقةً كالمصابيح أو القناديل أو الصلوات المعرّشة . . . تبدو فجوات القباب المزينة بالرسوم الملونة ، وتبدو السلاسل الذهبية المتدلية شلالات ضوء متشابكة ومتداخلة تنتهي بالمصابيح والفوانيس ، والقناديل لكأنها أقفالها .

نمشي ، فتبدو أمامنا صخرة رخامية عريضة وطويلة ، يحفُّ بها الضوء من جميع جهاتها ، حتى لكأن الضوء يطلع من جوفها ، أسأل الحوذي جو عنها ، فيقول : هنا ، وفي هذا المكان كان جسد سيدنا مسجى ، أرفع رأسي فأرى آلاف القناديل الفضية مدلاة فوق الصخرة فتحيلها كتلةً من الضوء

البهّار . ونتخطى الصخرة إلى حيث يتجمهر الناس . أسأل الحوذي جو : ماذا يوجد هنا ، فيقول لي : هنا . . النار المقدسة/ المطهر ، ويشير بيده ، ويتمتم : أنظر هناك ، إلى تلك الثقوب في الجدران ، فعلاً أراها ، إنها ثقوب فضية اللون شبيهة بأعشاش الحمام . ويضيف : سنقفُ أمامها وندعو . . لعل النار المقدسة تظهر لنا فنوقد منها شموعنا . كان الازدحام شديداً ، والتدافع ناشطاً من دون هوادة . كانت الأذرع ممدودة بالشموع نحو الثقوب ، لعلهم ينتظرونها حقاً . فجأة ، ومن دون إمهال ، تبدو النيران . إنها تسيل من الثقوب الفضية وكأنها الزئبق . نار طرية ، لينة . . تكاد تسقط ولا تسقط . لحظتئذ ، تعالت الأصوات بالأدعية ، والرجاءات ، واضطرب الناس ، ومادت الأرض بنا ، واشتد الزحام ، فما عدت أدري إن كنت قريباً من سيلفا والحوذي جو أم لا ، فقد اختل توازني ، واندفعت مع الحشد إلى الأمام والوراء ، وأنا أرى الشموع الصغيرة والكبيرة توقد من النار المقدسة ، فيتراجع أصحابها فرحين ، وصلواتهم تخرج من لهواتهم حشرجات ، أراهم يمررون أصابعهم فوق ذبالات الشمع ، ويمررونها على وجوههم ، وصدورهم ، وشعورهم . . لكأنها لا تحرقهم ، أو لكأنها نار باردة . ورأيت الشموع توقد وهي في أيدي الجموع ، شمعة توقد شمعة . . حتى إن شمعتي أوقدتها شمعة لم أرها كما يجب . أمسُّ ذبالة الشمعة بإصبعي فلا أشعر بلذع النار . أتجاسر وأقربها من ذراعي ، ثم من وجهي ، وشعري . . فلا أشعر بأي حرارة . . فأضمها إلى صدري وأصلي ، وأتراجع إلى الوراء وقد اشتدت وطأة الازدحام ، أتراجع إلى البعيد ، وقد غشاني الذهول ، وأخذني الخدر ، وحين استندت إلى أحد الجدران ، رأيت إلى جواري الحوذي جو وسيلفا ، لعل يد أحدهما هي التي سحبتني إلى هنا .

وحين بت أدرك وأعي ، سألت الحوذي جو : عن النار المقدسة ، فقال : هذه أنوار القلب ، ومشينا إلى أن وصلنا إلى مشبك فضي عالٍ ، راحت

الأيدي تربط على أسلاكه الرفيعة الشرائط الملوّنة ، والشفاه تلهج بالصلوات ، فالتمتمات تتعالى مثل دوي النحل . أخذ الحوذي جو واحدة من الشرائط التي بحوزة سيلفا ، وتقدم كي يربطها بأحد الأسلاك ، ودعانا كي نتبعه ، وأن ننذر نذورنا ، ونصلي من أجل أمانينا . . . فتقدمنا ، على الرغم من الازدحام الشديد ، وربطنا الشرائط ، ونذرنا نذورنا ، وتمنينا ، ثم انسحبنا إلى الوراء نحو البهو الوسيع ، فرأينا الناس جلوساً على المصاطب الرخامية المتقابلة ، تمنينا لو أننا وجدنا مكاناً فارغاً كي نجلس فيه ، لكن دون جدوى ، لذلك مشينا وراء الضوء الذي تكاثف مثل الضباب حتى وصلنا إلى باب الخروج . . حيث وقف رهبان وراهبات يناولون الخارجين صلبان الزيتون المبللة بالماء المقدس . . كنا نمشي بخطا وئيدة جداً خلف الناس ، وحين وصلنا إلى الرهبان والراهبات . . أخذنا الصلبان من أيديهم ، والناس يرمون ما في أيديهم في السلال الكبيرة المحاذية لهم ، وهبطنا الدرجات الرخامية ، وحين نظرت إلى يدي سيلفا لم أرَ فيهما صليباً ، لعلها لم تأخذه ، أو أن الازدحام ضيّع عليها فرصة أخذه . ومشينا نحو المقاعد الخشبية والرخامية الموزعة في ساحة الكنيسة والتي جلس عليها الخارجون من الكنيسة بعدها خارت قواهم ، وحين رأينا حيزاً شاغراً اندفعنا إليه وجلسنا ملاصقة وقد حفَّ بنا الضجيج والكلام المتداخل ، ولم تمضِ سوى لحظات فقط حتى أحاط بنا الجنود السمان ، والبغال السمينة ، فطلبوا منا أن ننهض ، ونمضي إلى خارج ساحة الكنيسة ، فمضينا باتجاه العربة ، والحوذي جو يهمهم على مسمع من سيلفا : حتى . . هنا! فتقول سيلفا : نحن كالهواء منتشرون في كل مكان ، وتنظر إليَّ باسمة ، فلا أقوى على اغتصاب ابتسامة من شفتيَّ مقابل ابتسامتها ، وأروغ ببصري عنها . . فأرى الصبايا ينثرن حبَّ الذرة لطيور الحمام . . . والناس من حولنا في لجيج واضطراب وأسئلة ، وحيرة . . وقد رأوا البغّالة ،

والبغـال ، والكلاب في سـاحـة الكنيسـة . . وأوامرهم نافـرة . . كي يخلي الناس المكان . . . غصةٌ أُخرى تأخذ بقلبي . . . فتعتصره» .

ملحوظة :

اعـذرني أرجـوك ، فـقـد أطلت عليك ، ولكن من لي سـواك كي يشاركني حزني ، فالأقدام السود ، والكلاب النابحة ، والبغال العواقر صارت قرب أعتاب الكنيسة!! . . روحي ممرورة . . . ساعدني بالكتابة إليَّ ، أرجوك .

في بيت لحم

«سامحني ،

لأنني لا أدري مدى تقبلك لرسائلي ، ولكن جملتك الذهبية التي قلتها لي ، وأنت تودعني «اكتب إليَّ ما استطعت» لا تزال ترن في أذنيَّ مثل جرس ، لهذا أكتب إليك ، فأشركك في مسراتي وأحزاني ، لعلي حين أعود إليك ، فأرى ما رأيته مرة ثانية محبّراً وقد بعدت المسافة ، وتجاوزتني الأيام . أصارحك بأن وجهك ، وابتسامتك ، وصوتك الدافئ ، وتلويحة يدك كلها معي تماشيني في كل مكان أصل إليه ، وروحك تلازمني فتشد أزري في كل موقف بارد أو باهت أعيشه رغماً عني . .

أنا الآن ، في طريقي نحو بيت لحم مع الحوذي جو ، وسيلفا ، أجلس في مقهى صغير في الطرف الجنوبي من القدس ، مقهى قريب جداً من حواجز حديدية يواقفها ببلاهة البغّالةُ وبغالهم وسياراتهم وكلابهم ، وبلدوزر ضخم أصفر اللون ، كتلة من الحديد الأعمى . . أشرب القهوة التي جاءني بها غلام صغير السن ، سألته لماذا يعمل هنا ، وهو في سن المدرسة ، فقال : أي مدرسة يا خواجة ، المدرسة أغلقها هؤلاء ، وأشار إلى البغالة وأضاف : إنهم لا يريدون لأحد منا أن يتعلم ، يريدون لنا أن نصير مثل البهايم التي يركبونها ، لكن ما إن تفتح المدرسة حتى أعود إليها ، ولو صار عمري ثلاثين سنة ، سألته عن اسمه ، فقال : فرحان . قلت : فرحان؟ قال : تصور . . فرحان . وهزَّ رأسه واستدار . وحين عاد إليَّ ، يسألني إن

كنت محتاجاً إلى شيء ، قلت له : لا ، أنا أنتظر صديقيّ اللذين ذهبا إلى نقطة التفتيش لتسوية أوراقنا . قال : إذن ، اطلب أي شيء تشربه أو تأكله ، فهما لن يعودا قبل ساعة . . قلت : ألك إخوة يا فرحان ، قال : ثمانية ذكور ، وأربع بنات ، قلت : وأسماؤهم شبيهة باسمك . قال : مثله تماماً . أمي سمت أخواتي بأسماء الزهور : وردة ، ونسرين ، وياسمين ، وجورية .

وسمت إخوتي : فارس ، وجمال ، وسعيد ، ورغيد ، وبهجت ، ونصر ، ونايف ، وفوّاز ، قلت : أهي متفائلة . قال : لا ، ولكن كي تغيظ هؤلاء ، والتفت نحو البغالة ، فعلاً يا صديقي ، أهل البلاد يواجهون مر الحياة . . بالعمل ، والابتسام ، والصبر ، والأسماء الجميلة .

ها أنذا ، في منحدر باد يفصل القدس عن بيت لحم ، أنظر خلفي نحو القدس ، فأراها مثل شمعدان منار يعتلي التلال ، فالبيوت منارة ، وأشجار الزيتون والجميز ، والبلوط ، والسماق ، والغار منارة أيضاً . . حتى الدروب المتدلية نحونا منارة ، وضباب صباحي حنون يدنو منا ، ويلفنا لكأن التلال تدفعه نحونا ، وأنظر إلى الأمام ، نحو بيت لحم فأراها مثل فنجان قهوة جالسة بكل الطمأنينة والأمان والراحة فوق تلة واسعة ، وأضواء البيوت والشوارع تسيل مع الضباب نحونا ، وبياض البيوت يلوح مثل وهجة المرايا ، وأشجار كثيفة متآخية تلتف حول البيوت كأنها السياج . .

يبدو الحاجز الحديدي . . بين القدس وبيت لحم أضحوكة ، فهو مثل خط ترابي نحيل ترسمه ريح خفيفة كي يفصل ما بين بيت وبيت ، البغّالة والبغال والسيارات العسكرية المحتشدة كالأغنام ، والكلاب السمينة . . هي أيضاً أضحوكة . . فكل هذا الحشد مشدود إلى الانتظار . . كي يسمح بمرور شخص أو يوقف شخصاً أو يعيده إلى الوراء .

يوافيني الغلام فرحان بكأس من الشراب الأصفر الصافي ، أسأله : ما هذا ، فيقول : أحلى كاسة بابونج لأحلى خواجة . أسأله مرة أخرى :

بابونج ، فيقول : زهرة برية من هذه الجبال ، ويشير نحو تلال القدس وبيت لحم ، ويضيف : طعمها طيب ، ورائحتها طيبة ، اشرب ، صحة وعافية . . قلت : تقصد الزعتر . قال : لا ، الزعتر شيء ، والبابونج شيء آخر يا خواجة .

ما أبدى هذا الغلام ، ما أوضح كلامه . . يتكلم فتضيء عيناه ، ولا يستدير من أمامي إلا عندما أرتشف رشفة من كأسه الصافي . . وأهزّ رأسي له بالموافقة والشكر ، وحين يستدير ، أتذوق الشراب مرة ثانية ، فعلاً إنه طيب ، ورائحته طيبة . أنظر إلى فرحان وهو يؤوب إلى داخل كوخه الخشبي الصغير فأرى شعر رأسه الطويل ، وخطاه الراقصة ، وأصابع يده التي تدق على ظهر الصينية المدورة . . فإيابه جميل مثل قبوله . .

ها هما يدنوان نحوي ، الحوذي جو ، وسيلفا . . فأنظر إليهما . . لكأنني ببصري أشدهما إليَّ فيقتربان أكثر . تبتسم سيلفا ، والحوذي جو يهز رأسه . . تبرماً ، يسبقهما إليَّ الغلام فرحان مرحباً ، يجلسان حول الطاولة ، يسألهما الغلام : قهوة : فتقول سيلفا : قهوة .

ويهمهم الحوذي جو : قهوة . . فيستدير فرحان ، وأنظر إليهما سائلاً . فيقول الحوذي جو : لولا سيلفا ، لما وافقوا على ذهابنا . قلت : لماذا . قال : الضرورات الأمنية ، قلت : فلقونا بالضرورات الأمنية . فتقول سيلفا : هنا ، الأمن ثم الأمن . قلت بحدة : وفي بلادنا أيضاً الأمن ثم الأمن ، في كل أنحاء الدنيا الأمن ثم الأمن . في الجنة يا سيدتي . . الأمن ثم الأمن . . لكن هنا ، الأمر مختلف . . قالت : مختلف ، لأن الوضع مختلف . قال الحوذي جو : لو أخذنا قطاً ، وجعلنا جسده كله حراً طليقاً ، وأغلقنا على ذيله داخل ثقب ، ووضعنا أمامه لحماً ، وحليباً ، وجبناً . . فهل يأكل أو يشرب؟ إطلاقاً ، لأنه ليس حرًّا ، وليس آمناً . . أسر الناس هنا ، واحتباسهم في معازل ، وسد الطرق عليهم لن يجعل المأسورين ، ولا

السجّان في أمن أو حرية ، الأمن والحرية يأتيان من أمن وحرية الآخر . . وكل عمل خارج هذا الإطار يشبه دق المسامير في يديّ سيدنا . عذاب ما بعده عذاب ، وقسوة ما بعدها قسوة .

ولم تقل سيلفا كلمة واحدة ، فقد جاءت القهوة ، وضعها فرحان ، واستدار ، رفعت سيلفا نظرها ، وقالت : الدنيا صباح ، والكلام الثقيل في الصباح الجميل . . مشقة ؛ فهمهم الحوذي جو : المهم أننا سنرى بيت لحم ، ونزور كنيسة المهد . . فقلت مجاملاً : والجميلة سيلفا معنا .

ونهضنا ، فأسرع الغلام فرحان نحونا ، نقدته ثمن ما شربناه ، فابتسم شاكراً ، وناولني كيساً ورقياً صغيراً خفيفاً ، قلت : ما هذا؟ قال : زهرة البابونج . اغلِ الماء فقط ، ثم ضع هذه الزهرة فيه ، واشرب ثم تذكرني . لحظتئذ ، لم أدرِ ماذا أفعل لهذا الغلام الرائع ، مسحت بيدي على شعره ، وقلت له مؤكداً : المدرسة ، فقال : المدرسة .

ومضينا ، أخذنا العربة ، وتخطينا الحاجز الحديدي بعد انتظار وتفحص للأوراق . . يا لوجوه هؤلاء البغالة إنها مغلقة كالأقفال . وجوه لا تفصح عن شيء سوى الجهامة والاستعلاء . . نتخطاهم سريعاً . . فنمشي في درب تحلقت حوله الأشجار مثلما تتحلق الوصيفات حول العروس ، أشجار عالية لها أزهار زرق جميلة . . نمشي فيماشينا الدرب ، والبيوت وأعمدة النور ، والضباب الخفيف . . أرى سيلفا إلى جواري وقد راحت تقرأ في كتاب صغير ، فأنصرف عنها قليلاً ، ها هي بيوت بيت لحم ، تبدو ، وها هي أشجار الزيتون تأخذ بأيدينا شجرة شجرة من أول الدرب إلى أعلى السفح ، بيوت طابقية لونها الأبيض نداه مثل أمواج البحر . . . بيوت تسيل من أعلى التلال إلى أول المنحدر . . لكأنها قطعت كل المسافة من ذلك العلو إلى هذا المنحدر كي ترحب بنا . . هنا لا تراب يبدو لنا ، لا مساحات خالية من الأشجار أو الأعشاب أو المزروعات أو كروم العنب ،

وهذه البادية هي سلاسل حجرية لونها وردي تفصل ما بين حقل وآخر، وهذه الكائنات المتحركة هي أغنام، ومعيز، وأبقار.. كلها صاعدة مثل النمال.. أميل نحو سيلفا وأقطع عليها قراءتها في كتاب الجيب الصغير، وأقول لها: انظري ما أجمل هذه المناظر، إنها أشبه بالقصائد الرعوية، فتبتسم، وقد أغلقت الكتاب على إصبعها وتقول: بلادنا جميلة.. ساحرة. وأصمت للحظات، فتعود إلى قراءتها، فأقول لها: لعلك مشدودة إلى الكتاب. فتقول معتذرة: بقيت صفحات فقط وأنتهي منه، أريد الوصول إلى الخاتمة قبل الوصول إلى بيت لحم، فأدعها، وأطلق بصري مثل طائر.. فأرى هندسة عجيبة. ترسمها أشجار الزيتون، أشجار كيفما رأيتها وكيفما تحركت فإنها ترسم خطوطها المستقيمة، واستداراتها مثل البيوت، لا شيء يباعد بعضها عن بعضها الآخر سوى مرجحات الهواء.. ها هو ذا شمال بيت لحم المنحدر على نحو حاد حتى لكأن البيوت يحتمي بعضها ببعضها الآخر كي لا تنزلق أو تسيل، وهذا هو شرق المدينة البادي أيضاً على شكل منحدر رهيب نحو واد عميق، تتلامع في قاعه صفحات الغدران مثل المرايا، وتبدو شجيرات الريحان، والغار، والتوت، والدفلى، وحقول القصب والرمان، وبعض قطعان الماشية.. ندنو من البيوت أكثر، نصير تحتها تماماً.. فتبدو تفاصيلها، الشبابيك، والسقوف، والأبواب، والعتبات، نقترب أكثر، فنرى الدجاج، والبط، والإوز، والديوك الرومية.. تجول حول البيوت، نرى حبال الغسيل، ومواقد الخبيز، ونرى الناس في ذهاب وإياب؛ تلفت نظرنا النساءُ الطويلات الجميلات بأثوابهن المطرزة بخيوط ملونة من فتحة الصدر وحتى القدمين.. نساء يمشين بأثواب كأنها الألوان.

ها هنا، وإلى الجوار وفي أول البلدة، بيت طويل متسع، أرى فيه رجالاً ونساءً يجلسون على مقاعد خشبية براقة، تعلو البناء طبقات عدة

لونها الأبيض يشرق كلما اقترب المرء منها . . أسمعٍ الحوذي جو يقول : سنترك العربة هنا ، في هذا الخان . وسوف نمشي طويلاً ، فاستعدوا .

نقترب أكثر من البناء الطويل المتسع ، تبدو لنا بضعة خيول تدفن رؤوسها في مذاود التبن ، وتبدو أجران الماء الحجرية ، وفي العمق البعيد تبدو أكياس الخيش الكبيرة المملوءة بالتبن ، إنه خان تقف العربة أمامه ، فيتقدم نحوها ثلاثة شبان وامرأة ، يا لوجوههم المنارة ، لكأن الصباح جلاها ببكورية الجمال ، يرمي الحوذي جو رسن الحصان إلى أحدهم ، فيتلقفه .

ونهبط نحن حاملين حقائبنا . يوصيه الحوذي جو بالعربة والحصان ، ويقول له سنعود حالما نرى المدينة ، المرأة تتقدم نحونا ، وبين يديها طبق من القش عليه رغيف من الخبز ، تدنيه منا أكثر ، وابتسامتها مشقوقة مثل كتاب ، لكأن وجهها والرغيف ضفتان ، فنمدُّ أيدينا نحو الرغيف ، تأخذ سيلفا قطعة منه وتأكلها وهي تهمهم رضا ، وأخذ منه قطعة أخرى ، وأكلها . . يا لهذا المذاق الصباحي اللذيذ ، وأرى الحوذي جو يأخذ ما تبقى من الرغيف ، ويشرع بالتهامه ونمضي شاكرين ، يهمهم الحوذي جو : هذه مالحة .

ها هو ذا درب ناحل مبلط بالحجارة السود يأخذنا إليه فنرى حوله دكاكين النجارة ، والحدادة ، والنحاس ، والدباغة ، والزجاج والخبز ، وأقراص الحلوى الدائرية ، والطعام ، والثياب ، والصوف ، والأحذية ، والصدف . . ها هو ذا دكان واسع تقريباً ، في وسطه جذع خشبي ضخم ، وحوله يتوازع المكان خمسة عمال ، بيد كل منهم أداة من أدوات النجارة . . نقف بالباب ، فيرحبون بنا ، ويدعوننا إلى الدخول . . يقف أحدهم ويقدم لنا شراباً لذيذاً ، سأله الحوذي جو عنه ، فيقول : كمون ، ويقف ثانٍ ، ويقول : كما ترون ، هذا جذع شجرة زيتون ، منه نصنع وننقش الصلبان ، وهذه قوالب معدة للرسم والنقش ، وتلك أوني الفخار نضع فيها

الصلبان كي ترتوي بماء النهر المقدس ، اقتربوا كي تروها جيداً ، فنقترب ، إنها قدور فخارية كبيرة وصغيرة ملأى بالصلبان المغمورة بالماء ، ويضيف : ننقعها بالماء كي تفقد سطوحها العلوية الخشونة ، ومن بعد نأخذها إلى هذه القصاعات النحاسية الكبيرة كي نغليها وقد أضفنا إلى الماء المواد الكيماوية اللازمة ، ومن ثم نفرغها هنا في هذه الأحواض ، والأجران الخشبية كي تبرد ، ومن بعد نصفّها فوق هذه المقاعد الطويلة ، ونقوم بتلميعها بالورنيش ، ثم بالسائل اللماع الذي يحفظها ويثبت لونها العسلي . ونلصق على بعضها رقائق الصدف الأبيض ، وبعضها الآخر نصنعه من الصدف ، وسألته سيلفا : كم عدد الصلبان التي يصنعونها يومياً ، فقال : بضعة آلاف . وسألته عن ساعات العمل ، فقال : من الصباح إلى المساء . وتقدمت منا صبية ، وناولتنا ثلاثة صلبان ، وثلاث قطع فخارية صغيرة حاملة للشموع ، فشكرناها وشكرنا الجميع وخرجنا . مضينا إلى أن وقفنا قرب شجرة كبيرة ، واسعة الظل ، في محاذاتها محل صغير ، فيه أربعة أشخاص يجلسون متربعين وراء سندانات خشبية وبين أيديهم مطارق وصفائح نحاسية ، حالما توقفنا ، توقفوا عن الطرق ، فأشار إليهم الحوذي جو أن يتابعوا عملهم كي نرى ماذا تصنع أيديهم ، بدت في واجهة المحل الصغير الصواني والأباريق ، والكؤوس ، والدلاء ، والكاسات ، والقدور ، والملاعق ، والصحون ، والمزاهر النحاسية لامعة وبراقة . . ورأينا العمال يواصلون الطرق دونما كلالة لكأنهم في سباق ، ورأينا الصفائح النحاسية تتشكل بين أيديهم وتستدير على شكل أغطية ، ودلاء ، وطاسات ، أحدهم نهض ، وناولنا من طاسة نحاسية واسعة ثلاثة صلبان نحاسية لامعة كأنها الذهب ، فشكرناه ، ومضينا ، فوقفنا أمام دكان للحلويات . . رجلان أحدهما طويل ممتلئ ، وثانيهما قصير ممتلئ ، وكلاهما يواقف جرنين من الزيت المغلي ، أحدهما يرمي فيه وبسرعة عجيبة كرات

العجين فتستدير وتطفو فوق سطح الزيت المغلي ، وآخر يضع دوائر عجين صغيرة كالأساور في جرن الزيت الذي يغلي أيضاً ، فتطفو فوق سطح الزيت وتستدير وما إن يبدو لونها الذهبي حتى ينتشلها حلقات ويضعها في جرن آخر مملوء بالقطر الساخن ، والآخر يجمع الكرات الذهبية بملعقة كبيرة ذات ثقوب ويضعها في جرن آخر مملوء بالقطر الساخن أيضاً . . الفتاة التي تصدرت الدكان قدمت لنا طبقاً كرتونياً فيه كرات ذهبية لامعة ، ودوائر ذهبية متشابكة الحلقات . . فنأخذ الطبق منها ، ونشرع بتذوق الحلوى . . يا إلهي ما أطيبها ، ونمضي وقد صفت نفوسنا وابتهجت بهذا الصباح الجميل ، وقبل أن يستدير الدرب بنا ، سمعنا ضجة كبيرة ووقع أقدام يتعالى ، فأخذنا التلفت إلى هنا وهناك ، فرأينا أربعة بغّالة يعتلون أربعة بغال سمان . . يغلقون الدرب بمشيتهم البطيئة الثقيلة ، وهراواتهم تهتز بأيديهم في منفسح الهواء الثقيل ، ثمة فرق كبير بين هؤلاء البغالة وبين هذا الدرب الذي تدلت شجيرات ياسمينه من فوق الأسيجة كالبسط والسجاجيد ، وبين أصحاب المحلات بوجوههم المضيئة الباسمة وهؤلاء البغالة بوجوههم المغلقة ، ونظراتهم الذئبية المترصدة ، وبغال تمشي فتفسد هواء الدرب بتنفسها الضاج والبادي كبخار الكلاب اللاهثة ، يمرُّ البغالة بنا ، فأقول لـ سيلفا : إنه الأمن؟ ، فتقول باسمة : إنه الأمن ، ويهمس الحوذي جو : أي أمن؟ وهذه مدينة سيدنا ، مدينة المحبة والسلام . نمشي فتحاذينا نساء يجالسن الرصيف بثيابهن المطرزة ، وقد افترشن أمامهن أطباقاً ومغمقانات مملوءة بالخبز ، والفطائر ، والتين المجفف ، والجوز ، واللوز ، والزبيب ، والدبس ، ورب البندورة ، والقرع واليقطين ، والسفرجل ، والرمان ، وربطات الثوم ، ودلاء اللبن ، والسمن ، والجبن ، والزيتون ، وزجاجات الزيت والنبيذ الصغيرة والكبيرة ، والأيقونات ، والصلبان ، والمرايا ، وعلب الصدف ، والأشرطة الحريرية ، والمناديل

القطنيـة ، والثيـاب المطرزة ، والحناء ، والكحل ، والبـهـارات ، والبـخـور ، والشـمـوع ، والحـبـال ، وقـرون الخـروب ، والأواني الخـزفـيـة ، والزجـاجـيـة والفخارية والنحاسية ، وماء الزهر ، وحزم الورد ، والخواتم والأساور ، وملاقط الشعر ، والسناسل ، والدبابيس ، نسـاء لا تخلو الواحـدة منهن من جمـال وألق ولطف ، نمرُّ بهن فينظرن إلينا بمودة وقبول .

ها هو ذا الدرب يصعد بنا ، والأشجار تحيط بنا ، والمحلات توازينا على الجانبين ، والخلق من حولنا في صعود وهبوط ، والشرفات تدلي الصبايا والنساء نحونا مثل القهوة حين تندلق من الدلاء اللامعة ، أسأل الحوذي جو : إلى الكنيسة ، فيقول : إلى الكنيسة . وأميل نحو سيلفا ؛ وأسالها إن كانت قد زارت الكنيسة من قبل ، فتقول عشرات المرات : فأسألها إن سرت بالزيارات ، فتقول : جداً . الكنيسة أعجوبة ، تحفة . ويمر بنا بائع تمر هندي ، يعترض طريقنا بلطف ، ويشرع بصب تمره الهندي في طاسات نحاسية حفت بها النقوش يناولنا الطاسات واحدة واحدة . . فنشرب ونحن نهزُّ رؤوسنا له امتناناً لهذا المذاق الحلو الطيب ، أناوله قطعة نقدية فيأخذها شاكراً ، ويستعيد الطاسات الفارغة إليه ونمضي صعوداً ، ها هي ذي الكنيسة تبدو وتبين مثل جبل من الرخام الخالص . . جدران بيض لكأنها غسلت للتو بضوء الفجر الشفيف ، وبوابة واسعة يحف بها عمودان من الرخام الصقيل ، يعلوهما تاجان مشجران تتوسطهما أيقونتان كبيرتان . . . للسيد والسيدة ، ومن خلف رأسيهما بدت هالتان من النور ، كما بدت أطواق من المصابيح الفضية المشدودة إلى السقوف تشع بأضوائها ، وصليب معدني كبير يعتلي القوس الرخامية الموشحة بالرسوم النباتية والطيور ، وفوقها تبدو النوافذ الجدارية المستطيلة التي أبدت أيقوناتها الكبيرة جداً . . . ها نحن نصعد أكثر فتبدو عتبات الكنيسة الرخامية وتبدو السلالم ، وحجارة الرخام الكبيرة جداً التي راح بعض

الناس يستريحون فوقها . . ها هي ذي القناديل الفضية والنحاسية تهبط من فضاءات السقوف منارة وقد أمسكت بها سلاسل نحاسية براقة . . ثمة حشد من الناس يتزاحمون على الدخول ، هذا صليب كبير مثبت فوق صف من الأيقونات مثبتة على حاجز رخامي عريض ، تبدو فيه قنطرتان عليهما رسوم . . لكأنهما بوابتان تفضيان إلى أقبية تحت بناء الكنيسة . . ها هي ذي الكنيسة أمامنا ، بناء ضخم ، فيه أبنية وكنائس كثيرة ومتجاورة للاتين ، والروم ، والكاثوليك ، واليونان ، والأرمن ، والقبط ، وها هن الراهبات بثيابهن السود المطرزة ، ووجوههن الباسمة ، يناولن الداخلين صلباناً خشبية من زيتون بيت لحم وشموعاً ، . . . أستدير بنظري ، وقد بت في أعلى منطقة في المدينة ، فأرى البيوت والكنيسة داخل بستان كبير من أشجار الزيتون وكروم العنب وشجيرات الرمان ، ما من متر من التراب يبدو لي ، إلا وفيه شجرة ، من حولنا يبدو سور حجري عريض جداً ، بعض أطرافه مهدّمة ، أسأل الحوذي جو عنه ، فيقول : إنه سور المدينة القديم ، وتضيف سيلفا : هدم مرات عدة ثم أعيد ترميمه ، وندخل بعد انتظار طويل ، فنرى أجنحة الكنيسة الواسعة وأعمدتها الرخامية الهائلة ، وأيقوناتها المحتشدة بالحزن والألم . . أحاول عد الأعمدة فأحصي منها أكثر من ثمانين عموداً ، وأحاول عد الأيقونات فلا أستطيع الإحاطة بها ، وكذلك هي القناديل والمصابيح والفوانيس والشمعدانات . . يأخذني الحوذي جو من يدي ، مثلما أخذ سيلفا من يدها ، ويهمهم : علينا أن نزور المغارة ، قبل أن يشتد الزحام ، وقبل أن تغلق لسبب أو آخر ، فنحث الخطا خلفه ، على الرغم من كثرة الناس وازدحامهم . . ثمة أصوات خفيفة ، وهمهمات ، وتمتمات ، ورجاءات ، وأدعية . . تدوي في المكان كدوي النحل . . وجوه مضيئة ، وشفاه راجفة ، وخطا متسارعة ، ولهوات راجية . . نقف حيث يقف الناس ، يقول الحوذي جو ، هو ذا محراب الكنيسة ،

استعدوا للدخول ، فندنو أكثر ، ونمشي وراء الناس الذين راحوا يهبطون درجات عشراً أو أكثر بقليل ، درجات رخامية واسعة ، فيقابلنا كلما انحدرنا ضوء بهّار ، لكأن المكان مصهرة للحديد أو الزجاج . . .

ندلف أكثر ، وأيدينا تمسح الخشب الذي تتوشح به الجدران ، خشب عسلي اللون يكاد لولا اكتظاظ الناس يضيء ، ها هي ذي فوانيس نحاسية وفضية تتدلى فوقنا بأضواء مشعة ، وهذه أيقونات تحف بنا ، وهذه مشابك خشبية كأنها نوافذ علقت عليها الصلبان ، إلى يميننا متسع رخامي كأنه فرشة وسيعة ، في وسطه نجمة مضيئة لها أربعة عشر رأساً أو جناحاً . . تشع بالنور وقد تساقطت عليها أضواء الفوانيس المتزاحمة فوقها ، وإلى جوارها يافطة مكتوب عليها بحروف مرسومة : هنا ولدت ماريا العذراء يسوعَ المسيح ، نقرأ اليافطة ونصلي . أنت وفي هذا المكان ، وكلما رأيت شيئاً تصلي ، وكلما خطوت تصلي ، إن رفعت رأسك إلى الأعلى تصلي ، وإن التفت إلى يسار أو يمين تصلي ، إن انحنيت تصلي . . لا كلام هنا سوى الصلاة ، ولا رجاء هنا إلا بالصلاة ، قوس من الفضة الخالصة تنحني على مدخل النجمة الفضية ، يبدو المتسع كالمهد حقاً ، أمتار قليلة ، أمتار من النور الذي يسيل على الحيطان كالزيت . وفي المقابل تماماً متسع رخامي آخر ، أقل ضوءاً هو المغارة التي لجأت إليها سيدتنا العذراء حين هربت بسيدنا واختفت عن أعين الجند الباحثين عن المواليد الجدد . . أسمع أحد الرهبان يقول لنا : هذه البقع البيض التي ترونها هي بقع الحليب التي سقطت من صدر سيدتنا لدى إرضاعها لسيدنا يسوع . ويطلب من سيلفا ، ونساء أخريات أن يتقدمن للدعاء والرجاء إن كن راغبات بالإنجاب ، فتتقدم الكثير من النساء ، عدا سيلفا ، ضوء شبيه بضوء القمر يلفُّ المغارة . . فيمنحها المزيد من المهابة والقداسة ، مساحات واسعة من الرخام تغطي أرضية المكان ، وأسيجة خشبية عسلية اللون تشبه

أقـراص النحل تغطي الحـيطان ، وقـد تدلت منهـا الشـمـعـدانات ، والأيقونات ، والفوانيس ، وستائر حريرية بلونيها الأحمر والأسود تتهدل مثل الياقات فوق النوافذ الطويلة ، وقد بدت منها عروق الذهب والفضة . . ونخـرج تحت وطأة الازدحـام مـدفـوعين بالأجـسـاد . . ونعـتـلي الدرجـات صـعـوداً ، فـيـقـابلنا برج الأجـراس الضـخـم بحـبـاله الغـليظة ، وأجـراسـه النحاسية اللامعة ، وأخشابه الضخمة المتصالبة ، وإلى جواره بئر مريم ، وقد اعتلتهـا مستـديرة برجيـة من الآجر الأحـمر ، وأحـاطت بهـا طاسـات من الفـضـة والنحـاس مـشـدودة إلى سـلاسـل فـضـيـة ونحـاسـيـة ، راح النـاس يتـسـابقـون إليـهـا ليـشـربوا من مـاء البـئـر . . ويصلوا . . فـتـقـدمنا وشـربنا وصلينا . . ثم خرجنا . . وعند البوابة اشترينا شمعاً ، وأوقدناه في مدخل الكنيسـة ، وعلقناه فوق الشمعدانات المنتشرة على الأعـمدة ، واشـترينا أكياساً صغيرة من الذرة ، والسمسم ، ونثرناها للحمام الذي يكاد يغطي قباب الكنيسة وسطوحها ، وأرضيتها الرخامية الواسعة ، ومشينا في درب راح ينحـدر بنا قليـلاً . . إلى حيـث واجـهـنا مـقـهى فـذهبنا إليـه وانتـحـينا بإحدى طاولاته ، ورحنا نأكل ما أحضرناه معنا من سندويش ، وجاءتنا القهوة . . بدونا والكنيسة تحلق فوقنا ، كأننا لم نغادرها بعد . وحين نهضنا سألتني سيلفا إن كنت مستعداً لاستقبالها مساءً ، فقلت : أتمنى ذلك ، ولكن ماذا أفعل بالعجوز مؤجرتي ، فقالت : لا عليك منها ، قلت : إذن ، اتفقنا . قالت : في التاسعة ، قلت : في التاسعة . أصارحك بأن قلبي رقص وابتهج ، فأنا وعلى الرغم من الخوف الذي يداخلني تجاه سيلفا ، إلا أنني أشعر نحوها بانجذاب شديد ، فأنا وطول وجودي في الكنيسة لم أترك يدها المعروقة ، صحيح أنني لم أحادثها ولم أسألها كثيراً ، لانشغالي بما أراه وأسمعه ، ولكن الصحيح أيضاً هو أنني اكتفيت منها بوجودها قربي حين مررنا بالنساء البائعات . . . قالت لي سيلفا : خذ لمسائنا جوزاً ولوزاً

وزبيباً . . من بيت لحم فأخذت ، واشترت هي رمانة واحدة كبيرة جداً ، قالت : هذه لك ، وكلما التقينا سأهديك واحدة . قلت : سنؤرخ للمحبة بالرمان ، قالت : بالرمان .

ووصلنا إلى العربة ، أخذناها ، ومضينا ، ونفسي مملوءة سعادة بما رأيته ، وسمعته ، وراحت العربة تنحدر بنا وكأن يداً من أيدي بنات بيت لحم تدفعها برفق كي تؤوب بهدوء وسلام» .

ملحوظة :

أود مصارحة الحوذي جو بمجيء سيلفا إليّ مساءً . فأنا لا أدري كيف أستل خيط خوفي منها ، ليتك قربي لتنصحني ، وليتك تبدد وحشتي بالكتابة إليّ .

ليلة سيلفا

«لكأنني جننت ،

فها أنذا لا أقوى على النوم قبل أن أكتب إليك عن ليلتي مع سيلفا . خفت أن أنام ، فتنام أحاسيسي ، وحين أصحو لا أقوى على كتابة ما شعرت به وما عشته . بداية ، أقول لك ، كانت ليلة استثنائية ليس لأنني التقيتها للمرة الأولى وحيداً ، ولا لأنها المرأة الوحيدة التي أعرفها هنا منذ مجيئي إلى هذه البلاد ، وإنما لأن ما عشته ، وما رأيته ، وما أحسست به كان استثنائياً .

لم يمض سوى ثلث الليل ، أو أكثر بقليل ، حين وافتني سيلفا على موعدها ، جاءت مثل بستان ، مثقلة بالألوان ، واللمعان ، والروائح ، والرؤى الساحرة ، والشوق العميم ، لكأنها كانت مثل رغيف الخبز الذي يتقمر على مهل ، ولعلي كنت محتشداً بالشوق لها . . لأنني بدوت في غيابها ، وفي أثناء انتظارها ، مثل طائر يحوم فوق عشه ، ولا يستطيع الدخول إليه لأن ثعباناً كمن فيه . .

سمعت صوتها الخافت وهي تحدث مؤجرتي العجوز اليهودية أم أهارون ، فضج قلبي وهاج . سمعتهما تتناغيان كالمزاييب دون أن أفهم من كلامهما شيئاً . وبدلاً من أن تهدأ روحي ، ويطمئن قلبي لحضورها وقد باتت قربي . . ازداد اضطرابي ، ولكأن سيلفا تحسبت لذلك فلم تصعد إليَّ مباشرة ، بل جالست العجوز ، وشربت القهوة عندها ، لعلها جعلت من

تلك المجالسة محطةً للقبض على صحوها وانتباهها ، وضبط انفعالاتها . . هي أيضاً .

كنت ، وبعد أن استيقظت من قيلولة الظهيرة ، وبعد عودتي من بيت لحم ، قد طوّفت في غرفتي ومطبخي وحمامي مرات عدة متفقداً كلَّ شيء . . الصحون ، والسكاكين ، والكاسات ، وزجاجات النبيذ ، والفواكه ، وكيسي اللوز والزبيب ، والأرفف ، هيأت فناجين القهوة ، وزجاجات الماء ، وعلبة التبغ المعدنية ، والشموع ، ونظّفت أرضية الغرفة ، وبلاط المطبخ ، والممر المؤدي إلى بيت الخلاء ، رشقت البيت ، كل البيت ، بالعطر ، ورفعت بعض الأوراق الصفر من النباتات التي تتوازع الممر ومدخل الغرفة ، ومسحت الطاولة التي أكتب عليها . أفرغت سلة القمامة مما فيها ، ورتّبت شرشف السرير ، وأبديت المخدتين الموشحتين بكلمتي (أحلام سعيدة) . وأخذت واحدة من وردات الدار ووضعتها في مزهرية بلورية طويلة العنق تتوسط الطاولة المحاذية للسرير .

وفتحت باب الثلاجة ونظرت إلى ما فيها ، رتبت محتوياتها قدر استطاعتي ، جعلت علب المرتديلا ، والجبنة ، والنقانق ، والعصير في متناول يدي . تفقدت قوالب الثلج ، ملأت بعضها بالماء ، ثم أغلقت باب الثلاجة ، ومسحت واجهتها الأمامية بخرقة مبلولة ، وجعلت كراسي طاولة الطعام متوازية في وقوفها ، وأبديت صحن الفواكه البلوري ، والمزهرية التي تحتشد فيها نباتات الخزامى ، وتفقدت شمعة الطاولة الدائرية التي تسبح في الإناء البلوري المملوء إلى وسطه بالماء . . ثم واقفت المرآة مرات ومرات ، تفحصت وجهي وشعري ، وثوبي الحريري . . وأخذت وجهي براحة يدي دعكاً كي أطمئن إلى صحوي وحضوري .

أعترف أنني كنت قلقاً ومضطرباً ومشدوداً إلى ما سيأتي من لقائي بـ سيلفا ، مشدوداً إلى المجهول ، إلى عالم لقاء المرأة بالرجل ، إلى دنيا

مساكنة المرأة ، إلى مشهد الوقوف في ظلها ، إلى رحلة اكتشافها . . وقد بت وحيداً أواجهها بمفردي . . فالحوذي جو ليس هنا ، أشعر كأنني بحاجة إليه ، لكنني سرعان ما أمحو هذا الشعور ، فالمخلوقة تركت العالم وراء ظهرها ، وجاءت إليَّ ، كي تروّي روحي ، وتُطمئن نفسي ، وتعيد قلبي إلى دقاته من دون ضجيج أو هلع . أفتح خزانة ثيابي وأخلصها من فوضاي وبعثرتي ، وأنحي أحذيتي جانباً ، أبعدها إلى آخر الخزانة ، ثم أجمع أوراقي وكتبي وأضعها فوق الطاولة إلى جوار الإناء البلوري الذي أسقطت فيه قالب الشمع المدور ، وقربها زهرة برتقالية اللون تشبه زهرة عباد الشمس ، ووقفت ، وضعت يديَّ في خصري ، وجلت النظر في جميع أنحاء الغرفة ، فوجدتها منتظمة مثل أشجار السرو ، كل شيء في مكانه ، وكل شيء في مثل ما هو كائن ، فأستدير خارجاً نحو الحمام ، آخذ حماماً دافئاً محتشداً برغوة الصابون ، وروائح العطر ، ثم أنتشل نفسي وأعود إلى غرفتي ، فأنشف شعري وأرجّله ، ثم أدهن يديَّ ، ووجهي ، وعنقي ، وصدري بمرهم له رائحة أخاذة ، وأتعطر ، ثم ألبس ثوبي الحريري . . أمام المرآة ، أبدو رائعاً وبادياً مثل صور المجلات ، وأدنو من مقعدي الطويل فأجلس عليه ، وأكافئ نفسي بكأس من النبيذ الأرجواني الساحر . . فأرتشف منه رشفة تماماً مثلما ترتشف نباتات الحبق حبيبات الندى الصباحي ، ورحت أنتظر صعود سيلفا إليَّ .

اعذرني ، فأنا أكتب إليك عن كل شيء ، كي تعيش ما أعيشه ، وكي تقول لي كفى قبل أن تجرفني التفاصيل ، لهذا لم أنم قبل أن أكتب إليك . ليتك تراني الآن ، فأنا مثل تلميذ صغير ينحني على واجبه البيتي يكتبه بالشغف والاهتمام الكاملين . .

حين سمعت صوت سيلفا يعلو مودعاً العجوز مؤجرتي ، أخذتني رجفة لم أعهدها في نفسي من قبل . فنهضت ، تقويت برشفة نبيذ ،

وشددت ثوبي الطويل إلى جسدي ، واستشرت مرآتي ، فرأيت صورتي التي أحلم بها ، لا أدري من أين جاءني هذا الجمال ، ومن أين جاءتني هذه الابتسامة الرائعة ، لا بد من أن النفس حين ترضى تبدي رضاها جمالاً ، وخفة ، ولطفاً لا يداني . .

ها هي ذي خطواتها تعتلي الدرجات الخشبية المفضية إليَّ ، يا لهذه الموسيقى الصاعدة ، أقف بالباب منتظراً بدوها ، ها هي ذي تتعالى ، وقد لفتها هالة من الضوء . . أسمعها تهمهم ، فأهمهم أنا أيضاً . . أندفع نحوها ، وأطوي الخطا التي تفصلني عنها ، آخذها بين ذراعيَّ ، وأنا أدعو الله أن يجعل من ذراعيَّ جناحين للإحاطة بها . . أراها ترتمي في صدري وترتخي عليه . . يا لهذا القبول والرضا ، ويا لهذا الجمال البهي ، رائحة عطرها ، تلفني ، ولدونة جسدها ، وحرير ثوبها ، وهفهفات شعرها ، وقبَّلها . . دنيا من الدهشة الآسرة تلفني وتدور بي . . ها هي ذي تبدو مضيئة مثل نجمة ، ورهيفة ناعمة كالطيور ، ومنداة لامعة مثل المروج . . أحسست بها تدع جسدها بين ذراعيَّ ، تمنحني إياه ، وهي ترتعش وتشهق مثل عصفور طاله البلل . أقبّلها في كل وجهها وجيدها ، وهي تروغ عني عابثة كي لا تقع القبل على القبل ، أراها ذاهبة في إغماضة عينين مثل غابة هبط عليها الليل فجأة . . وتدفعني برفق نحو الداخل كي ننهي وقوفنا قرب الباب ، وأنا الذي تمنيت أن تطيل وقوفها . . تدخل ، فألحق بها ، تضع ما بيدها فوق الطاولة ، وتنحّي حقيبتها عن كتفها وتهبط فوق المقعد الطويل مثل رفٍّ من طيور القطا . . تبدو فاتنةً وصافيةً وريّة بالظل مثل الغدران . . فأدور حولها ، أملأ كأسها بالنبيذ ، وأوقد شمعتي فيضيء الماء ويشع فتضيء الزهرة البرتقالية أكثر ، تشير عليّ أن أخفف من الإضاءة ، فلا أوافقها ، أقول لها ، إنها فرحتي كي أراها بكل تفاصيلها ، كي أرى هذا الجمال المقطوف من خمس أو ست غابات . . . فتضحك

قهقهة . أناولها كأسها ، وآخذ كأسي ، وأرامقها وترامقني ، ثم تتعالى انتباهة احتكاك الزجاج بالزجاج ، فنرتشف من شراب الملوك رشفتين . . أرى شفتيها لامعتين بطيوف الأرجوان ، وأرى نداء عينيها الرامشتين ، فأدنو منها . . . وقد باعدت لي في المكان كي أجالسها ، أخذها إلى صدري ، وأغمرها بذراعي ، أجول بأصابعي على وجهها مساً رقيقاً خفيفاً فأشعر بمتعة اللمس ، وأمسح على شعرها الأسود الطويل الناعم ، وأدور بأنفاسي حول أذنيها ، أقبلهما وأنفخ فيهما فتجفل مثل فرس ، وتتلوى وتتثنى . . هامسة : اصبر عليَّ قليلاً ، كي أسترد أنفاسي ، فالليل طويل ، فأهامسها أن تسامحني فالروح عطشى ، والشوق عميم ، وأهزها على صدري ، فتضج بالتأوه والهمهمات . . أراها تأخذ وجهي بين كفيها وتدني شفتي منها ، وهي تنظر في عيني ، فتبللهما بالرضاب البليل . يا لحلاوة ريقها ، ويا لبرية هذه الطعوم العواصي ، أناولها كأسها مرة ثانية ، وآخذ كأسي ، ثم نغيب في لهيب القبل ، فلا أدري مَنْ يُقبّل مَنْ ، ومن يأخذ بناصية مَنْ ، ومن يهامس مَنْ ، ومَنْ يذيب مَنْ ، ومَنْ يحتضن مَنْ ، ومَنْ يرجو مَنْ ، ومَنْ يطوي مَنْ . . أرى جسدها البلوري يشع مثل ضوء القمر . . أبيض وقد ورّدته أصابعي ، وأنفاسي ، وقُبلي المتتاليات ، لأول مرة في حياتي أدرك بأن الأجساد تمطر ندى ، وأنها تنشر الضوء مثلما تنشر الفلاحات الحب للطيور في الصباحات الباكرة ، وأن لها تصاهلاً كصهيل الخيل وقت الحمحمة ، وأن لها دندنة كدندنة الأغاني ، وظلالاً كظلال الأكف ، وأن لها دروباً كدروب القرى ، وسقوفاً عاليات مثل سقوف المعابد . .

أي سيلفا هذه يا خالقي!! فها آنذا أعي وأدرك أنني أفترش مرجة عشب ندي ، وحولي طيور وظلال وهواء ، وهذا الداني أمامي غدير تحفُّ به أعواد القصب ، وهذه البراقة اللامعة كمرآةٍ صفحةُ مائه البادية ، وهذه التي

تملأ سمعي حشرجة ناي حزين . . ها أنذا وحدي في بستان الأنوثة أماشي روحي وسط ضباب خفيف ، فوق خطا أثقلتها المودات الصافيات ، يظللها غيم حنون ، ويقودنا درب معشب يكاد لا يبين . .

فجأة ، انتبه على هزٍّ يد سيلفا . تقول لي : كفى . ضيّعت نفسك . فتأخذني انتباهةٌ إلى نار شبوب بجسد يتلوى مثل شال الحرير ، أرفع يدي كي أراقص اللهب ، فتنثال عليها نداوةٌ كرشقة الموج . . أعي ، ويد سيلفا تهزني أن غيبوبةً ما تطويني كالبساط وتطرّح بي إلى النائيات ، وأن شجراً ، وطيوراً ، وخيولاً ، وغيوماً ، ونجوماً ، ودروباً ، وبيوتاً ، وبلاداً ، وكائنات تمرُّ بي مباركةً كما يمر الحبر بالأسطر الطالعات .

أشعر بأنني حفنةُ هواء مأخوذةٌ بين ذراعيها ، وأنني الآن ارتجافةٌ حيية بين شفتيها ، همهمةٌ وحسب ، ظلٌّ ناحلٌ لعتبة يمرق فيها على عجل حبل نمال . . أدرك أنها تهزني ، وترجُّ جسدي كي أعود من خدري اللذيذ . . أشعر بأن مطراً غزيراً يغسلني وأن صوتاً دانياً كحفيف الشجر يلفني . . أنتبه ، فأرى نفسي غارقاً في حوضة الماء الدافئ ، وقربي سيلفا ، وقد غطانا الماء والبخار ورغوة الصابون ، وذراعاها . . تسندان رأسي ، أرفع جسدي ، وأوزع بصري على وجهها ، فتشرق ابتسامتها وتضيء ، أنهضها ، آخذها من الماء والبخار ورغوة الصابون طياً على صدري . . يا للنساء ، ويا للماء ، لكأن النساء بنات الماء ، ها هو ذا جسدها يتشكل أمامي من نثيث الماء . . آخذها إليَّ أكثر وقد طوقت خصري بذراعيها ، وأقبّلها كي أستعيد طعومها العواصي مرة أخرى ، أمد يدي إلى منشفتي الزرقاء ، فألف بها جسدها الوردي المضاء . . وأماشيها إلى غرفتي ، وقد مالت حنواً عليَّ . . فلا أفلتها ، ولا تفلتني إلا وقد ذبل عشبنا وهمد . . بانتظار ندى الصباح الطالع عما قريب .

أمشط شعرها ، وأضفره في جديلتين كبيرتين ، وأعطرها ، وأُلبس

جسدها الوردي البهيج ثوبها الوردي الشفيف وآخذ بحذائها قدميها الرقيقتين ، وأواقفها ، فتجول أصابعها في وجهي ، وشعري ، وصدري . . . تماماً مثلما تجول بها قُبلي شاردات كالطيور ، أسمع همسها ، وتمطق شفتيها ، وهمهماتها ، وأناتها ، ووشوشاتها ، وأراها تستدير! لكأن الليل يطوي شراعة ، لكأن الكتاب انتهى ، لكأن العناقيد صارت زبيباً . . تأخذ حقيبتها ، وتشير بيدها إلى كيسها الورقي الكبير ، وتخافتني همساً بأنها جاءتني بلوز ، وزبيب ، وشمع ، ونبيذ . . من أجل ليلة قابلة ، وتقبّلني ، وتمضي ، وأنا طيّ حيرتي وذهولي . . . لا أدري كيف أمنعها من أن تؤوب . تخطو ، فيتعالى وقع قدميها فوق درجات سلمي الخشبي فأوقن . . أنها حقاً تؤوب» .

ملحوظة :

سامحني ، ها أنذا أمامك عارياً ، فاغفر لي جرأتي . واقبلني ، كما عهدتك ، كي أحدثك عن بكاء سيلفا الليلي . . حين سألتها عن عملها في السجون . أرجوك ، بكل محبتنا ، أن تكتب إليّ .

الطريق إلى أريحا

«لا أدري ،

لماذا ، وفي هذا الصباح ، يخامرني شعور بأن رسالة منك قد وصلت إلى علبة بريدي ، وأن أخبارك كلها محتشدة في داخلها . لهذا ، وتحت المطر ، ذهبت إلى مكتب البريد القريب من الغرفة التي استأجرتها ، لأتأكد من صدق شعوري .

في الطريق ، وقد بللني المطر تماماً ، رأيت العشرات من الجنود البغالة ، وغير البغالة ، يقفون في الزوايا ، وعند مفارق الطرق ، وقرب الأبنية الحكومية ، وفي مداخل الحدائق ، وفوق الأرصفة ، رأيتهم يوجدون على نحو مكثف جداً .

في أول مقدمي إلى هنا ، ما كنت أشخص هؤلاء الجنود ، ولا أدرك معنى وقوفهم ، ولا أعي الأدوار التي يقومون بها ، الآن ، أشعر بأن عينيَّ لا تريان سواهم كعلامة بادية للظلم والإهانة والجور .

دخلت مكتب البريد ، وفتحت العلبة فلم أجد فيها شيئاً ، إنها خاوية كما عهدتها ، لا رسالة فيها ولا تحية ، فأحسست كمن رشق بماء بارد ، فعدت مباشرة إلى غرفتي لا ألوي على شيء ، شعرت بخيبة أمل ، فلم أستمتع برؤية شيء ، حتى المطر لم أفرح به ، ولم أبتهج له . فكل ما أراه حولي يصطدم بحضور البغالة ونهرهم ، وصراخهم المتعالي على الدوام ، لذلك دخلت غرفتي ، وهاتفت الحوذي جو ، وصارحته بأنني متضايق

وقلق ، فلا أخبار لديَّ من بطرسبورغ ، لا أحد يكتب إليَّ ، ثم لا أدري ماذا أفعل ، قال ببرود : دعك من الأخبار . اعتد على غيابها كي ترى جمالية الحياة هنا . قلت : بوجود هؤلاء البغالة . قال : هؤلاء طفح . قشر . انظر إلى الناس ، إلى الأرض ، ودعك من الطفح والقشر . وسألني إن كنت أود الخروج . فقلت له : أجل ، إلا إذا كان البحث عن ليلاه سيشغله عني ، قال بحماسة : بلا ليلى بلا زفت . أمهلني عشرين دقيقة فقط وأكون معك . إياك أن تفطر ، لأنني سآخذك لمكان مدهش خاص بطعام الأفطار . قلت له ضاحكاً : المهم أن تأتي . فقال : ها أنذا أستدير بالعربة نحو منزلك ، انتظرني ، فرحبت به .

كنت راغباً في أن أحاول وإياه ثانية زيارة كنيسة القيامة وبيت الشرق ، لعل البغالة يسمحون لنا في هذا اليوم المطير ، أن ندخل ، لعل السماء هدتهم ، أو لعل قلة الازدحام ، وقلة الناس في الشوارع خففا من توترهم وقلقهم .

أمس ، لم أرَ الحدائق الرائعة التي تحيط بالكنيسة كالسياج ، ولم أستمتع بجمال نوافيرها ، ولا بتحليقات طيورها البديعة ، ولم أدقق كثيراً بالأقواس الذهبية التي تزنرها ، ولا بالقبب الحاملة للصلبان النحاسية ، ولا بالنوافذ العلوية البلورية المصبوغة باللون الفيروزي المضيء ، مشهد البغالة ، وأيديهم التي تهز الهروات في الهواء ، وصفاراتهم المزعجة ، ومنعهم لنا من الدخول جعل بصري يرتد إليَّ خائباً . حتى التصوير لم أتفطن له ، وحين تفطنت . . قال لي الحوذي جو : دعك من التصوير . مزاجك معتكر ، لن تحصل على الصور التي تليق بالمكان ، استحسنت فكرة الحوذي واقتنعت بها ، فلم أصور صورة واحدة .

أعجبتني حساسية الحوذي جو ، وسرتني فطنته ، فتساءلت بيني وبين نفسي ، كيف غررت به ليلى ، كيف خدعته ، لعله كان يدب وراءها

دبيب القلب في الليل المدلهم .

وصل الحوذي جو ، فهبطت إليه ، بعدما أبى أن يصعد إليَّ كي يشرب قهوة الصباح ، قال لي : انزل ، لدينا ما هو أهم في قهوة الصباح ، فنزلت . علقت حقيبتي على كتفي ، وهبطت الدرجات الخشبية ، رأتني المرأة اليهودية التي أسكن عندها هابطاً ، فنظرت إليَّ بارتياب ، ولم تكلمني . باركت صباحها كعادتي دون أن أنتظر منها رداً كعادتها ، رأيت الحوذي جو مشرقاً يرنم أغنية تمجد هجرات السنونو والأعشاش الدافئة ، وبدا حصانه نشيطاً ، يكاد يتقافز في وقفته ، كما بدت ألوان العربة أكثر بدواً ولمعاناً . قلت سائلاً : لكأن تغييراً ما أصابك وحصانك والعربة ؛ قال : أبداً ، لا شيء جديد . الجديد هو أننا في صباح جديد ، وأنني سآخذك إلى امرأة ينادونها أم العز ، سنتناول الإفطار الشهي عندها ، وهي على مقربة شديدة من هنا . قلت : صباح جديد ، وغناء ، ونشاط ، وإفطار شهي ، وامرأة ، وعز . . هذا يعني أن سعادة ما في الطريق . قال مهمهماً : بل ، قل أكثر من سعادة .

في الطريق ، اقترحت على الحوذي جو ، أن نعاود المحاولة ، فنذهب إلى الكنيسة كي نصلي فيها ، وإلى بيت الشرق كي نراه . . . لعل البغالة ، في هذا الصباح الممطر ، سمحوا للناس بالدخول ، قال : لا ، البغالة وأعرفهم ، فالأوامر لديهم ليست ليوم أو يومين . . . بل لأوقات طويلة . قلت : إذن ، إلى أين سنذهب بعد تناولنا طعام الإفطار .

قال : إلى أريحا . قلت : أريحا . قال : أريحا ، سنذهب إليها في الطريق الذي مشاه سيدنا ، سأريك أمكنة لم تخطر ببالك قط ، وستعود من هناك مثقلاً بالدهشة ، قلت مبتهجاً : أية مفاجأة هذه؟ قال : المسافة من هنا إلى هناك تقدر بـ ٥٣ كم ، وسنهبط إليها هبوطاً سريعاً حتى لتصير المدينة بين أيدينا لشدة دنونا منها سنبدو معلقين في سمائها ونحن نهبط

إليها من علو ٨٥٠ متراً عن سطح البحر وصولاً إلى ٢٥٠ متراً تحت سطح البحر . قلت : وما الذي سنراه في الطريق؟ قال : الطريق موحش وصحراوي ، والهضاب ، والتلال ، والصخور العالية جداً تحيط به ، والمنعرجات والالتواءات كثيرة ، وحادة ومخيفة أيضاً . قلت : ألم يتغيّر الطريق من أيام سيدنا ، قال : بلى ، تغيّر كثيراً ، لكن ما زال الخوف يعشش في جنباته وزواياه ومنعرجاته .

قلت : وهل سنرى سدوم وعامورة ، قال سترى بعض الآثار ، بعض العلامات ، وسترى البحر الميت ، وتنحدر إليه ، فهو ينخفض عن سطح البحر ٣٩٣ متراً ، وإن شئت . . . لك أن تغتسل بمائه أيضاً . وسألته كيف خطرت بباله أريحا . فقال : اليوم يوم جمعة ، وسوف تكون القدس عرضة للمناوشات والمواجهات ما بين الجنود البغالة والمصلين المسلمين . قلت : لماذا؟ فقال : لأن البغالة سيحدون ، كعادتهم ، من تدفق المصلين إلى المسجد الأقصى كي لا يصلوا فيه ، سأريك بعد قليل ، آلاف الحواجز الحديدية التي وضعت على مبعدة كيلومترات من المسجد الأقصى كي يحول الجنود دون دخول المصلين إلى المسجد أو الاقتراب منه ، قلت : ولماذا يحدث هذا في بلاد سيدنا؟ قال : لأن البلاد بلاد سيدنا ، فهنا لا نجاة من الشرير . قلت : وهل يحدث هذا في كل أيام الجمعة . قال : نعم ، ففي أيام الجُمع يقوم اليهود بالتهيئة ليوم السبت ، لذلك يسمون يوم الجمعة بيوم التهيئة ، والمسلمون يأتون إلى الصلاة ، فصلاة الجمعة عندهم ذات خصوصية مميزة ولا يمكن تخطيها أو تفويتها ، وعادة ما تحدث معارك حقيقية حول محيط المسجد الأقصى ، ويقع قتلى وجرحى بسبب الاستفزازات والمعوقات والأذيات والمنع والغطرسة التي يقابل البغالةُ بها المصلين .

وددت أن أسأل الحوذي جو ما إذا كان المصلون من النساء والرجال ،

والصغار والكبار ، لكنه أوقف العربة إلى جوار شجرة كينا عالية ، اصطفت إلى جوارها صناديق خشبية عديدة ، وتحتها وقف بعض الناس اتقاءً للبلل ، قلت : يبدو أن أم العز هنا . قال : إنها هنا ، انظر وأشار بيده إليها .

فقفزتُ من العربة إلى الأرض ، ولذت بالشجرة كالآخرين ، فالمطر غزير ، ورحت أنظر حولي ، فرأيت امرأة عجوزاً ناحلة ، تجالس موقداً للنار ، تحت مظلة واسعة تشبه الرواق ، وأمامها صاج تخبز عليه الأرغفة ، وحولها عدد من كراسي القش الواطئة التي لا مساند لها ، وقد شغلها بعض الآكلين .

قال الحوذي ، وهو يأخذني من يدي : تعال ، هذه أم العز . أحسن من صنع مناقيش الزعتر في القدس . وتقدمنا نحوها ، امرأة لا يخلو وجهها من حسن ، موشومة الخدين والذقن . ما إن رأتنا حتى رفعت يدها ترحيباً بنا ، وتقدم نحونا شاب نحيل طويل ورحب بنا أيضاً . قال لي جو إنه ابنها ، وأشار إلى كرسيين غير مشغولين كي نجلس عليهما ، فتناولت والحوذي جو الكرسيين ، وأخذناهما إلى مقربة من أم العز كي نراها وهي تعمل ، وجلسنا قربها وهي تبتسم لنا . يا لرشاقة يديها ، ويا لأصابعها الطويلة ، ويا لابتسامتها المشرقة ، ويا لنظراتها الفاحصة المدققة ، كانت المرأة تخبز أرغفة الزعتر ، والقريش ، والزيتون ، وفطائر السبانخ والجبنة والفطر ، تقمرها بهدوء وكأنها تطرز أطراف ثوب ، ثم تنتشلها بأصابعها الطويلة دون أن تمس الصاج المحمّى . اقترب الشاب منا مرة ثانية وسألنا ماذا نريد من طعام ، فاخترنا من كل نوع قطعة واحدة ، فأخبر والدته ، فرفعت يديها ووضعتها فوق رأسها إشارة للاستجابة ، ومال عنا كي يعد لنا كاسات الشاي . وراحت أم العز تقدم لنا ما اخترناه قطعة قطعة ، يا إلهي ما ألذ هذا الزعتر الساخن ، وما أطيب فطائر الجبنة والقريش والسبانخ ، وما أزكى هذا الزيتون المدقوق .

كانت أم العز تشغل فسحة من الأرض مواجهة للشارع مباشرة ،

فسحة واسعة يبدو أنها كانت بناءً وأزيل . أسأل الحوذي جو عن المكان ، فيقول لي : هنا ، وفي مكان أم العز كان بناء لمطعم يديره زوجها وأولادها ، لكن الجنود البغالة هدموه بالجرافات لأنهم وجدوا كتابات تندد بهم وبأفعالهم الشائنة مكتوبة على جدران المطعم ليلاً . زوجها ، الآن ، في السجن . أما هي فقد أتت مع أولادها ورفعوا الأنقاض بمساعدة الآخرين ، ثم اقترحوا هذه الطريقة لتقديم الطعام للناس كي لا يستولي البغالة على الأرض . وقد تضامن الناس معهم ، لهذا تراهم ، وفي الصباح الباكر يتناولون طعام الإفطار هنا كواجب وطني .

ونهضنا ، تاركين أم العز لطعامها اللذيذ ، وناسها الطيبين ، بعد أن شكرناها وأخذنا العربة وانطلقنا بها نحو الدرب المنحدر من القدس إلى أريحا . قال لي الحوذي جو : لقد مررت بطريق القدس ـ أريحا مئات المرات ، وفي كل مرة لا يفارقني الشعور بالخوف ، وأتساءل كيف مشاه سيدنا من قبل وهو على هذه الدرجة من الوعورة والوهرة ، فالتلال المخيفة ، والصخور الشيطانية ، ورجوم الحجارة ، والأشواك المكومة هنا وهناك ، والمتطايرة والمتدحرجة . . تحيط به حتى لتكاد تطبق على من فيه . فأقول له : العناية الإلهية ، ويشير بيده إلى مجموعات عدة من البغالة الذين يقفون وراء الحواجز الحديدية فأهمهم له . إنهم شوك المدينة ، ونمضي ، ها نحن نترك آخر بيوت القدس ، آخر الأشجار والبساتين ، ونمشي في درب راح ينحدر على عجل مثل ساقية جارية لا تلوي على شيء . والمطر الذي كان يرافقنا . . انقطع فجأة لكأننا دخلنا تخماً صحراوياً . تمر بنا سيارات كبيرة وصغيرة ، وعربات تجرها خيول وحمير ، وإلى الجوار تبدو شجيرات شوكية صغيرة ، وأخرى أكبر منها لعلها أشجار تين أو صمغ . . لا جمال لها ولا بريق . تكاد العربة تحفّ بالصخور كلما مرت بقربها سيارات أو عربات ، وإلى الشمال واليمين تلال صخرية عالية أصابها الحت فتدرجت

صخورها على شكل مصاطب ومدرجات ، الصخور رمادية اللون كأنها كتل رصاصية ، كالحة مطفأة . وبالقرب منها نهضت رجوم الحجارة لكأن الأيدي كوّمتها على شكل بيادر هرمية . المنعطفات والمنعرجات تتوالى ، وخلف كل منها سيارات وعربات ، وحيوانات على ظهورها أكياس ، وأوانٍ ، وسلال ، وأقفاص فيها دجاج ، وبط ، وأوز ، وبسط ، وفرش وزلالي ، تمر بنا في ذهاب وإياب .

فجأة ، وخلف إحدى التلال ، وطي منعرج شبه دائري ، يتسع الدرب ، يتسع أكثر ، فيبدو بناء حجري متعدد الغرف ، وبناء آخر إلى جواره خشبي متعدد الغرف أيضاً ، أسأل الحوذي جو عنه ، فيقول لي : هذا (خان قهان) لاستراحة المسافرين ، ومبيتهم ، وتزودهم بالطعام والشراب ، قلت : لعله نبت بري مؤنس في أرض موحشة . قال : هذا ما ورد ذكره في الكتاب المقدس ، فالرجل الذي تحدث عنه الكتاب المقدس كان يقصد أريحا ، هنا وبالقرب من هذا (الخان قهان) قبض عليه اللصوص فعروّه من ثيابه ، وانهالوا عليه بالضرب ، وأخذوا كل ما معه من مال ومتاعٍ ، وتركوه يئن بين الحياة والموت ، وقد مرَّ به كهنة وأناس فحادوا عنه مخافةَ أن يكون فخاً أو شركاً للصوص وقطاع الطرق ، إلى أن عطف عليه سامري كان يمر في الطريق ، فداوى جراحه بالزيت والخمر ، ثم حمله على دابته إلى هذا (الخان قهان) ، واعتنى بأمره حتى اطمأن عليه ، وحين عزم على مواصلة رحلته ، أعطى صاحب الخان مبلغاً من المال (درهمين) كي يعتني بالجريح ، ووعده بأنه سيعطيه كل ما ينفقه من مال على الجريح في أثناء عودته إلى الخان ، قلت للحوذي جو : انظر ، البغالة يشيرون إلينا كي نتوقف . قال : سنتوقف ، وشد حبال العربة ، فتوقف الحصان ، وارتجت العربة في وقفتها المفاجئة .

كان عدد البغالة كبيراً ، وأمامهم اصطفت قافلة حمير كثيرة العدد

أيضاً ، وفوق كل حمار كيس من الخيش مملوء بما فيه ، كان نهير البغالة عالياً وصخبهم متداخلاً ، وأصحاب الحمير العديدة ، خمسة أو ستة أشخاص ، كانوا يقفون نصف عراة ، وقد ربطت أيديهم إلى وراء ظهورهم بأمراس القنب الرفيعة راحت أطرافها تتدلى وتهتز كلما حاولت أيديهم الحركة ، بدوا مذلين مهانين ، منكمشين على أنفسهم كالقنافذ ، ينظرون بأسى إلى الجنود البغالة الناهرين الغاضبين ، وفي الطرف البعيد بدا شاب منشغلاً بإمداد أنبوب بلاستيك أزرق اللون نحو المكان الذي تقف فيه قافلة الحمير المحملة بالأكياس المملوءة ، طرف الأنبوب الأول مشدود إلى حنفية ماء ، وطرفه الآخر قريب جداً من قافلة الحمير ، أحد البغالة يأمره بفتح الحنفية ، فيفتحها ، فيندفع الماء من الأنبوب غزيراً ، فيركض الشاب إلى حيث هو الماء المندفع من الطرف الثاني للأنبوب ، يرفعه بيده ، وبأمر من أحد جنود البغالة ، يشرع يرش أكياس الخيش التي تحملها قافلة الحمير ، فأخذت الحمير تتحرك يمنة ويسرة ، سألت الحوذي جو عن الذي يحدث . فقال : هذه أكياس مملوءة بالملح ، والبغالة يريدون إذابة الملح فوق ظهور الحمير أمام عيون أصحابها ، قلت : ملح . قال : ملح ، جاء به هؤلاء الملاحة من ملاحات البحر الميت . ورأيت الأكياس تنكمش وتضمر ، والملح يغسل ظهور الحمير ويسيل من قوائمها مثل الحليب أو رغوة الصابون ، والحمير ترتعش وتنتفض مثل حملان حديثة الولادة . وبدلاً من أن تتنشط الحمير ، وقد خفّ حملها ، رأيتها تنكمش في وقفاتها ثم تركع على الأرض جاثية وكأنها أقفاص من قصب . هززت يد الحوذي جو سائلاً ، فقال هامساً : يبس الملح على أجسادها فشلها . بعدئذ ، اقتيد أصحاب الحمير إلى الحمير فربطوا بذيولها ، ثم أغرقت الحمير بالماء مرة أخرى ، ثم ضربت فنهضت ، ثم مشت بتثاقل وهي تجر أصحابها خلفها فوق الأشواك ، والحجارة ، والضمور ، وهم يصرخون ويتألمون ، يا لقسوة

المشـهـد ، يا للإهانة التي لحـقت بهم ، ويا للأرواح الشـريرة التي راح أصحابها يضحكون بابتهاج ، قال الحوذي جو بخفوت : إنهم يواصلون الدور الذي قام به قطاع الطرق قبل ألفي سنة ، قلت : الفلسطينيون يئنون ، وما من سامري جديد ، لحظتئذ ، أشار البغالة لنا أن نمضي في الدرب ، أن نواصل نحن ومن بجوارنا المسير نحو أريحا ، وأن يواصل الآخرون القادمون من أريحا طريقهم إلى القدس ، لقد أرادوا لنا جميعاً أن نرى مشهد العقوبة بتمامها . مشينا ولا شيء يظللنا سوى الصمت ، والغُصّة الكبيرة التي تركها المشهد ، لا شيء يبارينا سوى الصخور المخيفة ، والتلال الموحشة . التفت إليّ الحوذي جو وقال : نحن في منتصف الطريق ، فقلت : أعاننا الله» .

ملحوظة :

أطلت عليك ، فاعذرني . سأحدثك عن أريحا والبحر الميت في رسالة أخرى ، أرجوك تخفف مما أنت فيه ، واكتب إلي .

في أريحا

«ما كنت راغباً أن أنهي رسالتي الماضية ،

إلا وقد حدثتك عن طرق إلى أريحا ، وأريحا ، والبحر الميت ، وسدوم وعامورة ، لكنني أطلت ، فاعذرني لأنني ها هنا أتمّ الحديث ، صحيح أنه حديث مر ، لكن أرجو أن تكون نهايته غير بدايته ، فأنا هنا ، أقوم بدور النحال الغشيم الذي يلسع ألف مرة كي يرفع قرصاً واحداً من العسل .

تابعنا سيرنا في الطريق الموحش ذاته ، فأحاطت بنا صخور عالية وأخرى راحت تنحني علينا ، لكأنها تهمّ بالهبوط أو السقوط في كل لحظة ، صخور صماء ، صفحاتها كالحديد المبرود ، وأشجار شوكية نحيلة ، تقوم على غصن أو غصنين ، وفي أعاليها اجتماع لإبر شوكية ، خضرتها تميل إلى الاصفرار الفاقع ، أشجار لا ظلال لها ، لا أوراق ، لا طيور مغردة غارقة في عزلتها الباهتة .

الحوذي جو صامت ، والحصان صامت ، وأنا صامت ، والعربة لولا طبيعتها لما أصدرت قرقعةً خافتةً . ما كان في بالي سوى مشهد قافلة الحمير التي انتفضت فجأة بعدما أغرقت بالماء وراحت تجري دون أن تعي أن خلفها أصحابها يُسحبون على وجوههم فوق الصخور ، والأشواك ، والحجارة ، والأتربة . . . حمير يطردها نهرُ البغالة ، وطلقات النار في الهواء ، وصراخ أصحابها وأنينهم .

التفت إلى الحوذي جو ، أسأله بماذا يفكر ، فيقول : لكأن اللعنة

أصابت هذا الطريق أيضاً . فأهمهم : تعني البغالة ، فيقول بأسى : البغالة . أسأله : أليست الطرق في القدس مصابة باللعنة أيضاً . قال : يبدو أن اللعنة حلت في المكان كله ، قلت : والحل : قال : الأمر يحتاج إلى هبوط جديد من جبل الأولمب لمحو اللعنة ، وللفصل بين الجلاد والضحية ، وبين القاتل والمقتول .

قلت : ومن أين نأتي بالأولمب ، وبإرادة الهبوط الجديد؟!

قال : لا بدّ من ذلك!

كان الحديث ثقيلاً متعباً ، في طريق ثقيل متعب ، لذلك ما إن صمتُ للحظات حتى شرع الحوذي جو يغني أغنية شجية عن بحار يودع زوجته على الشاطئ تصفه وهو يقبّلها بشوق وحزن ، وتصفه وهو يأخذ كفها بين كفيه . . . كزاد أخير له في رحلته البحرية ، أما هي ، فتقول الأغنية وما إن غاب في لجة البحر ، حتى عادت إلى بيت عشيقها . . . وقد كان أول عمل عملته ، هو أن غسلت وجهها من آثار قُبل زوجها البحار ، كما غسلت كفها عشرات المرات . . . وهي تهمهم . . ما عدت أحتمله ، إنه بحّار جاف ، ورائحته كريهة ، وطعم قبلته مالح ، وعودته القادمة غصة تنمو في الحلق . . . قلت للحوذي جو : لعلك تتذكر ليلى ، قال : لا ، إنني أتذكر بنات جنسها . قلت : لسن على شاكلة واحدة ، إنهن مثل الأشجار . قال متهكماً : لعلك تقصد أشجار طريق أريحا ، قلت : لا ، أقصد النساء ، فلولا المرأة لما طابت الحياة ؛ لما تعسَّلت ، قال : ولولاها لما اعتكرت الحياة وشاهت . قلت : ليلاك أفسدت ملحك . فقال : وملح الآخرين . ودونما إمهال أوقف العربة ، قال : دعنا نقف هنا ، لأريك المغارة الزجاجية ، وأشار إلى بيوت خشبية عدة متجاورة في الطرف الأيسر من الطريق ، قلت : مغارة زجاجية . قال : مغارة زجاجية ، اهبط ، وهبط هو ، فهبطت خلفه ، وراح يسحب خلفه حصانه إلى أن دنونا من جمهرة

من الناس الذين بدوا كأنهم دبابير يحومون قرب فتحة الوكر ، رأيت بعضاً منهم ينزلون مترادفين إلى داخل الفتحة . الحوذي جو ، ربط الحصان إلى أحد المذاود البادية قرب إحدى الغرف ، وأعطى للرجل الذي يشرف عليها قطعة نقد ، ثم اقتطع لنا تذكرتين للدخول . والتحقنا بالفتحة ، كان الناس يهبطون كل خمسة أشخاص على حدة ، وحين جاء دورنا ، هبطنا . . . الدرج الخشبي المزدوج ، فجهته اليمنى تأخذ الناس إلى الداخل ، وجهته اليسرى تعود بهم إلى الخارج . بدا الدرج مناراً بقوة ، وضوء بهّار جداً ، كأنه النار ، يشع في أسفله تماماً ، قلت للحوذي جو : ما هذه المفاجأة . قال : لولا البغالة لكانت الحياة هنا كلها مفاجآت . قلت ، وقد رأيت طول الدرج : وهل سنرى شيئاً مميزاً . قال : انتظر ، والتفت إلى امرأة كانت تصعد الدرج إلى جوارنا ، وسألها : ماذا رأيتِ . فقالت مبتسمة : خيال ، أعجوبة ، فنظر إليَّ الحوذي جو ، وقال : أسمعتَ؟ .

ورحنا نهبط ، وفكري يدور حول هذا المكان الموحش القاسي الذي لا يخلو من جمال وأعاجيب . في أسفل الدرج ، رأيت أربع أو خمس فتيات ، يأخذن بطاقات الدخول ، ويرشدن الناس إلى جهة المرور ، ويساعدن الآخرين على الصعود من أجل الخروج ، بدون كنسيج من الضوء ، أو كائنات من الماء أو الزجاج ، فهن شفيفات ومضيئات ولامعات ، فتيات لا يتكلمن ، بل يشرن بأيديهن الصغيرة الرقيقة إلى الاتجاهات ، لهن وجوه تجول فيها عيون دامعة ، وتضيئها ابتساماتٌ مشرقةٌ كالصباحات ، أشدُّ على يد الحوذي جو ، وأشير إليهن ، فيقول لي همساً : انتبه ، إنهن ساحرات ، فأشهق ، وقد جحظت عيناي ، وأتبعه في ممر قصير إضاءته خافتة ، ينتهي بنا إلى فضاء متسع ، تجول فيه غيوم بيض كالضباب ، أصرخ : ما هذا ، فيقول : تمالك نفسك ، وانظر وسع عينيك ، وتمتع بهذا الجمال . يا إلهي ، ما هذا؟ وإلى أي شيء يدير المرء بصره ، فهذه

الحيطان فجوات ، ونوافذ ، وأقواس صخرية شفيفة ملأها الضوء بالحضور ، إنها مرايا من الزجاج ، نكاد نرى أنفسنا فيها بكل الوضوح والتجلي ، وهذا السقف المقوس كنصف القمر مضيء ومشع ، ونتوءاته البلورية دانية تكاد تلامس رؤوسنا ، نرفع أيدينا إليها ، نلمسها إنها بلور حقيقي أو ماء تجمد للتو ، أو خيوط من الفضة الصافية ، وهذه الأجران الدانية والموزعة هنا وهناك زجاج أبيض يميل إلى زرقة خفيفة ، أضع كف يدي في أحدها فأراها بادية من الجهة المقابلة عبر شفافية صافية ، وهذه نتوءات صخرية على شكل طيور ، بلى ، ها هي ذي أجنحتها ، وها هي ذي مناقيرها ، وتلك صخور واقفة لكأنها شياه أو معيز . . أقترب منها . يا إلهي إنها شياه ومعيز حقاً ، كلها تضيء وتشع ، وهذه الحوضة حوضة ماء ، ها هو الماء يترقرق في داخلها ، أمد يدي لأبللها ، فلا أجد الماء ، إذاً ما هذا الذي يترقرق ويتلامع فتتبدى دوائره؟ وهنا إلى الجوار ، قرب صدر المغارة مصطبة شبيهة بالثلج ، وثمة ظلال تبديها الأضواء لأشخاص جالسين ، أبحث عنهم فلا أجدهم . . . أميل ناحية الحوذي ، وأسأله عن الظلال والأشخاص ، أقول له : أين هم؟ فيبتسم وهو يهمهم : كانوا هنا . . . ومضوا . قلت له : ومن هم؟ قال : سيدنا ورفقته . قلت : كانوا هنا! قال : كانوا هنا . قلت : والضوء ، وهذا الزجاج قال : بينما كانوا جلوساً يحتمون من المطر ، أبرقت الدنيا ، فاقتحم البرق المغارة ، فرفع سيدنا كفه في الهواء كي يتأدب البرق فأرجف ، وتوقف فملأ المكان بالضوء . . لهذا ترى المغارة على هذا النحو ، صخورها كالزجاج ، وحيطانها ، وأرضيتها كالزجج ، وصور من كانوا هنا مرسومة بالضوء على الزجاج ، قلت : هذه أيقونة ، قال : أعجوبة . . . واستدرنا ، فرأيت إلى جوار المصطبة ، أرغفة خبز ، وسمكاً ، وشبكة صيد ، وثلاث سلال . . . كلها متحجرة ومملوءة بالضوء ، أكثر ما أذهلني هو عيون السمك التي راحت تبرق وتتلامع كأنها حيّة تطلب الماء ،

وإلى الجوار قرون خروب ، وعيدان قصب ، وطاسة وسيعة لكأن ما فيها حليب أو لبن ، وعصا طويلة ذات عقد . . كلها من البلور الشفيف ، وتحت المصطبة مباشرة كتل من وحل الأحذية مسها الضوء فأشرقت ، وفي الأعالي ، ثمة طيور حمام تجول في فضاء المغارة المحتشد بالبخار ، وأخرى بادية متحجرة قرب طاقات السقف العلوية . . . لكأنها تهم بالطيران ، بدوت أشعر بخدر طفيف يلفُّ جسدي لكثرة ما طوفت بالمغارة ، ولكثرة ما استعدت رؤية ما رأيته . يقترب الحوذي جو مني يسألني الخروج فأرجوه أن نبقى قليلاً ، فيقول : لكن الآخرين يودون الدخول أيضاً ، فأوافقه ، ونمضي ، وقرب أسفل الدرج ، يقول لي الحوذي جو : ألديك رغبة في تذوق التين والزبيب؟ فأنظر إليه مستغرباً سؤاله ونحن في المغارة ، فيشير بيده إلى عدلين متكئين إلى جوار الدرج ، أحدهما مملوء بالتين والآخر مملوء بالزبيب ، أبتسم للحوذي وأنا أمدّ يدي نحوهما ، متلمساً . . . وأهمهم متعجباً : يا لهذا التين ، ويا لهذا الزبيب اللذين مسهما الضوء فسطعا .

أسأل الحوذي جو عنهما فيقول : جاء بهما أهل أريحا حين علموا بوجود سيدنا هنا ، ولفت نظري إلى غربال وسيع فيه قمح مسلوق وقال : وهذا أيضاً جاءت به امرأة من أريحا عرجاء ، وضعته هنا تقدمة لسيدنا ، فعادت سليمة لا عرج في رجلها ، قلت للحوذي : دعنا نرى ماذا في المغارة أيضاً أرجوك فشدني من يدي وساقني أمامه مثل شاة ، وعند الدرجة الأولى من الدرج ، لم أقو على عدم الالتفات نحو الفتيات المضيئات ، فرأيتهن باسمات مشرقات يرشدن الناس هنا وهناك وسط ضباب أبيض يشبه البخار الكثيف ، وخرجنا ، وقرب فتحة المغارة جلست وكأن جسدي فقد قوته كلها . . ولم أكن وحيداً ، فقد جاورني في الجلوس كل من كان يصعد الدرج أمامي وخلفي ، وبين انتباهة وأخرى رأيت فتيات جميلات طوالاً ، يقدمن الماء للجالسين في طاسات نحاسية وقد غمرن ماءها

بأوراق الغار والطيون .

ولم يمضِ وقت طويل حتى نهضنا ، أخذنا العربة إلى الطريق ، ومشينا ، ونحن في شبه غيبوبة أو خدر ، قلت للحوذي جو : أشعر بأن بللاً أصاب ثيابي ، فهل أصاب البلل ثيابك ، قال : بلى ، إنه بخار المغارة وقد صار ندى . صديقي ، تلك كانت المغارة ، أما هذه البادية فهي أريحا التي تتجلى مثل حمامة بيضاء ، بيوتها بيض ، وسماؤها بيضاء ، وأرضها بيضاء ، تجاورها بحيرة بيضاء أيضاً ، وتحيط بها تلال شديدة البياض . أسأل الحوذي عنها : فيقول : هي ذي الملاحات ، وندنو أكثر ، فتقترب البيوت منا ، ها هم أناس عراة أو نصف عراة يواقفون تلالاً بيضاً كأنها القطن أو الصوف ، وبأيديهم عصي غليظة ، طويلة . . يرفعونها في الهواء وينهالون بها على التلال البيض فيضج الصوت ويتعالى مع كل ضربة ، فأسأل الحوذي جو : أهي تلال الملح؟ فيقول : لا ، إنها الجير ، فكل بياض البيوت من هذا الجير ، إنهم يكسرونه ، ويبللونه بالماء كي يصير شبيهاً بالطين ، وإلى جوارهم أفران مملوءة بنار مخيفة تكاد لولا أبوابها الحديدية تفر من اجتماع لهيبها العنيف . وبالقرب منها دواليب خشبية تشبه النواعير ، يواقفها فخارون ، يضعون فوقها عجينة الفخار ، ويدورون الدواليب فتتشكل بين أيديهم الأواني ، والجرار ، أرى عجينة الفخار تسيل من بين أصابعهم كأنها الماء ، وثمة غلمان يحملون الجرار الطينية ويرتبونها فوق مصاطب حجرية ، وإلى جوارهم يقف زجاجون وراء مجامر من النار ، ينفخون في أنابيبهم الطويلة فتتشكل الأواني الزجاجية ، ومن حولهم ينشط غلمان أيضاً في تناولها ، وتوزيعها على مساحة واسعة من الأرض ، وعلى مبعدة منا وإلى يمين الطريق حيث هي الساقية الجارية ، تتعالى رائحة دباغة الجلود ، وتبدو الجلود رويداً رويداً منتشرة في الهواء الطلق فوق أطباق من القصب المضفور ، ومن حولنا يتوازع المكان نجارون وحدادون ،

فيتعالى صوت الطرق ويتداخل مع الأحاديث ، كما تتعالى أصوات منشرة هنا وأخرى هناك ، وتبدو الأخشاب وهي في اتكاءاتها على الحيطان وقرب واجهات المحال ، ويزداد صوت الطرق حدة ، فيبدو من الطرف البعيد نحاسون انحنوا على ما بين أيديهم طرقاً متتالياً وكأنهم خيالة يقطعون أمتار سباقهم الأخيرة ، وتبدو أواني النحاس معلقة ، ومرتبة ومرمية قرب واجهات الدكاكين لها لمعة تأخذ من القلب غصة ، وإلى جوارها جلود غنم نظيفة الصوف ، زاهية الألوان ، وعباءات ، ومناديل ، وعقل ، وحبال ، وخيطان ، وأمراس ، وثياب طويلة ، وبمحاذاتها تماماً رخامون منهمكون بألواح الرخام . . ينظفونها ، ويحفونها ، ويقصونها ، ويقطّعونها ، ويرسمون عليها ، ويجمعونها زمراً زمراً حسب حجومها وألوانها ، وفي الطرف المقابل ، مصبغة ، تفوح منها روائح العطور ، وتبدو أحواض الصابون الواسعة ، ويبدو العمال وهم يقطّعونها بوساطة القوالب الحديدية ، ثم يبدو محلان أو ثلاثة متجاورة . . يصنع عمالها المكانس على مشدات خشبية ، وقد علقوا مكانسهم على الحيطان ، وغلمان يرشونها بالماء ، وبالقرب منها نول خشبي كبير ، يجالسه رجل عجوز ينسج عليه بساطاً زاهي الألوان ، وقد علق بسطه وزلاليه على الحيطان ، وأمامه تماماً حنفية ماء مكتوب على كفها الرخامية البيضاء بالحبر الأسود [الفاتحة لروح الشيخ أنور الريحاوي] ، كنا قد وصلنا إلى مقدمة مدخل ضيق ، لذلك أوقف الحوذي جو العربة ، ودفع الحصان إلى شاب اقتاد الحصان والعربة إلى مذاود بادية للعيان ، ومشينا فبدت على الرصيف نسوة ملتفات بثياب سود وكحلية وزرقاء ، يجالسن دلاءً مملوءة باللبن ، والقريش ، والجبنة ، والزيتون ، والدبس ، والزعتر ، والتين المجفف ، والزبيب ، والجوز ، ودبس البندورة ، وأقراص العسل الشمعية ، والرمان ، ومربى الورد ، والقرع ، والبرتقال ، ونباتات البابونج ، والميرمية ، والزوفا ، والختمية ، وزهرة ستنا مريم .

أسأل الحوذي جو : ما هذا؟ فيقول : سوق أريحا . ويمرُّ بنا باعة جوالون يبيعون الثياب ، والمناديل ، والقبعات ، والأحذية ، والجوارب ، والصواني ، والبشاكير ، والأحزمة ، والدبابيس ، وقطع المشمع ، والسكاكين ، والسبحات ، وكتب الأدعية ، والعطور ، والحلويات ، وأرغفة الخبز المحلاة بالسكر ، وقطع جوز الهند ، والسندويش ، والسحلب ، والقهوة ، والشاي ، والميرمية ، وزجاجات الماء ، والمحارم الورقية ، والنظارات ، واللوحات الزجاجية ، والمنحوتات الخشبية ، وتماثيل الجص والفخار ، وتفاح العنبر ، وقطع النحاس ، والمرايا ، والعباءات ، والخرز ، والمكاحل ، وصور المغارة الزجاجية ، الكل يمر بنا مروجاً لبضاعته ، ومرحباً بمقدمنا ، أشعر كأنني داخل مغارة علي بابا ، فثمة مدار هنا يدور بنا وبالناس اسمه مدار السحر ، فالسوق المسقوفة بأعواد القصب المضفور ، وعلى الرغم من ضيقها وازدحامها ، تبدو فضاءً للدهشة والسحر والحركة الدائبة ، وثمة عوادون ينقرون على أوتارهم في مداخل محالهم فتسيل الموسيقى كما تسيل حبات العرق فوق أعناق الجياد النافرة ، وثمة عازف ناي يجول في السوق ناشراً وراءه عزفه الشجي دون أن يواقف أحداً ، أو يحادث أحداً ، لكأنه كائن بري عصي على الاجتماع ، أتابع خطوه الرشيق ، وعزفه يملأ أذنيَّ .

يشدني الحوذي جو من يدي ، يشير إلى امرأة جميلة تتوسط الرصيف ، وبالقرب منها حلقة من الشبان والشابات ، فنقترب منها ، أراها ترمي بضع صدفات على الرصيف ، ثم تغطيها بيدها ، وتسأل من صاحب الحظ لتقول له طالعه ، فيرمي أحدهم قطعه نقدية فيتعالى رنينها ، فتلتقطها أصابع المرأة بخفة وتخفيها في جيبها ، ثم ترفع يدها عن الصدفات وتهمهم له بكلمات تسر خاطره ، وأخرى إلى جوار الساقية التي رافقتنا منذ أول السوق ، تجالس مجموعة من الفتيات ، وبين يديها فانوس منار ، وإبر . يقول لي الحوذي جو : هذه الواشمة ، أراقبها قليلاً ، فأرى الإبر

تشوى على ذبالة الفانوس حتى تحمر رؤوسها ، ثم تدفن للحظات في كحل غامق ، ثم تدور بها بخفة ورشاقة على الخطوط التي رسمتها المرأة على الأيدي ، والفتيات بين بكاء وضحك وهرج ومرج . . . وفي الزاوية الدائرية امرأة أخرى تجالس موقداً تخبز عليه فطائر الجبنة والسبانخ ، وأرغفة الزعتر ، وبقربها شاب وشابة يأكلان ما في طبقهما . . وفوق الرصيف المحاذي لها بائع شراب الخروب ، والليمون ، والقمر دين . . . ينادي بصوت عذب على شرابه الريان . . .

أوقفُ الحوذي جو ، أرجوه أن نخرج من السوق ، فما عدت قادراً على الرؤية ، فيوافقني ، ويأخذني من يدي إلى مدخل جانبي تاركين سحر السوق وضجتها رغماً عنا . . . يقودني الحوذي إلى تلة تعلوها صخور سود كبيرة الحجم متجاورة ، ويقول لي تعال وانظر . . . فأقف على إحدى الصخرات وأنظر ، فأرى أمامي بستاناً لا نهاية له من شجر النخيل العالي ، وإلى يميني مقبرة المدينة ، قبور يأخذ بعضها برقاب بعضها الآخر مثل طوق الخرز ، وإلى يساري أرى البحر الميت ، بحيرة وسيعة صفحتها بيضاء تجول فيها بضعة قوارب ، وأناس ينتشرون على شطوطها ، وخلفي جدار حجري عال لا يفصح عن شيء ، أسأل الحوذي جو عنه ، فيقول لي : خلفه سادوم وعامورة ، فأصرخ به : سادوم وعامورة ، فيقول : سادوم وعامورة ، وأتقدم منه أكثر ، أرجوه أن نذهب نحوه كي نراهما ، فيستجيب لي ، يمشي أمامي فأتبعه ، أسأله ماذا تبقى منهما . فيقول : آثار ، علامات . أقول : وهل من خوف إن اقتربنا منهما ، يقول : هو الخوف من اللعنة ، أقول : كيف؟ يقول : سترى!!

ها هو الحائط الحجري يدنو ، إنه عريض ، وطويل ، يكاد يكون سوراً قصياً للمدينة . . نصل إلى الحائط ، إنه عال إلى حد مخيف ، قلت للحوذي كيف سنتخطاه ، وكيف سنرى الآثار والعلامات . . قال : انظر

توجد طاقات ، فتحات ، اقترب ، هذه واحدة ، انظر منها ، فاقتربت وانحنيت عليها ونظرت منها ، فرأيت ما أغم قلبي ، رأيت حشداً من البغالة ، والبغال ، والخيام ، والحفر ، والشباك ، والبيوت الخشبية ، وسيارات الجيش ، وقطع السلاح الكثيرة .

فعدت ببصري واجفاً كمن لدغ ، قال الحوذي جو : ها ماذا رأيت؟ قلت : بغال وبغالة . . وسلاح . . . قال : هؤلاء هم أهل سادوم وعامورة الجدد . . . واستدار وقد اعتكر وجهه . فاستدرت ، ولم ينطق بكلمة ، كما لم أنطق بكلمة ، لكأن المشهد أصابنا بالخرس ، مشيت وإياه إلى حيث هي العربة في مدخل السوق ، وهناك ناولت الشاب الذي حرسها قطعة نقدية ، وأخذ الحوذي جو العربة ، واستدار بها ، وأشار إليَّ كي أصعد ، فصعدت ، ومشينا ، تحفُّ بنا الأصوات المتداخلة وقرقعة العربة الرتيبة ، وبعد أمتار ، سألني : إلى البحر الميت؟ فقلت : لا ، أرجوك ، لقد اكتمل حزني ، دعنا نعود إلى القدس ، قال : هذا يعني أننا سنعود إلى هنا مرة أخرى كي ترى البحر الميت . قلت : سنعود ، لا شك ، فالبحر يحتاج إلى مزاج رائق ، وأنا اعتكرت نفسي ، فخذني إلى القدس . فهزَّ رأسه موافقاً ، وحين رآني غارقاً في صمتي ، راح يغني أغنية البحار العاشق ، وزوجته الخائنة ، أما أنا فرحت أهز رأسي وأرجه كي أُسقط منه ما رأيته من فتحة الجدار الضيقة .

ملحوظة :

أعذرني ، فأنا مقهور ومألوم .

بحق سيدنا . . . اكتب إليَّ أرجوك .

في السجن

«لعلك تقدر حالتي ،

لأنني أكتب إليك على هذا النحو الجنوني .

فأنا لا أدري إن كانت رسائلي تصل إليك أم لا ، ثم لا أدري إن كنت تكتب إليَّ كما أكتب إليك . ها أنذا أجالس وحدتي منتظراً قدوم سيلفا . هاتفتني في الصباح . قالت لي : لدي عمل يوم طويل . سأعود مرهقة متعبة . . ميتة أو أكاد . . سأنام ساعة أو ساعتين ، ربما ثلاث ساعات ، ثم أوافيك ليلاً . إياك والنوم باكراً .

قلت لها : سأجالس اثنين بانتظارك ، صحوي وشوقي . قالت : ربما تأخرت . قلت : تأخري كما يحلو لك ، ولكن تعالي . فقالت : أكيد .

لا أدري ما الذي فعلته بي سيلفا ، في المرة السابقة كانت جمرة متقدة ؛ ناراً كادت تلتهمني . لم تغادرني إلا وقد وقعتُ لها بأصابعي الخمس أنها كائن خرافي ، أسطوري . . وحين سألتني : لماذا؟ قلت لأن ما تعيشه نهاراً وليلاً في أثناء عملها يقتل الروح ، ويرمّد المشاعر ، ويورّث الكآبة والحزن . امرأة تعمل في العالم السفلي ، عالم المقابر والسجون ، عالم الغيبوبة الدنيوية . . حيث البكاء ، والانتظار ، والأسى ، والظلم ، والجور ، والخوف ، والقلق ، والانطفاء ، والموت ، ومع ذلك هي نجمة الحب المشتهى .

حين جاءت إليَّ ليلاً لا أدري كيف فتحت دارة أحزانها ، فدارت

الدنيا بها ، توامضت عيناها ، وارتجفت شفتاها ، وأخذت الرعشة أصابعها ، ولفّها الصمت . بدت مثل قطعة خشبية جامدة ، هامدة ، خائفة من مجاورة موقدة النار . حاولت أن أستعيدها إليَّ مرة أخرى كي يضيء وجهها ، وتتراقص عيناها ، وتشرق شفتاها بابتسامها الأخّاذ . . فما استطعت . قلت لها عابثاً ، ومشفقاً من كثرة ضمّي لها : حدثيني عن عملك . فانكمشت مثل قنفذ . واحتمت بكأسها وصمتها ، ثم قالت : لا أري كيف قادتني المقادير كي أكون في عالم لم أُخلق له . وأن أتعامل مع مخلوقات قهرها الزمان ، وخانتها الحياة . وصمتتْ ، وقد سحت دموعها فأبدت جمال وجهها . . مثل السواقي حين تماشي الحقول ، فأخذتها إلى صدري وغمرتها بذراعيَّ ، ورجوتها ألا تتحدث ، عما يحزنها ، أن تظل سيلفا المتوهجة كالضوء . . غير أنها اندفعت في الحديث ، قالت لي : لا أدري إن كنت قد دخلتَ سجناً في يوم من الأيام ، كزائر أو سجين . قلت : أبداً . قالت : (السجون مقابر حقيقية . ظلم وقهر ، وإماتة ، حياة مرفوعة إلى آجال غير مكتوبة ، روائح ، وقرف ، وأذيات متكاثرة كالفطر ، حيطان كالحة باهتة تقف ببلاهة وسذاجة ، ونوافذ صغيرة عالية لا تعرف المواقفة ولا التلويح ، ولا السلام ، نوافذ جرداء ، خرساء لا نباتات لها ولا عصافير ، لا شيء يجاورها لا عشب ولا ماء ، نوافذ مأسورة مشدودة إلى قضبان الحديد ، وبشر رموا إنسانيتهم على أعتابها ودخلوا إليها ، مكان لا قوانين له ولا ثوابت سوى سلب الآخرين آدميتهم . . مكان ملعون ورجيم . .)

في يومي الأول ، ذهبت إلى إدارة سجن المسكوبية ، هنا في القدس ، قابلت مدير السجن ، كان رجلاً ضخماً ، وجهه مدور ، يدعى شلومو بيسي ، استدار جسده حتى لكأن الانتفاخ أصاب كل جزء منه . قدمت إليه ملف إحالتي للعمل في السجن كباحثة اجتماعية ، فنظر إلى أوراقي

باستخفاف شديد ، واستدار ، انصرف إلى ورقة صغيرة وراح يكتب فيها ، ثم حين انتهى منها ، ناولني إياها ، قال لي : هنا ، وأشار إلى الورقة ، يوجد كل ما ستسألني عنه . والتفت إلى أوراقه وهاتفه ، وتركني أقرأ ما كتبه ، كانت الأسطر قليلة العدد ، ستة أو سبعة أسطر لا غير ، أولها يحدد لي مكان غرفتي ورقمها في البناء ، وثانيها يقول جملة واحدة هي :

كل من يدخل إلى هنا هو عدو . وثالثها يفصح عن مبادئ تلخصها كلمات : لا رأفة ، لا رحمة ، لا تعاطف ، ورابعها يشير إلى توصيف هو : كلهم ذئاب وإن أقنعوك بأنهم حملان . وخامسها يحدد وظيفتي : انتزاع الاعتراف ، وسادسها يحدد المآل : نريدهم أن يخرجوا من هنا ، أي السجناء ، أمواتاً جسداً وروحاً . وسابعها تحذيري : معلومات المكان سرية للغاية وهي ملك للمكان فقط .

قرأت الورقة ، وطويتها في كفي ، ولم أقل له كلمة واحدة ، وخرجت ، تتبعت إشارة السطر الأول ، فذهبت إلى مكتبي ، فقابلتني موظفة ، أدركت منذ اللحظات الأولى ، أن المكان دمرها .

فسألتها دونما تفكير : كيف هي الحياة هنا . فقالت بتأفف : هنا لا حياة ، الحياة هي خارج هذا المكان ، ولم أمض اليوم الأول حتى جاءني المأمور التنفيذي للسجن ، ويدعى مزراحي شابون دعاني كي أجول معه في بعض عنابر السجن ، كي أرى بعض النماذج الذئبية ، على حد تعبيره ، التي يتعاملون معها . . حين ماشيته رأيت ، ومن الممر العالي ، السجناء وقد خرجوا إلى ساحة صغيرة يحثون الخطا القصيرة العجلى دونما هدف سوى اختبار أرجلهم إن كانت ما تزال قادرة على المشي أو أنها نسيته . رأيتهم يمشون بين حائطين لا لون لهما ولا معنى ، خطاهم ذابلة ناحلة لا دروب لها ، ولا وجهة ، ووجوههم شاحبة رمادية اللون أو تكاد ، وعيونهم جاحظة ، وأجسادهم شائهة ، وصدورهم تطارد الهواء عبأً ،

وثيابهم مدموغة بكلمة سجين المتبوعة برقم عريض كأرقام لاعبي كرة السلة .

في وقوفي ، وإلى جواري المأمور التنفيذي للسجن سألت نفسي وعاتبتها : وهل درست وتعلمت كي أصل إلى هنا؟ وهل سأحمل أنوثتي كل صباح إلى هنا كي أجرّحها؟ وصممت ألا أبقى في هذا المكان أو ما يشبهه من أمكنة سرانية أخرى ، ومع ذلك ماشيت المأمور مزراحي شابون ، مررت بعنابر ، وزنازين ، وغرف تحقيق وتعذيب . . رأيت الأدوات الجهنمية ، وأحواض الماء ، والحبال التي يعلق بها السجناء ، وأجهزة الكهرباء ، والدواليب الكاوتشوكية ، وأكياس الخيش ، والشباك ، وقطع الحجارة ، والسلاسل الحديدية ، والأقشطة والأحزمة ، والكلاب المخيفة ، والقطط المرعبة ، والثعابين ، والعقارب ، والديوك .

حين لفظتْ كلمة الديوك ، سألتها مستغرباً : الديوك؟ قالت : ديوك جوّعوها ، ثم أطعموها اللحوم حتى اعتادتها طعاماً لها ، لقد رأيتها فيما بعد مرات ومرات وهي تنقر أجساد السجناء العارية وكأنها النسور ، تنشب مناقيرها في أجسادهم كالمخارز ، ثم تعود بما ظفرت به من لحومهم ، وعندئذ تتعالى الأنّات والصرخات . . بعد أن رأيت ما رأيته من أمكنة كالحة وأدوات ، ودم ، ووسخ ، وقرف . . عافت نفسي المكان ، وغشيني الغثيان . . فصممت أكثر أن أترك المكان إلى غير رجعة مهما كلفني الثمن! وصمتتْ .

فسألتها إن كانت قد غادرت المكان فعلاً . فقالت : لا . كنت أقول دائماً ، وفي كل صباح ، أن هذا اليوم هو يومي الأخير في ذلك المكان . . لكن الأيام ، والحياة ، وسوء الحظ ، وضعف إرادتي كلها تعاونت عليّ فأبقتني في ذلك المكان الكريه ، وحين حالفني الحظ ، وغادرته ، غادرته إلى مكان شبيه به ، لكأنه مشتق منه . . إنه سجن آخر . . مكان آخر

للأسى ، والحزن ، والعطب ، والإذابة ، والخوف ، والقهر ، والموت . . لقد أيقنت ، أنه كُتب عليَّ أن أعمل في هذا العالم السفلي ، كما أيقنت أن هذا العالم أفسد حياتي وخرّبها ، فلم أستطع جلو ما رسَّبته تلك الأمكنة في نفسي ، ولم أعش علاقة عاطفية واحدة أعتز بها ، كل الذين عرفتهم أفلتوني وأفلتهم ، لم يتركوا علامات تدل عليهم ، ولم أترك علامات تدل عليَّ ، كل ما عرفته كان علاقات عابرة ، سارّة أحياناً ، ومحزنة أحياناً أخرى ، العلاقة العاطفية التي أتذكرها وأستعيدها ، كانت علاقة مع سجين من بيت جالا ، كان شاباً حديث العهد بالسجن ، وجهه أسمر ، وعيناه سوداوان وشفتاه ممتلئتان . . فيهما شهوة بادية . . . رأيته مرات عدة ، ولم يكن بيني وبينه سوى الأسئلة والأجوبة . . وحين عرفت أنه مظلوم وبريء ، رحت أسأله عن حياته ، عن علاقاته العاطفية . . ولم أدر كيف جذبتني أخباره إليه ، كان محدثاً رائعاً ، وكان عاشقاً مجنوناً ، فقد حدثني عن سلوى عشيقته التي لوعته كثيراً فلم يهجرها ، وصبر عليها . . كان يذهب إليها ليلاً تحت المطر ، فيواجه بيتها لعلها تبدو وتبين ، لم يواعدها مرة واحدة ، كان يعتقد أنه يكفي أن يفكر بها كي يتحرك قلبها ويستجيب ، يكفي أن يخرج إليها وينتظرها كي تخرج إليه وتلاقيه ، ولكن سلوى كانت عنيدة ، تحب الدلال ، والرجاء ، والتوسل ، لا تعطي شيئاً إلا افتكاكاً ، وقال لي إن ما يؤلمه حقاً أنها حزينة جداً لغيابه ، تأتي لزيارته ، فتجلس أمام الشبك صامتة ، وقد سحت دموعها ، تبدو مثل شمعة كلامها ذوبانها . . لم يسمع منها كلمة واحدة ، طول مدة الزيارات التي جاءته بها ، وأن قلبه كان يرقص كلما رآها ، وكل ما يتذكره من زياراتها أن خطاها كانت ترتبك وهي تؤوب ، فتكاد تقع على وجهها بين لحظة وأخرى ، وأن دموعها ما زالت تضيء وتتلامع أمام ناظريه كجهجهة الفجر ، وقد انقطعت عن زيارته فجأة ، فراح يسأل عنها إلى أن عرف أنها ماتت .

أخوه قال له : انفجرت (مرارتها) فتسممت وماتت . طار عقله أو كاد ، فقد رحلت سلوى ، دربه إلى الحياة توارى ، نافذته نحو الحرية أغلقت ، كتاب أشواقه احترق ، انتظاره بات بلا معنى . . وتصمت سيلفا .

فأسألها ، وكيف تعلقت به فتقول : مرة مسحت على رأسه ، فأخذ باطن كفي وقبلها ، فانحنيت عليه ، تركت وجهي له ، فراح يقبّلني بشوق وهو يهمهم : مذ رأيتك ، ووجهك يعيش معي . لم أقتنع في يوم من الأيام أنكِ مثلهم ، أنت كائن آخر ، لا يمكن أن تكوني مثلهم . . هاتان الكفان للمحبة والضم ، وهذا الوجه للرضا والابتسام ، وهذا الحضور لطي الأحزان والوحشة القاتلة . . يا إلهي كم من مرة نسيت نفسي معه ، وكم من مرة نسي نفسه معي ، لم أتفطن إلى أن الدارة التلفزيونية تبدي ما في الغرف جميعاً ، وأنني كنت مراقبة ، وأن المسؤولين كانوا يراقبونني . . نسيت كل هذا ، وعشت لحظات إنسانية ملأى بالمحبة والعاطفة مع مجيد ، كنت أقوي عزيمته على الصعود فأقول له : إن السجن لن يغلق عليه ، وإنني سأنتظره خارج السجن . وعليه أن يكون لطيفاً وهادئاً كي تمضي فترة محكوميته . وكان يهز رأسه موافقاً . لقد ظن المسؤولون عني أنني أتّبع مع مجيد أسلوب الإغواء كي آخذ منه المعلومات ، وكنت أكتب في ملاحظاتي عنه أنه سيحدثني عن خلايا نائمة في المخيم ، وسوف يبوح لي بالأسماء . كنت أكذب عليهم ، وكانوا يصدقونني . مجيد هو الوحيد الذي جعلني أنسى ما يحدث في السجن ، وما أعيشه من أسى وحزن . . إلى أن نقلوه إلى سجن آخر ، وحين ذهبت لزيارته ، تنبه المسؤولون إلى أنني أتبع قلبي ، فنقلوني إلى أحد سجون النساء ، وحين ذهبت لزيارة مجيد مرة ثانية لم أجده في سجنه ، فقد نقلوه هو الآخر إلى سجن آخر . .

وآخذ سيلفا بين ذراعيَّ ، أهزُّها على صدري ، وأهدهدها مثل طفل ، فقد غسلت دموعها وجهها . . . وأهامسها كفى ، كفى! لكنها تمضي في

الحديث ، تقول لي : لا تدري حقيقة في أي مكان أعيش نهاري ، دنيا من الألم ، والجروح ، والعذاب ، والقهر . . . صدقني أنني أمضيتُ سنوات من عمري وأنا أبكي بعيداً عن أعين المسؤولين عن السجون ، إلى أن بت أعتاد على ما أراه وأعيشه بسبب تكراره وكثرة حدوثه ، ولكن انهياراتي ظلت تباغتني ، رأيت مشاهد الألم والظلم ، تمسح دموعي ، وتخنقني حشرجاتي . . قلتُ لها : أرجوك سيلفا ، حرقتِ مساءنا بذكرياتك ، قالت : لا ، عليك أن تعرف ماذا حدث لسميرة ، وعائشة ، وسعدية ، وخديجة ، وبديعة ، وأمل . . والمئات من السجينات ، لكم رأيتهن عاريات أمام زجاجات النبيذ والبيرة الفارغة ، زجاجات ذات أعناق طويلة . . صارت عنواناً لرعبهن ، زجاجات مثبتة في ثقوب خشبية ، نساء عاريات أيديهن مربوطة إلى وراء ظهورهن ، وأرجلهن مشدودة برباط إلى الحيطان ، يجبرن على القرفصاء فوق أعناق الزجاجات الطويلة الفارغة ، كي يُغتصبن بالأعناق الزجاجية ، فتتعالى الصرخات والأنات ، ويتفجر الدم ، مرات ومرات يعاد الاغتصاب كي تنتزع منهن الاعترافات ، وإن لم يعترفن ، يمددن أرضاً وقد فتحت أفخاذهن بأربطة تشدها إلى حلقات حديدية مثبتة في الأرض الخشبية . . ويغتصبن بالعصي الطويلة . . يا للمشهد الوقح ، ويا للصرخات الوحشية ، ويا للألم الذي يندفع كالثيران . . وحين يصير الصراخ نهنهات . . يطلب منهن الاعتراف ، فإن ظللن على ارتجافهن ، وازرقاقهن ، وخوفهن ، وخرسهن . . يشرع المحققون بكي صدورهن ، وأفخاذهن ، ووجوههن . . بجمر السكائر . . كم من مرة رأيت مشهدهن المؤلم المبكي ، وكم من مرة بكيت ، وصرخت ، وتقيأت . . وإن لم يستجبن اعترافاً ، يفكون أربطة أرجلهن ، ويدخلون عليهن القطط البرية الشرسة ، والكلاب المتوحشة . .

وعندئذٍ لا يدري أحد أي صراخ يصدر عنهن ، وأي ألم يشعرن به ،

وأي خوف يعايشنه . . لحظتئذ لا أقوى على مشاهدة المطاردة التي تحدث بين النساء والكلاب والقطط المهاجمة وكي يزداد المشهد أذى وأسى ، تُغطّى رؤوس النساء بأكياس كتانية وسخة لونها أحمر ، فلا تنتهي المطاردة إلا بالارتماء ، والخرس ، ارتماء النساء أرضاً ، واقتحام الكلاب والقطط لأجسادهن واعتلائها ، والخرس التام الذي يطبق على النساء كي لا تمعن الكلاب والقطط في النهش المدمي .

وحين تخرج الكلاب والقطط ، تُرش النساء العاريات بالماء البارد المثلّج ، فتأخذهن رعدة الخوف وارتجافة البرد في آن ، فتصير أجسادهن مثل راية زرقاء ترقص في الهواء .

ونهضت سيلفا ، فأمسح على شعرها ، وأجول بأصابعي على وجهها فأشعر ببلل دموعها ، أسألها أن تكف عن الحديث ، فتقول : دعني أتحدث ، فما أراه يكاد يقتلني ، وما من أحد أحدثه سوى الحوذي جو الذي تعرفت إليه مصادفة ، رأيته في عربته يغني ، فأوقفته ، وصعدتُ إلى عربته ، قال : إلى أين؟ قلت : ليس إلى أي مكان فأنا لا أريد منك سوى أن تسمعني . ورحت أحدثه عما يحدث في السجون ، ولم أتركه في المرة الأولى ، إلا وقد صار يصفر ألماً . . . قلتُ : ما استمعت إليه يكفي . قالت بغضب كيف وهل تعرف ما حدث : لصالح الأسمر؟ قلت : لا . قالت : قطعوا عضوه التناسلي . لأنه حلف يميناً أنه سيتزوج عشر نسوان كي ينجبن أبناءً يأخذون بثأره من سجانيه . لم يتركوا طريقة جهنمية من طرائق التعذيب إلا وجرّبوها عليه ، كووه بأسلاك الكهرباء ، وأدخلوه في كيس خيش كبير وأدخلوا معه كلباً شرساً قطع له ثلاث أصابع ، وانتزع أذنه ، علّقوه بالحبال شبحاً أياماً وأياماً ، أدخلوا عبوات الأقلام الجافة في عضوه التناسلي ، اقتلعوا أظفار يديه بوساطة الملازم الحديدية التي يستخدمها الحدادون والنجارون . . . يا لصراخ صالح الأسمر ، لقد حوّلوه

لوحش ، يأتون به للتعذيب ، ويخرجونه جثة هامدة ، فيحمله رفاقه ، يبللون جسده بالماء كيما يستعيد نبضه ، وما إن يعود إلى الحياة حتى يعاد إلى التعذيب مرة أخرى ، ولكم تحايل رفاقه على السجان كي ينالوا التعذيب بدلاً منه ، إلا أن السجانين كانوا وفي كل مرة يكتشفون الأمر فيعذبون الجميع بسببه وهو معهم . . لم أر مخلوقاً شامخاً مثل صالح الأسمر لقد جعلوه دودة داخل السجن ، فلم يعد يقوى على المشي ، صار يزحف على بطنه ، داخل زنزانته ، كما صار رفاقه يحملونه على بطانية إلى الباحة الصغيرة كي يتنفس خارج زنزانته . . وحين اقتربت نهاية محكوميته . . قطعوا عضوه التناسلي ، مخافة أن يعود إلى الحياة مرة أخرى ، وأن يتزوج عشر نسوان فينجبن أبناء يأخذون بثأره من سجّانه . .

قلت لـ سيلفا ، وأنا آخذها بين ذراعيَّ : كفى ، أرجوك ، حرقت قلبي . فتقول ، وقد امتلأ وجهها بالدموع . . لقد ابتدعوا أساليب جهنمية لتعذيب المساجين ، أعادوهم إلى المشاهد الوحشية التي كان يجسدها الرومان مع المجرمين ، حين كانوا يخرجونهم إلى الساحات ، ويدفعون بهم نحوهم الأسود الجوعى ، فلا ينتهي الصراع ، ولا تختتم المطاردة إلا وقد ظفرت الأسود بطرائدها . . تصور أنهم يأتون بطلاب المدارس الدينية يومياً إلى السجون ، يجلسونهم في شرفات السجون العلوية وبين أيديهم الحجارة ، والبندورة الفاسدة ، والبيض الفاسد ، والأحذية القديمة ، والزجاجات الفارغة ، وما إن يخرج المساجين إلى الباحة الصغيرة حتى يشرع الطلاب بقذفهم بكل ما جاؤوا به . . فيلوذ السجناء ، بعضهم ببعضهم الآخر ، ويدخلون إلى زنازينهم وعنابرهم . . فلا يبقى في الباحة سوى أكوام البندورة ، والبيض ، والأحذية ، والحجارة ، والزجاجات الفارغة . . مشاهد تذكرني كلما رأيتها بالمشاهد السينمائية التي احتفت بالتاريخ الروماني ، ولك أن تعرف أن هؤلاء الطلبة يخرجون إلى السجون في أثناء حصص

التربية الوطنية . . يرجمون السجناء . . ثم يعودون ، فتوزع عليهم أصابع الشوكولا مكافأة لهم على ما قاموا به ، وحين يعودون من مدارسهم يحدثون أهاليهم عما صنعوه . .

وتصمت سيلفا ، فأعتصرها على صدري ، وآخذ دمعها براحة يدي ، وأرجوها أن تعود سيلفا التي استولت على قلبي . . . فتبتسم ، وتهمهم بشفتين راجفتين : أنت بيتي الآن وملاذي ، وعشي الذي أحب ، فأشدها إليَّ متمنياً لو كان بمقدوري أن أضعها في صدري وأغلق عليها . . .

ولا تعود سيلفا إلى حديثها المتدفق ، ونشاطها المفرط ، وابتسامها الجميل ، ووداعتها الألوف . . تنسى دور العاشقة الفراشة التي تحوّم حول الضوء ، أراها هامدة كثياب أصابها البلل ، فأحاول إعادتها إلى ما كانت عليه إلا أنني أخفق . فتنهض وتأخذ وجهي بين كفيها ، تقبّلني ، وتخرج ، تهبط الدرجات الخشبية وتؤوب . .

ها أنذا أتذكرها الآن ، وقد هاتفتني ، تخبرني بمجيئها . . فأجالس صحوي وشوقي . . انتظاراً لمجيئها السّار» . .

ملحوظة :

أوجعت قلبي سيلفا ، وهي تحدثني عما يحدث في سجونهم ، ولا أدري إن كانت ستحدثني عما يحدث فيها أيضاً هذه الليلة ، ما أدريه هو أنها آتية ، وأنني أنتظرها متمنياً أن أستعيد وإياها أشواق تلك الليلة النادرة .

العنب في الخليل

«أكتب إليك ، وقلبي يدق لك

فأنا لا أدري ما هي أخبارك ، كما لا أدري لماذا لا تكتب إليَّ ، وإن كنت تكتب فأنا لا أدري لماذا لا تصل رسائلك إليَّ ، صدقني أن روحي عطشى لكلماتك ، وأنك معي أفكر بك ليل نهار ، ليتك معي ، وليت رسائلك تصل إليَّ ، فأبل روحي بما فيها . وعدتك أن أكتب إليك بعض القصائد ، لكنني لم أستطع ، فكلما جالست القصيدة تفرّ مني مثل طير نفور .

أنا الآن في عربة الحوذي جو الذي انصرف عني وراح يغني ، وأنا خلفه في المقعد الطويل أكتب إليك ما أراه ، فنحن في طريقنا إلى الخليل ، تجاوزنا بيت لحم وقد ماشتنا حقول الزيتون ، وكروم العنب ، وقطعان الماشية ، ها هي قرية بيت ساحور تبدو ، وقد تجلى في مقدمة مدخلها البغالة والبغال والكلاب وسيارات الصفيح ، نقف عندهم بإشارة باهتة من أحدهم ، يسألون عن أوراقنا وتصاريحنا ، فيناول الحوذي جو الأوراق والتصاريح لأحدهم ، ينظر فيها ، ثم يعيدها ويدعونا إلى المتابعة ، فنمشي . . نحو البيوت الحجرية التي ترهج في ضوء الصباح البهي ، وقد بدت أسيجة الورد تحيط بها ، نرى النساء وقد خرجنا إلى فناءات البيوت يغسلن ، ويخبزن ، يلبسن الثياب السود الطويلة المطرزة ، وعلى رؤوسهن مناديل سود ، وتحتها تتدلى الليرات الذهبية المصفوفة مجاورة فوق الجبين ،

مررنا بامرأة تخبز ، وقد عبقت رائحة الخبز ، فملأت الأجواء ، كانت تواقف تنورها ، وتلوّح بأرغفة العجين بين يديها كأنها الأقمار . . وحين ترضى عن استداراتها تلصقها في باطن التنور ، عندما صرنا قربها تماماً . . رفعت يدها ملوحة ، ونادتنا كي نقترب منها أكثر ، فاقتربنا ، ناولتنا رغيفين من الخبز المقمر الساخن ، وقد بدت فقاعاته الشقر ، أخذنا الرغيفين امتناناً وهي تبتسم لنا ، وقد لمعت داخل فمها سنان ذهبيتان . . زادتا ابتسامتها جمالاً على جمال ، وسألتنا إن كنا نحتاج إلى ماء أو إلى أي شيء فشكرناها ومضينا . . حولنا ، وعلى سفوح التلال ، انتشرت قطعان الماشية . . أغنام ، ومعيز ، وأبقار ، وحولها تجول حمير وكلاب ، وقد راح الرعيان ينفخون في ناياتهم فتصدر عنها نغمات شجية .

يلتفت الحوذي جو نحوي ، يقول لي : دعك من الكتابة الآن وانظر إلى جمال الله على الأرض ، انظرْ إلى أشجار الزيتون الخرافية ودقق في جذوعها التي باتت تشبه الغرف ، دع شاعريتك لليل . قلت : فعلاً إنها تشبه الأكواخ الخشبية التي لا ينقصها سوى العشاق ، أستجيب لطلبه فأجول بنظري فأرى كروم العنب وكأنها بيوت للخضرة تتوازع المكان . . هنا في الجوار ، وفي سفح هذه التلة القريبة ارتفعت يافطة لقرية دانية كتب عليها بيت نجار ، وإلى جوارها ، على مبعدة أمتار فقط ، يقف البغالة والبغال والكلاب والسيارات المصفحة ، نريهم أوراقنا وتصاريحنا ، ونمر بكروم العنب المعرشة . نرى نساء ورجالاً يحيطون ببراميل ، وأواني فخارية ، وأخرى نحاسية ، وبمحاذاتهم تسيل إلى الأسفل ساقية ماء لها لمعة ورهجة وقد داخلها الضوء ، أرى غرابيل ، وقطع قماش ملونة ، ومغارف خشبية طويلة ، وأخرى نحاسية طويلة أيضاً ، نقترب من الجمع أكثر فنرى قففاً ودلاءً وصناديق مملوءة بعناقيد العنب ، ومواقد عليها قدور نحاسية كبيرة ، وأكواماً من الحطب والشوك . . حين واقفناهم عرفنا أنهم يصنعون

مربيات العنب ، النساء يحوّمن حول القدور فيأخذن بذور العنب بمشابك حديدية ، ويحركن العنب في القدور ، ويضفن الماء إليها بين حين وآخر ، ويضاعفن كميات الحطب تحتها ، والرجال يفرغون حمولة عربات عديدة ، ينقلون ما فيها من العنب إلى أحواض الماء ، . . أحد الرجال قدّم إلينا كمية من العناقيد في سلة ، بدت حبات العنب طويلة وممتلئة مثل الأصابع ، نودعهم ، فتمضي بنا العربة وراء الدرب الإسفلتي الطويل المتعرج ، وفي أحد منعرجاته نواجه مرة أخرى البغالة والبغال والكلاب وسيارات الجيش ، يرون أوراقنا ، فنمر ، ندور حول المنعرج فتبدو قرية اسمها بيت أمر ، بيوتها تحاذي الدرب وهي مبنية من الحجارة الكلسية البيض ، نرى مشاتل الورد ودوالي العنب في مداخلها ، وأشجار الكينا ، والزعرور ، والحواكير . . يعلو بنا المكان فنماشي الغيوم المتهادية على مهل ، ونرى الأطفال وهم يلعبون في فسحات الدور ، وطيور الدجاج والبط والأوز تجول بين الأشجار وقرب السواقي والأسيجة ، والنساء يغسلن ، ويخبزن ، والصبايا يحملن جرار الماء في ذهاب وإياب . . وننحدر خلف الدرب ، وإذ بالبغالة والبغال والكلاب وسيارات الجيش تواقف صخوراً عالية ، نريهم أوراقنا مرة أخرى ، ونمر . . وتواجهنا يافطة زرقاء لقرية سعير ، بيوت قليلة منتشرة في صفحة واد متوسط العمق ، تبدو أشجاره الكثيرة المتجاورة كأنها غابة ، وتتلامع في عمقه الأبعد صفحة ماء راكد أو يكاد . نمر بالجوار من البيوت ، قرب الحواكير ، وقد بدت فزاعاتها ، والطيور تحوّم حولها .

نمشي نحو قرية اسمها الشيوخ تلوح من بعيد ، بيوت حجرية كلسية متفرقة ، يظل الدرب يماشيها ولا يقترب منها ، في الطريق الفرعي المؤدي إليها يقف البغالة والبغال والكلاب وسيارات الصفيح أيضاً ، نريهم الأوراق ونمشي ، ونصعد سطح تل ، فتواجهنا قرية كبيرة واسعة الامتداد اسمها حلحلول ، يلتفت الحوذي جو نحوي يسألني إن كنت ما أزال أكتب ،

فأقول له أحاول أن أسجل ما أراه ، فيقول لي : سندخل إلى قرية حلحلول ، هذه القرية احتضنت سيدنا ليلة واحدة ، وحمته من مطارديه الذين كانوا يتربصون به كي يقتلوه . أخفته امرأة جميلة في أثناء غياب زوجها لأنها رأت أزهار السياج تتفتح فجأة عند الغروب ، في أثناء مرور سيدنا قاصداً دارها فقالت له : لا شك أنك الجليل ابن الناصرة . فسألها من أدراها؟ فقالت : الورد فتحّ لأجلك . . فقال لها : أنت قلت هذا ، فأخذته إلى داخل دارها ، وسقته حليباً ، وأطعمته عنباً ، وابناها الصغيران ينظران إليه بدهشة ، ويد سيدنا تباركهما ، وحين جاء زوجها ، قال لها لا أدري من أعادني إلى البيت قبل أن أتم عملي ، لكأن أحداً ما قال لي عد ، ففي بيتك أمر جلل . فقالت له زوجته : سيدنا الجليلي ، ابن الناصرة هنا ، لجأ إلينا لأن مطارديه يتعقبون خطاه ، فدخل عليه ، فوجده نائماً وهالة قمرية كالنسيج تغطيه ، وإلى جواره اثنان من مريديه ، أحدهما يغط في النوم ، والآخر يحرسهما بيقظة تامة . . .

ها هو ذا مدخل قرية حلحلول ، وها هم البغالة والبغال والكلاب والسيارات المصفحة . . يدفع الحوذي جو أوراقنا إليهم فيشيرون إلينا أن نمر . . فنمضي . . ها هي بيوت حلحلول تدنو ، وها هي أشجارها الكبيرة تظلل البيوت والدروب ، ثمة نبعة ماء تحيط بها صخور صوانية لونها نوراني ، تجلس فوقها بعض الصبايا والنساء منتظرات أدوارهن كي يملأن جرارهن ، وبعضهن الآخر يحملن الجرار المملوءة بالماء ويعدن صعوداً نحو البيوت الدانية ، حولنا عرائش العنب ، وأشجار الزيتون والرمان والتين ، تبدو القرية واسعة ومتمددة على سفوح التلة الواسعة لكأنها دلة قهوة غلت قهوتها فسالت على جميع حوافها ، تبدو البيوت ملتفّة بالأشجار ، والأسيجة ، وحبال الغسيل تهتز بالثياب المعلقة عليها وتميل ، وأصوات الكلاب النابحة تتردد ترجيعاً في الهواء الطلق ، ها هنا في مدخل

القرية . . أشجار ريحان كبيرة بعضها يؤاخي بعضها الآخر في تجاور بديع ، وروائح الريحان تأخذنا إليها قبولاً كالمودات ، يصعد بنا الدرب إلى أعلى بيوت القرية ، وقد لفتنا الأيدي الملوحة ، وابتسامات الوجوه اللامعة ، وكلمات الترحيب . . ثم ننحدر نحو الخليل ، في أعلى القرية يتجاور بناءان ، أحدهما كنيسة ، والآخر مسجد ، وباباهما الخشبيان يتقابلان مثل ضفتي نهر . . وما إن ننحدر أكثر حتى تواجهنا البغال والبغالة والكلاب وسيارات الصفيح ، يبدو المنظر شاذاً ونافراً في طبيعة هي أشبه باللوحات . . يقودنا الدرب إليهم ، يخرج الحوذي جو أوراقنا ، وحين نصل إليهم تقف بنا العربة ، يناول الحوذي جو أوراقنا وتصاريحنا لأحد البغالة السمان فينظر فيها ، ثم وبذبول شديد يشير إلينا كي نمر . . بت أشعر بالغثيان كلما قابلت هؤلاء البغالة وكلما رأيت بغالهم وسياراتهم وكلابهم المتوحشة ، لقد باتوا يشبهون بعضهم بعضاً ، لعل المعايشة الطويلة جعلت التشابه علامة تميزهم ، فالكلاب هي الكلاب ، والبغال هي البغال ، والبغالة هم البغالة ، ونظراتهم وأسئلتهم وحركاتهم وألبستهم وأسلحتهم هي هي ، واستعلاؤهم ، وحذرهم ، وخوفهم ، وكلامهم ، ونهرهم هو هو . . نخلفهم وراءنا ، دائماً نخلفهم وراءنا ، ونمشي . . ها هي ذي الخليل تبدو مضاءة وقد انحدرت نحونا مصاطب ترابية بعضها مكشوف ، وبعضها الآخر مشجر ، وأسيجة حجرية بيض تفصل ما بينها ، تبدو مثل أسطر الكتابة ، ورأينا البيوت تميل نحونا لكأنها كف ممدودة كي ترحب بنا ، أشجار زيتون ، وكروم عنب تحاذينا حتى لتكاد تخيم علينا ، والدرب يماشيها مثل ساقية ، فلاحون وفلاحات يعملون هنا وهناك ، كلما مررنا بهم يرفعون أيديهم بالتحية والسلام ، وجوه طافحة بالسرور والبشر ، وكلمات المودة تصل إلينا مرحبة . . . تبدو البيوت بعضها يعلو بعضها الآخر ، والبياض النوراني يلفها جميعاً ، قباب المساجد والكنائس تبدو صفحاتها

النحاسية شديدة اللمعان لكأن الشمس تُسقطُ ضوءها فوقها مباشرة ، وفي الجهة اليسرى من البلدة حقول واسعة من أشجار الصبار ، أسأل الحوذي جو عنها ، فيقول لي : إنها السياج الطبيعي الذي كان يحمي البلدة من هذه الجهة ، ويشير بيده نحو السور الطينيٍ العالي الذي راح يبارينا وقد أحاطت به أشجار الزيتون الضخمة جداً ، وينفسح الدرب عن مدخل حجري ، تقف في وسطه تماماً البغال والبغالة والكلاب وسيارات الجيش ، هنا عددهم أكثر ، والمساحة التي يتحركون فيها أوسع ، يتقدم نحوهم الحوذي جو ، يخرج الأوراق والتصاريح ، ويدفعها إلى الأقرب منهم إليه ، فينظر فيها ، ويشير بيده كي نتقدم . . فتتقدم بنا العربة ، ها هي ذي البيوت تطل علينا بأبوابها ونوافذها وشرفاتها وأهلها ونباتاتها وورودها ، وها هي ذي النسوة بثيابهن المطرزة ومناديل رؤوسهن الملوّنة ، واحدة منهن ، ومن شرفتها تنثر نحونا ما في صحنها من ملح ، فنرفع أيدينا بالتلويح والسلام ، تكاد المرأة من فرحتها بنا ترمي إلينا بابتسامتها البيضاء أيضاً . أسأل الحوذي جو ؛ ما لهؤلاء الناس ، وأي لطف هذا الذي يبدونه تجاهنا ، فيقول : إنهم يستأنسون بنا ، يريدون أن يعيشوا إنسانيتهم ، فهم ، ومنذ سنوات بلا هواء ، بلا مودات . ومن فوق ، من أعالي الجبل يبدو بناء ضخم طويل أبيض ، تعلوه صلبان نحاسية لامعة ، ومآذن ، وقباب نحاسية ساطعة الضوء . . وأهلة مفتوحة مثل الأكف ، أسأل الحوذي جو عن البناء فيقول هذا هو مسجد النبي إبراهيم ، والكنيسة الأرثوذكسية ويبدو من خلف البناء الضخم والبيوت البيض جبل عالٍ لكأنه ذراع تحيط بالبلدة كي لا تنزلق بيوتها أكثر نحو الوادي العميق . تمر بنا عربات جر ، وحمير فوق ظهورها أكياس ، وصناديق ، وقفف ، وجونات مملوءة بالعنب والرمان . . وأصحابها الذين يماشونها أو يقودونها يرفعون أيديهم محيين ، يصعد بنا الدرب فتقابلنا شجرة بلوط خرافية ، أغصانها راحت تتدلى نحونا قبل أن

نصل إليها ، وقبل أن نرى جذعها . . يوقف الحوذي جو العربة ، إلى جوار عربات واقفة ، يتقدم نحونا شاب ، فيأخذ الحصان إلى مذاود بادية أمامنا وقد ملئت بالتين ، وإلى جوارها أجران حجرية مملوءة بالماء ، ويتقدم رجل كهل يخبرنا أنه يعمل دليلاً وهو في تصرفنا إن كنا بحاجة إليه . يلتفت الحوذي جو إليَ ويسألني بهزة من رأسه فأقول له ، وهل نحتاج إلى دليل؟ فيقول : نعم فأوافقه ، يقول الرجلِ الكهل : اسمي غازي . أنا من سكان الخليل لي ربع قرن وأنا أعمل دليلاً ، فأرجو أن تثقا بي . فنشكره ، ونمشي وإياه نحو مقهى صغير يتصدر المكان ، كي نشرب القهوة . كان الناس في ذهاب وإياب والدكاكين تبدي ما فيها من بضائع وحاجيات ، والعربات والسيارات وحركة الناس تترك خلفها ضجة لا تليق بهذا الصباح الطالع علينا . . والشجرة الخرافية الكبيرة لم نصل إليها بعد ولكن أغصانها الطويلة جداً بادية وتكاد تصل إلينا .

نهضنا ، وقد انتهينا من شرب القهوة ، ومشينا خلف الدليل غازي . . فوق حجارة سود مربعة الشكل امتدت كبلاط للساحة ، والشوارع المتفرعة عنها . . قال غازي . نحن الآن في شمالي المدينة ، وهذه هي بداية السوق ، إنه كما ترون مسقوف بألواح التوتياء المقوسة ، وعهد السوق بهذا السقف قديم ؛ ربما يعود إلى تقاليد الأسواق العثمانية القديمة ، في الأعلى كما تشاهدون نوافذ للتهوية ، وأخرى للمراقبة ، كان المحتسب ، أي الرقيب على السوق ، يجلس قربها ويراقب حركة البيع والشراء ، وهذه هي الدكاكين التي تبيع كل شيء ، هذه دكاكين تبيع العطور والبخور ، والدهون ، وقربها دكاكين الأعشاب والزهور اليابسة ، وبعدها دكاكين تبيع الجوز ، واللوز ، والزبيب ، والتين المجفف ، والقرفة ، والزنجبيل ، وجوز الهند ، والحلبة ، واليانسون ، وبعدها دكاكين الجلود ، والخيش ، والصوف ، والقطن ، والأحذية ، والنحاس ، والعباءات والمناديل والعقل . . لن نمر في

السوق الآن ، فالأهم هنا هو زيارة الحرم الإبراهيمي ، والكنيسة الأرثوذكسية فنوافقه ونصعد في الدرب ، تثير اهتمامي عتبات البيوت الحجرية ، والرخامية ، والنباتات التي تحاذيها ، والنظافة البادية ، وتشدني إليها الشرفات الدانية نحونا بأزهارها ، وأخشابها الملونة ، والصبايا الجميلات اللواتي يجلسن فيها ، وكأنهن أميرات في المقصورات يحضرن عرضاً مسرحياً ، أراهن يدرن البصر في كل الاتجاهات ، فأنظر إلى ما ينظرن إليه ، فأرى الناس ، والعربات ، والبيوت ، والأشجار ، والطيور ، والسيارات ، . . وكأن الجميع في موقف استعراضي ، وجوه باشة ، وحركة دوّارة ، ونداءات متداخلة ، وأصوات الباعة تنادي على البضائع المصفوفة والمتجاورة كالأشجار . . أشم رائحة القهوة كلما مررت بشرفة من شرفات البيوت ، نقف أمام شجرة بلوط كبيرة جداً ، لها جذع ضخم مشقق لم أر في حياتي جذع شجرة يشابهه ، شجرة يكاد البصر لا يلحق بامتدادات أغصانها التي تتجاوز البيوت إلى البيوت ، والدروب إلى الدروب ، أحاول أن أدرك علوها فلا أستطيع لأنها خيمت فوقنا تماماً ، مجموعة من الناس ، نساء ورجال وأطفال . . جلسوا حول جذعها يستريحون ، ويأكلون ، ويشربون ، ويتحدثون ، وينتظرون ، يهمهم الدليل غازي بأن الشجرة معمرة ، لا أحد يعرف مقدار عمرها ، يقال إنها من زمن النبي إبراهيم الخليل ، وإنه هو من زرعها وباركها ، وبعضهم يقولون إنها هي التي ظللت النبي إبراهيم حين قدم إلى هنا . . لهذا يأتي الناس إليها ، ويربطون خيطان الأمنيات على أغصانها ويتمنون ، ويصلون ، ها هي الخيطان فعلاً ، بعضها أسود اللون ، وبعضها الآخر أخضر اللون . . أسأل الدليل غازي عن اللونين فيقول : اللون الأسود يعبر عن أمنيات طلب المغفرة ومحو الخطايا ، واللون الأخضر ، يعبر عن أمنيات طلب الرضا والتوفيق ، ويسألنا إن كنا راغبين بعقد الخيطان على بعض أغصانها ، فأهز له رأسي موافقاً ، وأرى يد

الحوذي جو ممدودة نحوه ، فيستل الدليل غازي من جيبه بعض الخيطان الخضر والسود ، ويدفعها نحونا ، فيختار الحوذي جو خيطاً أخضر ، ويمضي نحو أحد أغصان الشجرة كي يعقده ويتمنى ، وآخذ أنا خيطين أحدهما أسود ، والثاني أخضر ، وأعقدهما على الغصن الأقرب إليَّ وأرجو وأتمنى . أرى الحوذي جو يبتسم وقد رأى الخيط الأسود في يدي ، فيقترب مني مهمهماً : يبدو أن خطاياك كثيرة . قلت : رجوت الله أن يغفر لي نسياني لأمي ، فسألني : وماذا تمنيت . قلت : أن يذيب الله البغال والبغالة والكلاب المقرفة مثلما تذيب الأيدي ألواح الصابون . وهزَّ رأسه وهو يزم شفتيه منتظراً أن أسأله ، ماذا تمنى ، فقلت : لعلك تمنيت أن تعود إلى دبلن . قال : لا ، تمنيت أن ألتقي ليلى . قلت : لماذا ، قال : لأساهرها ليلة واحدة . قلت : والكتاب الذي انتحلته . قال : عفا الله عما مضى . ويتناهى إلينا صوت الدليل غازي : يحدثنا عن الكنيسة الأرثوذكسية يقول : هذه الكنيسة عظيمة وذات مكانة متفردة ، فعندما كانت المحن والمصائب تحل بالقدس كان المؤمنون يأتون إليها ، إلى هنا ، خصوصاً في أوقات الحروب ، وأيام الزلازل التي حلت بالقدس ، إنها تشكل الضفة الأخرى المقابلة لكنيسة القيامة في القدس ، هذه البادية أمامنا آجران رخامية هائلة العمق والارتفاع كما تريان ، وهذه المتراكمة علواً وامتداداً هي صناديق العنب التي تتوازع المكان ، وهؤلاء الناس هم أصحابها ينتظرون إشارة من قيم الكنيسة كي يفرغوا عنبهم في هذه الأجران ، وتلك الطويلة المستندة إلى الحائط الرخامي العالي ، هي المدقات الخشبية التي ستدق العنب كي يصير عصيراً ، وهؤلاء الرجال الأشداء هم الدقاقون ، وهذه الأخشاب الغليظة والمسطحة التي تحيط بالأجران هي المنصات التي سيقف الدقاقون فوقها ، وتلك هي الطاسات والأكواب الخشبية الكبيرة والواسعة كما تريان ، التي سيوزع بها عصير العنب على الزائرين . . .

سنرى مهد دق العنب بعد خروجنا من الكنيسة هيا، ونلحق به، يقف بنا وسط حشد من الناس أمام باب الكنيسة، فيقول لنا: هذا الباب الرئيسي للكنيسة، وهو واحد من أربعة أبواب كبيرة، هنا في مدينة الخليل ستجدون أهمية كبرى للرقم أربعة، فالمدينة كانت تسمى مدينة الأربعة نسبة لأربعة مؤمنين كانوا عارفين بالله، ومن أوليائه الصالحين.. والنبي إبراهيم حين قدم إلى هذه البلدة، بنى أربع خيام قرب شجرة البلوط، وأقام هو وأهله فيها، والنساء في مدينة الخليل يتسابقن إلى إنجاب أربعة ذكور وأربع إناث، ومن تحقق هذه الأمنية تكون مباركة من السماء، وللبيوت أبواب أربعة، ولكل غرفة نوافذ أربع وهكذا.. هذا باب من الرخام الخالص، أعمدته رومانية، وتيجانه، كما تلاحظان، مزينة بالرسوم النباتية، وفوقه مصاطب رخامية تقف عليها الطيور، ويدخل الدليل غازي فندخل خلفه، يناول أحد قيمي الكنيسة كلاً منا شمعة وصليباً خشبياً.. فنصلي وقد لفنا ضوء بهار تساقطه القناديل والفوانيس المتدلية من السقوف، والأقواس، والحيطان، وحولنا آلاف الشموع تتراقص ذبالاتها على الشمعدانات، نمشي في بهو شديد الاتساع تحيط به غرف كثيرة، وله مداخل ومخارج وعتبات، وسلالم، وممرات، وفيه أيقونات، وقبور.. نطوّف في المكان، ونوقد الشمع، ونواقف الأيقونات، وقبور القديسين، ونصلي، نقف قرب برج الأجراس التي كانت تقرع، فنمسك بالحبال ونشدها مع الآخرين.. فتضج الأجراس بالنداءات العالية، ثم نخرج، يسألنا الدليل غازي إن كنا بحاجة إلى استراحة، فنوافقه، نتجه نحو المقهى الذي جلسنا فيه في أول قدومنا، وفي طريقنا رأينا رجالاً اعتلوا المنصات الخشبية وراحوا يدقون العنب هرساً بمدقاتهم الخشبية، وإلى جوارهم رأينا آخرين يغسلون عناقيد العنب، ثم يقذفونها إلى الأجران، وبعضهم الآخر يوزع الطاسات والأكواب الملأى بعصير العنب على الأيدي

المرفوعة نحوهم .

نقترب منهم ، فنأخذ العصير في أكواب الخشب الثقيلة ، ونشرب ، يا للمذاق الطيب ، . . وقربنا عازفون يسيلون الموسيقى ، وخلفهم مباشرة وقف البغالة والبغال والكلاب وسيارات الجيش المتحفزة ، بدا سلاح البغالة مشدوداً إلى صدورهم وكأنهم ينتظرون خروج أحد لقنصه ، أو لكأنهم يترقبون أحداً ما سيهاجمهم ، أدير وجهي عنهم ، أرفع كوبي الخشبي موازاة لكوب الحوذي جو وقد رفعه ، ونعب ما فيه ، والدليل غازي ينظر إلينا مبتسماً . نمضي نحو المقهى ، نجلس قليلاً ، أشرب القهوة والحوذي جو ، ويمتنع عن شربها الدليل غازي ، يقول لنا إنه يريد الاحتفاظ بطعم العنب في فمه . ثم ننهض . كي نرى الحرم الإبراهيمي كما قال لنا الدليل غازي . . يمشي أمامنا ، فنتبعه صعوداً في درب ضيق مبلط بالحجارة السود ، تبدو البيوت أكثر دنواً وقرباً إلينا ، تبدو وكأنها أذرع تكاد تأخذنا طياً إليها ، تبدو نباتات الحبق ، والنعناع ، والزهور أسيجة للشرفات المعرشة فوقنا ، وتبدو طيور البط والأوز ماشية في الحارات ، تماشي السواقي النحيلة التي تمر بالبيوت وكأنها ساعي البريد ، وتبدو حولها أشجار الحور الطويلة العالية ، وتطل علينا من فسحات البيوت والدور دوالي العنب ، وقد بدت أكياسها البيض التي تحتضن العناقيد كي تصير زبيباً . . .

يبدو الحرم الإبراهيمي ، مساحةً كبيرة من البناء ، وحيطاناً عالية كلسية اللون ، لكأنها مدهونة بالجير الذي رأيناه في أريحا ، تبدو الحجارة الكبيرة ، وتبدو النوافذ ، والطاقات في أعالي البناء ، لكأن البناء قلعة أو يكاد ، نرى القباب ، والمآذن ، وقد ارتدت ألوانها الخضر ، واحدة من المآذن قريبة جداً من الكنيسة التي غادرناها في الجهة المقابلة ، لكأن المئذنة مثبتة فوق حائط الكنيسة ، أو لكأن قبة الكنيسة بصليبها النحاسي اللماع مثبتة فوق حائط المسجد مباشرة . . ثمة دعامات باتونية تسند حيطان

المسجد ، تبدو وكأن جبلة الباتون قد سالت من أطراف البناء ولم تتوقف إلا عندما أوقفها الدرب ، وتبدو النوافذ الطويلة المشبكة بالأخشاب الرفيعة ، وندنو فتدنو منا قباب كبيرة واسعة ، كأنها بيوت من النحاس ، قباب لا تعلو عن الأرض سوى ما يجعلها بعيدة عن ملامسة الأكف لها ، وحولها عرائش العنب ، وأشجار الرمان ، وبها تدور دروب ناحلة تقودنا إلى الباب الكبير ، أعمدة رخامية ، وواجهة رخامية متدلية من الأعلى مثل قبة القميص ، يقف الدليل غازي أمامنا ، ويقول هذا البناء الكبير أقيم قرب المغارة التي اشتراها النبيٍ إبراهيم من أجل أن يدفن فيها زوجته ، وقد كان المكان منذ القديم معبداً تقام فيه الصلوات ، كان كنيسة ، ثم صار مسجداً ، ثم عاد كنيسة ، وهكذا إلى أن صار على ما ترونه اليوم ، هذا هو السور الحجري العريض الذي يزنره ، وقد ضرب بالمنجنيقات مرات ومرات ، وهدم غير مرة ، ويدخل الدليل غازي فندخل خلفه ، رائحة البخور والعطور تلفنا منذ العتبات الأولى ، ورجال يلبسون الثياب الطويلة يسعون في جنبات الحرم لكأنهم يمشون وراء ابتساماتهم ، بوجوه رضية ، مشرقة ، في مدخل الحرم خلفنا أحذيتنا ووضعناها عند قيم ، أخذها منا ووضعها في فتحات خشبية صغيرة تشبه أعشاش الحمام ، ضوء كثيف يهبط إلى داخل الحرم . . لكأن بياض البيوت اجتمع في فناء الحرم الذي بدا مثل مرآة بارقة ، جاذبة للنظر . . وحين نتقدم ، نرى المرآة بحيرة ماء واسعة بدت فيها المآذن ، والقباب ، والنوافذ ، والطيور ، والأشجار . . مائجة بالحركة ، وإلى الجوار أروقة كتانية مشدودة إلى حبال تقبض عليها أساور حديد مثبتة إلى الأرض ، جلس تحتها زوار ، وقراء ، وشارحون ، ومحدّثون ، وبدت الزوايا عميقة في الجدران وقد تقوّست فوقها الحجارة البيض ، وقربها تواجهنا قبور كثيرة غطاها الرخام ، قبور هنا ، وأخرى هناك . . يقول لنا الدليل غازي : بداية لا بدّ لي من أن أذكر بأن النبي إبراهيم سمي

بخليل الله ، وهذه المدينة أخذت اسمه ، فسميت بالخليل ، ومعنى خليل الله ، أنه يوالي في الله ويعادي في الله . وخلة الله له نصره وجعله إماماً لمن بعده . وأهل اللغة يقولون : الخليل كلمة معناها المحتاج المنقطع ، والخلة هي الحاجة ، أي أن إبراهيم قصر حاجته على ربه فانقطع إليه بهمته ولم يجعل له ولياً غيره . وقيل إن الله أنزل على إبراهيم عشر صحف ، كما أنزل على آدم من قبل عشر صحف . وقد سمي النبي إبراهيم بأبي الضيفان لكرمه . هنا وفي هذا المكان تستجاب التوبة ، فأدخلوا المسجد ، والغرف ، والزوايا ، وبوابات القبور بالقدم اليمنى . . وأشار إلى ساحة كبيرة جداً ، وقال : هذه السحة تسمى ساحة السماط ، وفيها يمد السماط ويوضع عليه الطعام فيأكل الجميع ، ويأتي الكثيرون من أجل تناول الطعام في المواعيد المحددة التي تضرب فيها الطبول ، وكانت تسمى (الطبلخانة) وهي عادة متبعة من أيام النبي إبراهيم ، وسوف نرى عند خروجنا أفران الخبز الذي يقدم للطاعمين ، وكذلك الطواحين التي تجاورها ، ومستودعات الحبوب ، ومعاصر الزيتون ، ومشى أمامنا ، فرأينا قبوراً عدة للأنبياء والأولياء صالحين ، قبور مجللة بالمهابة ، مغطاة بالرخام والقماش الأخضر ، ويلفها صمت عميم ، وحولها تدور همهمات وتمتمات عطشى ، وعلى نوافذها يحط اليمام ويطير ، كلها بادية لنا من نوافذ طوال . . تجمعها مغارة شديدة الاتساع ، وعند قبر النبي يوسف ، قال لنا الدليل غازي ، لم يكن قبر النبي يوسف معروفاً ، وقد أوصى الله النبي موسى أن يحمل جثمان يوسف ويدفنه إلى جوار آبائه ، فلم يدر أين هو الجثمان ، فسأل عنه ، ولم يعرف أحد ، إلى أن التقى بأحدهم ، فقال له : ما من أحد يعرف قبر يوسف سوى والدتي ، فقم إليها واسألها ، فذهب معه ، وجاءه الرجل بقفة فيها والدته ، فسألها النبي موسى : ألك علم بقبر يوسف ، فقالت له : نعم قال : دليني عليه . قالت : أدلك عليه بشرط أن تدعو الله أن يرد علي

شبابي إلى سبع عشرة سنة ، وأن يزيد لي في عمري مثل ما مضى . فدعا . وسألها موسى : كم عشت ، فقالت : تسعمائة سنة ، فعاشت ألفاً وثمانمائة سنة ، وبعد تنفيذ شرطها ، أرت موسى قبر يوسف ، وكان في وسط نهر النيل في صندوق من رخام ، وذلك لأنه حين مات تشاجر عليه الناس وتخاصموا ، وأراد كل طرف منهم أن يدفنه في محلته لما يرجوه من بركته . فاختلف رأيهم في ذلك حتى أرادوا أن يقتتلوا بسببه ، فرأوا أن يدفن في نهر النيل ليمر عليه الماء فتصل بركته إلى جميع أنحاء مصر وما حولها ، فيكونوا جميعاً في بركته مشتركين .

ونخرج من الحرم الإبراهيمي ، وقد حفت بنا طيور الحمام ، حمام على الأرض ، والنوافذ ، والشرفات ، والمآذن ، والعتبات ، والقباب . . وحمام حائر يقف على الأسوار . . نخرج فنصير في الجهة الغربية الجنوبية من الحرم ، فتبدو أمامنا ، ومواجهة لنا ، بيوت قرميدية تجلس القرفصاء فوق التلال ، بيوت مفردة لا بساتين تؤنسها ، ولا ماشية تحيط بها ، ولا طيور تظللها . . نسأل الدليل غازي عنها ، فيقول : هذه البادية أمامنا مستوطنة (كريات أربع) ، وتلك المواجهة لها مستوطنة (ماعون) ، وهناك ، انظرا ، في الجهة المقابلة مستوطنة (كرمل) ، وفي البعيد تبدو مستوطنات أخر ، همهم الحوذي جو : تبدو كأنها أبراج مراقبة ، وأهمهم أنا : كأنها أجمات شوك موسمية ، وندور حول الحرم الإبراهيمي ، فنرى معامل للزجاج ، أربعة أو خمسة أفران مبنية من الطين والآجر ، النار فيها موقدة ، والزجاجون يصهرون تربه رملية تحتوي على بلورات منها يصنع الزجاج ، رأيت أنفاراً من العمال يفرغون القفف المملوءة بالتربة الرملية في داخل الأفران فتشب النار وكأن ما ألقوه فيها زيت أو ملح . . وفي الجوار ، زجاجون يصنعون الخرز ، والأطواق ، والأساور ، والأباريق ، والكاسات ، والأواني ، والصحون ، والمشربيات ، والمزاهر ، والشمعدانات ، وعلى مبعدة أمتار ، وفي

المنعطف ، معامل للدباغة تجاور نهراً سريع الجريان ، فتبدو حفائر الدباغة ، وبمحاذاتها أكوام من قشر البلوط ، ينقل إليها بوساطة عربات خشبية صغيرة تدفع باليدين ، وعلى امتداد حبال طويلة نشرت الجلود مثلما تنشر الثياب على حبال الغسيل ، وأخرى موزعة فوق سطوح الصخور المجاورة ، ورجال ينحنون على الجلود حكاً ، وقشطاً كي يزيلوا الوبر والشعر عنها ، وقربهم نساء يخطن فتحات الجلود وثقوبها ، وأخريات يحشونها بالتبن فتبدو حجومها ، نمشي على عجل فقد غطتنا رائحة الدباغة الحامضية . . . وما إن نستدير حتى نواجه دورية للبغالة والبغال والكلاب والسيارات المصفحة ، تراهم ينظرون إلينا كعادتهم بحذر وترقب . . يطلبون أوراقنا ، فيريهم الحوذي جو إياها ، فينظرون فيها ، ثم وببهوت يشيرون إلينا كي نعبر . . فنعبر حواجزهم الحديدية التي تبدو مثل لعب الأطفال . . نشكر الدليل غازي ، ونعطيه مبلغاً من المال ، لشدة حيائه لم ينظر فيه ، ونمضي عائدين نحو القدس ، يماشينا وادٍ عميق تتبدى في أعماقه خضرة غامقة . . وحين أستدير إلى الوراء كي أرى الخليل في نظرة وداعية . . أجدها بيوتاً تظللها الغيوم ، ودوالي العنب ، أحاول جاهداً أن أرى المستوطنات ، والبيوت القرميدية . . فلا أفلح لكأنها كائنات خارج الظلّ» .

ملحوظة :

اعذرني ، أيها الصديق ، على أنانيتي ، فأنا أكتب إليك عن كل شيء ، ومع ذلك فأنا لم أحدثك عن أساطير العنب التي قصَّها علينا الدليل غازي ، قد أحدثك عنها ، في مرة قادمة . أخبرني عنك ولو بكلام برقي ، سامحني ، إن صارحتك بأن قلبي يهجس بأنك مريض . اكتب إلي كي تطمئن روحي .

سعدية

«ها أنذا ،

أجالس ورقي فجراً ، كي أكتب إليك . أشعر بنشاط غير عادي ، لكأنه مفرط ، وأنا أماشي أسطري كيما أجعلك تعيش معي الساعات التي عشتها مع سيلفا . واعذرني لأنني أكتب إليك بحماسة الشباب . أعرف أنك أستاذي ، ولكنك صديقي أيضاً ، وما من أحد جدير بأن أبوح أمامه سواك ، ولكم بحت لك بأسراري ، وأنا قربك ، وها أنذا أبوح بها وأنا بعيد عنك ، أشعر بأن ما يحدث لي كأنه لم يحدث إن لم أبح لك به . . عندما أستعيد التفاصيل كتابة إليك ، أتيقن بأن ما حدث قد حدث فعلاً ، أتذكر كم حدثتك عن زوجتي ، رحمها الله ، وكم من مرة تعثرت علاقتي بها ، فأعدتني أنت إليها المرة تلو المرة ، قلت لي صحيح أنها عصبية ، وحادة ، ولا تخلو تصرفاتها من تسرع وارتجال ، لكنها تحبك ، الغني في هذه الأيام من له حبيب . الحبيب الحقيقي يعادل الدنيا بكل ما فيها من بساتين وطيور وأنهار ومحيطات وبحيرات وبشر ، الحبيب اختزال حيّ لطيف لكل جمال الدنيا ، وهو اختزال جمالي لكل مرايا الدنيا أيضاً . . مع الحبيب يغدو المرء أكثر من فرد ، أكثر من روح ، فلا شيء يشعل الذات ويقوي الإرادة ، ويجعل للحياة معنى مثل وجود الحبيب . كم أتذكر زوجتي رشيدة الآن ، ياصديقي ، سوف أزور مدينتها عكا إن ساعدتني ظروفي هنا ، كي أرى بيتها ، أكاد أحفظ الطريق إليه غيباً لكثرة ما حدثتني عنه . .

يا لذاكرة الفلسطينيين ياصديقي . . رشيدة كانت صاحبة ذاكرة حديدية . .

ها أنذا ، أجالس ورقي وحيرتي فلا أعرف من أين أبدأ الكتابة إليك . . منذ لحظات فقط ، مضت سيلفا في درب الإياب . وقفتُ في أعلى السلم الخشبي ، وأنا راقب إيابها ، رأيتها تمر بين خيوط الضوء وأشجار البيت وسياجه مثل شرارة ، تركب سيارتها . . وتمضي . . فلا أعود إلى غرفتي إلا عندما أشعر بأن العجوز أم أهاوِن مؤجرتي ، راحت تثير الضجة من مكانها لكي تقول لي إنها تعرف كل شيء . أجل إنها تعرف كل شيء . سيلفا قالت لي بأنها تعرف كل شيء ، وعليَّ ألا أعيرها أي انتباه لأنها سوت الأمر معها . ولم أسألها كيف ، لعلها أعطتها مالاً كي توافقها على قضاء بضع ساعات عندي ، أو لعلها تعطيها في كل مرة هدية ثمينة ، وإلا لماذا تجالسها وقتاً ليس بالقصير كلما واعدتني . . لا أدري لماذا تذهب روحي في الاطمئنان البعيد لـ سيلفا ، أشعر أنها صادقة في كل شيء ، حتى استلطافها لي ، وميلانها نحوي ، أشعر بصدقهما . . ما من مرة جاءتني فيها إلا وبكت طويلاً ، إلى الحد الذي جعلني أشعر بأنها لا تأتي إليَّ إلا من أجل أن تبكي ، أن تُفرغ ما أوجع روحها طوال نهاراتها الحرون ، وأن تقص عليَّ القصص التي أدمت قلبها . في هذه الليلة بكت سيلفا طويلاً ، ولو قدر لأحد ، أيّاً كان ، رؤيتنا . . لأدرك ووعى أننا في مأتم ، وأننا معاً فقدنا عزيزاً للتو ، أو تلقينا خبراً أطار صوابنا . . فجأة وفي لحظة كانت أبعد ما تكون عن التذكر ، لأنها كانت بين ذراعيَّ ، ووجهي يمر بوجهها لمساً ، ومسحاً ، ولثماً . . أحسست بأن دموعها تغسل وجهها ، فانتبهت . هززتها بين يدي ، وهامستها بأنني معها ولها ، سأظل عشها الليلي ، ودارتها الصغيرة ، سيظل شوقي لها وحدها ، ووحدها ستجول بأشواقي مثلما تجول قطة صغيرة بكرة خيطان ملونة . فتسمع كلامي وتشهق ،

وتغلق أجفانها فيتهاطل دمعها ويسح مثل السواقي ، يا لـ سيلفا لكأنها خزان دموع ، أراها ترفع يدها الصغيرة الناعمة إشارة لي كي أكف عن الكلام والهزّ ، أن أدعها لحزنها للحظات . . فأستجيب لها ، آخذها إلى صدري طياً بين ذراعيَّ ، وأتركها تهدأ رويداً رويداً مثل دوائر بحيرة صغيرة رماها الأطفال العابثون بالحصى ، . . وحين تهدأ أراها ترامقني بحنان ، وتشد جسدها نحوي ، تدعوني كي أحيطها بذراعي أكثر ، لكأنها خائفة ، أو مضطربة ، أو قلقة من شيء ما ، أسألها ، فتقول همساً : قتلوا سعدية في السجن . . قلت : سجينة . قالت : سجينة . قلت : ولماذا؟ قالت : لأنها لم تعترف بشيء . استخدموا معها كل الأساليب الجهنمية ، الكهرباء ، قلع الأظفار ، الاغتصاب ، الجلد ، الكلاب ، القطط ، الديوك ، الشبح على الحيطان ، الكي بالنار والسكائر ، ثقب الأذنين ، والأنف والشفتين ، . . لكنها لم تعترف بشيء ، ولشدة التعذيب ولإضرابها عن الطعام . . انخفض ضغطها مرات ومرات . . إلى أن ماتت . أدخلوني إليها ، قالوا لي حاولي انتزاع أي اعتراف منها مهما كان بسيطاً وبأي طريقة ، أنت الوحيدة القادرة على ذلك . . فدخلت ، رأيتها ، على غير عادتها ، تجلس في الكرسي الخشبي ، وقد أمالت رأسها .

بدت مطفأة مثل كتلة من الرماد . لم أقترب منها ، وإنما رحت أمشي فوق أرض الغرفة الخشبية ، قلت لها : سعدية ، كفى! يريدون قتلك . حاولي أن تقولي شيئاً . جميع الفتيات اعترفن بأنك أنت كل شيء . اعترفي من أين جئت بالقنابل ، وكيف تم التخطيط لنسف قاعات عدة للسينما ، ومن ورّطك بهذا العمل . أنت فتاة ، وجميلة ، عليك أن تعشقي وتعيشي حياتك . . أنت وردة . أتفهمين . ألف واحد يتمنى كلمة منك ، لمسة يد ، قبلة ، حرام أن يذبل هذا الجمال في هذا المكان التافه ، قولي فقط من أين جاءت القنابل ، ما مصدرها ، ومن شكّل الخلية ، ومن

ساعدك على إدخال القنابل إلى السينما . . ولم تجب!

كنت أدور بمحاذاة الجدران ، دون أن أقترب منها ، ودون أن أنظر إليها . فقط كان يكفيني أن تكون جالسة على الكرسي وتستمع إليَّ . قلت لها : قالوا لي إنك كنت عذراء ، وإن الزجاجات بأعناقها الطويلة هي التي محت بكارتك . صحيح؟ ولم تجب! وسألتها : صحيح أن عشرات الشبان تقدموا إليك ، وأنت هنا كي يتزوجوا بك بعدما حدث لك ما حدث ، ولم تجب أيضاً . . فأضفتُ ، يا للأسف ، أنت جميلة مثل فلقة الرمان ، كان الآلاف من شبان مخيم بلاطة يتمنون أن يقوموا بما قامت به أعناق الزجاجات . أنت دمرت نفسك باختيارك لهذه الطريق ، عليك أن تفهمي أنه لا جدوى من هذه الطريق . فالدولة قوية ، وقوية جداً . الآن عليك أن تعترفي . . لكي تأخذ المحكمة قراراً بالمدة التي ستقضينها في السجن . الزمن الآن يمر بالآخرين ، وأنتِ لا زمن يمر بك . عليك أن تعدي الأيام هنا . . وتنتهي من عدها كي تخرجي إلى الحياة مثلما تفعل الأخريات ، هنا لا حياة ، هنا جحيم دائم ، عليك أن تعرفي هذا . . فمهما طال الوقت عليك هنا . . ستخرجين ، ولكن قبل هذا عليك أن تعترفي . . قولي أي شيء . اكذبي . اخترعي قصة وهمية ، اخدعينا ، المهم أن تقولي شيئاً ، سآتيك برواية الجدار لسارتر لكي تتعلمي منها الوهم والكذب والتلفيق . .ولم تقل سعدية كلمة ، لم أسمع منها أنّة أو زفرة ، لم أشعر أنها حركت يداً أو رجلاً . طبعاً ما كان بإمكانها أن تفعل ذلك لأنها كانت ميتة ؛ قبل دخولي إليها كانت ميتة ، طوال الوقت كنت أتحدث مع سعدية الميتة . . ذلك لأنني ، وحين اقتربت منها ، رأيت جحوظ عينيها المخيف ، فضج صدري بما فيه ، تملكني الرعب والخوف ، دفعت قدميَّ نحوها أكثر ، وحين وصلت إليها صرخت بها : سعدية سعدية ، وهززتها . . ولكن لا جدوى . كانت ميتة . لعلهم قتلوها ، ثم أجلسوها على الكرسي ، لأنني لأول مرة أدخل

عليها ، فأراها تجلس على الكرسي . . دائماً كنت أراها ، مثل غيرها ، مطروحة على أرضية الغرفة جثة هامدة . . يغرقها الماء ، يبلل ثيابها وجسدها ، مرات عدة كنت أراها ، مثلها مثل غيرها ، عارية تماماً ، وخيوط الدم تسيل على فخذيها ، وقد تبقَّعت أرضية الغرفة الخشبية بدم أكثر . . كان الدم ، والبقع ، والموات الجسدي ، والأنين ، والأسى ، والخرس ، علامات بادية في جميع الغرف التي كنتُ أدخل إليها . . أذهلني موت سعدية ، فصرخت ، فهرعوا إليَّ ، لعلهم كانوا يقفون خلف الباب ينتظرون صراخي الذي سيأتي لا محالة . . دخلوا مثل الثيران ، دخلوا طي هيجانهم وهمهماتهم ، واضطرابهم ، تراكضوا نحو سعدية مباشرة ، هزّوها ليتأكدوا ، مرة ثانية ، من أنها ماتت . . حين تأكدوا من موتها . . نظروا إليَّ نظرةً لا معنى لها ، حملوها وخرجوا ، ثم خرجتُ ، بدت سعدية بين أيديهم مثل كيس قطن أصابه البلل الشديد ؛ خرجتُ تاركةً السجن يموج بالصراخ والصياح والبكاء . . فقد عرفت السجينات بخبر موت سعدية . كيف؟ لا أدري!

ولم أستطع الذهاب إلى السجن في الأيام التالية ، لأنني أحسست بأنني شريكة في قتل سعدية ، أخذت إجازة إدارية كي أخرج رأسي مما حدث ، ولكن لم أستطع ، فمشهد سعدية وقد تدلى رأسها ، وسحبت رجليها على الأرض جراً ، ونقاط الدم تتبعها كالشاهد . . لا يفارقني . . وصمتت سيلفا . فحرتُ ماذا أقول لها ، كانت تبكي وتشرق بدمعها ، وترجّ صدري رجّاً . . عند هذه اللحظة ، من كان بمقدوره أن يعيد سيلفا إليَّ ، بل من كان بمقدوره أن يعيد سيلفا إليها . . حاولت أن أهمهم لها ، أن أتمتم . . أن أمسح دموعها ، أن أهزّها . . كي تعود إليَّ ، أو تعود إلى نفسها ، ولكن دون جدوى ، لذلك استأذنتها أن تشرب من كأسها ، وإن كانت لا ترغب ، فلتسمح لي أن أصنع لها قهوة ، وانتظرت إجابتها ، ما أبطأ الوقت ، وما

أثقل الصمت على اثنين ، أحدهما يتكلم والآخر غارق في دموعه ، نهضت سيلفا ، وأخذتني من يدي ، وقادتني إلى المطبخ ، وهي تهمهم : سنصنع القهوة . . بدت حيوية ونشطة أمام المرآة الطويلة في المطبخ ، واقفتها ، فبدت حزينة مألومة ، فضممتها إلى صدري ، وجعلت خدي على خدها . . فشعرت بسخونة جسدها ، هززتها كي ترمي حزنها في المطبخ ، وكي نؤوب بقهوتنا إلى مقعدنا الطويل مثل طيرين أتعبهما الطيران الطويل . .

انشغلتُ بها ، وانشغلت بي ، فغلت القهوة واندلقت على النار ، فانطفأت ، ولم يكن لي ولها سوى الابتسام ، فعدنا معاً إلى القهوة مرة ثانية ، صنعناها وعدنا بها إلى مقعدنا الطويل . . ورويداً رويداً راحت سيلفا تصفو مثل نبعة ماء ، أخرجت ثوباً شفيفاً أبيض من حقيبتها ، ورفعته أمام ناظري ، وهزّته ، فبدا مثل غيمة تغطي يديها . . قالت : هذا الثوب اشتريته منذ سنوات بعيدة كي يكون لحبيبي في ليلة أحلم بها . . لكن الحبيب ظلَّ طي هواجسي ، وليلة الحلم لم تأت . . قلت : والآن . قالت : أنت منذ الليلة حبيبي . قلت : لعلك تستعجلين الحكم . قالت : لا ، لعلي تأخرتُ .

ورأيت ما لم أره في حياتي ، رأيت سيلفا التي كانت قبل لحظات نهر دموع ، وقد راحت تخلع ثيابها قطعة قطعة حتى صارت عارية تماماً ، مشهد أين منه الأنهار ، والأشجار ، والأطيار ، والأزهار ، والأعشاب . . مشهد لا تبديه إلا الغابات في ساعات الرضا والمحبة الصافية ، ونادتني كي ألبسها ثوبها الأبيض ، يا إلهي ، من أين لي القوة وأنا أرى ما أرى كي ألبسها ثوبها الأبيض الشفيف ، لعل المشهد صعقني لأنني لم أتحرك ، كنت مستغرقاً في الرؤية والتأمل ، فأي ألوان وردية تبدي هذا الجسد ، وأي بياض مشتهى هذا الذي يلفه . . أراها تنحني نحوي ، فينحني صدرها نحوي أيضاً بكامل عناقيده ، ويتهدل شعرها الأسود الطويل مثل ستارة

حيية تريد أن تختفي فلا تختفي . . تأخذني بأطراف أصابع يدها لمساً فأنهض واقفاً ، أجمعها إليَّ بحنو مثلما تجمع فلاحات القرى أرغفة خبز الصباح ، يا لهذه اللدونة والطراوة . . ويا لهذا الجسد العسجدي ، أحزم وسطها بالثوب وقد راحت تتدلى وتتثنى مثل أوراق دالية ، أرى توهج وجهها ، وتنفس شفتيها الراجفتين ، وذبول أجفانها لكأن بللاً ما أصابها . . وتداورني وتتفلت مني كي ألبسها الثوب وأنا أروغ عنها كي أبقي هذا الجمال لا كاس له سوى جماله ، ولا لون له سوى لون الأبدية الأولى . . أرفع كأسها ، كأس النبيذ الأرجواني إليها ، أُدنيها من شفتيها ، فترتشف رشفة صغيرة ، وتمسك بها . . أراها وكأن ضوء الكأس شع في جسدها كله . . أتهاوى على مقعدي الطويل . . وتظل هي في وقوفها الحريري ، ويظل بصري حائراً لا يدري ماذا يرى كي يرى . .

ويمرّ الوقت كالضوء دون أن أدري إن ظللتُ على جلوسي الحائر أرنو إليها فلا تعود رؤيتي بشيء ، أو أنها هي ظلت على وقوفها العجائبي نثاراً من ورق الورد الطري . . ما أدريه أنني رأيتها مثل أوزة تموج داخل غرفتي بثوبها الأبيض الشفيف المغوي ، فألحق بها مثل بحار يطارد موجات ما إن تبدو حتى تغيب . . لكأنها وفي غفلة مني لبست ثوبها ، أو لكأنني ألبستها إياه دون وعي مني . .

ها أنذا أراها تخلع الثوب ، فتبدو القرى ، وتبدو البساتين . . وقد ظللتها الغيوم ، ها هي ذي تدنو ، فتبدو الدروب ، وها هي ذي يدها تأخذ بيدي . . فأحس بالمروج المعشبة ندى يبلله العطش العميم . . ها هي ذي دنيا ألوان تجول في غرفتي ، وأنا حولها أدور ، وها هي ذي روحي تحوّم في فضائي مثل فراشة خفت كي يمرَّ بها الهواء . .

يمضي الوقت كالضوء . . وأنا وهي . . كلانا في هجعة البلل الشهي ، لا مفرش لنا سوى الدندنات الخافتات الحانيات كأعشاب غدير ، ولا غطاء

لنا سوى أنفاسنا التي تشق دروبها الناحلة في فضة الفضاء الحميم . .

الآن ، لا أعي ، مَنْ أدرك مَنْ ، ومَنْ باغت مَنْ ، ومَنْ أسند مَنْ ومَنْ هيأ مَنْ ، ومَنْ بلل مَنْ ، ومَنْ هامس مَنْ . . كي تهبط الأقمار إلى الأرض فتصير قرى ، تحيط أعواد القصب بأنهارها ، وتمشي القطعان إلى مراعيها ، ويمر هواء الروح في النايات ، وترفّ أجنحة الطير لتبدو الجهات . . ما أعيه الآن هو أن سيلفا تؤوب قبل أن يطلع النهار» .

ملحوظة :

اعذرني ، فهأنذا أنكشف أمامك . . فأنت مرآتي التي أحب أن أرى نفسي فيها ، وأنت دربي الذي لم ينحدر بي يوماً . . أيامي هنا قاسية لكنها رائعة . أنتظر كتابتك بشوق عميم .

أبو العبد

«ها هي ذي قهوتي أمامي ،

تجاور ورقي ، وموسيقى شهرزاد تلفني ، لا أدري الآن بالضبط لماذا حضر ببالي ريمسكي فحرصت على اصطحاب سمفونية هذه معي إلى هنا . . لعلي أردتها عتبة لمعرفة الشرق ، أو الدخول إليه . . أجلس كي أكتب إليك ، لأن روحي ما عادت تهدأ أو تسكنين إلا بالكتابة إليك . . أمس ، وفي الصباح ، نادتني العجوز أم أهارون ، مؤجرتي ، قالت لي ، تعال ، أريد الحديث إليك ، فهبطت إليها ، ما كان في يديَّ سوى فنجان قهوتي ، وحين واقفتها اعتذرت لها لأنني لم أحلق وجهي بعد ، وسألتها إن كانت بخير . فقالت : بخير . . ولكن هذه الورقة لك ، جاؤوا بها في أثناء غيابك ، ودفعتها إليَّ . ورقة في مظروف ورقي خشن ، فتحته ، وإذ به إخطار لي كي أذهب لمراجعة نقطة التفتيش التي سويت فيها أوراق استئجاري للغرفة عند العجوز . وقد حددوا لي الوقت في الرابعة بعد الظهر ، قلت في نفسي يريدونني أن أتحدث إليهم بعد الغداء مباشرة مثلما كان هتلر يخطب في الناس وهم يأكلون .

سألت العجوز أهناك أمر آخر . قالت : كيف وجدت بلادنا . قلت : رائعة لولا القلق والخوف . قالت : أي قلق وأي خوف؟ . وأنا أراك فرحاً ، تخرج ضاحكاً ، وتعود ضاحكاً ، وتسهر مع أجمل بنات إسرائيل . قلت : المسرات ولدت هنا . قالت : وهي بحاجة إلى حراسة . قلت : أنتم ملوك

الحراس . قالت : لكن الحراسة تحتاج إلى حراسة ، قلت : كيف؟ قالت : لا بدّ من حراستكم لنا . قلت : مقابل ماذا . قالت : مقابل المسرات . قلت : فقط ، قالت : ومقابل الظلم الذي لحق بنا في بلادكم . قلت وقد أحببت هذا الحوار البرقي اللاذع : ظلمناكم بماذا؟ قالت : أنفاق المترو شققناها ، والطرق رصفناها ، والحدائق زرعناها ، وأجيال منا انطوت في مناجم الفحم الحجري . قلت : ثم ماذا؟ قالت : وأجيال انطوت في السجون . أبي مات هناك ولم أعرفه إلا صورة ، وأمي عاشت في مصحة للأمراض العقلية . قلت باسماً : وماذا أيضاً؟ قالت : لا تصدقوا أكاذيب الناس هنا ، هؤلاء ، وبسبب طيبتنا ، لم نطردهم خارج البلاد بعد . قلت : لكنهم هم أهل البلاد أيضاً . قالت بغضب : هؤلاء جاؤوا من بعيد . طيبتنا هي التي سمحت لهم بالبقاء هنا . قلت : وأنتم جئتم من بعيد أيضاً . قالت : لا ، كل هذه البلاد ، الحقول ، الجبال ، الأنهار ، الغدران ، الدروب ، مسماة بأسماء أجدادنا . . قلت : وهم يقولون إن كل ما في هذه البلاد مسمى بأسماء أجدادهم . قالت : يكذبون . قلت : وهم يقولون إنكم تكذبون . قالت : أنتم تستمعون إليهم ، والرب لن يغفر لكم هذا . . قلت : لماذا لا تجدون حلاً وسطاً ، نصف البلاد لكم ونصفها الآخر لهم . قالت : كفانا ظلماً ، وتشرداً . نريد أن نعيش في كامل بلادنا . قلت : لكنكم تعيشون والخوف! قالت : الخوف أول الصحو آخر الطمأنينة ، ولا بدّ من الخوف كي ننام مطمئنين قلت : لكم تشبهين الجنود قرب الحواجز . قالت : كيف؟ قلت : أنت حادة وقاسية ، قالت : سلخت من عمري ثلاثين سنة وأنا أقف على الحواجز مثلهم ، كي أحرس دولة إسرائيل . قلت : لكنهم يقهرون الناس يومياً . قالت : الغلبة لا تأتي إلا بالقهر . قلت : أنتم ماذا تريدون الغلبة والقهر أو المعايشة والسلام . قالت : الغلبة والقهر . قلت : وهم ماذا يريدون . قالت : الغلبة والقهر أيضاً . قلت : والمعايشة والسلام؟ قالت :

أكذوبة ، أكذوبة كبيرة . قلت : الدنيا صباح يا سيدتي ولا أريد أن أصدق هذا . قالت : عليك أن تصدق بأن الغلبة والقهر إذا ما غابا غابت الدولة . الدول بالغلبة والقهر . . اقرأ التاريخ . قلت : أريد أن أقرأ المستقبل ، واستدرت فقد فرغ فنجان قهوتي ، وورقة الأخطار والاستدعاء في كفي ، ورأسي ما عاد يحتمل مثل هذا الكلام الثقيل في الصباح الطالع للتو .

أنهيت طقوسي الصباحية ، وأخبرت الحوذي جو أن يوافيني كي نخرج إلى أي مكان يختاره . فقال : ساعة وأكون عندك . فجلست أنتظره ، تناولت أحد الكتب التي جاءني بها الحوذي جو كي آخذ فكرة عما يكتبه الكتّاب هنا ، فقرأت قصة قصيرة عنوانها [شكسبير] ، تدور حول شخصيتين الأولى يهودية ، والثانية فلسطينية ، وهما من أهل الحوار والثقافة ، يأتي اليهودي إلى الفلسطيني قبل عام ١٩٦٧ لكي يستعير من مكتبته إحدى مسرحيات شكسبير ، فيعطيه الفلسطيني مسرحية (مكبث) ، وحين تحتل إسرائيل مدينة القدس بكاملها في عام ١٩٦٧ ، تصير مكتبة الفلسطيني كلها من نصيب المثقف الإسرائيلي ، ولكن وبعد أيام ينشغل الإسرائيلي بالبحث عن الفلسطيني كي يعيد إليه مسرحية (مكبث) التي استعارها منه ، فينشط بالسؤال عنه ، وحين يجده ، يخبره أنه جاء لكي يعيد إليه المسرحية ، فيرفض الفلسطيني أن يأخذها لعلمه أن الإسرائيلي استولى على مكتبته كلها ، لا بل استولى على بيته كله . . عندئذٍ يخرج الإسرائيلي وهو يقول أمام الجميع إنه أراد أن يعيد للفلسطيني كتابه غير أن الفلسطيني يرفض أن يأخذه ، وهذا الرفض سيكون سبباً لسوء العلاقة بين الطرفين .

عجيبة القصة ، فهي من النوع الذي يسميه النقاد بالضحك الأسود ، إنها مهزلة تحاول أن تختزل الصراع بين الاثنين إلى فتات ، إلى جزئيات ، أعرف أن السياسيين يكذبون ، وأهل الأيديولوجيا يكذبون . . لقناعتهم بأن

كـذبهـم أبيض ، آني ، كـذبة تمحـو كـذبة . أمـا أهل الأدب . . فكذبهم لا يمحى . . لأن مـا من أحـد يكذب على التـاريخ . أغـاظتني القـصـة لذلك عدت فقرأتها مرة ثانية ، وحين انتهيت منها قلت كلمة واحدة : كذب . ونهـضت كي أحـضّـر بعض السندويشـات ، وكي أتزود بقـهـوة تكفـيني والحوذي جو . . لكنني وما إن دخلت إلى المطبخ ، حتى أخبرني الحوذي جو بأنه لا يستطيع القدوم ، لأن صديقة له هاتفته فأخبرته أخباراً طيبة عن ليلى . قال لي : اعذرني . دع هذا النهار لي كي أتبع دقات قلبي . يبدو أن رياح ليلى هبت ، سامحني ، وأطلقني إليها بدعاء صاف من نفسك الطيبة لعلي ألتقيها ، قلت : أرجو أن تراها . . وأرجو أن تخبرني عنك وعنها . .

كنت قد حضرت ثلاث سندويشات . . فرفعتها من فوق الطاولة ، ووضعتها في الثلاجة . . وجلست لا أدري ماذا أفعل وفجأة خطر ببالي (أبو العبد) نادل مقهى قلندية ، فهتفت للخاطر ، وهيأت نفسي للخروج إليه . كانت المسافة التي تفصلني عنه بضعة كيلومترات فقط . أخذت سيارة أجرة ومضيت ، وبالقرب من المقهى ، ومن حاجز الجيش وقفت السيارة بنا وراء صف طويل من السيارات . . كان السائق صامتاً ، فسألته بالإنكليزية عن سبب هذا الوقوف ، فقال كلمة واحدة : تفتيش . ورويداً رويداً راحت سيارتنا تقترب من الحاجز . . فرأينا البغالة هم أنفسهم يأخذون أوراق السائقين والركاب ، ينظرون فيها ثم يعيدونها إليهم ببطء شديد . . وأخيراً وصلت إلى المقهى . . فهبطت إليه ، استقبلني (أبو العبد) مرحباً . . وهو يمسح الطاولة أمامي على عجل . .

بدا ناحلاً أكثر مما رأيته عليه في المرة السابقة ، فقد برزت عروق رقبته وساعديه بوضوح شديد . قال : والله زمان يا خواجة . قلت : أخذتني الزيارات . قال : ولكن لنا في الحبايب ما لنا . قلت : خطرت ببالي فجئت

إليك . قال : وأنا فكرت بك . ولكن عندما غبت طويلاً ، قلت الخواجة سافر . وأضاف : أوامرك . قهوة . فقلت : قهوة . واستدار ، فابتسمت . رجل تليق به مهنة ساعي البريد . كل شيء عنده برقي وخاطف . من خلفه رأيت البغالة يتناوبون على أخذ أوراق السائقين والركاب ببطء وبرود شديدين ، وصف السيارات الواقفة يزداد طولاً وألواناً . البغال إلى جوارهم في وقفاتها الحائرة ، وسيارات الصفيح كتل صماء لا نوافذ لها ولا بهجة . وكلاب تقعي هامدة لكأن البلل أصابها ، ونساء يلبسن ثياباً مثل ثياب البغالة . . حركاتهن لا تشبه حركات النساء ، فلا أصابع تمشط شعرهن ، ولا وقفات أنثوية جاذبة للنظر ، نساء لولا انتفاخ الصدور لما ميز أحد الأنثى من الذكر . يدنو أبو العبد ، وعلى صينيته فنجان قهوة ، وكأس ماء ، ووردة . فابتسمت له وقلت : وردة أيضاً . قال : لعل المخبرة اليهودية تأتي إليك فجأة ، فبدل أن تعطيها أجبة ، أضحكْ عليها بهذه الوردة . فضحكت . قال : مجانين . هؤلاء الناس مجانين حقاً ، إياك أن تظن بأنهم أهل عقل . انظر ، وأشار بيده إلى صف السيارات الواقفة ، وقد تضاعف ، هؤلاء البغالة ، ومن أجل ورقة مدعوكة رماها ذلك الفتى المشبوح على الحائط ، ورقة كان يلف بها سندويشته ، أتراه ، سألني ، قلت أين هو ، قال هناك ، السيارة الأولى ، الثانية . . قلت : أراه الآن . غلام بثياب المدرسة ، مقيد اليدين ، يواجه الجدار العالي . قلت . ما له : قال : رمى ورقة مدعوكة في حاوية القمامة ، ونظر إلى هؤلاء البغالة . . فتوجسوا خيفة مما رماه . فأوقفوا الغلام ، وقد شله الخوف بعد أن لفه صراخهم العالي ، وجاؤوا به إلى الحاوية الكبيرة تلك ، أتراها ، قلت أراها ، فهي مثل سيارة صفيح متجهمة عابسة . قال : أمروه أن يفرغ الحاوية كي يتأكدوا من أن الذي رماه ليس قنبلة . أولاد الأفاعي يظنون أننا نصنع القنابل مثلما نصنع أقراص الفلافل . وسألني : خواجة أتعرف أقراص الفلافل؟ فأهزُّ رأسي له

بالإيجاب ، فأضاف : جعلوه يفرغ أكوام الزبالة وعندما لم يجدوا شيئاً يخيفهم أمروه أن يعيدها إلى الحاوية ، منذ ثلاث ساعات وهذا الغلام هنا ، لم يذهب إلى المدرسة ، كما ترى . أهله يظنون أنه في المدرسة . وهؤلاء البغالة ليسوا مهتمين إن تعلم الغلام أم لم يتعلم . قلت : ومتى سيفرجون عنه . قال : عادة ما يتركون أمثاله عند نهاية اليوم المدرسي . قلت : هذا يعني أنه سيبقى ثلاث ساعات أخر على هذه الحال . قال : أجل . وماذا يهمّ هؤلاء البغالة . قلت : أتستطيع أن تأخذ له شيئاً يأكله . قال مبتسماً : وأين تظن نفسك يا خواجه ، في الجنة . مع ذلك أشكرك على مشاعرك . قلت : وماذا سيحدث بعدئذ . قال : سيسقط الغلام على الأرض لا محالة . سيشله الخوف . أنت لا تراه جيداً ، لقد ضربوه ضرباً عجيباً فبال على ثيابه ، وتبقعت . الآن كما تراها جفت . انتظر قليلاً ، لن تقوى رجلاه على حمله مدة أكثر . قلت : وهذه السيارات التي يوقفونها . قال : يتخوفون من أن يكون أحد ما قد أرسل الغلام ، إلى ناحيتهم ، وربما يأتي كي يطمئن عليه . قلت : ألهذه الدرجة هم خائفون . قال : وأكثر . إنهم يولدون ويولد الخوف معهم . وقد يظلّ التفتيش على هذه الصورة أياماً . قلت : ألا يمكن بصينية شاي أن نفك أسر هذا الغلام . قال : مستحيل . قلت : جرّب . قال : هؤلاء أجلاف وأعرفهم ، دعك منهم يا خواجة . قلت : جرّب أرجوك . . قال : لي شرط . قلت : ماذا . قال : ألا تحزن أو تغضب ، أو تلوم نفسك إن كانت النتائج على غير ما تحب . قلت : حاضر . وثمن الشاي والكاسات والصينية عليَّ هذه المرة . قال : سأحاول . ومضى من أمامي ، كأنه عود قصب ، أو طيف . دخل إلى كوخه القصبي ، ثم خرج وبين يديه صينية شاي مملوءة بالكاسات التي شعت باللون العقيقي . . مضى وأنا أدعو الله أن يكون أبو العبد سبباً في فك أسر هذا الغلام الذي لم أر وجهه والذي لم يسقط بعد . رأيت (أبو العبد) يوزع كاسات الشاي

عليهم ، وقد علت أصواتهم الضاجة . . فجأة رأيت واحداً منهم يدلق الشاي الساخن فوق رأس (أبو العبد) فيصرخ النادل ويتقافز في مكانه مثل قط ، فأهب واقفاً . لعله طلب منه أن يفك أسر الغلام ، فدلق الشاي الساخن فوق رأسه ، وجاء البغالة واحداً واحداً ودلقوا ما في كاسات الشاي الساخن فوق رأس (أبو العبد) ، وعلى رقبته ، فطار عقله وعلا صراخه ، ثم كسروا الكاسات بالهروات على رأسه . . وطردوه ، فعاد يركض نحو كوخه مثل طائر ذبيح ، بدا المشهد وكأنه مشهد سينمائي لا تنقصه المبالغة . حين وصل أبو العبد تقدمتُ نحوه . . فرأيته وقد غرق وجهه ورأسه وصدره بالشاي والدم . . وراح من فوره يغسل رأسه ووجهه وصدره بالماء البارد وهو يئن ويتوجع ، وحين استوى في وقفته . . نظر إليَّ مبتسماً . قال : ولا يهمك . المهم حاولنا . . عد إلى طاولتك أرجوك ، سآتيك بقهوة جديدة . قلت : أي قهوة . قال : لا بد من القهوة . سآتيك . انتظرني لو سمحت رجاءً . تركته واستدرت كي لا أحرجه أكثر . أحسست أنه بحاجة لوقت أطول كي يعيد ترتيب نفسه . . عدت إلى الطاولة وأنا لا أكاد أصدق ما حدث له . . . لحظات ، ورأيت (أبو العبد) يخرج من كوخه بصينية جديدة مملوءة بكاسات الشاي العقيقي ويمضي نحوهم مرة ثانية ، لعلهم طلبوا منه الشاي مجدداً ، وحين وصل إليهم راح يوزع الكاسات عليهم ، ثم عاد إليَّ مبتسماً ومعه فنجان قهوة . قلت : عجيب أمرك . بعد كل هذا الذي حدث . . تبتسم . . قال : الحمد لله لأنهم لم يكسروا الكاسات على رأسي مرة ثانية ، ولم يدلقوا ما فيها من شاي على رأسي . . قلت : والآن ، كيف أنت . قال : حروق بسيطة ، مع الأيام تروح . . ونهضت . لم أستطع شرب القهوة . ولم أستطع البقاء . . وأنا أرى (أبو العبد) وقد تبقعت رقبته وجبهته بالفقاقيع المائية التي أحدثتها الحروق التي أصابته ، مضيت دون أن أستدير ، فقد تألمت روحي لأنني

كنت سبباً فيما أصابه . أخذت كفه حشو كفي وهززتها معتذراً ، فقال : من أجل المحافظة على بلاد سيدنا كل شيء يهون . . ومشيت ، وليس في صدري سوى قولتي المكتومة : أي بشر هؤلاء ، وأي ظلم هذا الذي يقع عليهم» .

ملحوظة :

أطلت عليك ، فاعذرني ، وأرجوك لا تقلق فلم يحدث شيء في نقطة التفتيش . ملأت استمارة عن الأمكنة التي زرتها وعن معارفي هنا . . ثم عدت . أرجوك أكتب إليَّ .

القدس.. برفقة الدليل

«أكتب إليك ،

وقد عدت لتوي من القدس مثقلاً بما رأيت وبما سمعت ، وبما أوجع قلبي وآذى روحي ، فقد رأيت جندياً ضخماً يقف في وسط سوق القدس ، التي يسمونها سوق (الحسبة) ، يجمع بعض هويات المارة ، ويوقفهم مواجهة للحائط الطويل . . الذكور في جهة ، والإناث في جهة أخرى . . ويشرع بالمناداة عليهم بالاسم ، ويسألهم أسئلة في منتهى التفاهة ، وأياً كان الجواب ينهال على المجيب بالضرب ، يضرب بيديه ، وبعصاه الخيزرانية ، وبقدميه ، ويكسّر على رؤوس بعضهم ما يحملونه بأيديهم . . مشهد أرعبني وأصاب روحي بالألم العظيم ، سألت الحوذي جو عما فعله هؤلاء ، ولماذا يتخير هذا الجندي بعض المارة ويترك آخرين ، ولماذا يضربهم جميعاً ضرباً يكاد يقضي عليهم ، ثم ألا يؤثر فيه هذا الصراخ الفظيع المتعالي ، وهذا الألم المر الذي تطلقه النسوة ، ألا تفزعه مناظر الدم والجروح المفتوحة في هذا الصباح الطالع . . فقال مرثياً لي : تعال لنجلس هنا في هذا المقهى الصغير ، نشرب القهوة ، ونجيب عن أسئلتك الكثيرة .

فعلاً مالت بنا العربة إلى زاوية بناء ، أمامه بضع طاولات التفّت حولها مجموعة من الكراسي . . جلس عليها خلق بدوا للوهلة الأولى شاردين ، صامتين ، لا أحد يُحدث أحداً ، وغلام متوسط الطول يجول بين الطاولات بثيابه الزرق . . وشعره الطويل . . يلبي الطلبات ؛ تخيّرنا أقرب

طاولة للرصيف وجالسناها . فجاءنا الغلام ، وقف أمامنا يحدق إلينا ، وسألنا بالإنكليزية شاي أم قهوة ، فقال الحوذي جو له بالعربية : قهوة سادة ، فاستدار وهو يبتسم ، لعل عربية جو أضحكته في هذا الصباح المشقوق على هذا الجندي السمين الذي راح يسأل ، ويصرخ ، ويضرب دون أن يكل أو يمل ، وزبد فمه يتدافع من شدقيه مثل بهيم آذاه اللجام . . جاءت القهوة ، والماء ، وكاد الغلام يستدير وينصرف عنا لولا أن الحوذي جو أوقفه ، وسأله : أيوجد دخان ، فقال : لا ، قال : ألك زمن وأنت هنا في هذا المقهى . فقال : نعم . قال : كم؟ فقال : ثمانية أشهر تقريباً . قال : أيحدث هذا كل صباح ، وأشار بيده إلى ناحية الجندي السمين الذي انتهى للتو من ضرب امرأة سمينة جداً ، راح صراخها يتعالى صخّاباً . فقال : نعم . قال : وهل تعرف لماذا؟ فقال : إنه يتسلى . قال : كيف . فقال : يأتي صباحاً ، فيقوم بهذا الفعل مدة ثلاث أو أربع ساعات . يظل يضرب حتى يتعب ، ومن بعد يذهب وهو يجر قدميه جراً . قال الحوذي جو : ألا يتجرأ أحد فيصرعه . فقال : قبل أربعة أشهر تقريباً رماه فايز الشاويش على الأرض وداس على صدره ، ودلق فوقه سطل لبن كان يحمله بيده . . فظل مرمياً على الأرض مثل الكلب حتى جاءت دورية جيش وأخذته ، قال الحوذي جو : ومنذ أربعة أشهر ألم يصارعه أحد . فقال : ألا ترى دورية الجيش هناك ، وأشار إليها ، إنها تحرسه ، وقد أطلق أفرادها النار على شبان ، ونساء حاولوا أن يمنعوه من ضربهم أو أن يضربوه!! فعلاً كانت دورية الجيش حاضرة بالبغال ، والكلاب ، والسيارات المصفحة . . قال الحوذي جو : وماذا يسأل الناس ، فقال الغلام : انتظر خواجة ، سأعود إليك . ومضى من أمامنا كي يواقف طاولة أخرى هبط عليها رجلان . ورحنا نتابع تصرفات الجندي السمين اللاهث ، وقد تعالى صراخه ، وصراخ النساء أيضاً . بدونا كمن يشاهد فيلماً سينمائياً أو قل

لكأن ما يحدث يحدث في سيرك . .

جاء الغلام . فقال لنا مستأنفاً حديثه : إنه يسألهم أسئلة تافهة ، لا تعني شيئاً . قال الحوذي جو : مثل ماذا : فقال : يسأل أحدهم ما إذا كان متزوجاً أم لا ، فإن قال له : متزوج فيقول له وهو يضربه : ولماذا تتزوج؟ ألكي تنجب أولاداً يضربون سياراتنا بالحجارة . . أم لكي تصبحوا أكثر عدداً منا؟ ويقسو عليه بالضرب ، وإن قال له : لا ، أنا أعزب ، ينهال عليه بالضرب أيضاً ، وهو يقول له : لم تتزوج لتقول إن إسرائيل تجوعك وتفقرك ، فأنت غير قادر على الزواج وإنشاء أسرة . . ويمطره ضرباً . .

قال الحوذي جو : ولكنه يبدو متقدماً في العمر . فقال الغلام : أجل . يقولون إنه خرج إلى التقاعد ، ولكنه قدم طلباً إلى إدارة الجيش كي يحتفظ بالبذلة العسكرية ، كما قدم طلباً آخر إلى وزارة الأمن الداخلي لكي يقوم بما يقوم به هنا ، في سوق الخضار . . نظر إليَّ الحوذي جو ، فقلت له : إنه متطوع .

وانصرف الغلام إلى غيرنا . . وحين شربنا القهوة ، نهضنا والجندي يواصل أسئلته وضربه ولهاثه ولعناته وصراخه وغضبه ، لكأنه يقوم بعمل شاق فرض عليه ، أو طلب منه ، نهضنا ، فجرى الغلام نحونا ، فنقدناه ثمن القهوة ومضينا نصعد الدرب الذي قادنا إلى داخل المدينة ، وحين علت بنا العربة ، أحاطت بنا أشجار الزيزفون والغار ، ولفتنا روائحها العطرة ، وظلّلتنا البيوت ، والدوالي ، والشرفات . . وفي المنعطف الأول واجهتنا جماعة جديدة من البغالة والبغال والكلاب المتوحشة . . وسيارات الصفيح ، كانت الأبخرة المتناثرة من أفواه البغال والبغالة والكلاب . . تلفهم كالضباب ، وقد توحّدت في تواتر متداخل . . أوقفونا ، وطلبوا أوراقنا ، فأعطيناهم إياها ، نظروا فيها ، ثم أعادوها إلينا ، وأشاروا لنا بالتقدم . . بدت المقدسيات بأثوابهن السود المطرزة وهن يقفن في

الشرفات ، بعضهن ينشرن الغسيل على الحبال ، وبعضهن الآخر يسقين النباتات ، وأخريات يشربن القهوة . . وينظرن إلينا ؛ حين تجاوزنا دورية الجيش ، رفعت يدي لواحدة منهن تجلس منفردة في شرفتها تشرب قهوتها وتدخن ، ولوحت بها ، فابتسمت ، ولوحت بيدها ، وقالت ونحن نمر من تحت شرفتها : الله معكم ورمتنا بعرق من حبق شرفتها ، ورأيتها وهي تنحني لكأنها تود أن ترمي إلينا ابتسامتها الوسيعة أيضاً .

بدت البيوت المقدسية وكأنها تسيل من فوق الجبال نحو شرق المدينة وغربها . . ولولا الطريق الدائري الواسع الذي يحيط بالمدينة . . لمضت البيوت في سيلانها نحو الأودية العميقة ، بدت وكأن بعضها يسند بعضها الآخر ، وأن حيطانها ، وشرفاتها ، ونوافذها ، وأسطحتها ، وأقواسها ، وزواياها ، ودروبها ، وعتباتها ، ونباتاتها ، وأسيجتها متداخلة . . وأنه لولا الأبواب ، والألوان ، والناس ، والثياب ، والجهات . . لما عُرف بيت من بيت . تجري بنا العربة نحو ساحة وسيعة ، ويمر بنا الناس على عجل ، بعضهم يبادلوننا التحية والابتسام ، وبعضهم الآخر لا يلوي على شيء . .

نقف في الساحة الوسيعة ، ساحة باب العمود ، التي ضاقت بها الحواجز الحديدية التي يواقفها بغّالة سمان ، ذكور وإناث ، وبغال مخيفة جداً ، جلودها لامعة ، حذرة في وقفاتها ، متربصة مستعدة للانقضاض في أي لحظة مثل الثعابين ، وقد أخفيت عيونها بالأغطية المعدنية اللامعة كي لا تتورع عن دهس أي كان ، أو اقتحام أي مكان . . وبغّالة يديرون أبصارهم وبنادقهم نحو كل الاتجاهات ، يتخيّرون بعض المارة ، فيطلبون منهم أوراقهم وينظرون فيها . .

يلتفت الحوذي جو إليَّ ، يقول : علينا أن نوقف العربة هنا ، وأن نأخذ معنا أحد الأدلاء كي يشرح لنا . أسأله : ألا تعرف الأمكنة . فيقول : بلى . ولكن شتان ما بين معرفة ومعرفة . . فعلاً ، أراه يسلم قياد العربة

لرجل قصير سمين ، يلفُّ رأسه بمنديل أبيض ، فيمضي بها الرجل بعيداً عن الناس والدرب ، ويتحاور مع شاب طويل نحيل كي يكون دليلنا . . لعلهما اتفقا . . لأنهما يدنوان مني . . يعرفه الحوذي جو بي ، ويعرفني به ، يقول : صلاح ، أستاذ آثار وحفريات . . فأهز رأسي له مرحباً . . ونمضي فنقطع أمتاراً قليلة بعيداً عن دوريات الجيش وسيارات الصفيح ، والبغال ، والكلاب الهارة . . ثم نقف بإشارة من صلاح ، يقول لنا : أولاً لا بدَّ لي من أن أوضح لكما أنني مهموم بالتاريخ ، والآثار ، والحفريات ، وأنني من أبناء مدينة القدس أعيش هنا منذ أربعة عشر جداً ، قد أتحدث بتفاصيل لا ترغبان بها أو تعرفانها ، لهذا أرجو أن نتفق ، بكل الصراحة والوضوح ومن دون حرج ، على أن يكون السؤال هو الشخص الرابع المرافق لنا . وثانياً لا بدّ من معلومات تاريخية أولى أسوقها إليكما ؛ فالقدس تقع في قلب فلسطين كمكان ، كما تقع في قلب فلسطين كمشكلة ، ترتفع عن سطح البحر ٧٥٠م ، وعن سطح البحر الميت ١١٥٠م ، بعيدة عن البحر الأبيض المتوسط ٥٢كم ، وعن البحر الميت ٢٢ كم ، و٢٥٠ كم عن البحر الأحمر . . حولها ثلاث عواصم عربية ، فهي تبعد عن عمان ٨٨ كم ، وعن بيروت ٣٨٨ كم ، وعن الشام ٢٩٠ كم . .

مدينة قديمة ، انظرا إلى أبنيتها ، وإلى أشجار زيتونها . . وإلى أسوارها . . هذه ، انظرا هنا . . لقد تهدم السور مرات ومرات ، لكن جذوره باقية ، إنه يشبه أهله ، هذه هي حجارته ، إنها ضخمة وصلدة ، يعود بناء المدينة إلى إيلياء بن ارم بن سام بن نوح ، وإيلياء أحد أسماء القدس كما تعرفان ، ويخبرنا التاريخ أن أحد ملوك اليبوسيين واسمه (مليك صادق) هو الذي اختط وبنى المدينة سنة ٣٠٠٠ ق . م ، وقد سميت أيضاً (يبوس) ، وعرف ملكها اليبوسي هذا بالسلام والمؤاخاة ، لذلك تذكر كتب التاريخ بأنه لُقب بـ (ملك السلام) ومن هنا جاءت تسمية القدس بـ أورسالم ، أي

مدينة سالم أو مدينة السلام ، وقد حرّفت سالم إلى شالم . . وهذا كان معروفاً منذ أزمان بعيدة . . وقد سميت بـ (القدس) اشتقاقاً من كلمة القدوس أحد أسماء الله الحسنى ، كما سميت (بيت المقدس) أي بيت الله . .

كانت كلمات صلاح متدفقة ، وحارة ، لكأنه حفظها غياباً . . وكان بين حين وآخر ، يبعد بعض النساء ، وبعض الصبية الذين راحوا يطوفون حولنا عارضين علينا بضاعتهم كي نشتري منهم . .

أضاف صلاح ، قائلاً : ارتبطت هذه المدينة بأنبياء ، وأعلام ، وأولياء صالحين ، ورجالات سياسة وجيش ، وطغاة . . فهي أهم مكان في العالم يضم رفات أكبر عدد من الأنبياء والدعاة ورجال الدين ، وهي أهم مكان في العالم كان مسرحاً للتقاتل والحروب والنزاعات ، وهي أهم وأجمل مكان في الدنيا ، ويقول أهل الجغرافية إنها مركز الكرة الأرضية . . وفيها أهم مراكز العبادة ، وأهم الدروب المصبوغة بالعقيدة الدينية ، ما من شبر في هذه المدينة إلا وله قصة وحكاية ، وآلام هذه المدينة ، تكاد تجري ، لكثرتها ، مثل المياه ، وهي عنوان للظلم اليومي منذ سنوات بعيدة ، لا سلام في المدينة ولا طمأنينة . . لأن القهر ، والاغتصاب ، والهدم ، والتجريف ، والتغيير ، والخوف ، والمنع ، والتهجير ، والتزوير ، والقتل ، والسجن ، والتفتيش ، والأذى ، والجور ، والظلم ، والتهديد ، والترهيب ، والترغيب ، والشكوى ، والصبر ، والبكاء ، والألم ، والعجز ، وصعوبة الحياة ، والانتظار ، والمداورة ، والانطفاء ، والموت ، والرجاء ، والدعاء ، والهمهمة ، والتمتمة ، والانتظار . . كائنات تعيش مع الناس . .

هذه المدينة مقامة على الجبال ، هنا جبل موريا ، ويعني الجبل المختار وعليه المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، انظرا ها هما ، إنهما مكانان مقدسان للعبادة عند المسلمين سندخل إليهما بعد جولة في المحيط ، يرتفع

هذا الجبل حوالي ٧٧٠ متراً عن سطح البحر ، وهناك في الجوار جبل أكر وفوقه كنيسة القيامة ، إنها هناك ، انظرا ، وهي أهم مكان ديني للعبادة عند المسيحيين ، وجبل صهيون هناك في الجنوب الغربي من المدينة ، ويعرف باسم جبل داوود ، وتعني كلمة صهيون المكان المرتفع أو العالي . . مساحة المدينة تقدر بـ ١٩٣٣١كم٢ ، ويحيط بها كما تريان سور شديد المناعة ، مع أنه . . وكما قلت لكما ، دُمر مرات عدة ، يرتفع السور عن سطح الأرض حوالي ١٣ متراً ، ويقوم عليه ٣٤ برجاً ولكل منها اسمه ، ولهذا السور سبعة أبواب مشهورة ، وقد بُني السور ورمم مرات عدة مثلما هدّم وُخرب مرات عدة أيضاً وعمل على ترميمه وبنائه سلاطين ، وأمراء ، وملوك ، وقادة على مر الأزمنة والعصور ، فأحد ملوك بني أمية في الشام وهو عبد الملك بن مروان ، وبعد أن بنى قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، حاول أن يحوّل الحجاج المسلمين إلى هنا ، إلى القدس ، بعدما تفرد خصمه عبد الله بن الزبير بمدينة مكة .

وقال لنا الدليل صلاح إن أبواب القدس سبعة لا نستطيع الوقوف عندها جميعاً ، وكذلك هي زوايا القدس الدينية ، وأروقتها ، إنها أكثر من مائة مكان أثري لكل منها أهميته وقدسيته ، وسوف نمرّ ببعضها . . هذا هو المسجد الأقصى ومساحته حوالي ٤٥٠٠ متر مربع ، شرع في بنائه الملك الأموي عبد الملك بن مروان وأتم بناءه ابنه الوليد سنة ٧٠٥م وطوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً ، وسنرى حين ندخله بأنه يقوم على أكثر من ٦٠ عموداً كبيراً من الرخام ، وأكثر من ٥٠ سارية مربعة الشكل ، وقد كانت أبوابه مصفحة بالذهب والفضة . . وكي لا يطمع بها أحدٌ رفع الذهب ، ورفعت الفضة .

كنت أستمع لصلاح ، وأنا أرى المتاهات الثورندايكية التي أوجدها الجنود كي يعوّقوا الناس ويحولوا دون دخولهم إلى المسجد الأقصى ، لقد

وضعوا الحواجز الحديدية الالتفافية التي راحت تدور بهم داخل مربعات متوالدة ؛ وتقلبّهم وجهاً وقفاً مثلما يقلب الطهاة طعامهم . .

أشعر بأن دواراً خفيفاً راح يدور بي حول المسجد الرائع ، أحس بأن النور يضيء الحيطان ، نور لا هو بالأبيض ولا هو بالذهبي ، نور يشع من الشقوق ، وصفحات الحجارة المستسلمة لنداوة الصباح . . نور حيي . . يُرخي على المكان غلالة فضية شبيهة بالضباب ، نور يمشي به الناس المحتشدون هنا وهناك . . أسمع الدليل صلاح يقول هذا هو باب العمود ، الذي بناه السلطان العثماني سليمان القانوني ، إنه منفسح يحيط به عمودان كبيران من الرخام يعلوهما تاجان مزخرفان ، وقوس مستديرة متهدلة فوق العمودين مثل أوراق الشجر وقد بدت نقوشها ورسومها وزخارفها وحروفيتها المتداخلة ، قوس تنحني على الخلق الداخلين مثل دوالي العنب . . حين اقتربنا من الباب أكثر شعرت بنداوة تملأ وجهي ، لكأن القوس ترش المارين بها بنداوة الصباح . . أنظر إلى الأعلى فأرى مجموعة من الجنود الذين يشدون البنادق إلى صدورهم يمشون فوق الأسطحة ونظراتهم مرسلة إلى الأسفل ، لعلهم فرق الحراسة والمراقبة . . وبعد مسافة قصيرة استدرنا التفافاً ، أسمع صلاح يقول لنا هذا هو باب الساهرة وقد سمي بالساهرة لأن الناس هنا يسهرون ولا ينامون . . باب مشقوق وسط برج رخامي كبير يضيق ، لكثرة الناس ، بالازدحام ، ونستدير فتواجهنا يافطة رخامية مكتوب عليها باب المغاربة ، ويواجهنا خلق كثيرون يتزاحمون في فضاء مكشوف على شكل قوس ، بعضهم يقفون ، وبعضهم الآخر يجلسون على مقاعد خشبية طويلة ، وآخرون يواقفون الحائط العالي وقد أسندوا أذرعهم ورؤوسهم إليه ، هنا تمتمات ، وهمهمات ، وأدعية ، ورجاءات ، وكلمات متداخلة ، وأصوات خفيفة وعالية ، وأبواق ، ومزامير ، وموسيقى ضاجة تصدر من قرون سود أشبه بقرون الجواميس ، ينفخ فيها

رجال سمان وقد انكشفت صدورهم الواسعة وأذرعهم الطويلة ، وبعضهم الآخر يلفون سواعدهم بقطع جلدية مسطحة وطويلة جداً ، بدوا ملتفين بقطع من القماش الأبيض ، وقد غطوا رؤوسهم وراحوا يقرؤون في كتب سميكة ، أوراقها صفر ، وآخرون واجهوا الحائط الوسيع الأبيض ، وراحوا يدسون في شقوق الحجارة البادية أوراقاً مطوية . . أسأل الحوذي جو عن الأوراق ، فيقول إنهم يكتبون أمنياتهم ورجاءاتهم ويسلمونها للحجارة . . بدت الأصوات مثل طنين النحل تحوّم في المكان فلا أحد يدري ماذا يقول الآخر . . أسمع صلاح يقول لنا ، هذا حائط المبكى ، وهؤلاء يهود يبكون هيكل الملك سليمان الذي يظنون أنه كان مقاماً هنا في هذا المكان ، وأن هذا الحائط أحد حيطانه . . وقد كانت هذه الساحة مملوءة بالأسواق التي تحيط بالمسجد ، وقد كانت وقفاً للمسجد ، أي تعود أموال استئجارها للمسجد ، ولكن أولي الأمر هنا ، رجال الحكومة ، هدموا الأسواق ، وجعلوا مكانها فارغاً كي يأتي هؤلاء الناس للعبادة ، والبكاء ، وكتابة الأمنيات ، والهمهمات . . وهذا الحائط نفسه يسمى حائط البراق الشريف ، أي الحصان النبوي الذي ارتقى بالنبي محمد ﷺ إلى السماء ، وهو حائط مقدس لدى المسلمين . . لذلك أنتم ترون أن هذا الحائط متنازع عليه من حيث الأهمية والقدسية بين اليهود والمسلمين ، شأنه في ذلك شأن كل شيء في هذه البلاد . . فما من شيء هنا إلا ويتنازع عليه الطرفان ، كل يدعي أحقية به . في البعيد رأينا خلقاً آخرين ، عيونهم دامعة ، ونظراتهم تجول في الفضاء ، ينظرون إلى الحائط المرتفع بشوق ، لكأنهم ينتظرون أمراً ما ، فهم يتجمعون على مبعدة من الحائط ، ولا يقتربون منه ، أسأل الدليل صلاح عنهم فيقول إنهم مسلمون ، ينتظرون خروج اليهود . . كي يمروا هم أيضاً بالحائط ، وكما ترون فالجنود يقفون في مقابلتهم خلف الحواجز الحديدية ، يمنعونهم من الاقتراب والاحتكاك باليهود . . هنا حدثت

عراكات عدة ، ومن هنا انطلقت ثورة عظيمة أيام الانتداب البريطاني . . هنا ارتوت هذه البقعة من الأرض بدماء كثيرة . . وقد سمي الباب بباب المغاربة لأن حجاج البيت المقدس القادمين من بلدان المغرب العربي ، مراكش ، الجزائر ، ليبيا ، تونس . . كانوا يقيمون رواقهم هنا في مقابل هذا الباب ، وقد بنوا بيوتاً لهم لأن الكثيرين فضل عدم العودة إلى بلاده ، فسميت البيوت بحارة المغاربة . . مثلما سُمي الباب بباب المغاربة . .

وندور حول البناء الكبير فنرى نساءً ورجالاً يوزعون أرغفة الخبز ، والزبيب في سلال من القش والقصب ، ويقدمون الأشربة بطاسات من الفضة والنحاس . . أحدهم اعترض طريقنا وأصرّ على أن يسقينا من شرابه . . فأخذنا منه طاساته النحاسية المملوءة ، وتذوقنا الشراب ، كان لذيذاً ورائعاً ، سألت الدليل صلاح عن اسم الشراب ، فقال : إنه شراب الخروب . . يا لهذا الخروب الذي يماشينا ويرافقنا مثلما تماشينا أشجار الزيتون ، والدوالي ، والرمان . .

ونمضي كي ننتهي من القوس الغربية للبناء ، فنرى القلعة المتنامية أبنيتها وأقواسها ، وأسوارها ونوافذها ارتفاعاً حتى لتبدو وكأنها كتلةٌ واحدة ، أو برج عظيم . . أسمع الدليل صلاح يقول : هذه القلعة بناها الملك العثماني سليمان القانوني ، وذلك البناء المتطاول العالي هو برج داوود ، وقد كانت فرقة (الطبلخانه) تضرب الطبول في كل ليلة ما بين صلاتي المغرب والعشاء ، إعلاناً عن بدء مد السماط كي يأتي عابرو السبيل ، والفقراء والمساكين . . ليأكلوا . . كي لا يناموا جوعى . . ونمشي فنرى عشرات الآبار التي تحيط بالبناء ، بعضها يشرب الناس منها ، وبعضها الآخر لا ماء فيها ، رأينا الدلاء ، والأخشاب ، والحبال ، والطاسات بادية عند كل بئر ، حتى تلك التي لا ماء فيها ، كما رأينا السقاة يتوازعون الأدوار قرب الآبار . . أي حياة هنا ، أي جمالية ، وأي معيوشية وسط

حضور هؤلاء البغالة، والبغال، وسيارات الجيش، والكلاب.. الذين ينتشرون في كل الأنحاء، على الأرض، وفوق الأسطحة، وفي المفارق، وداخل الساحات، وداخل الأروقة، وبين الحجاج والمصلين والزائرين.. من أين يأتي هؤلاء السقاة بهذا الحبور، ومن أين تأتي هؤلاء الخبازات بقدرتهن على الكلام اللطيف والابتسام الجميل، ومن أين يأتي هؤلاء الناس الذين يمرون بالمربعات الحديدية بالصبر، وبالمقدرة على الانتظار الطويل المر، وكيف تتسع صدورهم لكل هذا النهر، والكلام الغليظ، والصدود، والسخرية، والاستهزاء.. الذي يبديه البغّالة على الدوام..

هنا، وبالقرب منا، رجل عجوز يوزع كتيبات رقيقة ملوّنة يمدّها نحونا، فنأخذها منه، إنها أجزاء من القرآن يوزعها وهو يهمهم، وشبه غيبوبة تكاد تأخذه إلى نوم عميق.. وحولنا يدور باعة متجولون، يحملون فوق عرباتهم الصغيرة، وفي صناديقهم الخشبية المشدودة إلى صدورهم، وعلى أكتافهم.. وبين أيديهم.. بضائع مختلفة ومتنوعة لا قبل لي على عدها وحصرها.. طوافهم حولنا بأصواتهم المتداخلة.. يمنح المكان حيويةً مضافةً.. وإلى الجوار تبدو أشجار الزيتون حقولاً، وبالقرب منها تبدو المقابر بشواهدها البيض، وقد اتسعت وامتدت باتساع التلال وامتدادها، حتى لتكاد تدنو من أسوار المسجد.. وندور حول البناء فيحدثنا الدليل صلاح عن الجبال التي تحيط بنا، وبالبيوت، وحقول الزيتون، يسمي الجبال فيقول هذا جبل النبي صموئيل، وذاك جبل بعل حاصور، نسبة إلى الإله الكنعاني بعل، وهناك في الشمال جبل المشارف، ويسمى جبل المشهد أيضاً لأنه يطل على القدس بكاملها، كما يسمّى بجبل سكوبس نسبة إلى اسم القائد الرماني المعروف.. وبالمقابل هناك، في شرق البلدة جبل الزيتون لكثرة زيتونه كما ترون، كما يسمى جبل الطور، ويعتقد أن سيدنا المسيح صعد منه إلى السماء، وكما ترون فقد أقيمت في المكان

كنيسة إكراماً لذلك المعنى . وإلى الأسفل أودية كثيرة تحيط بالمدينة وهي ملأى بأشجار الزيتون والتين والعرعر ، والجميز ، والغار ، والطيون ، وفيها الكثير من الينابيع ، والآبار ، والسواقي ، وقد استصلحها الأهالي فزرعوها بالأشجار والحبوب ، هذا الوادي الأقرب إلينا هو وادي جهنم وقد سمي بهذا الاسم لوعورته ، وحدته حين يمتلئ بالمياه ، وشدة انحدار جرفه من جهة المدينة . . واسمه القديم قدرون ، كما يسميه الأهالي بوادي سلوان نسبة إلى نبع سلوان ، العين التي يشرب منها أهالي القدس .

وهناك إلى الجوار وادي الربابة لأن مياهه تصدر أصواتاً تشبه موسيقى الربابة ، وكان قديماً يسمى بوادي هنّوم ، نسبة إلى فتاة جميلة ألقت نفسها فيه هرباً من الظلم الذي لحق بها ، وهذا المنخفض الذي نطل عليه هو وادي الواد الذي استأنسه الأهالي فبنوا بيوتهم فيه . . وحولنا كما تريان مساجد كثيرة وكنائس كثيرة ، وأسواق متعددة . . وهذه البادية أمامنا قباب لا تعد ولا تحصى ، الكبيرة منها قباب للكنائس والمساجد ، ولكل واحدة منها اسمها وسببٌ لبنائها ، وتلك القباب الصغيرة لأروقة وقبور ، وما بينها وبجوارها منارات توقد فوانيسها وقناديلها ليلاً ، وهي اليوم حديقة تنار بالكهرباء بعدما كانت في القديم توقد يدوياً ، وقد كان حراس المساجد والكنائس ، والقيمون على الأروقة والقبور والزوايا والربط يوقدونها ليلاً ويحرسونها ، ويقومون على شؤون الناس من أجل خدمتهم . .

ووقف الدليل صلاح ، سألنا ما إذا كنا ننوي الدخول إلى المساجد أو الكنائس ، أو أن نمضي نحو الأسواق ، أو أننا اكتفينا بما شاهدناه وسمعناه في هذا اليوم من هذه الجولة الطويلة . . نظر إليَّ الحوذي جو سائلاً ، فقلت له : نود أن نستريح قليلاً ، ثم نتفق على أمر نختاره . . فوافقني ، ومضينا خلف الدليل صلاح نحو أحد المقاهي شاقين طريقنا وسط جموع الناس . .

وأمام المقهى الذي وصلنا إليه وقفنا قليلاً منتظرين شغور طاولة من

طاولاته . . كان الدليل صلاح يواقف أحد الندل في المقهى كي يؤمن لنا طاولة نجلس إليها . . أمامنا كانت تقف سيارة مدنية ومشادة بادية ما بين شرطي ملأ ثيابه بالإشارات والعلامات ، وصاحب السيارة . . تعالت أصواتهما فاجتمع حولهما الناس ، الحوذي جو نادى الدليل صلاح كي يشرح لنا ماذا يحدث ، فجاء إلينا مهرولاً . . وقد عرفنا منه أن الشرطي كتب مخالفة مرور بحق السائق لأنه لم يضع حزام الأمان ، فيقول له السائق إن السيارة واقفة وإنه لم يتحرك بعد ، وحين هبط منها ، كتب الشرطي مخالفة ثانية بحق السائق لأنه لم يطفئ المحرك ، فيقول له إنه هبط منها كي يتحدث إليه ، وهو لم يغادرها إلى مكان آخر ، ثم يكتب الشرطي مخالفة ثالثة لأن صاحب السيارة يحتج على كيفية تنفيذ قانون السير ، وحين هاج صاحب السيارة وأبدى غضبه الشديد ، استدعى شرطي السير أفراد دورية كانت تقف عند زاوية الشارع . . فانهال أفرادها على صاحب السيارة بالضرب دونما سؤال أو استفسار لا بل دون أن يعرف أي منهم سبب المشادة بين الطرفين . . ولم يتركوا صاحب السيارة إلا كتلة مدماة مرمية مثل ثياب مبللة إلى جوار سيارته ، وقد كسر زجاجها وتشظى . . وحين غادروا الرجل تقدم منه بعض الناس حاولوا إسعافه ومسح جروحه ، ثم حملوه إلى سيارة مضت به إلى أحد المشافي . . ونبهنا الدليل صلاح إلى أن إحدى الطاولات شغرت ، فمضينا إليها . . ونظري ونظر الحوذي جو لا يلتقيان . . طلبنا قهوة ، والصمت يلفنا ، وحين شرعنا بشربها . . أحسسنا بأن طعمها مالح ، فنهضنا . . سألنا الدليل صلاح إلى أين ، فقال الحوذي جو : نمر بالأسواق ، ونظر إليَّ ، فهززت له رأسي موافقاً . . مشى صلاح فمشينا وراءه . . فلفت انتباهنا إلى وجود بعض أبواب المسجد مغلقة ، وسماها لنا ، وقال لنا إنها أغلقت لأسباب مختلفة ، وسمى لنا الأروقة التي كنا نمر بها ، وقد احتشد تحتها الناس في ذهاب

وإياب ووقوف وجلوس وانتظار . . كذلك أشار إلى الزوايا والتكايا والربط الدينية التي كان يشغلها بعض الشيوخ والمريدين ، وفيها تُلقى الدروس الدينية ، ويقدم الطعام ، وقال لنا إن هذه زوايا وتكايا وربط واقعة في خارج المسجد ، وبداخله توجد زوايا وتكايا وربط مماثلة أيضاً ، عادة ما تكون مقصورة على الدروس الدينية . . وسألت الدليل صلاح عن القبة الذهبية التي تعلو مسجد الصخرة ، فقال : إن الملك الأموي عبد الملك بن مروان هو من بنى هذا المسجد سنة ٥٨٦ ميلادية ، وقد رصد ريع خراج مصر مدة سبع سنوات لأجل هذه الغاية حتى تم بناء المسجد ، وقد بقي من الريع بعد انتهاء البناء مبلغ قدره مائة ألف دينار ، فأمر الخليفة بصهر النقود وتفريغها على القبة والأبواب . . وبذلك صارت هذه القبة على هذا النحو من البهاء الذهبي الجميل . . وقد كان لهذه القبة ، قبلاً ، كساء واسع يقيها تقلبات الطقس ، وحرارة الشمس ، وبرودة الشتاء . . لكنه أزيل كي يبدو جمالها طوال أيام السنة . .

ووقف بنا الدليل صلاح ، أمام حاجز حديدي ، يحيط به البغال والبغالة ، والكلاب ، وسيارات الجيش المصفحة . . همس لنا ، حاجز تفتيش ، أخرجوا التصاريح ، وجوازات السفر ، كنا نقف خلف طابور كبير من الناس يمرون بالبغالة الذين راحوا ينظرون في أوراقهم ، وسلالهم ، وحقائبهم ، ويتخيرون بعضهم فيفتشون ملابسهم ، وثمة جنديات مع البغالة يفتشن النساء . . سألت الدليل صلاح أين نحن فقال : نحن أمام سوق القطانين وهو أحد أهم أسواق القدس ، وهو سوق مسقوف ، وهو خاص بالألبسة ، ولكنه يشتمل على كل شيء ، ورحنا نقترب رويداً رويداً . أحسست بأن الحوذي جو شعر بالتعب لأنه راح يؤكد بأن انتظارنا على الحاجز ، شل قواه .

قلت للحوذي جو : ما رأيك أن نعود لرؤية الأسواق في مرة قادمة .

فقال : أحسن . لذلك طلبت من الدليل صلاح أن نعود أدراجنا ، وخرجنا من الصف ، وما إن خطونا خارج الصف حتى لحق بنا ثلاثة جنود من البغالة ، أوقفونا ناهرين ، فوقفنا ، تقدموا نحونا بوجوههم المغلقة ، وبنادقهم المخيفة المشدودة إلى صدورهم ، طلبوا أوراقنا ، فأخرجناها ، ودفعناها إليهم ، فنظروا فيها ، وسألونا لماذا تركنا الصف ، فقلنا لهم تخوفنا من التأخير ، لأن وراءنا أعمالاً ومواعيد أخرى ، فقال أحدهم ساخراً : تريدون أن تتحدثوا فيما بعد عن إعاقة الجيش للناس ومنعهم من الدخول والخروج أليس كذلك . قلت نافياً : لا ، هذا شأنكم . قال : نحن هنا من أجل حراستكم والحفاظ على الأمن . قلت : مفهوم . قال : لعلكم تقدرون مهمتنا . قلت : لقد أدركت هذا منذ وصولي إلى هنا . قال : وهل تشعر بالإحباط . قلت : بعض الشيء . قال : لا بدَّ من ذلك ، ولكن عليك أن تعرف أن كل شيء هنا بحاجة إلى حراسة ، والغفلة تعني انقلاب الأرض وهذا ما لا نريده ، قلت : وإلى متى ستظل هذه الحراسة هكذا . قال : إلى الأبد . قلت : هذا مستحيل . قال وهو يشير إلى بندقيته : مع هذه لا مستحيل . قلت : القوة أطوار ، وسيعقبها أطوار . قال : إن ذلك في الماضي ، أما اليوم فلا ، فنحن نسيطر على كل شيء ، ونحسب حساب كل شيء . قلت : الأطوار موجودة في كل الأزمنة وستظل لكل الأزمنة . قال : هذا وهم . قلت : أقرأ تاريخ كورش والاسكندر المقدوني . . وريتشارد قلب الأسد ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونابليون ، وهتلر . . ستجد أنهم جميعاً آمنوا بالقوة ، ولكن أين هم اليوم . قال : قرأنا التاريخ ، وفكرنا جيداً . . لهذا نحن ننجح دائماً . قلت : حتى التفكير له حدود . قال : أنت من أوربا ، وتعرف أن أوربا أوقفت التناقل الحضاري من شعب إلى شعب ، ومن حيز جغرافي إلى آخر . . والسبب هو الحراسة للعقل ، قلت : أتظن هذا سيستمر ، قال : نعم . قلت وأنا أستدير : عقلي يقول إن هذا لن يستمر ، قال وهو يبتسم :

وقلبك . قلت : قلبي يتبع عقلي . . ومشينا . هامسني الحوذي جو : الحوار معهم عقيم . إنهم مشدودون إلى فكرة القوة ولا شيء سواها . قال الدليل صلاح : يظن من يسمعه أنه حضاري ، وصاحب حوار ، ولو انتظرنا بقربه دقائق فقط لرأينا وحشيته وهو ينقض على الناس ضرباً ، وركلاً لأتفه الأسباب ، أظن أنه يحسب أعماله وخدماته بمقدار ما يؤذي أهل الأرض ، وبمقدار ما يضيّق عليهم ويفسد معيشتهم .

ولفنا الصمت ، فرحت أرقب الناس ، وأماشي جولانهم . . وهم يمرون بالحواجز الحديدية التي تقطع الطرق ، والدروب ، وتواقف الزوايا والمنعرجات . . حواجز ، وبغال ، وبغالة ، وكلاب ، وسيارات صفيح . . يبدون على شكل عقبات ، وجزر ، يوقفون الناس بالسؤال ، والضرب ، والمنع ، والاعتقال ، والحجز . . أرى الأرصفة ملأى بالبائعين ، رجالاً ، ونساءً ، وشباناً ، وصبايا ، وقرب الأرصفة عربات خشبية محتشدة بالبضائع ، وأخرى في الجوار ، محتشدة بالخضار والفاكهة ، وباعة جوالون يبيعون الأشربة ، والكعك ، والخبز ، والسكاكر ، والحلويات ، والفستق ، والترمس ، والحمص المسلوق ، وأنواعاً عديدة من الخضار والفواكه المحفوظة بالخل ، طاولات ومقاعد صغيرة وطويلة ممدودة عليها صحون معدنية وبلاستيكية ، وممالح مملوءة بالملح والكمون والبهار . . يجلس حولها بعض الصغار وهم يلتهمون ما في صحونهم من الخضار والفواكه المخللة . . نداءات ، وأصوات وترنيمات تتعالى منادية على البضائع والحاجيات لكأنها الموسيقى التي تؤنس الناس في جريانهم في الأسواق ، والحارات ، والطرق ، والمحال ، وأمكنة العبادة ، والساحات العامة . .

بقربنا يمرّ رجل مملوء الجسد ، كثير الثياب ، طويل الشعر ، يلتقط دربه من خلف عصاه الطويلة ، ويمشي خلف صوته الناهر ، والناس من حوله يخلون له الدرب ، ويمدون أيديهم نحو عليقة كتانية كالحة اللون معلقة في

رقبته فيتركون فيها ما حملته الأيدي من طعام ، وقطع حلوى ، وكعك ، وفواكه ، وخضار ، ونقود ، تبدو أطواق الخرز المتعددة والملونة تصطفق فوق صدره كلما خطا خطوة جديدة . . بدا وكأنه هو من يكسر رتابة المشهد في الشارع ، يمشي فتلفه الأنظار ، وصوته يتعالى نافراً بالحكمة ، والتحذيرات ، والتخويف ، والنهوض ، وعدم السكوت عن الحق ، نقف على مقربة منه وهو يدنو نحونا ، ونسمعه يقول : لا تناموا . . الحيات تحت المخدات . . العقارب هنا ، العقارب هنا ، اصحوا . . أخذوا البيوت ، فانتبهوا للناس . . وينادي بصوت شجي : الزيتون . . الوديان ، الطير ، انتبهوا البغال البغال ، البغال البغال البغال البغال . .

حين اقترب منا أكثر ، بدا لنا رجلاً أشيب الشعر واللحية . . حاجباه يغطيان عينيه ، وشاربه يغطي فمه . . لا شيء في وجهه أكثر بدواً من لحيته الطويلة . . أسأل الدليل صلاح عنه ، فيقول : هذا هلال بهلول القدس ، قلت : مجنون . قال : لا . قلت : إنه غير طبيعي . قال : يبدو كذلك لأن الجنود ضربوه على رأسه ، فطق عقله . الأهالي يقولون إن النقطة نزلت على عقله . إنه يجوب شوارع القدس وحاراتها طوال الليل والنهار . . وكثيراً ما يهاجم البغال والبغالة والكلاب وسيارات الجيش بعصاه ، فيوسعه الجنود ضرباً إلى أن يخر راكعاً على الرصيف ، فينام طي جروحه وآلامه أسأله : وهل هو معروف في القدس ، فيقول : جداً ، لأن الناس يقولون عنه إنه أهم عاقل في القدس . أرى بعض الناس يمسحون أيديهم بثوبه الطويل . . وبعض الأمهات الحاملات أولادهن يدنين أولادهن منه ، فيمسح هو رؤوسهم بيده الكبيرة ، وصوته يتعالى : البغال البغال . فجأة تمرّ بنا سيارة جيب للجيش ، فيهوي عليها بعصاه ، لكنه لا يصيبها ، فقد كانت بعيدة عنه ، ومع ذلك تقف السيارة بضجيج صاعق من محركاتها ، وتعود إليه ، يهبط الجنود منها ، ويندفعون نحوه متراكضين

كالأفيال ، فيحيط به الناس ويحولون بينهم وبين الوصول إليه ، لكن الجنود يندفعون كالعميان ، بعضهم يضربون بالهروات ، وبعضهم الآخر يطلقون القنابل الدخانية المسيلة للدموع ، فيتعالى الضجيج والصراخ وتتداخل الأصوات . . فأرى الناس الذين نالوا من ضرب الجنود الكثير ، ينفضون عن البهلول ، بعضهم وقع على الأرض فداستهم الأقدام ، وبعضهم الآخر تنحى بعيداً . . أرى الجنود يصلون إلى البهلول . . ينهالون عليه بالهراوات . . فيتعالى صوته وقد ارتفعت ذراعاه كي تحميا رأسه ووجهه . . صوته يتعالى البغال البغال ، فلا يتركونه إلا وقد غدا كتلة مدماة ، وصوته يخرج همهمات وأنّات . . أرى الناس يحملونه بين أيديهم ، وقد غادره الجنود . . ويدخلون به إلى أحد المحال المجاورة . . . فينفض الناس وقد خنقتهم الغصات ، أسمع دعاء النساء ، والشتائم ، المتكاثرة من الصغار والكبار . . يتوارى البهلول . . فنمضي برفقة الدليل صلاح حتى نصل إلى عربة الحوذي جو ، نعطي الدليل صلاح أجره ونشكره ، وننقد السائس أجره ونشكره أيضاً ، ثم نركب العربة فتجري بنا فوق الحجارة السود اللامعة . . عائدين وقد أحاطت بنا البيوت ، والأشجار ، والناس ، ومن فوقنا تطلُّ علينا الشرفات والنوافذ والمقدسيات وحبال الغسيل ، والنباتات ، والأزاهير ، والدوالي ، والغيوم . . ما أبدى هذه البيوت المتآخية ، وما أجمل هؤلاء النساء الباسمات ، وما أكثر فيء هذه الغيوم الدانية» . .

ملحوظة :

أعتذر ملء وجهي ، فقد أطلت عليك ، لكنك تعرف سحر القدس ، فقد أخذني الكلام ، ولم أنته بعد ، فقد تواعدنا على زيارة الحرم الشريف من الداخل ، وسوف يوافينا الدليل صلاح كي يصحبنا في رحلة ، وصفها بأنها جوهر الرؤية ، أرجوك أكتب إليَّ ، كي أشعر بأنك معي .

سيلفا.. وأم أهارون

«أليس لي الآن في وحدتي سواك ،
أجالسك لكي أكتب إليك . صدقني . . كم أتمنى لو أنك معي الآن في القدس كي تراها ، وأنا أراها مواجهةً فأشتاقُ إليها ، وأواقفها وأماشيها ، فأحسُّ بنأيها عني ، بلاد أشبه بالعشيقة . . كلما ارتشفت من طعومها زادك حبُّها عطشاً ، بلاد أشبه بتحليقات طيور الحمام . . كلما دنت منكَ تمنيت لو أنها واصلت الطيران .

ها أنذا ، في مساء وحدتي ، أكتب إليك لكي أحدثك عن مجيء سيلفا المفاجئ ، وما قالته لي ، وما خلّفته وراءها من رذاذ أنثوي قد لا يستعاد . كنت نائماً عندما اقتحمت العجوزُ أم أهارون باب غرفتي ، أحسست ، وقد تنبهتُ قليلاً ، بأن الطرق يأتي من غرف بعيدة جداً ، أو من مغارة نائية ، ومع ذلك استويت في جلستي ، فالحذر هنا هو الملاك الحارس ، ثم نهضت حين أدركت بأن الطرق يلتهم باب غرفتي ؛ فخطوت وفتحت الباب ، وإذْ بأم أهارون في مقابلتي تماماً ، امرأة عبوس ، شعرها المنفوش الأحمر تجهم وامتدَّ وتدلَّى في كل اتجاه مثل نبات شوكي . قالت ، وقبل أن أسألها : حسبتك خرجت في غفلة مني ، تعال ، انزل وخذ قهوتك معنا . قلتُ وأنا آخذ وجهي براحة يدي : سيلفا؟! قالت : سيلفا .

واستدارتْ ، فاستدرتُ . ارتديت ثيابي ، وغسلت وجهي ، وهبطتُ سريعاً قبل أن تصعد سيلفا إليَّ . وجدتها منطوية على نفسها مثل زهرة

أغلقت أوراقها عليها، وجدتها غارقة في بكائها، والعجوز أم أهارون قربها تواسيها، وتربت على كتفها، وصوتها يتعالى كي أسمعها : وهل هو جدير بدموعك هذه؟ . فتهزُّ سيلفا رأسها، فيرفُّ شعرها الأشقر الكثيف بتواصل يشبه رفرفة الطير، فأقف حائراً لا أدري ماذا أقول . أنظر إلى أم أهارون وقد راحتْ تنظر إليَّ نظرات مملوءة بالقسوة والعتب والامتعاض، فدنوت من سيلفا، حاذيتها حتى كدت ألامسها، ثم انحنيت عليها، وأخذت بعض خصل شعرها الأجعد طيَّ أصابعي، فتململت وربت مثل أرض أُمطرت للتو، ورفعتْ وجهها نحوي، فبدا مثل سماء ممطرة وقد تورّد، وشفَّ، وصفا . وجه مثل حقل قمح لا حدود له ولا نهايات، كلما نظرتَ إليه استدار، وتلامع، ودنا . . فدانيتها أكثر فأكثر، فأمالت رأسها نحوي ثم أعطتني جسدها كلَّه، فأخذتها إليَّ ورحت، دونما أدري، أقبلها . . وهي تتأوه بين ذراعيَّ وتهمهم بحروف لا تصير كلاماً، لعل دمعها بلل الحروف فتداخلت، وتماهت النبرات، وقبل أن يرتخي الجسدان في حضور العجوز أم أهارون أنهضتها، أو لعلها هي التي أنهضت نفسها، فوقفنا، ودون أن نتفقد العجوز أم أهارون ما إذا كانت قربنا، أم أنها ذهبت لتصنع لنا القهوة؛ مضينا نحو غرفتي، وقد تداخل الجسدان، وتعالقت الخُطا، وتوحّدت الهمهمات والتمتمات، وتلاشى البصر؛ بدونا مثل غيمتين، واحدة تذوب في الثانية، وواحدة تبدو في الثانية . وصعدنا الدرجات الخشبية مناقلةً، أحملها وتحملني . ودلفنا إلى الغرفة، وحجبنا نفسينا عن عين أم أهارون حين أغلقنا الباب وراءنا، واستندنا إليه، دون أن ندري كيف وصلنا إلى الغرفة، وكيف صعدنا الدرجات الخشبية، وكيف توارينا، ومَنْ اقتاد مَنْ إلى الغرفة، ومَنْ ماشى مَنْ على إيقاع الهمهمات والشوق، ما أدريه هو أننا ظللنا وقتاً رخياً واقفين مجاورة للباب لعلنا خفنا من أن تباغتنا العجوز أم أهارون بحضورها المفاجئ، وقد جاءت بالقهوة، دون أن

تدري أن من كان في مثل حالنا ليس في باله قهوة أو كلام ؛ ظللنا واقفين نتساقى من نبعة القبل ، لكأنني أرى سيلفا للمرة الأولى ، ولكأنها تراني للمرة الأولى أيضاً . بدا وجهها القمحي يضيء أو يكاد ، وشعرها الأشقر يموج ويمتدّ مثل غيمة فضية تحيط بهالة من نور ، فرحتُ أجوس بأصابعي شعرها وقميصها المشمشي ، وهي تجوس بأصابعها شعري وصدري ، لعل كلاً منا كان يتقرى دربه إلى الآخر ، أو لعل كلاً منا كان يقرأ كتابه في جسد الآخر ، وأخيراً هبطنا على الأرض ، قرب عتبة الباب ، طريحين مثل طيرين باغتهما ليلٌ ثقيلُ السَّواد ، لعل ندى الشوق رنّخ وقفتنا . . فخارت قوانا .

أعترفُ أنها امتلكتني ، وأنني كنتُ أمامها بتمام عطشي ، فقد بددتني بقبلها ، وهمهماتها ، ولمساتها ، وأنفاسها اللاهبة مثل تنور ، بدت أشواقها سائلة مثل الماء من بين الأصابع . . لا ، بل أغلقت عليَّ كلَّ أسئلتي ، ومحت غضبي عليها ، ورفعت عتابي ، وأعادتني إليها كعاشق لم يعرف سواها . نسيت كلَّ ما قاله لي الفلسطيني عارف الياسين عنها ، وغيّبت مشهد ملزمة الحديد التي دوّرت أصابع كفه حتى جعلتها امتداداً لساعده ؛ نسيتُ ألمه ، وتفجعه وقد فقد أصابعه ، نسيت عذابه المرير الذي عاناه في داخل السجن ، وتوارت عني متوالية القتل ، والدم ، والصراخ ، والخوف ، والأذى . . التي رأيتها في الأسواق ، والحواجز ، وقرب دور العبادة ، نسيت ولو للحظات كل نفوري منها ، وخوفي من أن أراها بوجهها الوحشي الذي وصفه لي عارف الياسين . . ونسيت كلَّ ما قاله لي عنها الحوذي جو . يا للمرأة ، يا للعطش الأبدي لمائها ، ويا لتوق النفس ولهفتها لسحرها الفتّان .

ما أعيه الآن ، هو أنني رأيتُ سيلفا تجلس فوق صدري بجسدها البلوري ، وتطالبني بإلحاح أن أعترف لها . . لماذا أتهرب منها ، ولماذا

أجفوها ، وهل صار حقلها حصيداً ، وهل قصّرتْ هي بشيء ، أو أنها آذتني بشيء؟! وتبكي مثل حافة شباك خشبي ناحل أصابها المطر بعد طول هجر فراحت ترسل أشواقها قطرات متتابعات فأحار بما أقوله لها ، وبما أجيب؟ وبدلاً من أن أماشيها بالكلام ، آخذها إليّ شدّاً ، فتنحني عليّ مثل شجرة صفصاف أمضت عمرها محاولةً كي تصل إلى صفحة الماء ، وتأخذنا الهمهمات ، والأسئلة الجارحة ، والإجابات المؤسية ، والتنهدات ، والغصات ، والدروب والذكريات . . أحدثها عن أمي بيت الدعاء والرضا والحنان ، وعن علاقاتي مع البطرسبورغيات اللواتي عرفتهن ، وعن فتاة لتوانية سحرتني بجمالها خلال سبعة أيام قضتها في بطرسبورغ . . اسمها ناتاشا ، كانت مثل مدينة مسحورة لا تُريك ، مهما حاولت ، سوى بعض من بادياتها ، ولا تمدّك ، مهما حاولت ، سوى ببعض طعومها . ناتاشا امتلكت السرين ، سرَّ المدن ، وسرَّ النساء . . لهذا ، وفي عزّ انكشافها ، تخفي عنك ما تروم نفسك أن تراه ، لقناعتها بأن الانكشاف انكشاف ، والانكشاف يعني الإيابَ من المدن المسحورة ، والخروجَ من دائرة الحلم الأنثوي .

قلت لـ سيلفا وقد راحت تغريني بالحديث عن ناتاشا ، إن ثوب ناتاشا التوتي الشفيف ما زال هو العلامة الأبدى التي لا يغادر طيفها باصرتي ؛ دائماً كانت تأتي إليّ ، في آخر الليل ، ولا شيء ترتديه سوى معطفها القرميدي ، وثوبها التوتي الشفيف ، ثم . . لا شيء!

تأخذني ، أول ما تأخذني ، إلى الماء الدافئ ، هناك تغمرني بقبلها المائية ، فأغمرها بأشوقي ولهفتي إليها ، فتدور بي مثل المروحة تحت نثيث الماء ، ولكم حاولتُ وحاولتُ ، عبر مرات لقائنا ، أن أجعلها تخلع ثوبها التوتي الشفيف ، فأخفقتُ لأنها كانت تتأبى ، تقول لي بحياء عجيب : دع هذا . . لي فقط ، وخذ ما شئت ، إنه سري وغوايتي . . أرجوك .

فأوافقها ، لأن الثوب صار نداء جسدها الشهي . وحين نعود من لقائنا المائي ، وقد فعل دفء الماء بنا ما فعله ، أدور بها وتدور بي ، ثم أدور بها وتدور بي ، فلا يفتك أحدنا نفسه من الآخر إلا عندما ينشف ثوبها التوتي الشفيف ، بعدما رافقتنا نداوته ملازمةً ، تماماً مثلما ترافق النداوة طوالع الصباحات الطوال . عندئذ ، تنهض ناتاشا ، فتأخذ معطفها القرميدي ثم ترتديه ، ثم تواقفني علواً على رؤوس أصابع قدميها ، وتعطيني من رضابها ارتشافات لو ظفر بها الليل لنسي أوبته فجراً ، وتمضي مثل الخدر ، مثل الطيف . . أراها ولا أراها . . كي تغيب عني وتتوارى دون أن تواعدني لمرة قادمة ، فكل مواعيدها مفاجآت وأسرار . .

وأقول لـ سيلفا ، وهي تستجرني بأسئلتها ، ما أتذكره الآن من ناتاشا ، ابتسامتها ، وثوبها التوتي الشفيف الذي كان أشبه بساعةِ توقيت مائية ، فما إن يجف حتى تغادرني . يا لأيام ناتاشا السبعة ، ويا لمغادرتها الأخيرة ، فقد أخذت قميصي النيللي ، بعدما بللتهُ بعرقي ، قالت لي : دع هذا لي ، فقد جئتك بقميص جديد ، فأعطيتها إياه دون أن أدري للوهلة الأولى ، أنها أخذته كعلامة لكي تظلّ أيامها السبعة عشاً تؤوب إليه مثل طير كلما هزّها الحنين . لقد لبست القميص فوق ثوبها التوتي الشفيف ، ثم غطته مثل حرزٍ بمعطفها القرميدي ، ومضت به كأنها تمضي بي ، وما عدت إلى رؤيتها ، وما عادت إلى رؤيتي . .

ناتاشا ، كانت ولا تزال ندبة عشق كلما حاككتها حنّت نفسي وتاقت لتلك الأيام السبعة الخوالي ، سامحني ، فأنا أعترف أمامك ، فقد عشتُ مع سيلفا ، هنا ، ليلة من الليالي البيض البطرسبورغية هناك ، ليلة طويلة ظلمتها ضباب فضي مندّى . . نسيت خلالها أنها سجانة ، وأنها تدور في آلة الظلم التي تدير السجون هنا ، وأنها وادٍ من أودية الجحيم في العالم السفلي الذي تعيش فيه ، فقد أيقنت أنني جننت أو كدت ، لأنني

ما عدت قادراً على التمييز والمحاكمة ، فأنا ممزق بين ضفتين ، في الأولى سيلفا السجانة ، وفي الثانية سيلفا العشيقة . . هناك ظالمة ، وقاسية ، ومتوحشة ، وهنا مستسلمة ، وعذبة ، وحنون . . أنا ممزق ولا أصدق نفسي لكأنني بت شخصاً آخر . .

فها أنذا أراها تدع ثوبها الأصفر الجميل جانباً ، وترتدي ثيابها العسكرية ، ها هي ذي تخرجها قطعة قطعة من حقيبة يدها ، وترتديها ، فتستوي أمامي للمرة الأولى سيلفا السجانة ، إنني لا أصدق ما أراه ، لا أستطيع النظر إليها ، كما لا أستطيع ملامستها أو ضمها . . ها هي ذي تتحول أمامي إلى كائن شوكي ، وإلى جسد شوكي . . لهذا أخذني البكاء ، وزاغ نظري ، فما عدت أراها سوى كتلة ضبابية زاد حجمها وتضخّم كثيراً . . كانت بقربي تريث نفسها كي أكفّ عن البكاء . . لكن دمعي ظلَّ يسح مثل الماء على صفحات البللور . . دمع لم أعرفه من قبل على هذا النحو من الغزارة . . لعلي أبكي نفسي وليس حالتي وحسب . . وراح الفجر يطل علينا من النافذة ، فنهضت ، واقتدت سيلفا ، وماشيتها إلى خارج غرفتي ، وقد نبهتني مرات إلى أنها تأخرت ، وهبطت وإياها الدرجات الخشبية ، وهي تجفف دمعي بقبلاتها ، وأنفاسها الحارقة ، ماشيتها إلى حيث تقف سيارتها ، وهناك وازيتها حتى جلست وراء المقود ، ومدت يدها نحوي ، فأدنيت وجهي من النافذة ، فاعتصرت شفتي مثل حبة خوخ ، ثم هدر محرك السيارة ، فتنحيت وأنا أرامقها ، ومضت هي وهي ترامقني . . وحين استدرتُ عائداً إلى غرفتي واجهتني العجوز أم أهارون ، فبادرتها بالتحية ، فقالت : المحبة رضا ، قلت ودون أن أدري ما الذي تقصده : أجل ، المحبة رضا . وانسللت من أمامها ، وما من رفيق لي سوى وجهي الباكي ، وسؤالي الحارق : هل وصلت علاقتي بـ سيلفا إلى نهايتها؟ وهل كنتُ ، في ليلتي هذه ، أودعها ، أو أنها هي التي كانت

تودعني؟ أو أننا تورطنا معاً ، أنا وهي ، في حرصنا على سرانية الوداع ، فلم نبح به علانية؟ لا أدري ، ما أدريه هو أنني لم أنم ليلتي ، فقد جاءتني العجوز أم أهارون ، بعدما رأت ضوء غرفتي مناراً ، جاءتني بصينية قهوة فيها أربع قطع صغيرة مربعة من الكاتوه . قالت : لعل العتاب ، والغياب ، والأسئلة . . أخذتكما ، أنت وسيلفا ، ولم تشربا شيئاً ، لهذا جئتك بالقهوة الصباحية ، فشكرتها ، ورجوتها أن تجلس . أحسست أنني بحاجة إليها ، بحاجة لمؤنس يخرجني من أسئلتي الشيطانية التي لا إجابات لها . . فجلست أم أهارون ، وراحت تدوّر بصرها في أرجاء الغرفة لكأنها تبحث عن شيء ما ، أو تطارد شيئاً ما . قلت : ما الأمر يا أم أهارون ، عمَّ تبحثين؟ قالت : أشعر كما لو أن طيف سيلفا طائر يحوّم في فضاء الغرفة ، ألا تسمع خفقَ أجنحة . قلت مبتسماً : أم أهارون؟ فقالت : هكذا كنت أشعر وأحسّ عندما كان يغادرني فؤاد ، حبيبي الذي التهمته الحرب ، كان يعود إليَّ ليلاً منتشياً بانتصاراته ، مجللاً بثيابه العسكرية الرائعة ، يساهرني ليلتي ، فيملأ قلبي وروحي . . وغرفتي بالفرح والرضا ، فالمحبة رضا ، وقبل الفجر . . يغادرني مثلما غادرتك سيلفا ، وقد راحت أصابعي تمشط شعر رأسه القصير ، فيقبّل أصابعي ، ويهمهم : إنها أصابع البركة ؛ ثم يمضي وصوته المتهدج يفترش روحي : لقد نلت بركتك . أمطريني بالحب والدعاء . وحين أعود إلى غرفتي ، وقد غاب في غبشة الفجر ، أشعر بأنه ما زال يحوّم مثل طير في غرفتي الصغيرة . وأن خفق جناحيه موسيقى تملأ سمعي كي أنام ساعات الصباح الندية . حين أخذته الحرب لم يكن له من وريث سواي ، فجاؤوا به إليَّ . قالوا : أنت صديقته ، وكل أهله ، أنت دنياه ، هكذا كان يقول لنا ، وهكذا كتب ، وها هو ذا في أوبته الأخيرة . قلت : لم أره نهاراً ولو مرة واحدة ، حياتي معه كانت حياة ليل ، ولكن ما أجملها . ما أذكره هو أنني مشيت مع رفاقه إلى المقبرة ، وهناك طلبت منهم

أن يعطوني ثيابه العسكرية التي لم أره في غيرها قط ، فوافقوا ، فأخذتها ، ثم أعطوني أقلامه ، ومفاتيحه ، وساعته ، وهويته ، وما تركه من نقود ، ودفتر ذكرياته ، حين قرأتها بكيت حتى سيّل دمعي حبر أسطرها الغامقات ، قلت ، وأنا أحاول مشاركتها الحديث : وهل كان يذكرك؟ قالت : لم يذكر في وحدته سواي . قلت : وهل ذكرياته خاصة؟ أعني هل بمقدوري قراءتها؟! قالت : هي خاصة حين يتحدث عن لقاءاتنا ، وأشواقه ، وحنينه ، وفرحه بي ، ولكنها ذكريات عامة تسجل الأحداث التي كانت تجري أمام عينيه ، قلت : مثل ماذا؟ قالت : مواجهاته في الحدود والمخيمات والبلدات . . قلت : الفلسطينية؟ قالت : الفلسطينية . قلت : وهل قتل أحداً منهم؟ قالت : كان بطلاً مغواراً . قلت : وهل قتل أحداً منهم؟ قالت : الأبطال لا يسألون عن عديد قتلاهم . قلت : البطولة لا تأتي من دون قتل! قالت : أنت قلت هذا! قلت : وهل بمقدوري قراءة ما كتبه؟ قالت متلكئة : بمقدورك . قلت : الآن . قالت : الآن . وظلت على جلوسها . لم تنهض ، ولم أنهض ، ولكنني تشبثت بوعدها ، ولكي أتجاوز ما اعتراها من حزن . قلت : وماذا تذكرين عن آخر لقاءاته بك . قالت بعد طول صمت : أذكر ، أنه جاءني في آخر الليل بلباسه العسكري كعادته ، رجل له طلة وهيبة . رجل يباعد ظلمة الليل بيديه الاثنتين ، لا شيء يسبقه إليَّ سوى الشوق ، أذكر أنني أخذته بين ذراعيَّ ، فشممت رائحة عرقه . . وهو يهمهم لي : إنني قادم من هناك . وهناك عنده تعني المواجهات ، كما تعني الاعتذار عن رائحة عرقه . . لذلك مشيت وإياه إلى الحمام ، حيث جعلنا من الماء سريراً لنا . ولم يمكث طويلاً ، ولكنه كان مفعماً بالحيوية كعادته . دائماً كان على عجل . لم أشبع من رؤيته ، فقد تأخر كثيراً في مجيئه إليَّ . في لقائي الأخير به لم أسأله كثيراً ، ولم يجب عن أي من أسئلتي القليلة . كان مثل فلاح انشغل بحقله ، ما أذكره الآن هو مشهد إيابه بثيابه

العسكرية وسلاحه الذي راح يتأرجح أمام صدره . ظللت على وقفتي أنظر إليه ، مثلما ظلَّ قلبي على ارتجافته . . ناظرته ولوحت له حتى غاب طي السيارة العسكرية التي انتظرته في ظلمة الليل . قلت : وماذا أيضاً؟ قالت : ولعلي أذكر أيضاً أن يده لمعت حين رفعها لتحيتي ، وأن ابتسامته أضاءت حين واجهني في مروره الخاطف . . الأخير . وحين عدت إلى غرفتي أحسست أن طيفه أشبه بطير يجوب فضاء غرفتي كي يؤنس وحدتي .

يا إلهي ، أي أم أهارون هذه ، أي لطف هذا ، وأي ذكريات ومصارحات هذه التي تبديها؟ إنها الآن كائن له إهاب خارجي يشبه الصخر ، وروح ذائبة مثل القطر المسال . أشرب وإياها القهوة ، وأقاسمها قطع الكاتوه الصغيرة المربعة . . فتسألني دون توقع مني : يبدو أنك كنت تبكي . فأهزُّ لها رأسي بالإيجاب ، فتقول : لا شيء أكثر طهرانية من الدموع . ولم تسألني لماذا كنت أبكي ، ولم أسألها عن سبب سؤالها . . لأنها نهضت ، أخذت صينيتها وفنجاني القهوة ، واستدارتْ عائدة تهبط الدرجات الخشبية التي راحت تئن تحت وقع خطواتها الثقيلة . . وصوتها يتعالى : نمْ الآن ، فلا متعة في مثل هذا الوقت تساوي متعة النوم . فشكرتها ، وامتدحت رقتها الأنثوية ، وسؤالها عني ، فقالت : أسأل عنك ليس من أجلك ، وإنما من أجل سيلفا ، فغصصت ، لكأن أم أهارون تعود رويداً رويداً إلى حقل خشونتها ، فمثل هذا الإغلاق العنيف لا يليق إلا بأبواب الحديد الثقيلة . يا لها . . إنها بجملتها الأخيرة تدلق الماء فوق النبيذ» .

ملحوظة :

سامحني ، فقد أتعبتك بقراءة أخباري . واعذرني لأنني أشعر بحالة خبال تلفّني ، فأنا لا أفكر كما ينبغي ، ولا أتخذ قراراتي كما ينبغي ، قل لي ، بحق صداقتنا ، هل خذلتك بما أخبرتك به؟! ناصرني بالكتابة إليَّ أرجوك .

بانتظار سيلفا

«وحيداً ،

في خلوتي ، أفتح ورقي وأكتب إليك . . بعد أن عدت من طواف طويل في القدس . شعرت بعده أن جسدي يخور مثل ثور أنهكه الإجهاد والتعب ، في مدخل البيت ، وقرب سور الحديقة ، واجهتني العجوز اليهودية مؤجرتي أم أهارون باسمة ، لأول مرة أراها باسمة أو شبه باسمة ، وبيدها مظروف ورقي مغلق . قالت لي : جاءت سيلفا ، وتركت لك هذا . فأخذت المظروف منها وشكرتها ، ثم استدرت . لكن صوتها النافر أوقفني . . سمعتها تقول لي : أين قضيت نهارك اليوم . فالتفتُ إليها وقلت : في القدس ، قالت : أأعجبتك عاصمة بلادنا . قلت : إنها جميلة فعلاً ، ولكن فيها ظلماً كثيراً ، فاعتكر وجه العجوز وهمهمت : أي ظلم؟! قلت : البغالة يضربون ، وينهرون ، ويوقفون ، ويمنعون ، ويشتمون ، ويخوّفون ، ويفسدون حياة الناس في كل مكان . . في الشوارع ، والأحياء ، والحارات ، والزوايا ، والأسواق . . قالت : هذا ليس ظلماً . قلت : ما هو إذن؟ قالت : حراسة مقدسة لأمن البلاد . فهؤلاء الرعاع ، يخافون ولا يخجلون . قلت : لكنهم هم أيضاً أهل البلاد . قالت : هذه خرافة . كذبة عربية ، تحاولون أنتم تصديقها . . قلت : إنها الحقيقة التي تحاولون أنتم تكذيبها ، قالت : دعك من الجدال ، وقل لي ماذا رأيت فأعجبك . قلت وأنا أحاول تعكير مزاج العجوز : رأيت البغالة ناشطين في حفلات الضرب والنهر والشتم . .

قالت : هذا أمر طبيعي كي لا يظن هؤلاء الرعاع أنهم هنا يتريضون في حديقة . . قلت : لكنني بسبب الجنود لم أر شيئاً جميلاً ، لم أر النوافير ، ولا مروج العشب ، ولا طيور الحمام . قالت ، لعلك كنت مهتماً برؤية الناس . قلت : هذا صحيح . . لأن في الناس المسرة . قالت وهي تراني أتحرك كي أصعد الدرجات الخشبية نحو غرفتي : لم تقل لي ماذا أعجبك . قلت : صبر الناس ، وتمسكهم بالحياة . قالت متأففة : الناس . . الناس . أسألك ماذا أعجبك من أبنية وشوارع . قلت : كل الأبنية التي بناها السلطان العثماني سليمان القانوني ، والأبنية التي بناها الملك الأموي الوليد بن عبد الملك ، أبنية أشبه بالكتب .

قالت : لا بدّ من أن دليلك كان منهم ، لعنة الله عليهم ، قلت وأنا أبتسم : فعلاً كان منهم ، وقد تعلمت منه الكثير ، وبغالتكم كادوا يقتلونه اليوم . . وصعدت الدرجات الخشبية ، والعجوز مسمرة في مكانها . . كنت فرحاً بمظروف سيلفا ، وكنت بحاجة إلى فتحه كي أرى أسطرها وكلماتها ، فقد اشتقت إليها ، بعدما غابت عني وقتاً أحسبه أكثر من طويل وأكثر من مشاغل . . ولكنني كنت بحاجة إلى حمام سريع لذلك دلفت إلى الحمام ، غسلت جسدي ، وخرجت كي أعد طعامي ، ولم يمضِ وقت طويل حتى أكلت وشربت ، ثم مضيت إلى فراشي ، وهناك ، وبهدوء شديد فتحت مظروف سيلفا ، وقرأت كلماتها : كلما لاح طيفك في بالي ، ضج قلبي ، وتورد وجهي . . سأوافيك في المساء يا نبعي الصافي كي أروّي روحي منك ، أقبلك في وحدتي ، فقبلني في وحدتك/ سيلفا .

ساحرة سيلفا . مثلما هي كلماتها ساحرة أيضاً . لكن ما الذي أفعله بالحوذي جو الذي رجوته أن يأتي مساءً كي لا أبقى وحيداً . لقد وعدني بطواف ليلي ، وصفه بأنه سيكون متعة لا تعادلها متعة . . ولم أصل إلى قرار أأعتذر منه أم أدع الأمور تسير في مجراها الطبيعي . . وذلك لأنني

غرقت في النوم . .الآن ، وقد استيقظت ، أشعر بنشاط وحيوية ، وبرغبة حقيقية كي أكتب إليك فقد أذهلتني الأمكنة التي زرتها ، فقد ذهبت أنا والحوذي جو ، والدليل صلاح إليها ، دخلنا بعد إعاقات طويلة سخيفة من البغالة المنتشرين كالهواء ، إعاقات جعلت المطر يبلل ثيابنا ، والبرد يصل إلى عظامنا . . دخلنا إلى المساجد والكنائس من تحت الأقواس الرخامية التي انحنت فوقنا مثل الأكف ، فاستقبلنا النور الذي تنشره الفوانيس والقناديل المعلقة في السقوف والحيطان ، والمرفوعة على الأعمدة ، والبادية من النوافذ ، والأسيجة ، والطاقات الصغيرة ، والأفاريز ، والمدلاة من الحبال ، والقواطع الخشبية ، والشرفات ، والأقواس ، والحلقات الذهبية والفضية والنحاسية . . نور رضي يشبه الفضة المذابة ، يموج بيننا ، يلفُّ وجوهنا بنثيث المطر الناعم ، أرى الطيور رفوفاً تطير فوق الأبراج ، والنوافذ ، والشرفات ، وأسيجة الخشب اللامع ، وأفاريز الرخام ، وتحط في الساحات ، وقرب البحرات الرخامية المستديرة ، والنباتات ، وتحت أشجار السرو العتيقة . . أصوات وهمهمات وأدعية وصلوات تتداخل كي تصير رجاءات محبة ، نمشي فيمشي النور أمامنا وحولنا ، نرى المحاريب الخشبية النداهة باللمعان ، والفسيفساء المتداخلة ألوانها ، وأسطر الحروف المتشابكة الطويلة ، والقباب المحتشدة بالزرقة والضوء ورسوم الكلمات ، وقد جلتها أضواء الفوانيس والقناديل . . حتى ليكاد المرء لا يدرك مَنْ يضيء مَنْ الكلماتُ والرسوم أم النور الذي يمشي حيياً كالضباب . . نمر بقبور ، وأسيجة نحاسية ، وأخرى رخامية ، وثالثة خشبية ، ونقف عند زوايا ، وتكايا ، وربط . . نرى شيوخاً يتكلمون ، ومريدين يستمعون ، وغلماناً يطوفون عليهم بكؤوس مملوءة بالماء المعطر ، وخلقاً يقرؤون في القرآن ، وخلقاً يصلون ويدعون وهم في حال من الشرود والتأمل ، ندور فتدور بنا الحيطان ، وقد ملأت بالنقوش ، والزخرفة ، والقناديل ، والفوانيس ، وتشكيلات

الحروف ، والألوان الرخامية ، ندور فتحيط بنا الأعمدة العالية الساحرة التي راح الناس يجالسونها جماعات جماعات ، وقد تدلت من أعاليها القناديل المنارة ، يقول لنا الدليل صلاح : هنا ، وعند كل عمود ، شيخ وتلاميذ ، وعند كل زاوية شيخ وتلاميذ . . إنهم يعلّمون ويتعلمون ، ويقرؤون ، ويكتبون ، ويسألون ، ويحاججون ، هنا كل عمود ، وكل زاوية مدرسة . . نقف أمام منبر المسجد الكبير وقد تملكنا العجب ، منبر مهيب من خشب الأرز والأبنوس اللامع المصقول ، في مقدمته درجات خشبية تعلو به ثم تعلو نحو القبة الحانية ، يبدو بكامل جماله ، وقد رصع بالعاج والذهب والفضة في زخرفة بديعة جداً ، وحوله مشابك خشبية آية في الفن ، والحذق ، والمهارة ، والإبداع ، يبدو مثل طائر ضم إليه جناحيه واستراح في وقفة متأنية ، أرى الناس يمسحون بأكفهم على خشب المنبر ثم يمسحون وجوههم وصدورهم . .

يقول لنا الدليل صلاح إن منبراً يشبه هذا المنبر أحرقه اليهود في عام ١٩٦٩ كان قد أهدي لصلاح الدين الأيوبي من الشام ، ونمشي بين الأعمدة المتوالدة ، وتحت القباب الوسيعة . أسمع الدليل صلاح يسمي لنا القباب ، فيقول هذه قبة السلسلة ، وقبة المعراج ، وقبة محراب النبي ، وقبة يوسف ، وقبة الخليلي ، وقبة الخضر ، وقبة موسى ، وقبة سليمان ، والقبة النحوية . . قباب بعضها ينادد بعضها الآخر بالجمال والروعة ، والرسوم النباتية ، والفسيفساء الرخامية الملونة ، والحروف المكتوبة بالأخشاب الرفيعة المدهشة . . وعند قبة الصخرة نقف إلى جوار الدليل صلاح الذي يرينا صخرة كبيرة أشبه بالسقف تتوسط المسجد ، قال إنها الصخرة التي عرج منها النبي محمد إلى السماء ، وقد لحقت به ، لكن النبي محمد التفت إليها وأشار لها بيده أن تقف فوقفت في الهواء ، وقد قام أهل القدس ببناء الأعمدة تحتها كي لا تظل معلقة في الهواء ، بدت الصخرة والرسوم ،

والنقوش ، والفسيفساء ، والتشكيلات الخشبية ، واللونية ، والحروفية التي تزينها لوحة من الفن الأخاذ وقد زادها الضوء جمالاً وسحراً . . ونمضي إلى مسجد آخر ، قال الدليل صلاح إنه مسجد عمر ، وهو مجاور لكنيسة القيامة ، فقد بدت قبة المسجد وقبة الكنيسة متشابهتين كأنهما توأم ، وقد شرح لنا الدليل صلاح سبب إقامة هذا المسجد ، وهو أن الخليفة عمر بن الخطاب الذي تسلم مفاتيح القدس وقد جاء إليها من المدينة المنورة في الجزيرة العربية ، وحين كان داخل كنيسة القيامة مع البطريرك صفرونيوس ، أذّن المؤذن للصلاة ، فدعاه البطريرك أن يصلي في الكنيسة فرفض الخليفة عمر خوفاً من أن يقتدي به المسلمون فيحولون الكنيسة إلى مسجد ، لذلك خرج من الكنيسة وتحول عنها إلى مكان قريب ، ونحّى الأتربة والأشواك وفرش رداءه وصلّى ، وفي مكان صلاته أقيم هذا المسجد الذي يؤاخي كنيسة القيامة ويجاورها . . بدا المسجد من الخارج مسوراً بالآيات القرآنية المكتوبة بالرخام واللون الذهبي ، وبدا من الداخل مزيناً بزخرفة بديعة مذهلة . . فأعمدته مسورة بتيجان ذهبية رائعة المنظر ، وقد حفت بها الفوانيس المضاءة ، ودوائر الياقوت المشعة بالحمرة القانية ، ورأينا خلقاً يجتمعون في الزوايا ، وقرب الأعمدة ، يقرؤون ، ويتحاورون ، ويستمعون ، ويدعون ، وخلقاً يذرعون المكان فوق خطا رشيقة عجلى . .

وخرجنا ، فرأينا أعداداً كبيرة من البغالة والبغال ، يجوبون الشوارع ، يمشون بين الناس ، وأبصارهم شائحة تبحث في كل مكان عن شيء ما ، أو لكأنها تترصد شيئاً ما ، رأيتهم يتخيرون من بين الناس بعض الشبان والرجال والنساء ، فيوقفونهم ، ويطلبون أوراقهم ، وينظرون فيها وأجهزتهم الهاتفية لا تكف عن الكلام المتعالي المرّمز . جلست والحوذي جو والدليل صلاح قرب حافة إحدى البحرات ، وسط الحمام المتطاير الحذر . . فجأة اقتحمنا بغّال سمين ، يجرُّ خلفه كلباً كبيراً لولا التعريف لظننته دباً ، طلب

أوراقنا ، فناولناه إياها ، نظر فيها ، ثم هزّ رأسه ، وأعادها إلينا ، وقال لنا : أما زال هذا الكلب الأجرب يشوه صورتنا . وانهال على الدليل صلاح بالضرب بعصاه الغليظة ، فصرخنا به ، أردنا إيقافه كي لا يؤذي الدليل صلاح ، لكن عصاه ، واقتحام بغله لصلاح ، وتسلق كلبه الشرس لجسده ، جعل صلاح كائناً لا يقوى إلا على الصراخ .

بدا المشهد خلال لحظات مؤلماً ومؤسياً في آن معاً ، وما كان منا ، وفي حال من ردة الفعل ، إلا وقد ارتمينا فوق صلاح لكي ننقذه من الدهس ، والنهش ، والضرب ، وحسبنا نفسينا ، أنا والحوذي جو أننا قادران على إنقاذ صلاح ، لكن الأمر كان أقوى منا ، فقد وثب الكلب على صلاح ورماه أرضاً ، واقتحمه البغل وداس عليه ، وجاء بغالة آخرون وسوّروا صلاح ، وداسوه أيضاً ، وراحت الكلاب تنهشه ، وحاول بعض المارة إنقاذه أيضاً ، غير أن البغالة أفلحوا ، هم وكلابهم وبغالهم ، بإلحاق أكبر الأذى به ، فقد انكشف المشهد حين مضى البغالة وبغالهم وكلابهم ، عن صلاح ، فبدا جسداً مدمى لا يقوى على الحراك ، ودونما إبطاء حمله عدد من الشبان وطاروا به نحو المشفى . . أما نحن ، أنا والحوذي جو ، فقد أصابنا الذهول . كنت أنظر إلى الحوذي جو مثلما كان ينظر إليَّ ، يهز رأسه ، فأهزُّ رأسي ، دون أن يقول أي منا كلمة واحدة ، لكأن ما حدث أصابنا بالخرس ، ومن دون اتفاق مشينا نحو العربة حتى وصلنا إليها ، ومن هناك أخذناها ، وعدنا إلى البيت .

في الطريق قال لي الحوذي جو : أهذه بلاد سيدنا؟ فقلت : هذه بلاد سيدنا ، المحبة فيها صارت كراهية وبغضاء . قال : وما العمل؟ قلت : لا بدّ من هبوط الآلهة كي تفصل بين الطرفين . قال : أما من حل قبل هذا؟ قلت : لا أرى حلاً ، ما دام القوي هنا يزداد قوة والضعيف يزداد ضعفاً ، قال : وإذا ما تعادلت القوتان . قلت : ضعفاً أو قوة . قال : ضعفاً أو قوة .

قلت : قد يأتي الحل ، ولكن من يسمح بذلك؟ قال : الأيام . قلت : ما أطول روح الأيام . وصمتنا معاً . . إلى أن وصلت إلى البيت ، فهبطت ، ومضى الحوذي جو وهو يواعدني بالعودة مساءً من أجل طواف ليلي ممتع يمحو قباحة ما رأيناه نهاراً» .

ملحوظة :

قبل نصف ساعة هاتفني الحوذي جو ، وقال لي إنه زار الدليل صلاح في المشفى ، وأنه بخير ، ذراعه كسرت للمرة الثامنة ، ووجهه مملوء بالكدمات ، وسوف يعود للعمل بعد يومين أو ثلاثة ، فرحت بالخبر ، كما فرحت بعزيمة صلاح . . ولم أعتذر من الحوذي جو لأن سيلفا ستأتي . . سأترك الأمور على سجيتها لعل سيلفا ترغب بالخروج الليلي أيضاً . . أرجوك اكتب إليَّ وتمنَّى لي أياماً طيبة ، هنا في بلاد سيدنا .

مكتبة
t.me/soramnqraa

أنا وسيلفا..

«مرة أخرى ،

وخلال ساعات ، أكتب إليك كي أحدثك عن مسائي المدهش الذي عشته مع سيلفا ، وكأنني في حلم ، أو خدر ، أو غيبوبة .

فقد جاءت مثل هالة من الضوء ، دنيا من القدوم والحضور والأمنيات . لم تتأخر كثيراً ، فما إن هبط الليل . . حتى جاءتني برفقة العجوز مؤجرتي أم أهارون . سمعتُ وقع خطاهما وهما تصعدان الدرجات الخشبية ، والحوار يدور بينهما خافتاً كالهمهمات . لم أفهم منه شيئاً ، لكنني أحسست بأن الحوار يدور حولي . لعل سيلفا تسألها عن عودتي ، أو صحتي ، أو عن رضاها عني . والعجوز تهمهم دون أن أفهم شيئاً من كلامها . خرجتُ إلى الباب كي أرحب بـ سيلفا ، كي آخذها إلى صدري ، كي أمرجحها بين ذراعيَّ ، وكي أشمَّ رائحتها ، ولكن العجوز كانت خلفها تماماً ؛ امرأة كالقلعة ، تمشي بكامل طاقتها . أخذتني سيلفا إلى صدرها ، قبلتني وقبلتها ، ووقفتْ تنظر إلى العجوز وهي تعاتبني : الأميرة أم هارون غير راضية عنك . تقول إنك مفتون بالعرب ، وإنك محامي الشيطان . فأقول مبتسماً : لست مفتوناً ، ولا محامي الشيطان ، ولكنني أحب الحوار معها ، أعني أحب استفزازها لأرى غضبها الجميل . فتقول العجوز أم أهارون : أخاف أن يفسد هؤلاء الرعاع ، هؤلاء الأدلاء الكذبة عقلك ، فتعود إلى بلدك شاهداً علينا لا لنا . قلت : يا ست أم

أهارون ، أنا قارئ للتاريخ ، وأعرف جيداً ماذا يقول ، قالت : أنا لا يهمني التاريخ إلا إذا كان معي . اثنان من عائلتي قتلا هنا من أجل أمرين ، الأول : الدفاع عن وطننا ، والثاني : من أجل كتابة التاريخ الذي تتحدث عنه . قلت : والرعاع الذين تتحدثين عنهم قتل منهم الكثير من أجل أمرين أيضاً ، الأول : الدفاع عن وطنهم ، والثاني : من أجل كتابة تاريخ يدحض تاريخكم . لحظتئذ ، صرخت العجوز أم أهارون غاضبة ، فأخذتها سيلفا إلى صدرها وقبّلتها وهي تضحك ، ودعتها إلى الدخول ، غير أن العجوز رفضت . قالت بحرقة : دائماً يقلقني بحواره ، وكلماته الحادة .

قلت : أنا أفكر معكم ولأجلكم عكس ما تظنينه تماماً ، فابتسمت وقد انزوت عيناها ، ثم قفلت راجعة ، وصوت سيلفا يدعوها للدخول ، لكنها رفضت ، وهي تهمهم : لا أريد أن أكون سيفاً بينكما . وحين مالت سيلفا نحوي كي آخذها طي ذراعي . كانت العجوز تهبط الدرجات الخشبية بتثاقل مسموع ، ودلفنا إلى الغرفة متحاضنين ، فهبطنا فوق المقعد الطويل مثل طيرين أعياهما الجولان الطويل ، ضمتني إليها ، وضممتها إليَّ تماماً مثلما يضمّ الجناحان جسد الطائر المبتل .

طوّفتْ بوجهي تقبله ، وطوّفتُ بوجهها أقبله . يا لمذاق سيلفا ، يا لريقها الحلو ، ويا لطافتها الدانية ، ويا للوقت الذي يذوب برفقتها كالسكر ، لم أدر كم ظللنا مشدودين ، أحدنا إلى الآخر ، ونحن نتمتم ونهمهم ، ونتراشف القبل ، ما أدريه هو أن الحوذي جو جاءني . سمعت صوته يتعالى منادياً ، لعله رأى سيارة سيلفا واقفة أمام البيت ، لذلك راح ينادي كي أخرج إليه ، فنهضت ، وهممت بالخروج دون أن أعي ما الذي سأقوله له ، فهل أرحب به ، أو أعتذر منه . . ولم أتخذ قراري على عجل ، وفي الباب لحقت بي سيلفا ، ناولتني قميصي ، فارتديته على ارتباك ، وهي تهمس لي : دعه يدخل ، نظرتُ إليها نظرة عتب ، فقالت وهي تهزّ رأسها :

دعه يدخل ، فاستدرت صارخاً به ، وأنا في الباب : جو . ادخل . فقال بصوت عال : أنا آسف ، أفسدت عليك مساءك ، لكنني جئت احتراماً للموعد . ألتقيك غداً . قلت بحماسة : لا يا جو ، أرجوك ، أدخل ، أنا وسيلفا نريدك أن تدخل . فتقدم نحوي . رأيت خيوط الضوء والظلمة تترادف فوق جسده وهو يدنو . سمعته يحييّ العجوز أم أهارون ، لعلها واقفة بالباب . يا ليقظة هذه العجوز ، يا لحذرها ، أراه يصعد الدرجات الخشبية ، يحييني ، فآخذه من كتفه وأدخله غرفتي . تهبّ سيلفا مرحبة به . بينما هو يتمتم معتذراً لسوء تصرفه ، قلت لها : جو وعدني بطواف مسائي ممتع فقالت : وعليَّ أنا اختيار المكان لعشاء لذيذ . وقلت لهما : وما هو المطلوب مني إذاً . فقال جو مندفعاً : أن ترفض إغراءاتنا ، وتبقى في البيت . فضحكنا معاً . ملأتُ كأس جو بالنبيذ ، وأنا أراه يجول في مقعده لكأن البرد علق به ، وقلت له : اشرب ، لحظات ويشيع الدفءُ في عروقك أيها الصديق الرائع . فابتسم ، ورفع كأسه شاكراً . نظرت سيلفا إليه وسألته عن سبب أناقته وتوهجه ، فقال لها : لعل البرد ، في الخارج ، جمّل صورتي . قالتْ : أنا أتحدث عن الجمال الداخلي ، أراك خفيفاً ، نشطاً ، ومشرقاً أيضاً . قال مازحاً : لأن الشمس غابت . قلت : لا بدّ من أن هناك أخباراً جديدة عن ليلاه ، قال : بالفعل! فهبت سيلفا واقفة ، وهي تصرخ فرحاً ، وأحاطت به وراحت تقبله . قلت : يا مجانين ، قليلاً من الهدوء . . حتى نعرف الأخبار . لكن سيلفا لم تهدأ ، وراحت تهز جو ، وتدعوه لكي يقول شيئاً عن أخبار ليلى ، فنهضتُ وأخذتها من يدها إليَّ ، وجو هامد في مقعده يجول ببصره في وجهينا . مالت سيلفا عليَّ ، وقالت : دعنا نفرح ، مجرد وجود الأخبار هو أمر مفرح . قلت : صحيح ، ولكن الأمر متروكٌ لـ جو . بدا جو مرتبكاً مثل طفل ، وحمرةٌ خفيفةٌ شاعت في وجهه ، وارتجافةٌ باديةٌ تحيط بشفتيه . قلت له راجياً : خذ رشفة أخرى ،

أرجوك . وناولته كأسه . أيضاً ، بدت ارتعاشة أصابعه ، فربّتُ على كتفه . قلت لـ سيلفا ، وأنا أسحبها نحوي : تعالي . دعي جو دقيقةً واحدةً كي يرتّبَ أفكاره ، فنهضتْ ، ووازنتني في خطوي ، ونحن نمضي نحو المطبخ ، وفي الباب التفتتْ سيلفا إليه ، وقالت له : إيّاك أن تخبئ شيئاً . معك وقت طويل جداً مدتُهُ دقيقة واحدة فقط ، فابتسم لنا ، وفي المطبخ ، وأمام المرآة الطويلة ، واقفتُ سيلفا ، أخذتها إليّ ، فأخذتني إليها ، لكأن الأشواق صهرتنا ، فصرنا كائناً واحداً ، درت بها ، وحولها . . فأخذتني إلى عوالم شبيهة بالغيوم ، فرحنا نمشي طيَّ هدأة شاسعة ، نتبادل الألوان ، والطعوم ، والدفء ، وخدر طري ناعم يأخذنا على مهل ، نمشي فلا نصل لكأن الأرض تحتنا غابةٌ من القطن المندوف ، أو لكأننا في عالم لا ريَّ فيه سوى العطش . هنا ، وطي هذا العناق ، لا دروب ، ولا أعشاب ، ولا ندى ، ولا كلام ، ولا ضوء ، ولا رؤى ، لا وعي ولا أحلام ، ولا أسئلة . . هنا ، لا جلوس ، ولا وقوف ، ولا انحناء . . هنا انطفاء مديد حدّ المدى . . كائنان مغموران برذاذ المودة ، هنا لا وقت سوى وقت تلاقي طيفين من البهجة الصافية ، ولا مكان سوى شرفة الحلم ، ولا جهة سوى جهة الشوق . في تلك اللحيظات . . مرّت بنا قرى ، وغابات ، وأنهار ، وطيور ، وأجمات قصب ، وغدران ، وصبايا ، وأغنام ، وصباحات ، ومساءات . . ولفّتنا همهمات ، وأنّات ، وأنسام ، ووشوشات ، ونداءات ، وغيوم منداة . . هنا ، لم ندر ما المكان ، وما الوقت ، ومن ينتظر من ، ومن يهامس من ، ومن يطوي من ، ومن واعد من . . هنا ، كائنان غريبان وحيدان يجمعهما مكان غريب ، ولغةٌ غريبة ، كائنان يتواصلان كي لا تفتكَ الغربةُ الظلومُ بآخر أنفاس الروح .

هنا ، لم ندر ما حدث على وجه الدقة والضبط ، هنا عالمٌ متفلتٌ لا حدود له ، لا أبواب ، لا جدران ، عالم من حدائق وينابيع ، ونوافذ ،

وعصافير ، وألوان ، وسحب دانياتٍ ، وأعشاب يمرُّ بها ندىً برّاق . . هنا كائنان مطروحان على أرضية خشبيةٍ لمطبخ صغير ، يحاذي غرفةً وسيعةً ، فيها حوذي ممسوس بالعشق ينتظر انقضاء الدقيقة ، كي يعودا إليه فيحدثهما عن بريد ليلاه الممعنة في الغياب . . كائنان اجتهدتْ روحاهما فبنتْ ، كالدوالي ، عريشةً من الوجد ، فاض سقفُها عن حدود الدقيقة ، وعن حدود الليل . . كائنان متحاضنان كغيمتين . . لم ينبههما على ما هما فيه . . سوى وقع المطر المتهاطل كالموسيقى ، ولم تكشف عن عناقهما الآسر سوى جهجهة الضوء» .

ملحوظة :

سامحني على مصارحتي . فأنا أضع سري حيثُ هي محبتي . ولكم أنا حزين لأنني لم أجد الحوذي جو ، لكأنه لم يأت ليلة البارحة . لكن وهذه الكلمات المكتوبة بخطه : صباحاً ، أراك ، قلبي معك . /جو . إنها كلماته . لا بدّ من أنه كان هنا ، ولا بدَّ من أنه انتظر عودتنا طويلاً . . سأعتذر إليه طويلاً أيضاً ، أما أنت ، فاكتب إليَّ أرجوك .

في المطعم

«ها أنذا ،

ألجأ إلى محبتك في وحدتي ، في هذا المساء الشتوي البارد . فاعذرني لأنني تأخرت في الكتابة إليك . أعترف بأن سيلفا أخذتني من وقتي ، ومن الحوذي جو ، ومن الأمكنة الآسرة التي رغبت بزيارتها ومعرفتها ومشاهدتها . تواعدني على المجيء ، فأتلبث في البيت منتظراً ، لكن وبعد فوات الوقت ، واعتذاري الدائم من الحوذي جو ، وتعللي بالمرض وهبوط الهمة . . تهاتفني معتذرة عن المجيء لأن أموراً كثيرة طرأت على عملها في السجن ، ثم وبعد أن أعقد موعداً آخر مع الحوذي جو ، تعاود مهاتفتي ، تقول لي مؤكدة إنها آتية . لكنها لا تأتي! تظلُّ مثلها مثل العشيقات المدللات ، شقيقات الأنهار . . تأتي ولا تأتي ، فلا يمضي سوى وقت قليل حتى تقول لي : اعتكر مزاجي ، والذين هم حولي دمروا حياتي وروحي . أرجوك سامحني لتخلفي عن موعدك ، ولكن دع نفسك لي في وقت آخر . عندئذ أعود فأخابر الحوذي جو ، أدعوه كي يأتي إليَّ فوراً إن لم يكن على ارتباطٍ بأحد ، فيقول : حاضر . انتظرني ، ما أطيب جو ، ما أصفى روحه ، وما أكثر قربه مني . يأتيني متناسياً كلَّ أفاعيلي ، ومواعداتي الخائبة ، يترك عربته في الخارج ، ويصعد إليَّ بعد رجاء طويل . أجالسه قليلاً . أقول له : اجلس مسافة فنجان قهوة وحسب كي تحدثني عن أخبارك الجديدة مع ليلى . . وكي أعتذر إليك ، وأنت صديقي كما

ينبغي للاعتذار أن يكون عليه تجاه صديق عزيز حميم . فيجلس جو مرتبكاً . يدعك يديه ، الواحدة بالأخرى ، يبدو كالمبرود . أربت على كتفه ، وأرجوه أن يسامحني لأنني بالغت في تعذيبه ، فيهزّ رأسه نافياً ، ويتمتم : يا رجل أي تعذيب! وأخرج إلى المطبخ كي أصنع القهوة لنا . .

فجأة ، أشعر بأن الدرجات الخشبية المفضية إليَّ تهتز صريراً تحت وقع أقدام صاعدة ، أخطو نحو باب المطبخ ، وأنظر ، فإذا بـ سيلفا واقفة في أعلى الدرجات كائناً فضياً يضيء ظلمة الفناء . يا إلهي ، أي امرأة هذه؟ أي مخلوق هذا الذي يمشي طي المفاجآت . أشعر بأن قدميَّ تجمدتا في باب المطبخ ، وسيلفا تدنو مثل هودج الريحان ، بلى ، ثمة نساء يحتاج المرء للثبات عند مواجهتهن ، أبتسم لها ، ولهذا القبول المشتهى ، أشرّع ذراعيَّ في الهواء ، فتهفو إليَّ مثل غيمة ، فأضمها طياً على صدري مثل كتاب ، حرارة خدها تكاد تلهب خدي ، وضمتها لي تكاد تأخذ جسدي بين ذراعيها ، يا للشوق ، ويا للنساء . . لكأنني أعرف الشوق ، والنساء . . لأول مرة في حياتي . . لا أدري ماذا فعلت بي سيلفا . . لكأن . . ذاتي تفتح نوافذ جديدة لحواسها وأنا طي الغربة ، والتنقل ، والسفر . . أهمهم لـ سيلفا أين أنت؟ فتقول : مع المساجين ، مع الحياة المرة ، في العالم السفلي . .

فأشدها إلى صدري أكثر ، وأمرغ وجهي في صفحة وجهها . . يا لهذا الوجه ، يا لهذا العبير . . أتمتم لها : بت أشتاق إليك كثيراً . . فتقول همهمة : وأنا تعودت عليك . أبعدها عني وهي بين يديَّ . . أنظر إلى وجهها أدقق فيه ، فأراها تبتسم حيية . أقول لها : أريد أن أتأكد أنك معي ، وأمامي ، وبين ذراعيَّ . . فتقول : أنا معك مثلما أنت معي . أقول لها : الحوذي جو في الداخل . . فتبتسم وهي تهز رأسها لكأنها رأت عربته في أثناء قدومها ، وأدعوها إلى الدخول كي نشرب القهوة . فتقول : انتظر قليلاً ، سأسلم على جو ، وآتيك كي نصنع القهوة معاً . أقول : لا . أخاف

أن نتأخر عن جو ، فيمضي ، كما حدث في المرة الماضية . . فتقول : لا ، سآتي به إلى المطبخ أيضاً . . فأصمت ، وأنا أنحني عليها ، أرتشف منها قبلة ملأى بالرضاب . . وأستدير ، فتستدير . . ولا أدري كيف التهمني لحن رحت أدندنه ، لحن ذكّرني ببطرسبورغ ، بأمي لعلها صارت الآن كائناً اسمه الانتظار ، ولم يتأخرا فقد جاء الاثنان ، سيلفا وجو . . وهما يصخبان ، كانت تسأله عن ليلى ، وهو يجيب باقتضاب ، فأطالبه بالمزيد من الحديث فيضحكان . . في لحظات صار المطبخ الصغير مكاناً لجلوسنا ، وصخبنا ، وحديثنا المتعالي وأسئلتنا المتشظية عن ليلى ، واختفائها ، وسر عودتها الغامضة .

فجأة . . تعالى ضجيج الدرجات الخشبية . . فصمتنا معاً . قالت سيلفا : لعلها أم أهارون ، ونهضت لتراها . . فعلاً كانت أم أهارون ، العجوز مؤجرتي ، ومعها ثلاثة من أفراد الشرطة .

بدوا واجمين وهم يتقدمون نحو المطبخ ، نهضت ، فنهض جو ، وتقدمت سيلفا نحوهم . وراح الطرفان يتبادلان أطراف الحديث ، وأنا وجو ننتظر وقوفاً . فجأة ، ومثلما جاء أفراد الشرطة وأم أهارون ، عادوا دون أن يقول لي أحد منهم كلمة واحدة ، واستدارت سيلفا عائدة نحونا . قلت لها : ما الأمر؟ قالت : لقد أخبرتهم أم أهارون بأن فتاة تتردد على رجل استأجر عندها لا تعرف من هي . قلت : ألم تمري بأم أهارون قبل صعودك ، كعادتك ، قالت : لا . لعلها رأتني دون أن تعرفني ، قلت : وهل هذه العجوز مريضة أو مجنونة . قالت : لا ، إنها تنفذ تعليمات الأمن .

كان جو يستمع ويهز رأسه بأسى ، بينما أنا أثرثر بكلام غاضب ، كاد يفسد مساءنا ، وسيلفا تطيب خاطري ، وجو يواسيني ، يرجوني أن أعتاد على مثل هذا الأمر الذي لا يتقصدني شخصياً ، فالأمن هنا لا يعرف صداقات ولا علاقات . . واقترح علينا الخروج كي لا نظل نجتر الحديث

عن أم أهارون ، والأمن ، وطبيعة الحياة هنا ، والقصص المشابهة لما حدث . بدت سيلفا هامدة ، مأخوذة بصمت طويل . وكأنها لا ترغب بالخروج ، وقد وصلت قبل قليل . فسألتها إن كانت تود الخروج أم تفضل البقاء في البيت . فلم تجب . وبادرها الحوذي جو قائلاً ، خروجُكِ أنتِ وإياه أمر ضروري . . هيا . . ونهضت سيلفا ، فنهضتُ . قلت لها : ستخرجين إذاً . قالت : أفضل .

قلت لهما : انتظراني حتى أرتدي ملابسي . فقال جو : أنا في الأسفل . تعال أنت وسيلفا وراح يهبط . . يا لجو . شعر أن روح كل منا ، أنا وسيلفا ، بحاجة إلى اللقيا ، والدفء ، والمعانقة . . أخذت سيلفا من يدها ، وأنا أهمس لها . . كم أنا بشوق إليك . قالت : وأنا أيضاً . وفي الداخل . . احتضنتها ، واحتضنتني . . يا للصفاء الذي يبغيه اثنان لا شيء بينهما سوى المحبة ، ولا شيء يشد أحدهما إلى الآخر سوى الشوق . كادت تأكلني ، وكدت آكلها . . وحين تباعدنا ، أحسست أنها ما زالت على عطشها ، ولعلها أحست هيَّ أنني ما زلت على عطش . قلت مهمهماً : الحب بئر لا قرار لها . وقالت مهمهمة : الحب دنيا لا سقف لها . . ولم ندر من أخذ بيد من كي نهبط فنوافي الحوذي جو . . ما ندريه أننا صعدنا العربة وجلسنا في المقعد الطويل . . فمالت سيلفا عليَّ ، فأخذتها إلى صدري ، وانحنيت عليها أمسح وجهها بشفتيَّ . . وعربة الحوذي جو . . تمشي الهوينا . . وجو يغني أغنية الصياد الذي ظفر أخيراً بصيد وفير . فجأة أوقفتنا مجموعة من البغالة . تقدم أحدهم فوق بغل سمين محجوب العينين ، وطلب أوراقنا ، فأخرجناها ودفعناها إليه . فنظر فيها ثم أعادها إلينا . واستدار ببغله المرعب ، ومشت العربة ، وعادت سيلفا إلى هجعتها مثل طائر أصابه البلل ، فأخذتها إليَّ وانحنيت عليها ، والعربة تمشي ، وجو يغني . . سألت سيلفا إلى أين سنذهب . قالت إلى مطعم

جميل ، كان بيتاً قديماً واسعاً ، يعبر عن تراثنا وأصالتنا . قلت : وهل يعرف جو المكان . قالت همهمة : أظن ، ثم رفعت رأسها ، وسألت جو إن كان يعرف مطعم [أوكاشة] في حي زخرون موشيه فقال بسعادة : نعم ، نعم . . إنه مكان جميل جداً ، وغال جداً ، وطعامه لذيذ . قالت سيلفا : أنا لا أختار إلا الجميل والغالي واللذيذ . . ونظرتْ إليَّ ، فأخذتها إلى صدري وقبّلتها ، بينما جو يصرخ مقهقهاً وقد فهم المعنى : صحيح صحيح . .

كانت السيارات تمرُّ بنا ببطء وقد ازدحمت في الشوارع ، وكان المارة يحثون الخطا بسبب البرد الذي يصفونه بالشديد هنا ، والبغالة يواقفون مفارق الطرق ، والزوايا ، والبغال هادئة لكأنها كتل حجرية مستسلمة لانتظارها الطويل . ومن حولنا بدت الأبنية وهي تدلق أضواءها نحو الطرقات والحدائق . . فتبدو الأشجار ، والأعشاب ، والأزهار ، والسيارات ، وأعمدة النور ، واليافطات ، والصور الكبيرة المعلقة على الحيطان ، وأعود بنظري إلى سيلفا التي راحت تهمس : كم أنا بحاجة إلى مثل هذه الإغفاءة في حضنك . فأهزّها لكأنها شجرة . . كي لا تنام . وأسأل الحوذي جو ما إذا كان المطعم بعيداً . فيقول : لا ، سنجتاز السور فقط ، لأنه واقع خارج السور . ولكنه ليس بالبعيد عنه ، تمر العربة ببيوت أحجارها قمرية وردية ، وأبوابها الخشبية لامعة ، ونوافذها الطويلة مشدودة إلى أقواس حجرية مزنرة بالجير الأبيض ، ومسيجة بالنباتات ، وحبال الغسيل مشغولة بالمرحجة وقد أثقلتها الملابس البليلة والدوالي مشغولة بالأبواب ، تنحني عليها . . فتظللها بالأكف الرحيمة . . هنا وقرب هذه البيوت الوردية تنشط حركة الناس ، فيبدو جولانهم اليقظ على الرغم من البرد . أسأل جو ما إن كان هذا الحي عربياً أو يهودياً . فيقول : حي عربي ؛ الأحياء اليهودية ، سنصل إليها بعد هذا المنحى ، هناك لن تجد أحداً يتجول كما يتجول هؤلاء هنا . .

وتنحدر بنا العربة ، فتجتاز بعض العتبات الناتئة ، وتمر بمحاذاة أشجار أغصانها دانية ، وتبدو البيوت وكأنها اقتربت من الطريق أكثر مما ينبغي ، فنحن نكاد نرى ساكنيها داخل بيوتهم حين يقتربون من النوافذ المضاءة . . بيوت لشدة قربها منا تكاد تشف عما فيها . . نجتاز العتبات ، ويأخذنا المنحى إلى علو صاعد ، فتبدو الأبنية الحديثة بطوابقها العالية ، وتبدو الحدائق ، والأشجار المشذبة على شكل دوائر ومثلثات ، ومربعات ، وأجنحة ، وتبدو السواقي ، والأحواض ، ومساحات العشب اللامعة ، والتماثيل الرخامية ، والخشبية .

أسأل الحوذي جو إن كان يشعر بالبرد ، فيقول : قليلاً . وترفع سيلفا رأسها ، تستعيد نفسها إليها ، تسأل مغمغمة : أين صرنا . فيقول الحوذي جو : بقيت أمتار قليلة فقط ؛ لعلكما تشعران بالبرد والجوع معاً .

فتقول سيلفا : نعم ، البرد والجوع . . وتشد سيلفا على يدي ، وهي تنظر إليَّ وقد زمت شفتيها ، وتقول : هيّا ، وصلنا . ورويداً رويداً تتهادى العربة الطويلة أمام فسحة مكشوفة ، مبلطة بالحجارة السود ، رسمت فوقها خطوط الوقوف باللونين الأبيض والأصفر . . ونهبط من العربة بعد أن هبط الحوذي جو منها أيضاً ، وصوته يتعالى : اسبقاني ، سألحق بكما ، فأتقاود أنا وسيلفا نحو واجهة المطعم المضاءة بألوان عدة ، وقد تناوبت على الاشتعال والانطفاء . . تبدو في صدر المطعم أقواس حجرية بعضها يردف بعضها الآخر ، أقواس وسيعة تشبه أقواس الكنائس والمساجد التي مررت بها من قبل . . وقبل الدخول ألتفتُ نحو الحوذي جو ، فأراه وهو يضع عليقة العلف الكتانية في رقبة حصانه ، وقد غطى ظهره ببطانية انسدلت عليه حتى كادت تخفي قوائمه . . وندلف ، فتلاقينا الأضواءُ ، والطاولات ، والأشجار القصيرة ، والأحواض المائية ، والعلب الزجاجية المملوءة بالماء والأسماك والأعشاب ، والجرار الفخارية الكبيرة ، والمجسمات

الخشبية ، والبسط الملونة المنسدلة على الجدران ، والشمعدانات اليهودية ، ثلاثة من الندل يقفون بانتظارنا باشين بثيابهم النظيفة ، وشعورهم الممشوطة ، ووجوههم اللامعة ، يرحبون بنا ، يمشون أمامنا وخلفنا . . تتبعهم سيلفا وأنا خلفها ، فنمضي وسط مساحة شديدة الاتساع نحو طاولة أشارت إليها سيلفا . . ثم يتسابق الندل إليها أخذوا بكراسيها تهيئة لجلوسنا : نصل إلى الطاولة فنجالسها بانتظار قدوم جو . أجول بنظري في أنحاء المكان . . فأرى الطاولات محتشدة بالناس ، والأطعمة ، والزهور ، والشموع ، والإضاءات الخافتة . . ثمة ضجة نامية ، تنشط حيناً ، وتخفت حيناً آخر ، والندل يحوّمون في المكان مثل الطيور ، والخلق المتقيفون في دخول وخروج ، وطريق دائرية تحيط بالمكان ، أضواء سياراتها الكثيرة المتصلة تبدو كما لو أنها سياجٌ من ضوء يلتف حولنا ، . . تسألني سيلفا : كيف رأيت المكان؟ فأقول مذهل . رائع . فتقول : والطعام سيكون مذهلاً ورائعاً أيضاً . ويدخل الحوذي جو مثل العاصفة . يتبعه أحد الندل ، يماشيه حتى يصل به إلينا . يخلع معطفه ، ويجلس وهو يسألني : كيف رأيت المكان . فأقول له : جميل ، ولكن كأنه لم يصمم ليكون مطعماً . قال : صحيح . لم يكن كذلك . قلت : وماذا كان؟ قال بأسى : كنيسة! قلت : كنيسة؟ قال : كنيسة . قلت : وكيف تحوّلت إلى مطعم . قال : تحوّلت بعد عام ١٩٤٨ ، فالكثير من الكنائس والمساجد عرضت للبيع في مناقصات عامة ، وقد تم بيعها فعلاً . قلت : اشتراها اليهود . فقالت سيلفا : التي اشتراها اليهود تحولت إلى منشآت سياحية ، وغير سياحية . قلت : غير سياحية كيف؟! قالت : بعض اليهود اشتروا الكنائس والمساجد ، وحوّلوها اصطبلات للخيول والبغال والماشية . قلت : عجيب ، من أمكنة عبادة إلى أمكنة منامة وعلف للحيوانات . قالت : لم نخترع جديداً ، هذه الأمكنة نفسها تحولت إلى اصطبلات أيام احتلالكم لبلادنا في الحروب الصليبية .

ولنا الفضل ، وبعد أن حاربناكم وانتصرنا عليكم ، أن أعدناها لتكون أمكنة للعبادة . . قلت متعجباً : أنتم حاربتم الصليبيين الفرنجة وانتصرتم عليهم . . وأين؟ قالت : حرب الاستقلال الأولى التي خضناها كانت في معركة حطين حين حاربنا مع القائد صلاح الدين الأيوبي . . ذلك الانتصار نحن أهله وأصحابه . . قلت : لم أقرأ هذا في كتاب ، التاريخ لا يقول هذا . قالت : تاريخنا يقول هذا . قلت : تاريخكم؟ ولم أنتظر الاجابة ، فأضفت : والآن ، لماذا حولتم دور العبادة هذه إلى مطاعم واصطبلات . . قالت : لأنها كثيرة ، فالمسلمون والمسيحيون كانوا كثراً هنا ولكن بعد خروجهم إلى بلاد وأمكنة أخرى ، باتوا قلة . . وأصبحت الكنائس والمساجد فارغة . .

وصمتت سيلفا ، فأضاف جو قائلاً : ودور العبادة التي اشتراها العرب من المسيحيين والمسلمين ظلت دوراً للعبادة . قلت : كيف اشتروها ، وهي لهم أصلاً ، قال : اشتروها كي لا يشتريها اليهود فيحولوها إلى مطاعم ، وحانات ، وملاهٍ ، واصطبلات للحيوانات ، لقد عدّها اليهود أملاكاً للغائبين ؛ هنا وإلى الجوار منا مسجد مساحته لا تقل عن مساحة هذا المطعم الذي كان كنيسةً في الأصل ، حوّلوه إلى اصطبل ، أحد اليهود اشتراه ، ورفض أن يكون مطعماً أو حانة للشراب ، أو ملهى ليلياً . . روي عنه أنه قال : هذا المسجد جميل جداً ، ولا يليق به ، بسبب جماله ، إلا أن يكون اصطبلاً لبضعة بغال ، فهو مكان هادئ ، والبغال تحب الهدوء . . كان جو يتحدث ، وسيلفا صامتة وقد نكست رأسها مثل راية وأنا أنظر إليهما مدهوشاً ، إذ لم أكن أتوقع أن يحدث مثل هذا! ولم أستطع أن أضبط أعصابي ، فقد غلى الدم في عروقي . . لكثرة ما استمعت إليه من أحاديث ، وروايات حول تحويل هذه الأمكنة المقدسة إلى أمكنة تدور بها الرذيلة مثلما تدور الروائح العفنة في ريح ناشطة ؛ ولم أدر كيف استأذنت

منهما ، جو وسيلفا ، كي أذهب إلى الحمام ، فقد شعرت برغبة حقيقية للتقيؤ ، نهضت ومضيت برفقة أحد الندل ليرشدني إلى زاوية الحمام . . فدخلت ، وتأخرت قليلاً ، كي لا يظل واقفاً بانتظاري ، ثم خرجت لا ألوي على شيء ، خرجت من المطعم كله . أخذت سيارة ، وعدت إلى البيت ، دون أن آكل لقمة واحدة من الطعام اللذيذ الذي طلبته سيلفا ، ولم أشرب قطرة واحدة من الأشربة الفاخرة التي أوصت عليها أيضاً ، ولم أبقَ مجالساً لهما على الرغم من أن الحديث انتقل إلى جهة غير جهة المساجد ، والكنائس ، والمطاعم ، والاصطبلات . . مضيت ، وأنا أشعر بغصة وخناق صدري يكادان يطبقان على نفسي . فقد تذكرت ما قالته لي زوجتي رشيدة قبل سنوات ولم أصدقها آنذاك ، ها أنذا أصدقها بعد رحيلها ، موتها وصدقها يدافعان عنها الآن . وما إن وصلت إلى البيت حتى وجدت العجوز أم أهارون ، وثلاثة من أفراد الشرطة بانتظاري ، كانوا يريدون تبليغي كي أذهب في الصباح إلى نقطة التفتيش ، نقطة الشرطة كي أثبت موجوديتي . أخذت منهم ورقة التبليغ ، وصعدت إلى غرفتي . . ولم أدر كيف نمت . . هل جسدي هو الذي ذهب إلى النوم ، أو أن النوم هو الذي ذهب إلى جسدي . . ما أدريه الآن ، وقد جلست كي أكتب إليك ، هو أنني نمت بملابسي . . طيَّ حزني ، وقهري ، وقد استيقظت على شعوري بالبرد ، والجوع ، والفقد ، وطعم فمي المالح ، ولم يك في بالي سوى تلك الكنائس والمساجد التي حوّلت إلى اصطبلات ، ومطاعم ، وملاه ليلية . . لكأنها كانت جزءاً من جسدي . . وفقدته» .

ملحوظة :

في الصباح ، عرفت من العجوز أم أهارون ، أن الحوذي جو ، وسيلفا ، جاءا ليلاً ، بعد وصولي إلى البيت ، وسألا عني ، فقالت لهما إنني

عدت . . ولعلهما انصرفا دون أن يصعد أحد منهما إلى غرفتي . . أو لعلهما صعدا إليَّ . . فوجداني نائماً : ولم يشأ أي منهما إيقاظي . . فانصرفا . أستاذي الحبيب سامحني ، فقد أخبرتك بما لا تحب ، ولكن من لي سواك كي يقاسمني غصتي . أرجوك أكتب إليَّ .

عارف الياسين

«أجل ،

ها أنذا أعود إلى مقهى قلندية مرة أخرى ، أجالس إحدى الطاولات الخشبية ، كي أكتب إليك ، لم أشأ البقاء في البيت مخافة أن تدهمني سيلفا بحضور مفاجئ ، أو أن يأتي إليَّ الحوذي جو ، فيحدثني عن الليلة الماضية التي ذهبنا فيها إلى المطعم الباذخ الذي صار بديلاً عن الكنيسة ، كما صار مكان الصلوات مكاناً للرقص الخليع والموسيقى الضاجة ، والخاصرات الوقحة . . أتيت إلى هذا المكان لقربه من مكان سكني . . يحملني شوقان ، شوق لرؤية نادل المقهى (أبو العبد) ، وآخر كي أختلي بنفسي ، وأحدد وجهتي ومشاغلي في الأيام المتبقية عليَّ هنا . .

وصلت المقهى مبكراً فلم أجد فيه سوى شخص نحيل ، ممصوص الوجه ، كثيف الشعر ، طويل مثل عود قصب ، شفتاه راجفتان على الدوام ، وعيناه خرزيتان ، وأنفه دقيق حاد وممطوط إلى الأمام ، رجل لا صدر له ، لا بطن ، ولا قفا ، وجهه بلا خدين ، بلا صفاء ، بلا دم . . بدا لي كأنه يستيقظ من نومه تواً ، يرتدي معطفاً يكاد يكون عسكرياً له أزرار صفر ذهبية لامعة ، وأصابعه بادية العروق مشدودة إلى عصا طويلة ذات عقد بارزة . . كان يمشي خطا قصيرة دائرية حول طاولة مواجهة لي ، ثم جلس مجاوراً لها . . منذ وصولي إلى مقهى ، والرجل ينظر إليَّ مباشرة ، نظرة لا تخلو من قسوة ما ، وقد جلست مقابلة له ، وليس بيني وبينه سوى

أمتار ، كيفما نظرت إليه رأيته ينظر إليَّ بحدة لم يحاول إخفاءها قط . .

في لحظة وصولي إلى المقهى لم أر النادل (أبو العبد) ، وإنما رأيت هذا الرجل المجفف الضامر ، ورحت أتطلع إلى خروج (أبو العبد) من كوخه الخشبي ، لكنه لم يخرج . . حاولت أن أبدد نظري فيما حولي ، فرأيت دورية البغالة هي هي ، لكأنها حفظت ما ينبغي عليها من فعل يومي . عشرات الناس ، بل مئات الناس يقفون بعيداً عن المعبر ، وقد صروا ثيابهم ، وحاجياتهم في أكياس بلاستيكية ، وصناديق كرتونية ووقفوا إلى جوارهم ، بانتظار إشارة من أحد البغالة كي يتقدموا واحداً واحداً ، لكن البغالة يقفون غير مبالين بهم . . يدخنون ويتضاحكون ، ويتمايلون بأجسادهم الثقيلة ، ويرتشفون ما في أكوابهم الطويلة الوسيعة ، والبغال من حولهم واقفة وقفة البهوت والبرود والانطفاء ، والكلاب من حولهم . . على غير عادتها أيضاً ، فهي ساكنة وهادئة وقد أحيطت خطومها بمشابك حديدية فضية لامعة . . والحواجز الحديدية مترادفة ومتداخلة مثل متاهة . . الطرفان : الناس من جهة ، والبغالة والبغال والكلاب من جهة ثانية كلاهما ينتظران أمراً علوياً لا أحد يدري متى يهبط عليهما أو عصا سحرية تمحو الأمتار القليلة الفاصلة بينهما . وفي الطرف الآخر ، دورية لبغالة يوقفون سيلاً من السيارات ، يطلبون أوراق من فيها ، ثم يطلقونها ببطء واحدة واحدة .

أعود ببصري إلى المقهى . . فأواجه هذا الرجل الذي رق كثيراً حتى لكأنه صفحة كتاب . . أراه ينظر إليَّ ، فأرفع يدي إليه بالتحية . . فلا يرد التحية ، تظل نظراته القاسية أشبه بالمخارز المصوبة نحوي . . أرفع يدي مرة أخرى ظناً مني أنه لم يرني ، أو أنه لم يدرك ما قصدت إليه . . فلا يستجيب . . فجأة يظهر أبو العبد ، صاعداً من طرف المنحى ، كائناً ازداد نحافة وضموراً ، ورشاقة أيضاً ، حين رآني ، دقق النظر إليَّ ، ثم رفع يده

بالتحية ، وصوته يتعالى : أهلاً خواجة ، والله زمان .

كان يحمل بين يديه كمية من الأكياس المتداخلة . دلف إلى كوخه الخشبي ، وغاب للحظات ، ثم ظهر ، وفي يده صينية عليها كأس ماء ، وحين تقدم مني رأيت ابتسامته المشرقة ، ونهضت لتحيته ، فصافحني بحرارة وهزَّ يدي بمودة ، ووضع كأس الماء ، وناولني وردته المعتادة ، وراح يرحب بي على مسمع الرجل الضامر الذي جلستُ في مواجهته تقريباً . سألني عن سبب غيابي ، فقلت : أشغال . وسألته عن أحواله ، وأحوال جيرانه البغالة وبغالهم وكلابهم . . فقال . . هؤلاء جيران الهم والغم ، ولكن ما العمل؟ قلت : الله يرحم لينين صاحب ما العمل . قال : والله يرحم اينشتين الذي لم يقبل أن يكون رئيساً لهؤلاء البغالة . . فضحكت ، وضحك هو . وسألني : ماذا أشرب : فقلت قهوة . فقال : حاضر ، واستدار ، وبدلاً من أن يذهب نحو كوخه من أجل تحضير القهوة ، ذهب إلى الرجل الناحل ، وراح يتحدث إليه . . فجأة رأيت الرجل الأعجف ينهض ، والنادل أبو العبد يقوده نحوي . كانا يتقدمان نحوي ، فأوجست في نفسي شيئاً ، فالرجل الضيق ومنذ قدومي إلى المقهى ينظر إليَّ بقسوة شديدة ، وعدائية واضحة . . تقدما أكثر فراح صوت (أبو العبد) يتعالى : والله فرصة ، يا خواجه ، تتعرف على عارف الياسين ، في هذا الصباح الهادئ ، وقبل أن يأتي الخلق ويضج المقهى ، حين وصلا إلي . . مدّ الرجل نحوي يداً صغيرة ضيقة فأخذتها طي كفي ، وارتعشت ، فقد كانت يداً بلا أصابع .

واندفع نحو صدري وارتمى فيه ، جسد خفيف ، كأنه خطوط مرسومة على ورقة كرتون ، لم أقو على ضمه مخافة أن يذوب بين ذراعيَّ . . سمعت صوته يهمهم : اعذرني ، ظننتك منهم . فابتسمت له ، وهمهمت أهلاً . وجلس ينظر إليَّ نظرة عميقة ، فهربت من نظراته إلى وجه أبو العبد

فرأيت الدمع يجول في عينيه فحرت بأمري ولم أدر ما أقوله . فبادرني هو بالقول : العم عارف الياسمين ، مناضل عتيق ، أكثر من ثلاثين سنة في سجون البغالة لعنهم الله ، أعطيته فكرة عنك ، قلت له : إنك من بلاد الباليه والمسرح ، والبوظة ، والبرد . . فهززت رأسي له مرحباً ، ولم يقل الرجل كلمة واحدة ، فأضاف أبو العبد ، العم عارف عاش والبغالة وقتاً طويلاً ، يعرفهم ويعرفونه مثلما تعرف الأشجار ظلالها . . أرجو أن تتعارفا ، واستدار عائداً نحو كوخه . بدا الرجل أكثر ضموراً مما رأيته عليه قبل دقائق ، وأكثر شحوباً ، وعيناه أكثر عمقاً وانزواءً في محجريهما ، والعمر تقدم به كثيراً . قال بهدوء وحزن : منذ اللحظة التي دمروا فيها الاتحاد السوفييتي العظيم . . صرنا أيتاماً أيها الرفيق . دمار الاتحاد السوفيتي كان نكبة ثانية بالنسبة إلينا . بتنا بلا معيل بلا سند . اليوم ، هؤلاء البغالة ، وأشار إليهم حيث هم يقفون أمام الحواجز الحديدية وقرب بغالهم وكلابهم . . يلعبون بنا كيفما يشاؤون ، تماماً مثلما يلعب الرياضيون بكرة القدم . قدم من هنا ، وأخرى من هناك . . وهتاف وزعيق ، وضجيج ، وزفير . . لكن الفرق أننا بشر أهل حساسية ، وكرامة ، وتاريخ ، بشر من لحم ودم ، ومع ذلك يلعبون بنا ؛ لذلك فإنه الألم كبير ومفجع . . وصمت ، فلم أتكلم احتراماً له ، ورفع رأسه ونظر إليَّ وقال : اعذرني ، فأنا لا آتي إلى هنا ، إلى هذا المقهى ، إلا عندما أجد القوة في جسدي . فقد ضاع العمر في سجون هؤلاء البغالة . كنت أزن ١١٧ كيلو حين دخلت إلى السجن ، وقد خرجت منه ووزني الآن ٤٠ كيلو . . فقد أخذوا عافيتي كلها ، ورموني كومة عظام ، تجول فيها عشرات الأمراض التي تتسابق على هذا الجسد الجيفة كي تأخذ بناصيته ، وصمت . . فقلت : ولماذا دخلت إلى السجن؟
قال : السبب بسيط . حاولنا ، أنا وثلاثة من رفاقي مواجهة دورية للبغالة قتلت طفلاً عمره تسع سنوات ، شارك أترابه في رشق سيارات الجيش

بالحجارة ، لكن البغالة قتلوه . . وقد كان الطفل وحيد أبويه ، وقد جاءهما بعد انتظار دام عشرين سنة ، وقد حاول أترابه إنقاذه وحمله والعودة به غير أن البغالة جعلوا من جسده مصيدة ؛ فقتلوا فوق جثته سبعة أطفال ، كلما تجاسر فتى على الاقتراب من جثته رموه فوقه . . حين رأينا جثمان الصبي . . لم نتعرف إليه . الوحيدة التي عرفته كانت أمه لأنها ربطت في رسغه خيطاً أخضر على شكل تميمة كي تحميه ، لكنها لم تحمه . . كان رأس الصبي مهشماً وشائهاً ومخه ودمه في استدارة ملأت مكان العينين اللتين طارتا ، والأنف الذي شوّه ، والفم الذي تساقط لحمه نتفاً . . ولكثرة الرصاص الذي أصابه تخرّق سرواله الكتاني إلى حد بدا من الصعوبة عليه أن يحفظ لحمه وعظمه في داخله . . كان جثمان الصبي مشهداً مروعاً وقد بسطته أمه على محفة خشبية ، هي خزانة البيت ، وعرضته أمام الخلق . . وراح تنوح عليه وتحوّم مثلما تحوّم طيور فجعت بوجود ثعبان مخيف في أعشاشها . . وصمت عارف الياسين حين عاد إلينا النادل أبو العبد حاملاً القهوة وكأسي ماء . فقال : العم عارف حرَّم على نفسه شرب الشاي بعد أن خرج من السجن ، فبات لا يشرب سوى القهوة ، لأنه حُرم منها كثيراً طوال مدة سجنه . . وجلس النادل أبو العبد في طرف الطاولة . . فنظرت إلى عارف الياسين ، كأنني أدعوه لمواصلة الحديث . . فقال : موت الصبي ، ورفاقه أثرّ فينا كثيراً ، فقررنا نحن مجموعة من الشبان أن نترك السياسة ، ونمارس الفعل القتالي لمواجهة هؤلاء الطغاة . تعاهدنا كفتيان للانتقام من القتلة ، مثلما تعاهد فتيان الإغريق على الانتقام من خاطفي هيلانة . . فمضينا في حماستنا وارتجالنا ، إلى أن حدث المكروه . . اثنان منا قتلا فوراً ، واثنان ، أنا أحدهما ، جرحنا ، فأُخذنا إلى المشفى ثم إلى السجن ، وهناك أمضينا ثلاثين سنة جزاء على ما فكرنا به فقط ، لأننا لم نقتل أحداً ، ولم نخرّب منشأة . .

قلت : والسجن؟! قال : هناك رأينا الجحيم . قلت : كيف؟ قال : عملنا في الأعمال الشاقة ، سلخوا جلودنا ، وقلعوا أظفارنا ، وكوونا بالكهرباء ، والنار ، والسكائر ، انظر ، عيني هذه ، وأشار إلى عينه اليسرى ، حرقوها بالسكائر حتى ما عدت أرى فيها . قالوا لي أنت ماركسي ، طبقي ، يكفي أن ترى بعين واحدة . لا أستطيع أن أصف لك قسوة الحرق وآلامه حين يصيب العين . واحدة من خصيتي خصوها مثل العجول ، وضعوها بين عصوين ، وطقوها . . قل ما شئت عن ذلك الألم الرهيب . إن كنت لا تصدقني ، أريك أنني بخصية واحدة . ساقي هذه ، انظر ، وراح يرفع طرف سرواله الواسع عن ساقه ، انظر . . ربلتها! امتصوها قطرة قطرة . . وها هي شرايينها بادية ، انظر ، هنا انظر أرجوك ، أتراها إنها أشبه بأسلاك الكهرباء التي خرجت عن مسارها مثل الأشلاء . . أرجوك ، هل رأيت العروق ، لقد جمعناها مرات ومرات بالبيض والصابون ، يعني بجبيرة ، كي تظل مجتمعة ومتلاحمة ، ثم انظر هنا ، ورفع رأسه كي أرى رقبته ، قال أرأيتها ، أرأيت الفجوة ، هنا ، هنا بالضبط فتحوا قصباتي مرات ومرات أيضاً كي يمرروا الهواء إلى الرئتين بعد حفلات التعذيب ، وحالات الإضراب عن الطعام . . كانوا يتندرون عليَّ . يقولون إنني ماركسي ، طبقي ، وأعرف المعاناة والألم ، وعليَّ أن أعيشهما كي لا يفسدني دلال السجن . . قلت : وهل أنت وحدك من كان ينال مثل هذا التعذيب . قال : لا ، الجميع كانوا ينالونه وبقسوة شديدة ، ولكن يبررون لكل واحد منا أن التعذيب الشديد الذي يناله إنما يناله بسبب انتمائه وأفعاله . . واحد متدين ، واسمه عبد العاطي التوبة ، لم نره ، ولو مرة واحدة ، يعود من التعذيب إلا محمولاً ، دائماً كان اثنان أو أربعة من رفاقنا يذهبون معه إلى آخر الأمتار المسموح لهم بأن يصلوا إليها ، ويقبعون هناك بانتظار رميه لهم ، بعد أن يجعلوه جثة هامدة منقوعة بالماء ، فيقوم هؤلاء الرفاق بحمله وإعادته إلى القاووش ،

ويسهرون قربه كي يستعيد عافيته . . تصور أنهم كانوا يربطونه من خصيتيه ويشدونه إلى الحائط ، ويقتلعون شعر جسده شعرة شعرة ، ويعلقونه من إحدى أذنيه في السقف ، ويرمونه في مغاطس ساخنة جداً ، ثم يأخذونه إلى مغاطس جليدية وبالتناوب . . فلا يعود إلينا إلا كتلة زرقاء لا دم فيها ولا أنفاس . . أذناه تشرَّمتا ، وخصيتاه خرجتا مثل بيضتين لحمامتين ، أو مثل حبتي فاصولياء . . أذكر أنه احتفظ بهما مدة من الزمن إلى أن جفتا وضمرتا . . فرماهما مثلما ترمى حبات النوى ، وعضوه التناسلي كانوا يدخلون في فتحته الصغيرة الإبر الطويلة . . فيتعالى صراخه من شدة الألم وفظاعته . .

لقد تركته في السجن أعمى أطرش ، وفاقداً لخصيتيه وأسنانه جميعاً ، وعضوه التناسلي مدمى ومتقيح ، تركته خلفي كتلة من العظام وحسب ، ولاشيء في فمه سوى جملته الشهيرة . . كل شيء ، من أجل البلاد ، يهون!

آخر ، واسمه أبو تحسين ، أستاذ مدرسة ، عمل في مجال التدريس ، كان يتحدث لرفاقه عن مذابح اليهود قبل أن يصبحوا صهاينة ، وقبل أن تصير لهم دولة اسمها [إسرائيل] ، يقول لهم اليهود هم هم ، قبل أن يكونوا صهاينة وبعد أن أصبحوا صهاينة ، دم العنصرية والفوقية والتعطش للإرهاب والعمل على الفتن والقتل والظلم . . هو الدم نفسه . . لم يتغيروا ، ولن يتغيروا إلا إذا حكمتهم القوة . . أبو تحسين هذا ، لم يوفروا له أي شكل من أشكال التعذيب ، علقوه في السقف أسبوعاً كاملاً ، ومن يد واحدة ، جعلوه يتدلى فوق الأرضية الخشبية مثل الخروف المذبوح ، وكانوا يسقونه الماء ، وبعض الشوربة بواسطة أنبوبة أدخلوها في فمه وصولاً إلى معدته . . لم ينالوا منه ، لأنهم كانوا يسألونه وبعد كل حفلة تعذيب ، ها ما رأيك؟ قل لنا شيئاً عن التنظيم . . فيقول لهم : أنا أعرفكم ، فأنا من

يدرّس تاريخكم للطلاب . . افعلوا بي ما شئتم فأنتم ، أبناء اليوم ، لن تصلوا إلى الأساليب الجهنمية في التعذيب التي اخترعها أجدادكم ضد أجدادنا . . لدي ما أمتلكه من معاني الصمود والمقاومة ما لا تعرفونه قط . . ولدي من الشجاعة والقدرة على التحمل ما سيذهلكم . . قلت : وهل تركوه ، هل يئسوا منه؟ . قال : أبداً ، قتلوه بالكهرباء ، وادَّعوا أنه انتحر . . أبو تحسين لن أنساه ، فقد علَّمنا ودرّسنا وأخبرنا بالكثير الكثير عن تاريخهم الدموي والعنصري . . وقد نقلّوه بين سجون كثيرة ، فلم يتغيَّر أو يتبدل ، ظل الضوء والحرارة والأمل داخل تلك السجون ، لذلك ما كان أمامهم إلا أن يقتلوه . . فقتلوه . .

وصمت عارف الياسمين ، وقد عاد إلينا النادل أبو العبد بقهوة إضافية ، وسألنا إن كنا نقبل دعوته على سندويشتين صغيرتين من القريش ، الجبنة الناعمة . . فقال عارف الياسين : هات ما تشاء ، عمل الخير لا يحتاج إلى مشورة أو استفتاء . . ولم أقل شيئاً ، وابتسمت . .

قال : سامحني ، أنت غريب ، ستقضي يومين أو ثلاثة في بلادنا ، وتذهب ، لعلك جئت للسياحة ، ولعلهم ضحكوا عليك فقالوا لك إن البلاد بلاد عسل ولبن ، بلاد أحلام . . صحيح أن البلاد بلاد عسل ولبن ، ورخاء ونعيم ولكن ليس بوجود هؤلاء الأوباش القتلة ، نصف شعبنا تحت الأرض ، إما في السجون ، وإما في المقابر . . أسألك ، هل زرت المقابر يا رفيق . قلت : لا . قال : إذا لم تزر المقابر في فلسطين ، فأنت لم تعرف مأساة شعبنا . المقابر ، يا رفيق ، صارت أكبر حجماً من قرانا . . وأكبر حجماً من مدننا أيضاً ، لعلك تستغرب ، أنا أعذرك ، ولكن حاول قدر استطاعتك ، وقدر ما يسمح به وقتك المتبقي في بلادنا أن تنتبه للمقابر . . كي تتأكد من صحة كلامي ، المدن قبل هؤلاء الأوباش ، كان فيها مقبرة أو مقبرتان . . أو ثلاث مقابر . . اليوم المدينة الواحدة مسيجة بالمقابر . . هل حدث أن سمعت بأن

المدن ، أي مدن في العالم ، مسيّجة بالمقابر ، مدننا نحن في وسطها مقابر ، وفي أطرافها مقابر ، وحولها مقابر . . رائحة الموت محمولة على الهواء . . مثلما هي رائحة البارود محمولة على الهواء . . كيفما مشى الفلسطيني ، وكيفما توجه . . لن يرى أمامه أو حوله سوى المقابر . . كل الطيبين ، آباء وأمهات وأبناء . . مضوا إلى المقابر . . نحن أكثر شعب في العالم يزور المقابر . . لأن هؤلاء البغالة ، ومنذ نصف قرن وهم يقتلوننا . . جيلاً فجيلاً . . زيارة المقابر ، يا رفيق ، أشبه بزيارة المتاحف في بلادكم . .

وصمت ، بينما النادل أبو العبد ، يضع كاسات الشاي والسندويشات بيننا ، ويدعونا إلى ضيافته المتواضعة متلعثماً ، يرفع رأسه نحوي ، ويقول : لا بد وأن العم عارف (طوشك) بأحاديثه عن السجن . قلت : إنه يقول ما هو فظيع وموجع ومؤلم جداً . قال عارف الياسين : سجون العدو منتشرة في جميع الأمكنة فهي أكثر من المدارس والمشافي ودور العبادة . . وفيها يحدث ما يحدث في المسالخ ، والفرق أن ما يحدث في المسالخ ظاهر ، في حين أن ما يحدث في السجون محجوب . . ولكن لا فرق بين سلخ هنا ، وسلخ هناك . . قلت : الأمر مأساوي بالفعل . قال النادل أبو العبد : هل حدثك عن سرقه كليته . قلت : لا . ونظرت إلى عارف الياسين ، وسألته : هل سرقوا كليتك أيضاً ، قال ، وهو يلوك لقمته : أخذوها ، الله لا يسامحهم . . قلت وقد سقطت سندويشتي من يدي : كيف؟ قال : أخذوني مدة ثلاثة أو أربعة أيام إلى المشفى ، وأجروا لي فحوصات ، وأشعة ، وجعلوني مرفهاً ومدللاً خلال تلك الأيام . . جاؤوا بالرز ، ولحم الدجاج ، والمرق ، والفواكه . . وراحوا يقولون لي معاتبين : عليك أن تتحدث عن الخدمة الإسرائيلية الممتازة لرفاقك . . فها نحن نعطيك ما ترغب به ، لأنك تعاني من فقر الدم ، والنقص في الخضاب . . قلت لهم وبكل الوضوح : اللهم نجنا من الدلال الإسرائيلي . . لأن وراء هذا الدلال أهوالاً ، يا رفيق ، دون أدنى

شك ، وكانوا يضحكون ، ويقولون : ابن العرب شكاك ، طول عمره شكاك . قلت لهم : يا حيف عليكم ، هذا (بزكم) فنحن نعرفكم تمام المعرفة . . فعلاً ، وبعد خمسة أو ستة أيام ، عدت إلى السجن ، وأنا أشعر بتدهور صحتي ، وأن جرحاً مؤلماً يوجعني ، في جنبي الأيسر ، رأى رفاقي الجرح فقالوا لي هذا جرح طبي ، وليس جرحاً ناتجاً عن التعذيب . . لعلهم سرقوك . . قلت : ماذا؟ قالوا : ربما سرقوا عضواً من أعضائك . . فطار عقلي وحرت بأمري ، وسألتهم ماذا يوجد في هذه المنطقة التي جرحت فيها . فقالوا : الكلية ، قلت : يبدو أنهم أخذوها بالفعل .

وحاولت مع الصليب الأحمر جاهداً ، كي أصور المنطقة التي جرحت فيها لأرى إن كانوا قد سرقوا الكلية أم لا ، لكنني لم أفلح . . وحين خرجت من السجن ، صوّرت جنبي الأيسر ، فوجدت أنهم سرقوا كليتي بالفعل . وصمت ، ثم رفع رأسه ، وقال : تصور أخذوا كليتي اليسرى ، ربما لأنني يساري . قال أبو العبد : أرادوا أن يستأصلوا يساريتك . .

وصمتنا جميعاً ، حين رحنا ننظر إلى البغالة القريبين منا ، بدونا كأننا نمسك قلوبنا بأيدينا ، وقد رأيناهم يضربون امرأة أرادت أن تعبر الحاجز مع حاجياتها ، كانوا يجرون جسدها وصوتها نافر وغاضب ، وبكاؤها وصياحها عاليان . . رأينا أحد البغالة يقيّد يدي العجوز ويثبتها على الأرض بقدم ، وقد بدا حذاؤه العسكري المغبر أشبه بكابوس يربض على صدرها ، ومعاونه ، البغال الآخر ، يكسّر بيض سلتها فوق رأسها ، فيندلق ما في البيض فوق رأسها ووجهها ، والمرأة تصرخ وتستغيث ، والخلق خلف الحاجز في هياج وثورة وأصواتهم المتداخلة تلعن البغالة وتشتمهم . قال أبو العبد : انظر ، يا خواجة ، ماذا يفعلون ، والله أتمنى لو أن الغرب ، كل الغرب ، يأتون إلى هنا كي يروا ماذا يفعل هؤلاء المجانين الحمقى . . بنا!

وتهدأ المرأة ، ويخفت صراخها ، حين ينتهي البغال من تكسير البيض

فوق رأسها ووجهها . . امرأة من الخلق المحتشدين خلف الحاجز تتجاسر فتهرع إليها ، تزيح عن وجه المرأة ورأسها مخرجات البيض ، وتفك يديها ، والبغالة ينظرون إليها ساخرين ، وأصواتهم تتعالى متداخلة بجملة واحدة وهم يشيرون إلى المرأة : الصليب الأحمر .

تحاول المرأة الناجدة حمل المرأة الممرغة بالوحل . . لكنها لا تقوى ، فيهب نفر من الخلق الواقفين خلف الحواجز الحديدية . . لمساعدتها ، ولكن البغالة وفي حركة مفاجئة ، يشرعون بإطلاق النار عليهم عشوائياً فيرتمي الكثيرون منهم أرضاً ، فيصرخ أبو العبد : راح الشباب . وصوت عارف الياسين يتعالى : دم آخر ، واقتربنا أكثر من السياج كي لا تغيب عنا التفصيلات ، وكي نسمع أكثر . . ورويداً رويداً أسفر المشهد عن موت المرأتين ، وجرح الكثيرين . . وراح الناس يحملون الجرحى والمرأتين ، وأيدي الآخرين تقذف البغالة ، والبغال ، والكلاب بالحجارة . . ولم يحلُ بين الطرفين سوى الدخان الكثيف ، وإطلاق النار والصراخ ، والنداءات ، وحين انجلى الدخان ، وتوقف إطلاق النار ، وهدأت النداءات ، وخفت الصراخ . . بدا الطرفان متقابلين وبينهما الحواجز الحديدية . . كما بدت البغال مستنفرة ، والكلاب هائجة ، . . واستدرنا عائدين أنا وعارف الياسين إلى الطاولة ، بينما مضى أبو العبد إلى داخل كوخه وهو يهز رأسه أسى ، قال عارف الياسين : أرأيت يا رفيق! قلت : رأيت! قال : هؤلاء البغالة الذين تراهم ، وأشار إليهم ، هم مقدمة المجتمع الإسرائيلي ، فالجميع هنا . . مثلهم ، أو يشبهونهم ، ولا فرق بين رجل منهم وامرأة . . ألا ترى المجندات الواقفات مع البغالة؟ ، قلت : أراهن . . قال : لا بدَّ من أننا ثقبنا السماء . . بالأدعية ، والأسئلة ، والنداءات . . لكثرة ما رأيناه وعشناه من ظلم هؤلاء القتلة . . قلت : ما أصعب هذا الكلام : قال : رفيق ، ألا تعرفون في بلادكم أن مثل هذا يحدث لنا يومياً .

قلت : لا ، لأن غشاوة سميكة موجودة بيننا ، أنتم ونحن ، ولا بدَّ من إزالتها كي يتضح المشهد ، قال ، ونحن نرى (أبو العبد) قادماً يحمل بين يديه صينية إلى مجموعة من الناس هبطوا حول طاولة في آخر المقهى : ومتى ستزول هذه الغشاوة يا رفيق ، وكيف؟ قلت : حين نقترب أكثر . قال : وهل نحن على تباعد كبير؟ . قلت : جداً! قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وصمت ، فحرت ماذا أقول له ، كيف أواسيه ، بدا مطفأ وهامداً مثل ثياب مبللة . . وجاءنا أبو العبد ، قال : خواجة ، قهوة ، شاي ، اطلب ، قلت : أبداً ، ورفع رأسه عارف الياسين ، وقال : هات قهوة يا (أبو العبد) . . قهوة ثقيلة . فقال أبو العبد : حاضر ، واستدار . . فقلت لـ عارف الياسين كي أنتشله من استغراقه فيما رأى : كنت تحدثني عن السجن . قال : نعم ، السجن هو كل حياتي . فلا حديث لي سوى حديث السجن . قلت : وماذا تود أن تقوله لي أيضاً . قال : كل السجن ، وكل ما حدث فيه من ضرب ، ودم ، وإغماء ، وخوف ، وبرد ، وجوع ، وألم . وتحقيق ، وإهانات . . في طرف ، وما فعلته السجّانه سيلفا بي في طرف آخر . فنهضت بكامل قامتي بعد أن صرخت به : ماذا . . سيلفا؟ فقال وقد ذعر : رفيق ، أتعرفها ، قلت : الباحثة الاجتماعية . قال : الباحثة الاجتماعية . قلت : الطويلة ، الملأى ، صاحبة الشعر الأشقر . قال : الطويلة ، الملأى ، صاحبة الشعر الأشقر . قلت : وشامة أنفها . قال : وشامة أنفها . . وصمتُ ، وقد أرخيت رأسي فوق يديَّ المتعانقتين على الطاولة ، فقال : إذاً أنت تعرفها . فهززت رأسي له . . قال : سجانة حاقدة ، يدي هذه ، ورفع كفه التي لا أصابع لها ، هي التي أذابتها طي ملزمة حديدية ، قلت : كيف؟ قال : وضعت كفي بين فكي ملزمة الحديد ، وراحت تشدها ، وتعصّرها . . وهي تلعب بخصل شعرها ، وتسألني : ها . . ماذا قلت؟!

كانت تطلب مني أن أعترف بما لم أقم به . . فتشد ، فيتعالى

صريخي ، ويسيل دمعي حتى يغسل وجهي . . . يا إله الألم . . يا رفيق ، ملازم الحديد لا تنجب إلا الألم . سيلفا الحاقدة أذابت يدي ، قطّعت أصابعي . . دوّرتها حتى صارت على هذا الضيق الذي تراه ، وصمت عارف الياسين . . وجاء النادل أبو العبد بالقهوة الثقيلة . . فنهضت ، رميت النقود على الطاولة . . ومضيت ، ونداءاتهما معاً تطردني . . القهوة يا رفيق ، القهوة . . يا خواجة . . لكنني لم ألتفت أو أستدير . .

مضيت إلى البيت . . فوجدت سيلفا ، تجالس العجوز أم أهارون . . وبينهما قهوة ، وزجاجة ماء . قالت العجوز فرحة : لقد جاء . . وهبت سيلفا واقفة . . فتقدمت نحوهما ، واقفتهما قليلاً للمجاملة ، ثم اعتذرت منهما لأنني نسيت أن آخذ بعض الأوراق من غرفتي ، وأنني عائد للتو . . ومضيت . فصرخت سيلفا في ظهري : سألحق بك . . انتظرني . فاستدرت نحوها وقلت : أرجوك . . لا . فتجمدت في وقوفها . أظن أنني كنت جلفاً وقاسياً أكثر مما ينبغي . . لهذا لم أسمع منها كلمة واحدة ، دخلت إلى غرفتي ، وخلال دقيقة أو أكثر بقليل ، عدت راجعاً . . فما وجدت سيلفا ، كانت العجوز أم أهارون وحيدة واقفة تنظر إليّ بريبة وقلق . سألتها عن سيلفا . فقالت : ذهبت ، وهل تظن أن قسوتك ستبقيها . فعدت إلى غرفتي . . رميت نفسي خلف طاولتي . . محاولاً أن أنسى كل ما سمعته ، وكل ما رأيته . . وأنا أكتب إليك» .

ملحوظة :

اعذرني ، فقد أثقلت عليك ، ولكن لا بدّ لي من أن أقول لك كل شيء ، لأنني بت أشعر بأنني في حقل ألغام ، كل ما تحتي ، وفوقي . . ألغام ، وكل ما حولي ألغام . . لم يبق لي هنا سوى الحوذي جو . . فهل يكون هو الآخر لغماً أيضاً . أرجوك اكتب إليّ .

في سوقي الحصر والنحاسين

«الآن ،

وأنا أكتب إليك ، أشعر وكأنني لم أر القدس كما ينبغي . أحاول تذكر ما رأيته ، فلا أتذكر إلا القليل ، لكأن رؤية القدس تصيب المرء بالعطش الأبدي . . لهذا هاتفت الحوذي جو ، قلت له إن لم تكن مشغولاً بأحد ، أو بعمل ، تعال أرجوك ، فأنا أودّ رؤية القدس مرة أخرى . فقال لي : القدس . قلت : القدس . قال : إذاً ، متى سترى طبريا ، والناصرة ، ومتى ستذهب إلى البحر . قلت له : أرجوك ، تعال الآن إن لم تكن مرتبطاً ، فبي شوق عميم لرؤية القدس . إن لم تأت سأخرج وحيداً . قال : ماذا سترى . قلت على عجل : كل شيء . قال : جهّزْ سندويشاتك ، وقهوتك وماءك ، وخذ معطفك ، فالجو بارد ، وربما مشينا وقتاً طويلاً تحت المطر . سألته إن كنا بحاجة إلى مظلة ، فقال : لا ، مطر القدس مطر بركة ، والبركة لا ترد . ستسر بالمطر كالعادة ، فهو خفيف وناعم مثل ذرات السكر ، قلت : إنني بانتظارك ، لا تتأخر أرجوك .

فعلاً ، جاءني الحوذي جو وقد لبس كل ما لديه من ثياب ، وفوقها ارتدى معطفه الشمعي الشفيف اللامع ، فبدا أمامي مثل مهرج . قلت له : أراك تستقبل البرد والمطر متدرعاً . قال : أنا رجل واقعي ، فلا بدّ من مراعاة الشيخوخة وأحوالها . وسألني إن كنت جاهزاً ، فهززت رأسي له بالإيجاب ، فقال : هيا ، واستدار . فحملت حقيبتي وانطلقنا ، وقرقعةُ

العربة ، ووقعُ خطا الحصان أشبه بالموسيقى التي تماشينا .

بدا الجو ضبابياً لكأن الغيوم تمشي في الطرقات ، وبين البيوت ، وتجالس مقاعد الحدائق ، وتمر بالنباتات ، والأشجار ، والنوافذ ، وتمسح ريش الطيور ، والوجوه ، والشرفات الغافيات . . ؛ أصوات السيارات ، والطيور الكبيرة التي حطت على حواف الأبنية وأعمدة النور مسموعة . . لكأن فصل الشتاء هو وقت الاستماع والإنصات الرهيفين . يسألني الحوذي جو : هل تريد رؤية أمكنة محددة في القدس كي أعرف إن كنا بحاجة إلى دليل أم لا ، قلت : أريد أن أرى الأسواق ، وأن أعيش إيقاع الشارع ؛ إيقاع الناس وهم في تجوالهم ، كما أريد أن أرى المساجد من الداخل . قال بسرعة : إذاً ، نحتاج إلى دليل .

كانت العربة تنحدر بنا في منحى مبلط بحجارة سود لامعة ذات رهجة زرقاء ، والمحال تقترب من حولنا ، والأشجار تدلّي فوقنا ذؤاباتها وقد راحت أوراقها تصطفق اصطفاق أجنحة الطير حين تفر . ودون انتباهة مني ، أوقف الحوذي جو عربته بمحاذاة الرصيف ، قرب بعض الباعة الذين جالسوا سلالهم ، وأسفاطهم ، وجواناتهم ، وقففهم ، وصناديقهم المملوءة بالجوز ، والزبيب ، واللوز ، والتمر ، والتين ، ومربيات الورد ، والبرتقال ، والتفاح ، والنارنج ، واللبن ، والجبن ، والقريش ، والزعتر ، والخبز . . توقفت العربة فأشار الحوذي جو إليَّ بالنزول ، فنزلت .

كان إلى جوارنا بالضبط ، فوق الرصيف اللامع ، وقرب أحد الأعمدة الحجرية العالية ، رجل ناحل قصير يوازي صندوقاً زجاجياً ، في داخله رقائق عجين مدورة مثل الأرغفة ، وقربها طاستان فضيتان ، في الأولى مربى أسود اللون ، وفي الثانية قشدة ناصعة البياض . قال الحوذي جو للرجل : اصنع لنا عروستين ، فتمايل جسده ، وتراقصت أصابعه وهي تمدد أرغفة العجين ، وتدهنها بالمربى الأسود ، والقشدة الكثيفة . قلت للحوذي

جو : ما هذا؟ . قال : قشدة بالدبس . قلت : دبس؟ قال : دبس خروب لا يوجد دبس في العالم أطيب منه . الآن ستذوقه . وناولني الرجل القصير إحدى العروستين ، فقضمت منها لقمة ورحت أتذوقها ، فعلاً إنها طيبة جداً ، وسألني الحوذي جو وهو يتناول عروسته : ها ، ماذا وجدت . قلت : إنها لذيذة فعلاً . قال : صديقك جو خبير بالطيبات . وتركني ومضى بعد أن ريثني كي أنتظره . قال سيعود في الحال ومعه دليل .

لا أدري ، وقد ماشيت بصري هنا وهناك ، كيف التهمت العروسة ، أي السندويشة الصغيرة المبرومة بحذق ومهارة ، فسألني البائع الناحل الذي كان يراقبني باهتمام : خواجة ، عروسة ثانية . قلت : أنا لا أحب تعدد الزوجات ، ومع ذلك ، هات عروسة ثانية ، لحظتئذٍ تنبهت إلى أن المطر راح يشتد بعد أن كان نثيثاً ، فتواريت تحت شرفة البناء العالي . وتمتمت : بدأت تمطر . فقال الرجل : الله يبعث الخير ، وناولني العروسة ، فناولته دولاراً ، فقال : الثلاثة بدولار ، صحة وعافية . وسألته عن القشدة والدبس ، فقال : القشدة ، قشدة غنم ، والدبس دبس خروب ، كل مئة من قرون الخروب تعطي ملعقة من هذا الدبس . وسألته كم عروسة يبيع في النهار؟

فقال : ثلاثين أو أربعين عروسة ، وسألته لماذا يسمي السندويشات بالعرائس ، فقال لأنها طويلة ، ومضمرة ، ومصقولة مثل العرائس . . وراح يضحك وهو يهمهم : الأسماء يا خواجة ، مجانية .

وجاء الحوذي جو ، ومعه رجل متوسط العمر والطول ، بدا شيب رأسه واضحاً ، قال : هذا هو الدليل فرج . دليل يعرف القدس شبراً شبراً ، فهززت له رأسي محيياً ، وناولته يدي ، فأخذها وهزّها بترحاب بادٍ . وانطلقنا فوق العربة بعد أن ودعنا الرجل الناحل بائع القشدة والدبس ، الذي ناداه الدليل فرج بـ الدبور ، مشت العربة بنا في شارع ضيق تدلت

فوقه شرفات البيوت المملوءة بالنباتات والأزاهير وحبال الغسيل المثقلة بالملابس التي راحت تهتز وتتأرجح كيفما شاء الهواء الخفيف ، وقرب إحدى الشرفات رأيت صبية في حدود العاشرة من عمرها تلبس على رأسها طاقية بيضاء منتهية بكرات صغيرة زهرية اللون ، وبيدها ثلاث أو أربع وردات حمر ، رفعت لها يدي وحييتها ، وأنا أناديها مباركاً صباحها ، فابتسمت ، وراحت تنثر فوقنا وريقات ورداتها فتهادت فوقنا مثل دوائر النور وهي تناديني بأعلى صوتها : صباح الورد ، واستدارت بنا العربة ، فسأل الدليل فرج الحوذي جو : ماذا سنرى أولاً ، فقال الحوذي جو : الأسواق ، والتفت إليَّ سائلاً : الأسواق؟ فقلت : الأسواق . فهمهم الدليل فرج : اختيار ممتاز ، لأن بعض الأسواق ، وفي هذا الوقت ، تكون قليلة الازدحام ما عدا سوق الحسبة . وطلب من الحوذي جو أن ينحدر نحو اليسار ، فمال الدليل فرج نحوي وقال : أسواق القدس كثيرة جداً ، منها ما هو داخل السور ، أي في القدس القديمة ، ومنها ما هو خارج السور . . وكلها تقريباً مرصوفة بالحجارة السود رصفاً أنيقاً جميلاً ، صحيح أنها أسواق ضيقة بعض الشيء ، وغير مستقيمة ، ولكنها جميلة ، فهي لا تشبه الطرق في امتداداتها واستقاماتها ، وإنما تشبه الأنهار الغريرة التي ما إن ترى قريةً أو شجرةً أو أجمةَ قصب حتى تميل نحوها ، أسواق القدس مثل الأنهار لها إمالات كثيرة ، وغالبيتها مقبوة ، مسقوفة بالتوتياء ، ولها نوافذ صغيرة طويلة مفتوحة على الدوام كي يدخل منها الضوء والهواء . قلت للدليل فرج : أأنت شاعر؟ . قال ضاحكاً : لا ، لكني أحب القدس .

واستدار الحوذي جو بنا نحو منعطفات متتالية إلى أن قابلتنا ساحة تكاد لولا تزاحمُ البيوت والدكاكين حولها أن تكون وسيعة . مشى بالعربة إلى المكان الذي اصطفت فيه بعض العربات ، فجاء نفر من الشبان الواقفين في الساحة يتراكضون نحونا ، أعطى الحوذي جو رسن الحصان

لأحدهم ، وأوصاه به ، ثم هبط ، وناوله عليقة الحصان المنفوخة ، فناوله الشاب ورقة صغيرة كتب فيها اسمه ورقم هاتفه . وهبطنا ، أنا والدليل فرج الذي بادرني بالقول : سنبدأ من هنا ، من هذه السوق ، واسمها سوق الحصر ، ستريان فيها كل ما له علاقة بالحصر ، والبسط ، واللباد ؛ والفرش ، والسجاد ، والزلالي ، والمخدات ، والمساند ، وهذا ما يميز هذه السوق ، فمشينا نحوها ، وقبل أن ندخل إليها واجهنا البغالةُ ببغالهم وكلابهم ، فطلبوا أوراقنا وتصاريحنا فأخرجناها لهم ، وبعد انتظار ممل ، تفحصوها ، وأعادوها إلينا بتثاقل شديد ، ثم مضينا .

للوهلة الأولى ، بدت السوق ضيقة ، ودكاكينها صغيرة ، قليلة العمق ، وذات أقواس حجرية متشابهة لا يميز بعضها من بعضها الآخر سوى الأسماء ، وأنواع الخطوط ، والناس الذين يمتلكونها ، والبضائع البادية منها . ليس بين الدكان والدكان سوى مسافة متر أو أقل من متر ، وقد فرشت تلك المسفات بالبسط ، والحصر الملوّنة وغير الملونة ، والزلالي ، والسجاجيد ، فبدت الألوان البديعة كما لو أنها ماء يسيل على الحيطان . . وكلما مشينا وسط ترحاب أصحاب الدكاكين أحسسنا أننا فعلاً في معرض للرسوم ، فقد أخرج أهل السوق أحسن ما لديهم من صناعات وأشكال وحجوم وألوان . . فدلّوها في السقوف ، وعلّقوها في مقدمة الدكاكين . كان بعضهم يشربون الشاي ، وبعضهم الآخر يأكلون ما في أيديهم . . والعيون مشدودة إلى المارة ، والنداءات تحيط بالناس مثل الشباك لعل أحداً منهم يعلق بها .

رأيت التيجان الرخامية تعلو الأعمدة المحيطة بأبواب الدكاكين ، كما رأيت أنصاف الدوائر التي تحمل الأقواس الحجرية الحانية على الأبواب مثل الأكف . . ورأيت السجاجيد والزلالي الملوّنة نداهةً كالضوء ، ومغويةً كالنساء ، وما كان بمقدوري أن أنصرف عنها ، فواقفتها مرات ومرات لأجلو

جمالها ، وسحرَ ألوانها ، فالصور البادية للغدران ، والبحيرات ، والأشجار ، والطيور ، والنباتات ، والغيوم ، والولدان ، والصخور . . تكاد تغادر مكانها بين لحظة وأخرى ، والبيوت تكاد تفتح أبوابها ونوافذها ، والنساء على وشك النطق لولا الحياء .

ورأيت فوق الأرصفة ، الصبايا والنساء المتقدمات في العمر يجالسن السلال ، والأسفاط ، والجوانات ، والصناديق ، والقفف ، والقدور الصغيرة . . المملوءة بالبيض ، والجبن ، والقريش ، والسمن ، ورب البندورة ، والدبس ، وقرون الخروب ، ومربيات القرع والورد والنارنج والعنب ، والأعشاب اليابسة ، والجذور المجذوذة قطعاً . . كما رأيت بعض الباعة يقفون وراء عرباتهم الصغيرة وهم يبيعون الحمص المسلوق ، والشوندر ، والفول المدمس ، والفلافل ، واللفت المحزز ، والخيار المخلل ؛ ورأيت أيضاً بعض الرجال يحملون على أكتافهم المعاطف ، والكنزات ، والعباءات ، والمسابح ، والعقل ، والحطات ، والمناديل ، ويجوبون بها السوق وكأنهم دكاكين متنقلة ، وبمحاذاة الرصيف ، وفي مقدمة الدكاكين ، اصطفت عربات صغيرة ذات سطوح واسعة محتشدة بالخرداوات مثل الأقفال ، والسكاكين الصغيرة ، والمقصات ، والأمشاط ، والأساور ، والخواتم ، والخرز ، والمصابيح الصغيرة ، والدبابيس ، والجوارب ، والمناديل ، والمحارم الصغيرة ، والكفوف البلاستيكية والقطنية ، والنظارات ، والملاقط ، وأدوات الزينة كأقلام الحمرة ، والمكاحل ، والشرائط الحريرية ، والشرائط المطاطية ، ومعاجين التبييض ، وأقلام الكحلة . . وكذلك أرى الفراشي متعددة الأغراض . . تبدو السوق وكأنها مكانٌ للفرجة لا مكان بيع وشراء . .

ويقف الحوذي جو والدليل فرج منتظرين وصولي إليهما ، يسألني فرج : ها ، ماذا وجدت؟ . قلت : هذه قاعة سينما ، وليست سوقاً للحصر ، قال : سترى ما يدهشك في الأسواق الأخرى ، ويضيف : لقد أصبحنا في

آخر السوق ، انظر إليها نظرة أخيرة . . فأوافقه ، أطرد البصر إلى البعيد البعيد ، وأستعيده مثقلاً مثل عاشق يعود من مواعدة حارقة . وننحدر عبر درجات حجرية ، ست أو سبع درجات ، وصوت الدليل فرج يتعالى ؛ سوف ندخل إلى سوق النحاسين ، في مدخل السوق اقتحمنا ضوء وهّاج ، وضجيج عال ، وبدت السوق أمامنا أكثر ضيقاً ، وسقوفها التوتيائية أكثر انخفاضاً ، وقد سال منها الضوء كالزيت . . في البداية شعرت بأن الدق والطرق في علو متصاعد ، وأن الضجيج المتكاثر يفسد المكان . . لكنني ما إن مشيت قليلاً وسط ألواح النحاس الذهبية اللامعة المستندة إلى الحيطان قرب واجهات الدكاكين ، وبين الأباريق ، والدلال ، والكؤوس ، والصواني ، والكاسات ، والصحون ، والمباخر ، وحافظات الزيت والعطر والنشوق والكحل ، والقدور والطناجر ، والسيوف ، والخناجر ، والجرار الصغيرة والكبيرة ، ولوحات النقوش . . أقول ما إن مشيت أمتاراً حتى رحت أشعر بأن هذه السوق لا قيمة لها ولا أهمية من دون هذا الطرق والدق ، فالطرق والدق ليسا سوى موسيقى لهذا المكان ، أرى الصنّاع داخل الدكاكين وقد جلسوا مقابلةً ، كل اثنين منهم يقابلان سنداناً نحاسياً أو خشبياً ، ويتبادلان الطرق والإمساك بالقطعة المراد صناعتها . بدوا داخل الدكاكين وكأنهم يدٌ واحدة راحت تتلقف القطع النحاسية وتسويها طياً ولياً وشياً بالنار . . . يا للمهارة ، والحركة ، وسرعة الإنجاز . . ما من دكان وقفنا بها إلا وأخذنا هدية صغيرة منها ، وقد كانت الصلبان أكثر هداياهم . . هنا ، وبين الدكاكين تقف مجسمات نحاسية كبيرة ، بعضها على شكل جرار ، وبعضها الآخر على شكل أباريق ، وأخرى على شكل أطباق مملوءة بصور الحيوانات والنباتات ، وبعضها على شكل وجوه لنساء ورجال . . وبعضها على شكل قباب يعلوها الهلال مرة ، والصليب مرة أخرى ، وفي وسط السوق توجد بحرة واسعة من الرخام الملوّن ، وحولها استدارت الطاولات

النحاسية ، والكراسي النحاسية ، وشخصان مجسمان من النحاس وبينهما رقعة شطرنج بدت بيادقها على شكل جنود ، وأحصنة ، وأفيلة ، وقلاع ، وملوك ووزراء ، وقد أوشكت الحركة أن تلعب بهم جميعاً . . بدونا أمام المشهد وكأننا في متحف للشمع لا في سوق للنحاسين ، وراح الباعة الجوالون يمرون بنا ، ونداءاتهم تحاول جاهدة أن تعلو أصوات الدق والطرق للإبانة والإفصاح . .

هنا ، في سوق النحاسين ، وكيفما مشينا ، نرى الأواني النحاسية تحتشد حولنا وتضيّق علينا لكأننا في مقلع نحاسي ، أو كهف نحاسي في جيب جبلي . . والأضواء البراقة تخطف أبصارنا . . يأخذني الدليل فرج من يدي ، يماشيني ، فنتجه نحو باعة يبيعون الشاي ، والقهوة ، والحليب ، والسحلب ، والكمون . . فوق الأرصفة ، وقد أحاطت الكراسي القشية الواطئة ببعضهم ، في حين وقف بعضهم الآخر يبيعون الأشربة الساخنة من حافظات صغيرة شبيهة بالخزانات أردفوها خلف ظهورهم .

هنا نسمع طقطقة الكاسات ، والفناجين ، والكاسات الراقصة ، بين الأصابع الرشيقة . أحد هؤلاء الباعة سقانا شراب الكمون الساخن الممزوج بالليمون . قال لنا إنه يشفي من الزكام ، ونزلات البرد ، ويعقم الجهاز التنفسي ، بدا وهو يحدثنا عن فوائد الكمون وكأنه طبيب أعشاب محترف .

وخرجنا من السوق نحو انعطافة تواجهها حنفية ماء عالية مدلاة من برج نحاسي متطاول في الفضاء ، ضخامته لافتة للانتباه ، وقد تدلت منه سلاسل فضية طويلة لامعة منتهية بطاسات نحاسية شديدة اللمعان والبريق والنظافة ، قال لنا الدليل فرج : اشربا من هذا الماء إن كنتما راغبين بالعودة إلى هنا . فدنونا من الحنفية أكثر ، وقد كان حولها بعض الناس الذين راحوا يشربون بأناة وتروٍ ، فتقدمنا حين انتهوا ، وشربنا مثلهم بأناة

وتروٍ ، استدرنا ، فإذا بالبغالة ، والبغال ، والكلاب العالية السمينة في مواجهتنا تماماً ، وقد ربض كلب شرس كأنه حمار ، محاط خطمه بمحفظة حديدية ، فوق صدر شاب يرتدي قميصاً أحمر ، والهلع والخوف حشو نظراته الشائحة ، والبغالة حوله يمعنون في إخافته .

أحد البغالة المنفردين ، أشار إلينا أن نقترب منه فاقتربنا ، ودونما كلمة أو سؤال منه . . أخرجنا أوراقنا وتصاريحنا ، ودفعناها نحوه ، فنظر فيها وهزَّ رأسه ، ثم أعادها إلينا . في تلك اللحظة بالضبط ، اقتحمت امرأة قصيرة ملأى الحشد فدفعت الكلب الضخم بعيداً وقد فاجأته حركتها فانتفض إلى الوراء ، وانتشلت الشاب ، وأسندته ، فهب واقفاً مثل جدار وسط ضجيج وصياح وزعيق وكلام وهمهمات وتدافع ، عندئذٍ انهالت هروات البغالة ضرباً على المرأة والشاب والناس الذين شكلوا حولهما حلقة ، وما كان بمقدوري أن أرى مواضع سقوط الهروات الضاربة ، لكنني ظللت أراها ترتفع وتهوي في عنف شديد ، وأصوات البغالة الصارخة وأصوات الرصاص تصم الآذان ، لم أعرف لأي سبب كانوا يصرخون ويطلقون النار ، ما عرفته هو أن المشهد ازداد التحاماً ، الناس من طرف ، والبغالة والبغال والكلاب من طرف آخر ، ودونما تنبيه تعالت أصوات الرصاص أكثر ، وانتشرت الأدخنة المسيّلة للدموع ، واشتد التدافع ، وتعالت النداءات ، وحين انجلى المشهد رأيت البغالة والبغال والكلاب يوقفون جمهرة من الناس في انعطافة السوق ، والمرأة والشاب يجلسان ظهراً لظهر وقد قيدت أيديهما ، والشاب صامت وثيابه ممزقة ، والمرأة ذات الشعر المنفوش تلعن وتشتم . ولم نمشِ ، بل وقفنا بمحاذاة الرصيف لأن البغالة استبقوا الدليل فرج لديهم ، وراحوا يسألونه ، وبعد انتظار ممض كريه ، رأيناهم ينهالون عليه بالضرب الشديد ، ويرمونه أرضاً ويدوسونه بأحذيتهم الثقيلة ، فما كان منا إلا أن تقدمنا نحوهم وسألناهم عن سبب ضربه على هذا النحو العدواني

جـداً ، فلم يجبنا أحـدٌ منهم ، كنا نسـأل ونتكلم وهم لا يجـيـبـون ولا يتكلمون لكأنهم غدوا كائنات لا ألسن لها . . ولا أدري ، بعد طول وقت ، كـيـف مددت يدي إلى الدليل فرج وانتـشلته من قـعـدته ، وأنهـضـتـه ، ولم يحرك البغالة ساكناً ، ثم مضيت به ، وقد اصطبغ وجهه بالدم حتى بلل ثيـابه ، وحين قـوي على الكلام ، قـال لنا إنهم يلومـونه لأنه ينفـر الزوار والسواح وأنهم يعتقدون بأنه يزودهم بأخبار كاذبة تسيء للبلاد . فيهمهم الحوذي جو : هم الذين ينفرون الزوار والسواح بأفعالهم الشائنة . وقرب حنفية الماء توقفنا ، فغسل الدليل فرج وجهه ويديه ، ومسح بقع الدم عن ثيـابه ، بدا وجهـه مزرقـاً ، كمـا بدت شفـتـاه نازفتين ، وآثار الورم بادية في جبينه . قلت للدليل فرج : أرجوك ، لقد عذبناك ، نحن كنا السبب فيما جرى لك ، وعلينا أن نذهب بك إلى المشفى مخافة أن تكون قد أصبت بكسور ، أو أن نذهب بك إلى البيت كي تستريح ، فقال باسمـاً : لا ؛ أنا بخير ، وسأكمل الجولة معكما . قلت : أرجوك . فقـال : أرجوك . ونظرتُ إلى الحـوذي جـو . فـقـال له : نحن نريد سـلامـتك . سندفع لك أجـرتك كـاملة ، وعليك أن تذهب فـعـلاً لأنك تأذيت . فـرفض . . لكننا أصـررنا عليه ، فاستجاب لرغبتنا والحسرة تملأ نفسه ، قال : كنت أتمنى أن أريكما سوق العطارين ، وسوق اليهود ، وسوق النصارى أيضاً . فقلنا له : موعدنا غـداً ، إن تحـسنت صـحـتك سنأخـذ رقم هاتفك الآن ، لكي نلتـقي في الصباح . .

ما رأيك؟ قال : اتفقنا . ومضينا معاً نحو الساحة التي أوقف فيـهـا الحوذي جو عربتـه وحصـانه ، وهناك نقدت الدليل فرج أجرته كـاملة ، واعـتـذرت منه طويلاً ، وتمنيت له أن يكون في عافـيـة تامة نهـار الغـد ، ثم نقـدت الشـاب الذي أبقى العـربة والحـصـان لديه . . ثم انطلقنا . سـألني الحوذي جو : إلى البيت؟

فقلت : إلى البيت! قال : ما رأيك أن نتناول طعام الغداء في أحد المطاعم وندعو سيلفا . . شريطة أن تقبلا دعوتي . قلت : أما الطعام فاختر لنا مطعماً لنأكل فيه شريطة ألا يكون كنيسة أو مسجداً ، وأما سيلفا ، فدعها إلى وقت آخر لأنني أريد أن أحدثك عنها . . فهزّ الحوذي جو رأسه بالموافقة وأطرقنا صامتين . . بينما المطر يهمي فوقنا رذاذاً أبيض مثل نتف الثلج الصغيرة . .» .

ملحوظة :

أعرف أنني أثقلت عليك بأخباري ومشاهداتي فاعذرني ، ولكم كان بودي أن أقص عليك ما حدث في المطعم الذي أخذني إليه الحوذي جو ، وما الذي قاله لي عن سيلفا . . في المرة القادمة سأحدثك . إلى ذلك الوقت ، أرجوك ، قابلني بالكتابة إليَّ .

في مطعم الخمريات

«أعجيب ما يحدث ،

عجيب ما يقال . . صدقني أنني في حيرة المغلوب على أمره ، فأنا لا أدري ماذا أكتب إليك ، أهي الحقيقة أم الخيال . . فأنا لا أصدق بأن ما سمعته قد حدث ، وأن ما رأيته أمام عيني قد حدث بالفعل أيضاً .

هنا ، وفي هذه البلاد ، وفي هذه الظروف . . ترى الواقعي والعجائبي والسوريالي والملائكي والشيطاني كائنات من لحم ودم تمشي معك في الشارع ، وتجالسك في المقاهي والمطاعم ، وهنا أيضاً . . ترى الظلم ، والأذى ، والخوف ، والدم ، والقتل ، والآهات ، والصرخات ، والاستغاثات ، وقلة الحيلة ، والصبر ، . . كائنات تجول في المكان مثلما يجول الهواء في الفضاء الرحب . .

صدقني أنني في حالة مرضية لا أستطيع تشخيصها أو تفسير أسبابها ، أنا في حالة ذهول وعدم توازن ، فكل ما يحيط بي يتشظى إلى ثنائيات متضادة ، متناحرة ، وأنت لا تدري فجأة في أي من هذه الثنائيات تقبع ، وفي أي مدار من مداراتها تدور . . عليك في لحظة واحدة ، وفي انتباهة قصوى أن تعي مكانك ، وأن تعرف ما الذي عليك أن تفعله ، وإلا أخذتك الثنائيات مثل موجة بحر عارمة . .

أعرف أنك لم تدر بعد ما الذي سأقوله لك ، ولماذا ألبد سمائي وسماءك بالغيوم قبل أن أقصّ عليك ما سمعت وما رأيت . . أعرف ذلك

ولكن سامحني ، فأنا من دون هذه العتبة المؤلمة والقاسية ، ومن دون هذا التفجع والصراخ غير قادر على أن أقول لك شيئاً . . ذلك لأنني وقد عدت مهدوداً مما رأيته في سوقي الحصر والنحاسين . . طلبت من صديقي الحوذي جو أن نذهب إلى البيت ، فما كان في بالي ساعتئذٍ سوى أن آخذ حماماً دافئاً وآوي إلى الفراش لعلي أنام فأنسى ما رأيت ، لكن الحوذي جو اقترح عليَّ أن نتريث قليلاً ، أن نجلس في مطعم ونتناول طعام الغداء . . فوافقته رافضاً اقتراحه بأن يدعو سيلفا التي بتُّ أتلمسها جرحاً نازاً بالدماء والصديد ، ورجوته ألا يكون المطعم كنيسة أو مسجداً ، فوافقني . .

دخلنا إلى مطعم اسمه (الخمريات) يقع في حي الباشورة ، وبالقرب من مقهى الباشورة المواجه تماماً لباب العمود ، مطعم بلوري صغير ، فيه طاولات صغيرة ذات لون خمري ، وتحيط بها الكراسي الخمرية اللون أيضاً ، حيطان المطعم خمرية زاهية ، وشجيرات المطعم البلاستيكية خمرية أيضاً ، بل يكاد اللون الخمري يلفُّ كل شيء هنا ، حتى ثياب الخدم خمرية ، والصحون ، والملاعق ، والكاسات ، والأباريق ، والأغطية ، والأرفف ، والمزهريات ، والأزهار ، والسجاجيد . . كلها خمرية اللون . .

قلت للحوذي جو : لماذا اخترت هذا المكان؟ فقال : مصادفة ، لعل ما ستحدثني به عن سيلفا هو من قادنا إلى هنا . قلت : سيلفا . قال : سيلفا . قلت : لنأكل أولاً . . اطلب لنا شوربه ساخنة . فرفع الحوذي جو يده وأومأ للنادل الذي وقف في مواجهتنا قرب الحائط ، فجاء مسرعاً ، طلب منه الشوربة ، والطعام كاملاً ، واعتذر عن الشراب . نظرتُ إليه ، فرأيته ينظر إليَّ ، وقد انصرف الخادم . قلت : والشراب . قال : الشراب يحتاج إلى مزاج . والمزاج الآن في إجازة . دع الشراب للمساء . فهززت رأسي له . قال وهو يتحرك في كرسيه الخمري الصغير مثل طائر يوشك على الطيران : ها . . ماذا ستقول لي عن سيلفا . قلت دونما استمهال : عجيبة هذه

المخلوقة . لقد ظننتها أنثى بحق وحقيق . وأنها مظلومة ومضطهدة ، وأن ظروفها القاسية قادتها إلى العالم السفلي ، عالم السجون ، وأنها بسببها تعيش في أزمة نفسية ، فهي حين تأتي إليَّ أحس بشرودها ، وغيابها ، وصمتها الطويل ، وانغلاقها على نفسها مثل محارة ، ثم ودونما تمهيد أراها في منتهى الحيوية والنشاط ، تضحك ، وتتحرك ، وتناقش ، وتسأل ، وتمزح . . ثم ودونما تمهيد أيضاً تغرق في بكاء طويل ، وارتعاش يشبه ارتعاش القطط التي أمضت ليلها الشتوي تحت المطر . . فأحار بها . . ولا أعيد أسباب هذا التداخل أو الانتقال من حال إلى حال . . إلا للسجن ، لذلك العالم الغبي الذي لا هواء فيه ، ولا حياة . . آخذها إليّ ، وأرجّها على صدري ، وأرجوها أن تخرج من عالمها الآخر ، أن تنسى قسوة الحياة هناك . . وأن تعيش الحياة معي . . فتهدأ قليلاً ، ثم تصفو رويداً رويداً . . ثم تمضي ، كنت مقتنعاً بأنني أشبه وعاءً بلاستيكياً في حضرة سيلفا ، أي عليَّ أن أستوعب كل مقذوفاتها القذرة التي حملتها من السجن ، كان عليَّ أن أعيدها إلى الحياة ، أو أن أزودها بما يعينها على التوازن داخل عالمها السفلي . .

كان الحوذي جو ينظر إليَّ بإمعان ، ويستمع باستغراق شديد . . وحين توقفت . . قال وببساطة متناهية : كل هذا أعرفه . وأنت تعرف أنني أعرفه ، فما الجديد . . الآن؟!

لحظتئذ ، جاءت الشوربة ، وجاء الطعام في احتفالية بادية ، فقد تقدمت نحونا فتاة جميلة جداً ، شدت شعرها إلى أعلى رأسها ثم تركته ينسدل فوق كتفيها فبدا كأنه ذيل حصان . . كانت باسمة ، ورشيقة ، وذات جسد يشع منه النور ، وخلفها ثلاثة من الخدم بثيابهم الخمرية . . راحوا يرتبون الطعام فوق الطاولة ، أما الفتاة فقد راحت تربط لنا المناديل الطويلة حول أعناقنا ، وتفرش أخرى فوق ركبنا وهي تلامسنا بلمسات هي

أشبه بالدغدغة ، لقد رأيتها تمسح على لحية الحوذي جو الشقراء ، وتخلخل شعرها الكثيف بأصابعها الوردية . . وهي تتمتم . . يا لهذا الحقل الأقحواني . . بدت الفتاة مؤنسة ، وأنظار الذين في المطعم تحيط بها ، ذلك لأنها لم تكن ترتدي شيئاً سوى لباس البحر . .

همهم وحين مضت وراء عربتها الخمرية اللون أيضاً ، وخلفها الخدم الثلاثة . . همهم الحوذي جو : عليك بالشوربة قبل أن تبرد ، وعليك أن تقول لي ما الجديد في أمر سيلفا .

ورويداً رويداً أخبرت الحوذي جو بما قاله لي الفلسطيني عارف الياسين ، وما فعلته سيلفا به ، وكيف أنها عجنت أصابع كفه وجعلتها امتداداً لساعده ، وأنه عرف من الألم الذي سيلته سيلفا ما لم يعرفه داخل السجن . . وسألت الحوذي جو : هل هذا معقول؟! وهل سيلفا تفعل ذلك فعلاً؟! وكيف لها أن تطوي رقتها ، ولطفها ، وتغيّب جمالها داخل السجن؟! قال وقد أتى على صحن الشوربة ، وراح يمسح فمه بمنديل خمري اللون : الحديث عن سيلفا طويل . وما أعرفه عنها لا أريدك أن تعرفه . ما أريده هو أن تقبل بها صديقة لبضعة أيام ، أنت معني بها الآن ، بصورتها الراهنة ، بلطفها تجاهك ، بمحبتها لك ، وغير معني بتاريخها ، وعملها . . قلت : كيف؟ قال : أقول لك ، لقد تعرفت في دبلن على فتاة فاتنة ، طولاً ، وجمالاً ، وصدراً ندياً هزّازاً ، وروحاً طوّافة أشبه بالأثير . . التقيتها في محل لبيع الخردوات ، كنت أود أن أشتري قفلاً ، وكانت هي تود شراء قفل أيضاً ، فالتقينا اجتماعاً أمام لوحة تُعرّف بأنواع الأقفال . قلت لها من باب المجاملة : أتريدين قفلاً . قالت : نعم ، قلت لها : هل أصلح لذلك . فضحكت . . وهي تضع كفها على كتفي بمودة عجلة ، أو قل مودة استباقية . قلت مكرراً : ها . . فقالت : يا ريت! قلت : لو تتلطفين وتقبلين دعوتي لتناول بعض السندويشات والكولا . فقالت : أشكرك على

لطفك . قلت : هل هذا قبول أو اعتذار ، فقالت بجرأة بادية : قبول بالطبع . ولم نغادر المحل إلا وقد اشترينا قفلين صغيرين واحداً لي وآخر لها ، وحرصنا على أن يكونا متماثلين ومتشابهين تماماً ، وسألتها إن كانت تعرف محلاً تثق به لبيع السندويشات ، فهزت رأسها بأنها تعرف ، وقادتني إلى محل صغير في شارع فرعي يكاد يكون عشاً لبساطته ، ودفئه ، وهدوئه . . قلت : أي مكان هذا ، لكأنه غابة . قالت : هنا أطيب سندويش في المدينة . وجلسنا أحدنا بمحاذاة الآخر ، وقد كانت طبيعة الطاولات تقتضي أن يجلس الاثنان اجتماعاً إلى بعضهما بعضاً ، فقد كانت فخذها اليسرى ملاصقة لفخذي اليمنى ، فرأيت جمالها وسحرها . . وكأن ما رأيته كان أشبه بالعلامة التي تشير إلى جمال الداخل وسحره .. وبعد أن أكلنا السندويشات وشربنا الكولا . . خرجنا ، قلت لها معابثاً : إلى أين؟ قالت : إلى العمل ، وسألتني : وأنت إلى أين؟ قلت : إلى المنزل . . ولم نفترق إلا عندما تبادلنا أرقام هاتفينا ، وعرف كل منا مكان بيت الآخر . . لن أحدثك الكثير عن جوليت ، فقد عشت وإياها قصة حب أكاد وحين أفكر بأيام سعادتي . . لا أجد سواها . . ما أود أن أحدثك عنه هو أمر بسيط جداً ، ولكنه هام جداً ، وهو أن رائحة جوليت هي التي أدهشتني ، فهي رائحة مزيج من البخور ، والقرفة ، والقرنفل ، والمسك ، والنعناع . . رائحة مدوخة تكاد تشد عليك باليدين . . دائماً وكلما قابلتها لا أحس ، ولا أشعر ، ولا أشم سوى رائحتها الجميلة الساحرة ، وحين تغادرني لا يبقى من أثر يدلل على وجودها الأبدي قربي سوى رائحتها ، يا لرائحتها ، إنها تشبه رائحة معمل للعطور ، بل هي معمل للعطور بحق . . ولكم تمنيت أن تمتد علاقتي بها ، ولكم تمنيت أن تصبح زوجتي ، فقد رأيت من لطفها ما جعل حياتي أشبه بثوب شفيف ، ولم تكن قُبلها وأشواقها سوى التطريزات البديعة عليه . . لم تمتد علاقتي بها ، ولم أتزوج بها . . لأنها

ماتت . . في ظروف غامضة ، ليلاً وبينما هي في عملها . . طعنت بسكين طعنات مميتة . . وقد كان لي أن رأيتها في المشفى . . مرمدةً بعدما كانت جمرة ، فقد اصطبغ وجهها بالأزرق الغامق ، وشوه صدرها . . كل شيء فيها تغيّر سوى رائحتها . . فلقد كانت غرفتها في المشفى مملوءة برائحتها العجيبة . . لكأن روائح الأدوية غير موجودة ، أو لكأنها استظلت برائحة جوليت المنتشرة في كل مكان . . وصمت الحوذي جو كي يزدرد ريقه ، ثم قال : أتدري لماذا أحدثك عن جوليت . قلت : لا . قال لكي تعي أهمية رائحتها . قلت : عرفت هذا . قال : لكن ما لا تعرفه هو مهنة جوليت . قلت : وما هي؟ قال : زبالة . قلت : زبالة؟ قال : زبالة . قلت : ما الذي أردت أن تقوله لي؟ قال : سيلفا سجّانة ، تعيش في عالم العذاب ، والقهر ، والإذلال ، والسطوة ، واللا إنسانية ، صحيح؟ قلت : صحيح . قال : لذلك هي تود أن تعيش معك أصفى اللحظات ، وأكثرها قرباً للإنسانية لكي تتوازن ، لكي تحب الحياة . . إنها تقابلك بِما لا تقابل به أحداً في عملها . . تماماً مثلما كانت جوليت تقابلني بما لا تقابل به أحداً في عملها . . إنهما معاً ، تعملان ضد ما رتبته الحياة لهما . . وأضاف بحماسة بادية : أتعرف ، جوليت كانت تصارحني ، بأنها لولا الوقت الذي كانت تقضيه معي لكانت حياتها خراباً . . تفاهة ليس إلا . كنت أشعر بأنها وحين تأتيني أن ما من شيء يقودها إليَّ سوى عطشها العاطفي . . كنت نبعتها التي تأتيها لترتوي ، ولعل سيلفا قالت لك ما يشبه هذا الكلام ، أو لعلك أحسست بذلك .

قلت : أشعر بأنني أشارك سيلفا بتناقضها ، فأنا ما عدت أدري أين هي نفسي ؛ هل هي مع سيلفا الرضية ، الناعمة ، المُحبة ، الودود ، أو مع سيلفا السَّجانة التي عجنت أصابع الفلسطيني عارف الياسين . . فقال بأسى : أنت لا تذكر سوى حادثة . قلت : وهل تعرف غيرها؟ قال ببرود :

أعرف الكثير . قلت : ولا تخبرني يا جو . . قال : هذه الحادثة تكفي ، لأن الحوادث الأخرى تشبهها ، مثلها أو تكاد . قلت : حدثني ، أرجوك . فقال : عليك أن تعلم أولاً أن السجان سجان ، وأن السجن سجن . وأن إدارة السجن أشبه بمعمل للتعذيب كل فرد فيها له دوره ، أي عليه واجبات لا بدَّ له من أن ينفذها . وسيلفا فرد من الأفراد الذين يعملون في السجون . . ولها أدوارها ، فإن كان هؤلاء قساة ، فهي لا تقل عنهم قسوة . . لأنها نسيت أنها امرأة ، فما عادت تعرف معنى الأنوثة ، صدقني أنها تتصرف معك أنثوياً بفعل قانون الطبيعة الأنثوية ، فهي بحاجة إلى كلمة لطيفة ، ولمسة لطيفة لأن طبيعتها الأنثوية تجبرها على ذلك ، لقد أخبرتني أنها تمنح جسدها لأي كان في السجن بعدما شعرت أن حياتها انتهت وأنه كتب عليها أن تعيش في عالمها العنكبوتي ، وازدادت حالتها المرضية سوءاً عندما هجرها أحد ضباط الجيش الذين كانوا يدربونها في بداية حياتها العسكرية ، أعطته كل شيء ، وأحبته كرجل وحيد في هذه الدنيا ، لكنه لم يصدقها ، لأن جميع رفيقاتها في المعسكر كن يعاشرنه ، فعدها واحدة من تلك الجموع ، طار عقلها عندما راقبته ليلاً ، فرأت رفيقاتها يمضين إليه في ذهاب وإياب مفضوحين ، وعندما أخبرته بأنها تعرف بأن رفيقاتها يترددن عليه ، قال لها : وأين هي الغرابة ، فأنت تترددين عليَّ أيضاً . حاولت أن تميز نفسها منهن ، فاتهمها بالنرجسية ، والمرض النفسي . . ونكاية به راحت تسلم جسدها للجنود وعلى علم منه . . أخبرتني مرة أنها أحبت سجيناً فلسطينياً داخل السجن ، وأنها استأذنت إدارة السجن في إغوائه لأنه كان عنيداً لا يريد الاعتراف بشيء . شاب أسمر ، طويل ، عريض ، له وجه جذّاب . هي الوحيدة التي كانت قادرة على أن تجعله يبتسم . قالت لي : حين كان يبتسم تشعر بأن نافذة وسيعة فتحت داخل السجن ، ودلفت منها طيور ، وأمطار ، وبساتين ، لحظتئذٍ ، لا تقوى على

ضبط نفسها فتزحف نحوه، تلمسه، وتتمسح به مثل قطة عذّبتها ليالي الشتاء الطوال. وحين أخذت إذن إدارتها على إغوائه، راحت تنام معه في غرفة التحقيق، ورفاقها في السجن يشاهدون عبر الكاميرات ما يحدث وكأنهم يشاهدون فيلماً تلفزيونياً، وأخبرتني وهي تبكي، أنها أحبت ذلك الشاب، لا بل أحبت السجن من أجله، أحبت قذارة غرفة التحقيق، عشقت رائحته، عشقت أرضيتها الخشبية المفروشة بالتبن، قالت إن التبن أهم فرشة وأغلى فرشة عرفتها في حياتها، ففي التبن راحة، ومتعة، ومسرة، ولكم بكت وبكت حين كانت تنظر إلى التبن، بحنين، وقد ذهب عشيقها السجين إلى حتفه. قلت: مات؟! قال: مات. قلت: كيف؟ قال: اتهموه بأنه اغتصب الباحثة الاجتماعية، وأيّدت هي أقوالهم. لكن غيابه أحدث لها لوثة نفسية. فقد كانت هي من تشجعه على عدم الاعتراف بشيء ظناً منها أن عدم اعترافه هو السبيل في ديمومة علاقتها به. ويبدو أنها أحبته بالفعل، فقد نقلوه إلى سجون عدة، وكانت هي تلاحقه وتتابع أخباره، إلى أن زارته في إحدى المرات، واختلت به، وبينما هما في عناق وأشواق.. قتلوه، فجن جنونها، وبكته طويلاً. فقد أعجبت به، أعجبت بشجاعته، وصبره، وقناعته بأن ما من أحد يستطيع استنطاقه بما لا يريد. قالت لي إنها كانت تشعر بالغيبوبة حين تلتقيه، فتنسى نفسها، ومكانها، وزمانها، وتنسى الكلام.. وكانت صادقة. قلت: كيف؟ قال: حدثني عنها أحد معارفي هنا.. قال: إنها استثناء بين النساء. قلت دون أن أعي: بالفعل هي كذلك! قال وكأنه كان ينتظر إجابتي: هاأنتذا تؤكد أيضاً. قلت: وأنت يا جو.. ألا تؤكد. فقال بحياء: طبعاً أؤكد. وأضاف، أي امرأة في العالم تود أن تعرفها دعك من التفاصيل، دعك مما يجرح شعورها، دعك مما يخيفها.. عندئذ تصير مثل غمامة بين يديك، والمرأة إن أحبت لا تطلب سوى الحب، وقولة أنا لكِ

للأبد . قلت : ما الذي أعجبك بـ سيلفا يا جو؟ قال : عذوبتها ، أشواقها ، لهفتها الدائمة ، استسلامها مثل ساقية لروح عطشى تطلبها . قلت : وما الذي لم يعجبك فيها؟ قال : كثير ، وكثير جداً . . فأنت حين تعرف بأنها تجرد السجينات الفلسطينيات داخل غرفة التحقيق ، ربي كما خلقتني ، من أجل أن يتمتع رفاقها بمشاهدة أجسادهن ، وأنها تكوي الأعضاء النبيلة بملاقط الحديد . . فما من سجينة داخل السجن الذي تمل فيه سيلفا ، إلا وقد كويت بنارها ، لقد شوّهت صدور السجينات ، وأفخاذهن ، ومؤخراتهن . . ولكم حزنتُ وهي تحدثني عن رائحة الكي المنعشة الصادرة عن أجساد السجينات الفلسطينيات ، تقول إنها رائحة تشبه رائحة شواء طيور الفري على النار الهادئة . . كانت ترى دهن أجساد السجينات يتقاطر نقاطاً ويبدو نزاً . . وقد علا صراخهن حتى ليكاد ينفذ من الحيطان . . فتبتسم على الرغم من ألمهن الشديد ، وبشاعة المنظر . رفاقها كانوا يستمتعون أيضاً ، فمع كل لسعة ملقط حديدي محمّى على النار . . كانت أجساد السجينات تتقافز في مكانها كأنها جنادب مربوطة . . وفي كل قفزة تستنفر أعضاء الجسد فتتخلى عن ستارة الحياء . . . هذا ناهيك عن قيامها بافتضاض بكارات الفتيات الصغيرات داخل السجن بوساطة زجاجات طويلة العنق مثبتة على الأرضية الخشبية ، تجلس الفتاة في قفص حديدي يجمع جسدها على هيئة الجلوس قرفصة ، ثم تشد يديها إلى حبلين مثبتين إلى الجدار ، وتدخل قدميها في حذاء حديدي مثبت إلى الأرض الخشبية ، فتصير الفتاة تعلو وتهبط فوق عنق الزجاجة رغماً عنها وبحركة آلية يقوم بها القفص الحديدي . . فلا تترك الفتاة لأنها تصرخ أو لأن الدم غسل فخذيها والأرضية الخشبية ، لا ، وإنما لأنها غابت عن الوعي ، أو لأن عنق الزجاجة وجد فتحة أخرى داخل جسدها راح يدخل إليها ويخرج منها ناضحاً الدم مثل رأس حديدي راح يحفر بئراً

فينضح ماءها وترابها . . كلما دخل إليها وكلما خرج منها . .

أما تعليق السجينات من أثدائهن ، والعذاب ، والألم ، والمشهدية المأساوية ، والرعب ، والشلل الجسدي ، وحالات الجنون التي يصبن بها . . فالأمر كله موكل لـ سيلفا . . قلت ، وقد عجزت عن الاستماع : يا رجل . قال : ما أقوله لك هو جزء من الحقيقة . قلت : وأين رقتها ، وعذوبتها . . قال : هي في السجن مخلوق آخر ، قطعة عذاب من جملة قطع العذاب الكثيرة . . إنها جزء من الآلة الجهنمية هناك . .

قلت : أي سيلفا هذه ، وأي بلاد هذه ، وأي أمكنة مخيفة تلك . قال : لقد حكت لأحد أصدقائي بأنها لا تنسى مشاهد اغتصاب السجينات من قبل لاعبي رفع الأثقال الإسرائيليين الذين يدخلون عليهن وهن عاريات . . كالوحوش ، فلا يتركون أي واحدة منهن إلا وقد اصطبغ جسدها بالدم والزرقة الغامقة . قلت ، وأنا أهزُّ رأسي : لا أصدق هذا يا جو . هذا مستحيل . قال : لعلك تظن بأنني راغب بـ سيلفا أو أنني أشوه صورتها لغاية في نفسي . . إطلاقاً . أنا أقول لك الحقيقة . . ومع ذلك فأنا لا أدعوك إلى أن تهجرها ، فأنت هنا لأيام ، وهي مؤنس لا أكثر ، هي طاردة للوحشة ، فالحياة من دون امرأة مقبرة ، ومن لم يعرف لذائذ المرأة لم يعرف لذائذ الدنيا . الدنيا روح ، والمرأة هواؤها ، والدنيا غابة والمرأة سرها ، والدنيا حرور والمرأة نداها .

وأخذت رأسي بين يديَّ ، وظللت على صمتي ، فأنا لا أصدق أن سيلفا الجميلة جداً ، والعذبة جداً ، والصافية جداً . . تفعل مثل هذه الأفاعيل . . أحسست والكلام يدور في رأسي مثل مروحة . . أنه لا بدَّ من مغادرة المكان ، والانفصال عن الحوذي جو . . كي أفكر بهدوء . . بهدوء شديد . . لذلك نهضت ، ونهض جو ، وهو يهمهم معتذراً لأنه أصاب روحي بالأسى والألم ، لكنه ، وقد أحبني ، استجاب لرغبتي ،

وانقاد إلي فحدثني عن سيلفا . . قلت : وأنا أماشيه في الممر الضيق بين الطاولات ، وقد هبت الخادمة الشقراء الطويلة ، التي يكاد جسدها يضيء ، والتي لا ترتدي سوى ثياب البحر . . لملاقاتنا . . قلت : جو . . وهل هذه مثل سيلفا . . قال : النساء يتشابهن مثل حبات الرمل . . أخذتُ فاتورة طعامنا من المرأة الشقراء وناولتها النقود ، فناولتني وردة ، وقطعتي شوكولاه . . وخرجنا . . ورأسي أشبه بالطبل ، وحين مضت بنا العربة غرقت في صمتي ، في حين غرق الحوذي جو في غناء يتحدث عن الكروم ، وعصر العنب ، والفتيات الجميلات اللواتي يهرسن العنب مساً بأقدامهن الصغيرة في الأحواض الخشبية» .

ملحوظة :

سامحني ، حاولت أن أمنع نفسي من أن أخبرك بهذا ، لكن هذا الكلام كان أشبه بالسم الذي راح يفتك بي ، وكان لا بدّ لي من أن أخرجه . . . كي لا يقتلني . . فاعذرني ، واكتب إليَّ ناصحاً . . أرجوك .

في مخيم شعفاط

«يا إلهي ،

عن أي وأي وأي . . مما رأيتُ وسمعت أكتب إليك . فها أنذا وورقي أستعين به كي أستعيد ما ملأ روحي ، وما أوقد أحزاني قبل قليل . . لكي أكتبه إليك . فقد عدت قبل ساعات من مخيم شعفاط القريب من القدس . سألت الحوذي جو أمس ، عن إمكانية زيارة هذا المخيم ، فقال : ممكنة . قلت : وما الذي سنراه هناك . قال : الكثير ، قلت : لماذا؟! قال : لا تستعجل الأمور . قلت : وهل نحن بحاجة إلى دليل . فقال : لدي صديق فلسطيني ، يكاد يصل إلى حد الجنون للطافته ، وصدقه ، وصراحته ، وهو شاعر يكاد الشعر يكون محور حياته . سأقترح عليه مرافقتنا ، إن وافق ستكون الرحلة في منتهى المتعة . قلت : الأمر متروك لك ، ولكن عليك أن تخبرني متى سنذهب ، فقال سأتصل بصديقي هذا واسمه ماجد أبو غوش ، وأترك له حرية اختيار اليوم المناسب . فعلاً ، أمس ، وفي المساء هاتفني الحوذي جو ، قال : صديقنا الشاعر يقترح علينا أن نذهب غداً ، يعني اليوم ، فما رأيك؟!

قلت : ما رأيك أنت؟ قال : أنا موافق . فقلت : وأنا موافق أيضاً ، قال : جهز نفسك صباحاً ، سأمر بك . قلت : ستأتي مبكراً . قال : مبكراً . قلت : سأكون بانتظارك . لذلك قمت بإعداد القهوة ، والسندويشات ، في المساء ، وقبل أن أنام .

لقد خطرت ببالي زيارة هذا المخيم عندما استعدت ما حدثني به عارف الياسين عن المخيمات الفلسطينية ، أذكر أنه قال لي : إذا لم تزر المخيمات الفلسطينية هنا . . كأنك لم تزر القدس ، وإن لم تتعرف إلى أهل المخيمات كأنك لم تتعرف إلى الفلسطينيين ، أذكر أنه حدثني عن مقابر الفلسطينيين أيضاً فهي ببالي ولا بدَّ من زيارتها أيضاً لأعرف ما قصده ، وما عناه عارف الياسين حين أوصاني بزيارة هذين المكانين . .

في الليلة الماضية ، مرت بي سيلفا ، جاءتني بصحبة العجوز أم أهارون ، ومعها كمية كبيرة من الطعام وزجاجة نبيذ . . حين صعدتا الدرجات الخشبية تصاعدت رائحة شواء اللحم . . من الأكياس الورقية التي تحملانها . . كانت بثيابها العسكرية ، فغص قلبي واغتمَّ ، لأن سيلفا بهذا اللباس ليست هي سيلفا التي أعرفها .

لم ألحظ أي جمال فيها ، لم أر حيوتها ، ولا صفاء وجهها القمحي ، ولم أقف عند شعرها المكوّر مثل قفة . . حتى صدرها لم ألحظه ، أما حذاؤها العسكري فهو غريب وموحش لا يناسبها إطلاقاً ، كل ما هو أنثوي فيها توارى ، وتخفى ، لكأن الثياب العسكرية ممحاة خشنة مسَّت كل ما هو لطيف وأنثوي . . فغيّرتها ، ها هي ذي أمامي كائن لا معنى له ولا بهجة . . كائن ليس بالذكر ولا بالأنثى ، كائن يلفه النفور . . حتى الابتسامة الوسيعة تبدو وكأنها مرسومة ، لا رقة فيها ولا طراوة إنها . . يباس أو تكاد . . والصوت ليس صوت سيلفا . . صوت فيه خشونة ، وضجة ، ونبرة قاسية ، وحشرجة تشبه حشرجة المدخنين .

وضعتْ أكياس الطعام على الطاولة الصغيرة ، ورمتْ حقيبة يدها الوسيعة جانباً ، لأول مرة أدقق في الحقيبة ، إنها من الكتان القاسي ، لعل لونها الكاكي يناسب لون ثيابها العسكرية ، حقيبة كبيرة ذات جيوب منفوخة ، ربما كانت هي الحقيبة التي أخرجت منها ليلة الأمس ثيابها

العسكرية هذه وارتدتها أمامي ، بل لربما كان في هذه الحقيبة أيضاً ثيابها التي اعتدت رؤيتها ، أعني قمصانها وفساتينها .

لا أخفي عنك ، أيها الصديق العزيز ، بأن المفاجأة كانت سارة ، وذلك لأنني ظننت أن سيلفا ودعتني ومضت إلى غير رجعة ، أو أنني ودعتها ليلة البارحة ، دون أن أدري ، لكن ها هي ذي تعود ، ومعها طعام . قالت لي : أنا جوعانة جداً ، وأحببت أن تقاسمني هذا الطعام اللذيذ . اشتريته من السوق ، من عند أشهر بائع دجاج في القدس . قلت : أتعبت نفسك . قالت : أبداً . وهمهمت العجوز أم أهارون : عليك أن تكتب في يومياتك وتعي معاني رقة بنات إسرائيل ، وأن تدرك مشاعرهن ، فالواحدة منهن إذا ما أحبت أفنت نفسها كي يعيش حبيبها . . قلت ممازحاً : وهل فعلت ذلك مع فؤاد . قالت : لم أفعل شيئاً سوى ذلك . كانت العجوز تفتح أكياس الطعام فوق الطاولة ، فتفوح رائحة الدجاج ، والبطاطا المقلية . . سيلفا ، تناولتني من يدي ، وغمزتني وهي تشدني نحو المطبخ ، قالت : تعال لنأتي بالكاسات . . فماشيتها ، كانت تتقدمني بخطوة واحدة وهي تحاول الاحتكاك بي . . وكان مشهدها العسكري يغم قلبي . . فأنا لا أصدق بأن هذا الكائن العسكري الذي أتبعه هو سيلفا . . يدي لا تطاوعني كي ألامسها ، فقد صارت ثيابها العسكرية . . حاجزاً بيني وبينها ، حاجزاً بين روحين مقتولين بالعطش الفطري . .

في المطبخ ، أخذتني سيلفا إليها شداً إلى صدرها . . فمانعت قليلاً ، أو لعل استجابتي لم تكن هي استجابتي المعهودة اندفاعاً ، لذلك تفطنتْ إلى قميصها العسكري ، فراحت تفك أزراره بأصابعها الملأى . . فبدا جسدها الذي أعرفه ، انفتح أمامٍ عيني مثل نافذة تفتح على حقل قمح تموج به السنابل الطوال مرجحةً ، رمت القميص على حافة الكرسي المحاذي لها . . وأخذتني إليها مرة أخرى ، وراحت تعتصر ما في شفتي من

مـاء القلب . . ورويداً رويداً نسـيت نفسي ، نسـيت ثيابها العسكرية . . فعدت كما عهدت نفسي معها . . ضعت كما تشهيت أن أضيع في مدائنها ، وكما تشهت هي أيضاً . . أتعرف ، يا صديقي ، الإدمان ليس خاصية أهل الكحول والمخدرات فقط ، الإدمان خاصية لأهل الحب ، والانتماء ، والهوس الجمالي ، وعشق البلاد ، لعل الحياة ، وهي تمخر حالة الإدمان . . توجد ضفتين ، ضفة للضياع والموات تتكفل بها الكحول والمخدرات ، وضفة للحضور والحياة تتكفل بها المسرات . . في المطبخ لم نكن وحيدين ، كانت المرآة الطويلة معنا . . ترينا بين حين وآخر ما تفعله الشفاه ، والأيدي ، ترينا كيف يتعانق الجسدان ، كيف يطوي أحدهما الآخر ، وكيف يذوب أحدهما في الآخر . . ويبدو أننا أطلنا غيابنا عن العجوز أم أهارون ، كما أطلنا غيابنا عن الطعام الذي جاءت به سيلفا . . . ذلك لأننا ، وحين عدنا ، وقد صار الجسدان نسمة هواء . . لم نجد العجوز أم أهارون في الغرفة ، ولم نجد الطعام أيضاً ، ما وجدناه هو ثلاث قطط كبيرة . . لعلها شمت رائحة الطعام فجاءته . . رأينا القطط سحبت قطع الشواء إلى أسفل الطاولة وراحت تلتهمه ، أما زجاجة النبيذ فرأيناها مكسورة وشظاياها تفترش أرضية الغرفة ، وقد تبقعت السجادة باللون النبيذي الشهي . .

وقفت وسيلفا ، أحدنا يتكئ على الآخر . . وضحكنا من أعماقنا ، ثم ما لبثنا أن تعانقنا من جديد ، ثم هبطنا إلى العجوز أم أهارون . . كي نعتذر منها . وحين هبطنا الدرجات الخشبية . . رأينا أم أهارون باسمة . . قالت سيلفا ، وهي تخبُّ نحوها معتذرة ، سامحيني يا سيدتي . أنا السبب . فقالت : لا تعتذري المهم سعادتك ، وكل شيء يعوض ، لحظتئذٍ ، كانت سيلفا قد رمت نفسها في صدر العجوز أم أهارون ، فراحت العجوز تشمها وتقبّلها كأنها ابنتها . . دون أن تعيرني أي انتباه . وفي لحظة واحدة

استدارت سيلفا نحوي عانقتني ، ومضت ، فخطوت وراءها خطوات قليلة . . وصوتها يتعالى : ارجع أرجوك . . الدنيا برد ، ومن بعيد رأيت السيارة العسكرية بادية تحت الأضواء ، إنها السيارة نفسها التي رأيتها تقف عند الحواجز ، أو أنها تشبهها تماماً . . وحين استدرت . . لم أجد العجوز أم أهارون لعلها توارت عني كي لا أحدثها بشيء ، أو لعلها صدت عني كي لا تقبل اعتذاري منها . . المهم أنني نمت نوماً متقطعاً ، لم أعرف لذةً له ، وصحوت مبكراً على رنين الهاتف ، وحين رفعت السماعة ، جاءني صوت الحوذي جو منبهاً كي أستعد ، فهو قادم إليَّ ، وصديقه الشاعر سينتظرنا في مقهى قلندية . . فأخبرته أنني جاهز . وما إن وصل حتى هبطت إليه ، حاملاً حقيبتي ، ومعطفي .

كان الصباح ضبابياً وبارداً . . ومبشراً بمطر دانٍ . بدا الحوذي جو نشيطاً ، فرحاً ، وفكهاً ، سألني عن المسرات ، قلت : هي معك يا جو . قال : والمغمّات ، قلت : هي معك يا جو أيضاً . فشد حبال حصانه ، وود أن يقف ، فاستدركت قائلاً ، أعني أنني رأيت معك المغمات ، وعرفت معك المسرات ، فضحك . . وهو يسرّع خطا الحصان . . في هذا الصباح ، وطيَّ هذا الهدوء . . أشعر بأن وقع أقدام الحصان موسيقى صافية . جو أراد أن يغني ، فرجوته أن ينصت لوقع أقدام الحصان ، فاستجاب إليَّ ، وقال : إنها موسيقى ، ما رأيك؟ قلت : ما أجملها من موسيقى . .

وفي الطريق سألت الحوذي جو عن صديقه الشاعر ، فقال : إنه رائع . . ستراه وتعجب به . قلت : وماذا يا جو أيضاً؟ فقال : مهما حدثتك عنه ستكون رفقته أهم . . وأجمل . وصمت جو إلى أن وصلنا إلى مقهى قلندية ، وهناك رأينا النادل (ابو العبد) يجالس شخصاً يشبهه في النحولة والسمرة ، غير أن شاربي هذا الرجل أكثر كثافة وامتداداً ، وصلعته أكثر وضوحاً واتساعاً . . ما إن رآنا هذا الرجل حتى هبَّ لملاقاتنا بابتسامة

عريضة . . أخذ الحوذي جو معانقاً ، ورحّب بي بمودة بادية . . هتف جو فرحاً : هذا هو صديقي ماجد أبو غوش ملك الصداقة . . وأشر إلي قائلاً : هذا هو صديقي البطرسبورغي الذي حدثتك عنه . . فلاديمير . . فانحنى مرحباً ، وراحت عيناه تتوامضان بحياء عجيب كأنه الحياء الأنثوي .

ورحّب بنا النادل أبو العبد . . وهمهم بجملته المعتادة : أهلاً يا خواجة . . أهلاً . واستدار النادل أبو العبد ، وجلسنا نحن حول الطاولة . . وجاءتنا القهوة ، فشربناها ، ثم نهضنا قاصدين مخيم شعفاط . . بدا الشاعر ماجد أبو غوش متدفقاً في الحديث وهو يعبر عن فرحته بأنني سأزور المخيم . قلت له : وماذا سنرى في المخيم ، قال : محرقة يا رفيق ، محرقة حقيقية . قلت : محرقة . قال : محرقة وأكثر . سترى بشراً حوّلهم الاحتلال إلى كائنات مشلولة جسدياً ، وروحياً . . كائنات تُراكم اليأس فوق اليأس مثلما يراكم عمال البناء الرمل فوق الرمل . قلت : بسبب الفقر . قال : بسبب المحاصرة . سترى المخيم مكاناً لأمراض لا تعرف أسبابها ، وحالات جنون لا تعرف أسبابها ، وحالات قهر وخوف لا تعرف أسبابها . . أيضاً ، قلت : وهل نحن ذاهبون في هذا الصباح لكي نباكر ناس المخيم بأحزانهم . قال : لا . سيفرحون بقدومك يا رفيق . صديقي جو يعرف كم هم أهل صفاء ومودة . فهمهم جو بكلمات لم أفهمها ، لعله يؤكد كلام الشاعر . قلت : ما دامت حياتهم صعبة ، فمن أين يأتون بالصفاء والمودة . قال : إنها أزهار الصحراء . كيمياء الفلسطينيين ، فرحهم الخاص الذي يستنبتونه من المآسي . قلت : عجيب . قال : رفيق ، أحياناً ، تقوم الخيول بأعمال لا تليق بها ، وتخضع لأوامر ظالمة لا تعرف طبيعتها ، ومع ذلك تظل خيولاً . حال الفلسطينيين كحال الخيول ، قلت : وهل المخيم بعيد؟ قال : لا . . دقائق ونصل إليه . قلت : وهل بإمكاني تمييزه دون أن ترشدني إليه؟ قال : إنه مثل الزهور لا يحتاج إلى تعريف . . قلت :

إجاباتك غامضة ، فهل شعرك غامض أيضاً . قال : إطلاقاً ، فإجاباتي مثل قصائدي شديدة الوضوح ، فأنا يا رفيق فلاديمير . . شيوعي وأستاذتي الأولى هي الواقعية . . فضحكنا . . ولأن الكلام الدائر لفنا ، لم ننتبه لنثيث المطر الذي راح يتساقط مثل نثار الفضة فوق ظهر الحصان ، واستدارت بنا العربة ، كانت أبنية القدس الوردية تبارينا . . وفجأة توارت ، صارت خلفنا تماماً ، وها هي ذي بيوت واطئة ، بيوت بيتونية شاحبة ، تحتشد حيطانها بكتابات ملوّنة ، وبجوارها بيوت صفيح متجاورة مثل حبات الخرز ، بيوت لا شوارع لها ، ولا ساحات ، بيوت لا أشجار لها ولا نباتات ، قلت في نفسي ، لعلها بيوت طارئة ، بيوت تمر بالمكان مروراً عابراً . . وتنبهت إلى وقوف العربة ، وقولة الشاعر : هيا ، وصلنا . قلت : والمخيم؟ قال : هذا هو المخيم وأشار بيده إلى البيوت الواطئة ، قلت : هذا هو المخيم؟ قال : هذا هو المخيم .

بدا في مقابلتنا تماماً بغّالةٌ ، وبغال ، وكلاب ، وسيارات جيش ، وحاجز حديدي ، وكلمة عريضة مكتوبة بالعربية والإنكليزية والعبرية فحواها (قف) ، مشى أمامنا الشاعر فتبعناه وعيون البغالة تترصدنا ، والكلاب حولهم تهزّ ذيولها ، والبغال جامدة لكأنها كائنات خشبية ، ومن خلفهم جميعاً طريق مسفلتة راحت تتلامع وقد بللتها قطرات المطر . حين وصل الشاعر إليهم رفع يديه إلى الأعلى مستعداً للتفتيش ، فتقدم منه أحد البغالة وراح يجسه ، ثم أوقفه جانباً ، وتقدمنا منه ، وناولناه أوراقنا وتصاريحنا ، فنظر فيها ، ثم فتشنا أيضاً وأوقفنا جانباً دون أن يسمح لنا بالدخول . قلنا للشاعر : ما الأمر؟! قال : علينا الانتظار وعاد البغال إلى جماعته ، ثم وبعد دقائق من الانتظار ، أشار إلينا هو نفسه بأن ندخل . قلت للشاعر ، وقد عبرنا ، لماذا فتشونا؟!

وقال : يخافون على أمن الفلسطينيين . قلت : كيف؟ قال : مهزلة . .

لقد تعودوا على إذلال الناس . إنهم يعدون التفتيش إهانة ، لهذا فهم يمارسونه مع الجميع ، وإلا ما معنى أن يفتشوا الناس الذين يدخلون إلى المخيمات الفلسطينية ، الجندي الإسرائيلي يظن نفسه إلهاً ، والآخرون هم عبيده ، في هذه الدولة يا رفيق فلاديمير ، آلهة بعدد عديد جنودها ، وفيها من العبيد بعدد عديد الفلسطينيين ، اسأل الصديق جو يخبرك . واعذرني لأنني لن أتحدث في هذا الموضوع طويلاً كي لا أفسد عليكما معرفة المخيم واللقاء مع أهله . قلت : منذ متى بني هذا المخيم ، قال : هذا شاهد على اللا منطق الذي نعيشه الآن ، فعمر هذا المخيم يساوي عمر الدولة الإسرائيلية ، ففيه أهل القرى ، والمدن الفلسطينية الذين هجروا من قراهم ومدنهم فجاؤوا إلى ضواحي القدس ، وغيرها من المدن الفلسطينية ، ولاذوا بأطرافها ، عاشوا ، في أول الأمر ، داخل خيام ، كانت تقع وتتقطع حبالها في الشتاء ، فتجتاح الأمطار الفرش ، والثياب ، والمقتنيات ، وفي الصيف تطير حين تهب الرياح القوية . . فلا تستقر إلا في المنحدرات . . وقد كانت النزاعات ، في أول الأمر ، تدور حول أحقية الناس بالخيم الجديدة ، إلى أن راح أهالي الخيم يكتبون أسماءهم عليها ، كي يستعيدوها دونما نزاع إذا ما طارت مرة أخرى . . ومن بعد ، وحين تحسنت أحوال الأهالي ، وأقول هذا مجازاً ، بنى الأهالي أكواخ الصفيح التي تراها ، وبعض البيوت البيتونية . . قلت : لكن البيوت مكتظة جداً ، حتى ليكاد الهواء يمر من بينها بصعوبة واضحة . . قال : هذا الاكتظاظ بسبب رقعة الأرض الصغيرة ، فالبيوت تبدو كما لو أن بعضها يدعم بعضها الآخر ، وأن بعضها يتكئ على بعضها الآخر . . إنها أشبه بعش مملوء بالفراخ . . قلت : وهذا الماء الأسود المسال بين البيوت . . ما هو؟ قال : ماء المجارير ، ماء الصرف الصحي ، ماء الفضلات ، فهنا لا توجد بنية خدمية تجعل لهذا الماء أقنية تحت الأرض ، هؤلاء البغالة الذين رأيتهم في مدخل المخيم لا يوافقون على حفر السواقي

تحت الأرض . . قلت : لكن هذه المياه السوداء تسبب أمراضاً . قال : نعم ، هنا في هذا المخيم لا يجتمع الناس ، ولا الفقر ، ولا الحرمان ، ولا الحصار وحسب . . وإنما تجتمع الأمراض أيضاً ، قلت : وهذه النباتات الصغيرة ما الذي تعنيه ، وما فائدتها . قال : هي روح بديلة عن البيارات والبساتين والحقول التي استولى عليها هؤلاء البغالة . . الفلسطينيون أهل أنهار وينابيع وغدران . . من دون النباتات تنفجر صدورهم مثل البوالين المطاطية . هذه نباتات نعناع ، يقطفون بعض أوراقها فيطيبون به الطعام ، والشاي الذي يشربونه بكثرة ، وهذه نباتات حبق لها روائح جميلة جداً ، أجلس رفيق فلاديمير ، ومرر يديك فوقها ، ثم شم ، إنها فوّاحة وزكية ، أليست كذلك ، قلت : بلى . رائحتها جميلة جداً . قال : هذه الروائح الجميلة من أجل أن تقضي على روائح تلك المياه السوداء . وروائح الغاز والبارود التي يطلقها البغالة . قلت : أما تحسنت أحوال الأهالي إلى الحد الذي يجعلهم يقتلعون أكواخ الصفيح ويبنون في مكانها بيوتاً من البيتون . قال : بلى ، لكن البغالة لا يوافقون . فهم لا يسمحون بإدخال كيس اسمنت ، أو سيارة رمل إلى المخيم . . فالبناء ممنوع ، وترميم البيوت ممنوع أيضاً ، وعلى الأهالي أن يعيشوا في هذه الأكواخ . . انتظر يا رفيق فلاديمير ، سأجعلك تتحدث مع هذا الرجل العجوز القادم نحونا ، وناداه بصوت عالٍ يا عم ، فاقترب الرجل ، فسلم الشاعر عليه ، قال له : أنا ماجد أبو غوش ، من قرية أبو غوش . فقال الرجل ، وأنا عيسى أبو مثقال . قال : هذان صديقان لي ، جاءا من أجل أن يعرفا المخيم ، أعني الناس ، والبيوت . . فقال العجوز بأسى : الناس في حالة موات ، والبيوت كما ترى قبور . .

ونظر إليَّ مباشرة ، وقال : نحن أموات ، يا عم ، وبيوتنا مقابر . . هؤلاء ، وأشار إلى البغالة ، أغلقوا الدنيا علينا . أغلقوها بالمفتاح ، ورموا المفتاح في البحر . . وسأل الشاعر : هل يفهمان ما قلته أو أنك ستترجم .

قال الشاعر : لا ، يعرفان اللغة العربية . وسأله : عم أبو مثقال ، منذ متى وأنت هنا في هذا المخيم . فقال : أنا في مخيم شعفاط منذ خمسة وستين عاماً ، جئت إلى هنا وعمري خمس سنوات ، عمك أبو مثقال عمره أكبر من عمر دولة هؤلاء أهل البغال والكلاب والسيارات القرعة .

قلت : أبو مثقال ، ألك أولاد؟ قال تسع بنات ، وأربعة ذكور ، قلت : وأين يعيشون؟ قال بأسى : أين يعيشون ، هنا في هذا المخيم ، في كوخين صفيح . . آذانهم مملوءة بصفير الرياح صيفاً ، وطقطقة المطر شتاءً ، قلت : وأين هم الآن؟ قال : بعضهم درس وتخرج من المدارس ، وبعضهم ما زال في المدارس ، قسم من البنات تزوجن ، وقسم من الأولاد راحوا . قلت : راحوا ، إلى أين؟! قال : افتقدهم ربهم . شهداء . واحد من الذكور ، الولد الكبير قتلوه في السجن . الولد رأسه مثل الطاحون ، لم يعترف بشيء . قالوا له أنت فدائي ، فقال لهم : أنا فدائي ، ويا ريت كنت أكثر من فدائي ، طالبوه أن يخبرهم عن رفاقه فرفض . الولد صخر . . لهذا قتلوه ، ولم نأخذ جثته إلا بطلعان الروح . والله ، يا خواجة كانت رائحة جثته مثل رائحة البخور . . وكأن الولد دهن جسده بالبخور قبل أن يقتلوه . . الله يرحمه مثقال . . والولد الثاني : مسجون . حلف أن يثأر لمثقال . . لكن بغالة المخيم ، عند البوابة ، تعاونوا عليه واقتادوه للسجن ، البنت الكبيرة ليلى رأت ستنا مريم في المنام ، تطلب منها أن تأخذ ثأرها بدم أخويها . . فراحت فجرت نفسها بجنود الجيش في المحطة . . بقي لي عشرة ، هؤلاء أقرأ عليهم يومياً من أجل أن يهدأوا . . لكنني أعرف بأنهم غير مقتنعين بما أقوله لهم . قلت : تخاف من أن يفجروا أنفسهم . قال : أخاف طبعاً ، لأنه لا يوجد من هو أغلى من الولد . قلت : وكيف تعيشون ، قال : عيشة الغم ، والله أحياناً لا توجد لقمة خبز في البيت ، لكنا نعيش ، يكفي أننا ما زلنا على أرض بلادنا . . تعرف يا خواجة ، حتى هذا الصفيح ، هذه الأكواخ ،

صارت غالية علينا ، أتعرف لماذا؟ قلت : لماذا؟ قال لأنها على تماس مع الأرض . هذا التنك ، وهذا الصفيح له جذر مثل الشجر ، مثل النباتات . وفيه حنية مثل حنية البيوت ، والتفت إلى الشاعر ، وقال له : اشرح لهم معنى كلمة الحنية ، هؤلاء خواجات . . اشرح يا عمي . وأضاف : سامع يا خواجة ، لولا الحنية لفك الصفيح وطار مع الرياح . وصمت الرجل العجوز ، ثم قال للشاعر : والله يا عمي أنا مستعجل ، ولولا الضرورة لبقيت معك ، لكن خذ الضيوف إلى بيت متعب العزوز ، أبو جادو ، اسأل عنه ، وخذهم إلى هناك ، سيسمعون كلاماً عجباً . فشكره الشاعر ، ومضى من أمامنا مثل لمح البرق . قلت للشاعر : ما قصة هذا الرجل الذي أشار علينا أن نذهب إليه . فقال : لا أعرف . لكن سنسأل عنه .

ومضينا ، نمر بالبيوت ، فلفت انتباهي كثرة الأطفال ، إنهم يتكتلون هنا وهناك مثل العناقيد ، بعضهم يطارد بعضهم الآخر ، وآخرون يلعبون بالكرة ، وآخرون راحوا يماشوننا ، هنا ، وإلى جوار هذا الحائط تحتشد نساء كثيرات قرب حنفيات الماء ، أصواتهن متداخلة ، رحن ينظرن إلينا بفضول ، ويتهامسن . بدت أثوابهن طويلة ، ورؤوسهن معصوبة بمناديل ملوّنة . فجأة رأيتهن تلوذ الواحدة منهن بالأخرى ، فقد اقتحم حنفيات الماء رجل ضخم ، بيده عصا طويلة ، وفي مقدمة صدره أطواق من الخرز راحت تصطفق مثل أغصان الشجر ، وصوته الناهر يتعالى بكلمات غير مفهومة ، يبدو كأنه غاضب من شيء ما ، شعر رأسه طويل وملبد ومغبر ، رأيت الرجل يضرب بعصاه يميناً ويساراً والنساء يبتعدن عن طريقه ، وأمام الخلق جميعاً ، وعلى مرأى من النساء راح يبول في مجرى الماء الصغير ، وكأن لا أحد يحيط به أو يراه . . سألت الشاعر عنه ، فقال : مجنون . أعرفه حق المعرفة ، فهو مجنون . ضربه البغالة على رأسه حتى اختل عقله . كان يعمل مع الفدائيين . . وقد تركوه في المخيم مجنوناً ، يقلد حركات الجنود ،

فيأمر جنوداً لا يراهم أو يحس بهم أحد سواه ، يصرخ بهم كي ينضبطوا ، وكي يتقنوا فك القنابل والبنادق وتركيبها ، لقد تركه البغالة ليكون شاهداً على أن مصير من يقاومهم سيكون في مثل مصيره ، جنون ، وضياع للعقل ، وأضاف الشاعر : ألف بنت في هذا المخيم كانت تتمنى أن تكون له زوجة ، لكن البغالة فعلوا ما فعلوه به حتى بات النظر إليه مؤلماً . .

كان مخيم شعفاط صغيراً لذلك جلنا فيه وأدركناه سريعاً ، في أثناء جولاتنا ، سألنا عن الرجل الذي أوصانا أبو مثقال بالتعرف إليه ، فاقتادنا الصبية إلى داره ، فوجدناه وحيداً في بيت من البيتون ، فيه ثلاث غرف ومطبخ ، وفرن طيني للخبز يسمونه (الطابون) ، وأمامه شجرة زيتون صغيرة الحجم ، قليلة الارتفاع ، قال الشاعر له : عم أبو جادو معي ضيوف ، أهل المخيم أوصونا أن نزورك ، فماذا تقول للضيوف؟ قال : تشربون الشاي أو القهوة أولاً ، قلنا معاً : شكراً . قال : إذا لم تشربوا شيئاً فلا حديث لكم عندي ، القهوة أو الشاي أولاً . فقلنا : قهوة ، قهوة . . فنهضت امرأة عجوز ، لعلها زوجته أو ابنته كي تصنع لنا القهوة . قال الشاعر : يا خالتي . . قهوة من دون سكر . قال أبو جادو : خالتك أم جادو خبيرة قهوة ، فالقهوة مع السكر ليست قهوة . . إنها حلويات ، مثلها مثل المشبك والهريسة . قال الشاعر : الآن سنشرب القهوة ، فماذا تقول للضيوف . قال : ضيوفك من أين؟ قلت : من روسيا . همهم وهو يلف سيكارة ، وقد رماه الشاعر بسيكارة ملفوفة ولكنه لم يأخذها ، قال : إن دخنت دخانك أظل يومين أو أكثر وأنا لا أعرف طعم الدخان ، بالمناسبة كان الشاعر يدخن بشراهة شديدة ، حتى إنني لقبته بالشاعر القطار ، لأن دخانه لم ينقطع طوال وجوده معنا . . رفع الرجل العجوز رأسه بعد أن أشعل سيكارته ، ونظر إلينا ، وقال : يا عمي قل لضيوفك ، عمك أبو جادو كان له ثمانية أولاد ذكور وابنة واحدة . الأولاد الذكور الثمانية استشهدوا واحداً واحداً ، وآخر واحد

بينهم ، قتله البغالة هنا في مكان شجرة الزيتون هذه . . وأشار إليها ، فوق دمه تماماً زرعت هذه الشجرة ، عمر هذه الشجرة سبع سنوات ، والابنة ، واسمها ريما استشهدت أيضاً ، كانت متعلمة وبنت مدارس ، أخذت شهادة التوجيهي بعلامات عالية ، فوق فوق ، ودخلت إلى الجامعة ، وراحت تنافس البنات اليهوديات . . فاجتمعن عليها ، وضعن السم لها في كأس شاي . . وحين عادت إلى البيت كانت تصرخ بطني بطني . . أمها غلت لها من عشبة ستنا مريم ، المريمية أنت عارفها يا عمي ، وسقتها ثلاث أو أربع كاسات ، لكن ريما ظلت تصرخ وأمها تهديها . . إلى أن ماتت بين يديها . . خرجت أمها من عندها ، وقالت لي : يا مشحر يا متعب . صرنا عرسان ، قلت : ماتت ريما ، فلطمت على وجهها وشقت ثوبها ، أما أنا فطار عقلي . الأولاد ، وأعرفهم ، كل يوم مواجهات مع البغالة ، راح الأول ، والثاني ، والثالث . . وأنا أقول الحمد لله . . حتى الثامن عندما راح . . قلت الحمد لله ، شباب دمهم نار ، وأنا أبوهم ، أعرف نخوتهم وجسارتهم ، أما البنت ريما تموت ، فهذه مصيبة ، كان موتها بكفة وموت الأولاد بكفة ثانية . . ما أحلاها ، ما أحنّها ، دخلت . . إلى الغرفة . . فوجدت صاحب الأمانة أخذ أمانته ، بنت مثل فلقة الرمان ، حبة لوز . . المهم ، قل لضيوفك يا عمي . . أولاد البيت ، أولاد عمك أبو جادو ، موجودون ، ولكن في المقبرة ، وحياتك يا عمي زرعت حول قبورهم ، نباتات وأشجار لها أشكال وألوان وروائح ، عمك أبو جادو يسقيها كل صباح ، أذهب كي أصبح على الأولاد ، وأسأل عنهم ، ثم أسقي النباتات ، وأجلس وإياهم مسافة شرب سيكارة ، أقرأ الفاتحة ، واطلب من ربنا السترة والكرامة في الآخرة ثم أعود . . والله ، يا عمي ، حاولت أن أحفر قبراً للبنت هنا في الدار من أجل أن تبقى معنا ، لكن خالتك أم جادو رفضت ، قالت : لا ، البنت مع إخوانها مثلها مثلهم ، وزيارتها واجبة مثلما هي زيارتهم

واجبة . . . وصمت الرجل ، وحرنا ماذا نقول له!

صحيح ، أن القهوة جاءت بها أم جادو ، لكننا لم نشربها ، فقد أخذنا حديث (أبو جادو) ، ولم ننتبه إليها إلا وقد بردت ، ومع ذلك دعانا أبو جادو لشربها فشربناها ، ولكم كانت لذيذة وطيبة . . وحين هممنا بالمغادرة ، طلبت منا أم جادو أن نرى غرفة الأولاد ، وغرفة البنت ريما ، فدخلنا إليهما ، فوجدنا ثيابهم معلقة ، وكأن أحداً منهم يهم بارتدائها ، وكتبهم وحقائبهم منضدة ومرتبة فوق الطاولة الخشبية ، وحاجياتهم من ساعات ، وخواتم ، وأحزمة ، وفراشي أسنان ، وأقلام ، مرتبة إلى جوار بعضها بعضاً ، وفي الطرف البعيد رف خشبي وضعت فوقه صحونهم ، وملاعقهم ، وأكوابهم ، وبعض رسوماتهم ، وفي غرفة البنت ريما ، ثياب ، ومناديل ، وأدوات تجميل ، وأحذية ، وملاقط شعر ، وشرائط حريرية ، وكتب ودفاتر ، وحقائب ، وأقلام ، وصحون ، وملاعق ، وأكواب ، وفرشاة أسنان . . وعلبة حلويات صغيرة . . لعل البنت خلفتها أو تركتها في حقيبة يدها . . ظلت وراءها شاهداً على أنها ماتت رغماً عنها . . إنه متحف صغير ، في مخيم صغير . . يرعاه أبوان لهما عيون خرزية ، تلاشت أو كادت من كثرة البكاء . .

حين هممنا بالمغادرة ، أعطتنا أم جادو شتلات حبق ، كل واحدة منها في آنية بلاستيكية . . قالت بأسى : لو كان الأولاد هنا لفعلوا ما أفعله الآن ، ولو كانوا هنا لرافقوكم إلى بوابة المخيم . . فشكرناها ، وخرجنا . . والأسى يعصر قلوبنا ، مررنا بنساء يخبزن تحت نثيث المطر ، والدخان يحيط بهن مثل الغيوم ، فكن ينادين علينا لنأكل من خبزهن ، كنّ يقلن جملة واحدة : مالحونا يا خواجة ، واقتربنا منهن وأخذنا خبزاً مستديراً له شكل دائرة واسعة ، رقيق وشفيف له شقرة ساحرة ، تذوقناه ، فكان لذيذاً جداً ، وأخذنا خبزاً آخر صغير الحجم على شكل دوائر أيضاً ، ولكنه سميك ؛ بدا

كما لو أنه يشبه وجوه النساء اللواتي كن يخبزنه في فرن مرتفع عن الأرض مصنوع من الطين ، يعلو ناره صاج حديد وسيع ، قال لنا الشاعر أبو غوش هذا الفرن الطيني بحجارته الرقيقة نسميه (الطابون) ، وهؤلاء الأمهات هن من يصنعنه ، وخبزه لذيذ . . فعلاً كان الخبز لذيذاً جداً ، وقد جاءت لنا إحدى الصبايا بصحنين من الفخار أحدهما فيه زيت زيتون ، والآخر فيه زعتر ، فأكلنا أكثر من رغيف مبلل بالزيت والزعتر . . وشربنا القهوة في الطريق مرات ومرات ، وفي أثناء مرورنا رأيت الكتابات الكثيرة التي تزنر الحيطان ، إنها دعوات للصمود ، وتحيات للشهداء ، وبعضها ينادي بالوحدة الوطنية ، والتكاتف ، وبعضها يندد بالإسرائيليين والخونة والعملاء . . وبعضها الآخر أبيات شعر ، وأقوال مأثورة ، ومقاطع من آيات القرآن الكريم ، والكتاب المقدس . . كتابات متراكمة فوق بعضها بعضاً كأنها الكتب التي مرّت بها أيدي المؤلفين الكثر . . سألت الشاعر ، لمن يكتبون هذه العبارات ، والشعارات ، وأبيات الشعر . . قال : لأنفسهم ، قلت : لأنفسهم ، قال : لأنفسهم ، كي يتذكروا . . لأن هؤلاء البغالة يريدون مسح ذواكرهم . قلت : ألا يعاقب هؤلاء البغالة أصحاب هذه الكتابات . قال : إنهم يعاقبون أصحاب البيوت . قلت : كيف؟ قال : ينسفونها بالدناميت ، أو يرمونها أرضاً بالجرافات . . قلت : فقط ، قال : وهل هذا قليل؟ قلت : لا ، إنه كثير جداً ، ولكن عنيت ألا يأخذوا أهل البيوت؟ قال : بلى يأخذونهم إلى التحقيق ، وأحياناً يعتقلونهم مدداً طويلة ، وأحياناً يكتفون بتعذيبهم لأيام . . قلت : مأساة . قال : أكثر من مأساة . كل شيء لدينا أكثر من مأساة . ويميل بنا الشاعر نحو منحدر أعشابه ندية لامعة ، وخلفه أشجار كثيفة كأنها غابة ، فسألت إلى أين؟ فقال : إلى المقبرة . . قلت : وأين هي؟! قال : هنا . . تحت هذه الأشجار . .

يا إلهي ، ماذا أرى ، أي مقبرة هذه ، أي دنيا هنا ، أي جمال ، أي

سحر . . فها هي ذي القبور تبدو من بعيد تحت الأشجار وكأنها لقالق تمشي وسط حقل من العشب الأخضر اللامع المندى ، إنها تعلو وتنخفض كلما خطونا نحوهم صعوداً أو هبوطاً في الدرب لكأنها تموج وتمتد مثل طيارات ورقية فوق سطح بحيرة ماؤها فضي رهّاج . . هنا بشر يتوازعون القبور وقد نشطوا في الحركة والجولان . . لكأنهم في حقل . . بعضهم يبذرون ، وآخرون ، يزرعون . . كان الصمت يلف المقبرة مثل سحابة شاسعة ، هنا أزهار وشجيرات وأعشاب ، وفي الجوار ساقية ماء تمر بالقبور عبر مسيلات احتشد فيها الحصى ، فصفا الماء وتلامع ، وطيور توارت طي أوراق الشجر . . راحت تعلن عن نفسها بالزقزقة .

أمرُّ بالناس ، فأرى وجوههم الصافية ، وعيونهم الدامعة ، وشفاههم الراجفة . . أراهم منكسرين ، لأول مرة أرى الفلسطينيين منكسرين على هذا النحو . . أسأل الشاعر ، فيقول : الموت يهد الحيل يا رفيق ، ورحيل الأولاد يكسر الظهر . ما من أحد هنا في هذه المقبرة ، الأحياء أو الأموات . . شبعوا من رؤية بعضهم بعضاً . كل موت هنا . . هو موت فجائي ، وكل مجيء إلى هنا هو غصّات وألم . .

أرى شواهد القبور وشرائط الحرير الخضر والسود والبيض التي تزنرها ، أرى الناس وهم يقرؤون الأدعية وآيات الرحمة ، وهم يسقون النباتات والشجيرات الصغيرة ، وهم يجمعون الأوراق وأكياس النايلون المتطايرة . تبدو المقبرة وكأنها بيوتهم ، وهم ينظفونها ، ويرتبونها ، وكأنهم على موعد مع ضيوف أعزاء . . أرى الأطفال ، الذكور والإناث بين القبور وهم يحملون أطباقاً قشية فيها قطع من الخبز المحلى بالسكر ، والكعك ، وأقراص العجوة ، وحبات التمر ، والسكاكر . . أسأل الشاعر عن هؤلاء الأطفال ، وعن مناسبة توزيع الخبز ، والسكاكر . . فيقول : لا توجد مناسبة ، إنهم يتبادلون قطع الخبز ، والسكاكر ، وحبات التمر ، وأقراص العجوة . . فيما

بينهم لاعتقادهم بأن أرواح الموتى تجول فيما بينهم ، فترى ما يصنعون . .

اصغِ جيداً ، يا رفيق ، واسمع رجاءاتهم . . إنهم يفتقدون أبناءهم ، إنهم يبكَونهم ويسألون السماء أن تجعل مأواهم الجنة . . لاحظ أيديهم وهي تمر بحجارة القبور مساً ومسحاً ، لاحظ خطاهم وهي تؤوب لكأن أثقال الحديد تعوّقها وتحول دون اندفاعها . . أو لعل الدورة الدموية تجري في أجسادهم عكساً حين يتركون أبناءهم هنا في القبور . . انتبه أرجوك ، اصغ ، لهذه المرأة التي تحدّث ابنها عن إخوته وأخواته ، اسمع إنها تعدد أسماءهم على مسمعه ، تخبره عن هنية التي تزوجت ، وعن محمود الذي غادرهم إلى الخليج ، وعن عبود الذي خرج من المعتقل ، وعن مرض السكري الذي أخذ بصر والده ، وبهيجة التي نجحت في دورة التمريض . . انظر كيف تدفع بكفها الملأى بالسكاكر إليه ، إنها تقول له هذا (حلوان) تخرج بهيجة يا حبيبي ، حسبنا حسابك ، فأنت معنا ، وعمرك ما غبت ، ولا رحت من بالنا .

وهذا عجوز يقول لزوجته : والله يا فوزة ، فوزة الصغيرة عاشت ، صارت تناغي ، نسوان المخيم بنات حلال ، أخذنها من صدر إلى صدر حتى عاشت ، واحدة تذهب ، وأخرى تأتي . . والجميع يسألن عن فوزة . . فوزة التي كانت مثل خرقة مبلولة ، ولونها أزرق ، صارت اليوم مثل وردة . . تضحك وتناغي . والله لو لم تكن الدنيا ممطرة وباردة . . لكنت جئت بها كي تري ضحكتها ، وتسمعي مناغاتها مثل الطير . . بنت ناعمة مثل حبة لوز . .

ونبتعد قليلاً ، ننحدر نحو خلق كثيرين ، يجاورون القبور ويواقفونها ويجالسونها محاورة ، فأقول للشاعر والحوذي جو : أرجوكما ، دعونا نخرج من هنا ، فالمشاهد هنا لا تحتمل . قال الشاعر بأسى : لا تحزن يا رفيق . . رجاءً ، فهذه هي حياتنا . . حياة منهوبة ، مدماة ، فنحن لا أمل لنا إلا في

أبنائنا لذلك ترى أسماءهم متراوحة ما بين صابر ، وثابت ، وعامل ، وناصر ، وواصل ، وسعدية ، وبهيجة ، وحنين ، وجنين ، وانتصار ، وافتخار ، ورجاء ، وأماني . . ومع ذلك فالأبناء يذهبون طيٍ الاعتقالات ، والغياب ، والموت . . مرة تأخذهم المقبرة بيدها المفتوحة أبداً ، ومرة تأخذهم السجون بيدها الشيطانية ، ومرة أخرى تأخذهم الغربة المُرة . . بيدها الظالمة . . قلت : لا أحد يعي حياتكم ومرارتها سواكم . قال مهمهماً : صحيح . . .

كنا قد اقتربنا من بوابة المخيم ، ومن عربة الحوذي جو حيث أوقفها ، ظننت أننا سنخرج من دون تفتيش ، لكن ظني ظلَّ ظناً ، فقد أشار إلينا أحد البغالة بيده كي نقترب ، فاقتربنا . . وراح ينظر في أوراقنا وتصاريحنا ، ثم راح يفتشنا بدقة متناهية ، حتى إنه طلب منا أن نخلع معاطفنا ، وأحذيتنا . . والمطر يبللنا بهدوء شديد ، أخذ البغال أنيتي الحبق ، ونثر ترابهما ، وراح يدقق فيه ، فبدت جذور الحبق الرفيعة . . نظرت إلى وجه الشاعر ماجد أبو غوش ، فرأيته ينظر إليَّ والألم يعتصره . . وحين لم يجد البغال في التراب شيئاً يسأل عنه ، راح يدوس نبتتي الحبق ، وآنيتي البلاستيك حتى أتلفهما بحذائه العسكري الموحش ، ونهرنا كي نبتعد عنه أنا والحوذي جو ، وأوقف الشاعر في مواجهته ، وراح ينهال عليه بالضرب ، والسبب أنه كان يدخن . مشكلة ماجد أبو غوش هي التدخين ، فهو قطار لا يمشي من دون الدخان . وحين حاول الشاعر أن يقول للبغال بأن ما يفعله ليس من حقه ، نجده بغالاً آخر ، فأخذ يدي الشاعر إلى الوراء وربطهما بسريدة بلاستيكية ، فراح البغال الأول ينهال بضرب شيطاني على رأس الشاعر ، وصدره ، وذراعيه ، وساقيه . . والشاعر يقول له : القانون لا يسمح لك بهذا . . لقد أدماه ، فسال دمه على وجهه ، وجرح جفنه الأيمن ، فامتلأت عيناه بالدم ، كان صوت البغال نافراً ، يلوم الشاعر ماجد

أبو غوش على إفساده لنا ، يقول له بدلاً من أن تأخذهم إلى متحف المحرقة اليهودية . . تأتي بهم إلى هذه الزبالة ، إلى المخيم ، كي يروا القرف والروائح الكريهة ، وأقنان الدجاج ، والناس الموتى . .

حاولنا منذ اللحظة الأولى ، أنا وجو ، أن ننقذ الشاعر من بين يدي البغال ، غير أن بعض معاونيه أبعدونا ، قلنا لهم هذا لا يجوز . إنه عمل شيطاني . فقالوا عنه : إنه إرهابي ، يشوه صورتهم أمامنا . فهو دائماً يقوم بما يقوم به الآن . وقد نبهناه مرات ومرات ، لكنه ، ولأنه يحمل رأس بغل فهو لا يفهم . .

ولم يُترك الشاعر إلا عندما سقط على الأرض طريحاً لا يقوى على الحركة ، وقد تورم جفنه ، واصطبغ وجهه باللون الأزرق ، وسال دم أنفه . . وحين ابتعد البغالة عنه ، تعاونتُ وجو على حمله إلى العربة ، كان في حالة يرثى لها . . فغسلتُ وجهه ، وأسعفه الحوذي جو . . وغطى جرحه ، ورويداً رويداً راح الشاعر يستعيد وعيه .

تأسفنا له لأننا سببنا له كل هذا الأذى والألم ، فقال همساً : من أجل حبيبتي القدس تهون كلُّ الصعاب ، فالألم يزول ، والجرح يتعافى . . وكلما كثرت الندوب والجروح كثرت محبتنا للقدس . . وقد سرني أنكما رأيتما ما حدث لي ، أنا سعيد بكل هذا الأذى الذي لحق بي . . سأكتب قصيدة عنوانها في حضرة صديقي الروسي الرفيق فلاديمير . . قال الحوذي جو ممازحاً : ولكن يا ماجد من حضر القسمة فليقتسم . . قال وكأنه لم يسمع كلام الحوذي جو : اعلم أيها الرفيق فلاديمير ، دائماً كان هؤلاء البغالة يضربوننا . . وكنتم أنتم الروس من يساعدنا على النهوض ، فما حدث ليس جديداً .

ومضينا ، الحوذي جو يدندن ، والشاعر ماجد أبو غوش يدخن ، وأنا صامت يكاد الحنق يفتك بي» .

ملحوظة :

نسيت أن أقول لك إن الشاعر ماجد أبو غوش وعدنا بزيارة قريته (أبو غوش) القريبة من القدس ، وتمنى لو أن زيارتي تدوم حتى وقت الصيف لأرى طقوس عصر العنب وهرسه بأقدام الصبايا ؛ كان الحوذي جو قد حدثني من قبل عن تلك الطقوس العنبية الرائعة ، لذلك تمنيت أمام الشاعر لو أن الزمن يسمح لي بالبقاء حتى الصائفة المقبلة .

أيها الصديق العزيز ، هل زرت المخيمات الفلسطينية؟ هل رأيت ما رأيته . قل لي ؛ اكتب . أرجوك .

عودة سيلفا

«أكتب إليك ،

بعد أن ودعت سيلفا . خرجت وإياها إلى خارج الفناء ، إلى خارج غرفتي ، وفي أعلى الدرجات الخشبية ، وقبل أن تهبطها ، خاصرتني وهي تبكي وقد راح رذاذ المطر يغطينا ، سمعتها تهمهم وشوشة مثل أوراق الأشجار : أرجوك اقترب ، وعانقني تحت المطر ، فالسماء الآن مفتوحة ، لا أبواب لها ولا أقفال . . عانقني كي أدعوها أن تحميك وتبقيك لي وحدي ، فقد أعادتني أيامي معك إلى إنسانيتي ، لا شيء مثل الحب يعيد المرء إلى إنسانيته ، الآن ، بت متأكدة أن المجرم إن صادف حباً ، يعود إلى إنسانيته ، وينسى ما اقترفت يداه . . خذني إليك . شدني ، انثر نفسك اللافح في أذنيَّ . . مرر شفتيك الدافئتين على جسدي . . ضمني أكثر ، أرجوك . . أكثر أيضاً . .

كانت تهمهم كأنها تهذي . . أسمعها تقول . . دعني أذوب فيك ، فأنت مائي ، ونهري ، هزّني أكثر ، ودع المطر يبللني ، ويباركني ، دع روحك الطيبة تتشربني ، واسمعني صوتك كي آخذك بكل حواسي ، يا لك ، يا للمصادفة ، التي جمعتني بك ، يا لرحمة السماء التي شملتني حين عرفتك . . شدني أكثر . . اطويني ، ودعني لا أعود إلى بيتي ، إلى صومعتي . . إلا وقد بللني حبك . أكان لا بدّ لي من معرفتك كي أعرف الحياة والحب ، كي أعود إلى إنسانيتي ، إلى عالم الروح ، واللطف . .

أرجوك اغمرني بذراعيك أكثر . . فقد دمر السجن حياتي ، أرجوك ضمني أكثر ، أكثر أرجوك .

ظننت في لحظة من اللحظات ، وأنا أضم سيلفا وأعانقها . . وقد انتهت من كلامها ، أنها أطفأت روحها على صدري ، فما عدت أسمع لها همهمة ، ولم أعد أشعر بأنفاسها الحرى ، كما لم أعد أدرك إن كانت أصابعها ما تزال تجول في شعري وحول عنقي ، كما لم أعد أحس إن كانت ما تزال بين ذراعيَّ ، وهل أنني أضمها فعلاً . . لكأننا صرنا بعد وقوفنا الطويل . . شجرة أو عمود نور ، أو نبتة عباد شمس . . أهمس لها ، أهمهم ، أناديها . . لكنها لا تجيب ، لعل صوتي لا يغادر لهاتي ، أو لعلي لم أهامسها أو أهمهم لها ، أو لعلنا نسينا أننا كائنان اثنان في عناق واحد . أو أننا توهمنا بأننا صرنا دالية عنب سنمضي حياتنا في عناق أبدي ، والسماء تعرّش فوقنا بكفها الرحيمة . . لا أدري كم واقفتني سيلفا في أعلى الدرجات الخشبية وكم واقفتها ، ما أدريه أنها راحت ترج صدري رجاً ببكائها المر . . فهززتها بين ذراعيَّ ، ورجوتها أن تكف عن البكاء . . فهي معي ، وأنا معها ، وأن الحياة كما تقول لي دائماً عادت إلى صفائها ، وأن لا شيء يعكر نفسها الآن سوى غيابها عني أو غيابي عنها . . أصارحها بأنني أحببتها ، فهي سكينتي هنا ، هي عنواني ، وأشواقي ، وطمأنينتي . . وعليها أن تنسى الماضي . . أن تجمعه في كومة واحدة ، وأن تحرقه إلى الأبد ، أو أن ترميه في قاع البحر وإلى الأبد أيضاً . عليها ألا تجعل الماضي يتحكم بحياتها ، عليها إن لم تستطع حرق الماضي أو رميه في البحر ، أن تقتلعه وتحتجزه وتقفل عليه بقفل كبير . . كي يأكل نفسه بنفسه ، كي يتلاشى ، كي يموت . . وأصمت قسراً لأن سيلفا ، أخذتني بين ذراعيها وراحت تهزني بقوة شديدة لم أعهدها فيها ، وراحت تصرخ لا تتحدث مثلهم ، لا تقل كلامهم ، لقد دمروني بكلمات . . الاعتقال ،

والسجن ، والتلاشي ، والموت . . لا تعد كلامهم على مسامعي أرجوك ، ظلَّ بعيداً عنهم ، لا تحرث المسافة التي هي بينك وبينهم . . دعها مملوءة بالأشجار ، والنباتات ، والأزاهير . . دعها ملعباً للطيور ، والأطفال . . والكلام الجميل ، وليذهبوا هم والاعتقال ، والزنازين ، والخوف ، والقلق ، والتلاشي ، والموت . . إلى الجحيم . . إياك أن تكون مثلهم . . إياك إياك . . . وتنهار سيلفا بين يديَّ ، تسقط أرضاً ، فأرفعها ، وأهزُّ لها رأسي أنني سمعتها ، ووعيت ما تريد قوله . . ولم أدر كيف تقاودت وإياها مرة ثانية إلى داخل غرفتي . . عدنا طائعين صاغرين لنداء الروح مرة أخرى . . وداخل الغرفة لم أدرِ مَنْ أوقد من طوال ليلة مطرها يعزف أجمل موسيقى تتناهى إلينا من نافذتين اثنتين . . موسيقى حاولت كل جهدها أن تأخذ بموسيقى الجسدين . . كي يغدو الهدوء هدوءاً في غرفة حانية مثل قوس . . صارت كلها عشاً لاثنين يركضان يركضان يركضان في منفسح المحبة الطويل العميق . . لا شيء تحت أقدامهما سوى العشب المندى ، ولا شيء أمامهما سوى نهر صفحته لامعة ، وماؤه ندّاه . . يدعوهما أكثر فأكثر كي ينحدرا نحوه ، نحو الغياب .

هنا ، في مطرح ضاق به المكان يجول اثنان تائهان وراء روحين كادت إحداهما تطوي الثانية . . روحان تنزفان حبرهما عطشاً للرواء الكبير . . هنا لا شيء يفصل بينهما سوى تحويمات الغيوم . . هنا لا كلام ، ولا أصوات ، ولا همسات ، ولا أنّات ، ولا جدران ، ولا سقوف . . هنا فضاء تلفه فضة ذائبة . . وصمتٌ عميم . .

فجأة ، أسمع دقاً على الباب ، نقرات أقوى من نقرات المطر ، أبعد من مسارّرة أو وشوشة . . الدقات تتعالى . . فأنهض إلى الباب ، لا أدري إن كنت قد فتحته ، أو أنه كان مفتوحاً . . فوجدت أمامي العجوز أم أهارون ، وبيدها صينية قهوة عليها أربعة أو خمسة فناجين قهوة ، وإبريق قهوة ،

وخلفها ثلاثة أو أربعة من الشرطة يشكلون خلفها كتلة عمياء من ظلمة مبهمة . . سمعت العجوز أم أهارون تقول : جئنا كي نشرب القهوة معاً ، قلت دون أن أدري : أهلاً ، وتقدمت نحوهم خطوة كي لا يدخلوا الغرفة ، فيطير السحر ، ويعتكر الهواء ، ويزول المعنى . . أحد أفراد الشرطة سمعته يقول بحدة : السيدة سيلفا عندك . قلت : عندي . قال : نريدها ، وتقدم نحوي خطوة ، قلت وأنا طي ارتباكي وحيرتي : أرجوك ، أرجوكم ، انتظروا قليلاً . وما إن انتهيت من جملتي حتى تعالى صوت سيلفا من ورائي منبهاً لوجودها ، فالتفتُ إلها ، كانت بكامل قامتها ، وبكامل طمأنينتها ، قالت لهم : نعم . فقال أحدهم بصوت لا يخلو من أسى : لقد أخبرتنا العجوز أنك أتيت إلى هنا منذ ساعات ، ولم تخرجي ، وأنها تنصتت عليكما ، فلم تسمع لكما حديثاً . . فظنت أن هذا المستأجر قتلك ، لهذا أخبرتنا ، فجئنا . . نرجو أن ترينا أوراقك الثبوتية ، فاستدارت إلى داخل الغرفة ، ثم عادت ، ودفعت أوراقها إليه ، فنظر فيها ، ثم أعادها إليها ، وهو يقول لها : لا شيء يقلقك هنا . . فهمهمت : لا شيء ، وبحركة مباغتة منها ، ضربت صينية القهوة التي تحملها العجوز أم أهارون بقدمها ، فطارت فناجين القهوة وتبعثرت شظايا ، كما طارت كأس الماء ، وطار الإبريق . . وصوت العجوز أم أهارون يهمهم : فناجيني ، إبريقي ، كأسي . . ولم تتكلم سيلفا ، لم تقل كلمةً ، واستدار أفراد الشرطة ، وهبطوا الدرجات الخشبية ، والعجوز تصرخ بهم : فناجيني ، إبريقي ، كأسي ، وحين مضوا ، وتواروا في الظلمة ، راحت العجوز تبكي وتستغيث وترجو سيلفا أن تعوّض عليها ما خسرته في فناجينها . . فناولتها سيلفا قطعة نقدية كبيرة ، فتلقفتها ، وراحت تنظر إليها بتمعن ، وقد ظننت أنها ستسر بها ، لكنها عادت وصرخت بي ، إن ثمن الفناجين أكثر لأنها هدية من والدتها في بودابست ، فناولتُها قطعة ثانية مساوية للقطعة الأولى رغبة مني في طيّ

المشهد واختتامه . . غير أن العجوز لم تكتف بالمبلغ الكبير ، فراحت تقول : وإبريقي ، وكأسي . فقلت : الكأس لم تنكسر ، وإبريق القهوة لم يخدش ، فقالت : لا ، خسارتي فيهما كبيرة أيضاً . قلت : لندع أمرهما للصباح يا أم أهارون . . أرجوك . . لكنها لم تمض إلا عندما أعطيتها قطعة نقدية ثالثة . . فاستدارت بعد أن أخذت الكأس والإبريق ، وصوت نشيجها يتصاعد مثل بكاء طفل . .

وعدت إلى سيلفا ، فوجدتها تضع رأسها بين كفيها ، وتشد عليه ، حين أحست بعودتي أخذتني إليها ، إلى صدرها تماماً ، وأغلقت عليَّ بذراعيها ، وهي تهمهم . . أنا السبب ، سامحني . . وحين طال الصمت بيننا ، سألت سيلفا ألم تمر بالعجوز حين صعدت إليَّ . فأخبرتني أنها مرت بها ، وأنها جاءتها بهدية ، قلت : هدية . فقالت : هدية ، علبة حلويات فاخرة ، لعلها لم تعرف طعمها في حياتها . قلت : لكن لماذا فعلت ذلك . قالت : عصاب الخوف ، هستيريا القلق ، كل شيء في هذه البلاد يقوم على عصاب الخوف وهستيريا القلق . قلت : لكنها تعرفني وتعرفك . قالت : وتعرف أننا على علاقة عاطفية أيضاً . قلت : إذاً ، جنت العجوز : قالت : حالة من حالات . . ونهضت من بين يدي سيلفا ، افتككت نفسي ، وأنا أهمهم لها : سنشرب القهوة . فقالت : سآتي معك ، ومشينا متخاصرين نحو المطبخ ، وقلبي يحدثني أن العجوز أم أهارون قابعة في مكان ما في الظلمة تراقب خطونا ، وفي المطبخ ، وبينما نحن بانتظار غليان القهوة ، واقفنا صورتنا البادية في المرآة ، وابتسمنا ، فشدتني سيلفا إليها وهي تتمتم : كم أحب هذه المرآة ، وكم أحب مواجهتها . . كي أختلس النظر إليك وأنت تُقبلني على رقبتي ، وأصابعي تباعد لشفتيك خصل شعري الطويل . . فأشد سيلفا إليَّ ، ورويداً رويداً نسينا المرآة ، والمطبخ ، والقهوة ، وغليان الماء ، ونسينا وقوفنا أيضاً فمشينا وراء بيوت راح أهلوها

يلوحون لنا ، وبساتين مسيجة بالبهجة راحت تغوينا ، وطيور تتطاير وتتقافز أمامنا وخلفنا لكأنها تجول من حولنا في شباك من الهواء . . ورعيان يجولون بأغنامهم ومعيزهم هنا وهنا ، ينفخون في ناياتهم كلما مررنا بهم ، وصبايا يمشطن شعورهن حول الغدران ، وأخريات يغسلن الثياب والأواني وجزز الصوف . . يلوحن لنا بنباتات النعنع لعلنا ننحدر إليهن أو نميل ، وضباب ندي يلفنا مثل رداء . . ولم ندر كم مشينا ومشينا ، ومن واقفنا وجالسنا ، ومن تحدثنا إليه وحدَّثنا ، ومن تنبهنا إليه ونبهنا . . ما ندريه الآن هو أننا متعانقان ، فوق أرضية المطبخ الخشبية ، ويد العجوز أم أهارون تهزني ، وأن بللاً ما أصابني . . أرفع جسدي ، فأستوي في قعدتي ، وأناظر العجوز أم أهارون التي راحت تخبرني بأن رائحة الغاز هي التي جعلتها تصعد إلى هنا ، فدخلت إلى المطبخ ، وأغلقت جرة الغاز . . وأننا ، أنا وسيلفا ، مدينان لها بالكثير لأنها أنقذت حياتنا ، ونصحتنا ألا نجتمع معاً داخل المطبخ لأن ناراً واحدة تكفيه .

ولم أقل شيئاً للعجوز أم أهارون التي استدارت راجعةً ، فبدا جسدها الثقيل وكأنه امتص أطرافها . . يمشي بها دونما تلويح أيدٍ أو انفراج خطا . . ، وحين توارت أسقطت بصري على سيلفا ، فرأيت نومتها الغزلانية الحذرة ، وابتسامتها المشقوقة مثل خط القلم» .

ملحوظة :

اعذرني ، يا صديقي ، لأنني لم أحدثك عن أسواق القدس الأخرى التي زرتها ، لم أحدثك عن شيء من عتابي لسيلفا . . . فقد التهمت الصفحات أسطري . . سأقول لك كل شيء في المرة القادمة ، ورجائي أن تكتب إليَّ» .

في الأسواق.. مرة أخرى

«ماذا أحدّثك ، وعن أي شيء . .

فكل ما تراه العين هنا ، جدير بالحديث ، وكل ما تسمعه الأُذن جدير بأن يعاد مرات ومرات . .

ها أنذا أكتب إليك ، بعد عودتي من أسواق القدس التي لا أدري كم من المرات مررت بها ، وكم ماشيتها . . فالأدراج المتوالدة على الدوام هنا . . لها حكايات وحكايات ، والناس الذين يجالسونها لهم حكايات وحكايات ، والباعة الذين يمرون بها لهم أصواتهم ونداءاتهم المميزة وكأنها إيقاع آخر للحياة . . لا أشعر هنا بأن أحداً ، كائناً من كان ، بلا عمل ، فالجميع يعملون ، حتى الذين تراهم للوهلة الأولى جالسين لا هم لهم ولا شغل سوى الحديث والتدخين ، ومرامقة الآخرين . . هؤلاء يعملون أيضاً ، ففي لحظة واحدة تراهم يفرون من الحديث والتدخين والمرامقة . . وينهضون إلى أعمالهم ، يرافقون السياح والحجيج ، أو يأخذون بأرسنة الخيول ، أو يفرغون حمولة عربات الجر ، وسيارات الشحن الكبيرة ، فالقدس مثل المطر . . تصيب بخيرها الجميع ، صغاراً وكباراً ، رجالاً ونساءً ، أخياراً وأشراراً . .

ما أود أن أحدثك عنه ، هو زيارتي لسوقي العطارين وسوق اليهود ، فقد رأيت فيهما ما غم قلبي ، وما أفسد نهاري ، كل شيء هنا ، في القدس ، يتغيّر ، ويتبدّل ويتجدد مثل الهواء ، مثل المطر . . والثابت الوحيد

هو البغالة وأفعالهم الشيطانية المتناسلة تباعاً من مغارات العذاب والقهر . .

ها نحن ، أنا والحوذي جو ، ننتظر الدليل فرج الذي هاتفه جو كي يرافقنا من أجل رؤية بعض الأسواق ، إن كانت صحته تسمح بذلك ، فاستجاب لرغبتنا . . ها نحن نقف تحت قوس حجرية وردية اللون ، تكاد تبرق وتضيء انحنت فوقنا مثل سرب قطا . . وقد استسلمت للمطر الربيعي ، وتحتها كفان حجريتان لهما شكل تاجين عبرتهما تطريزات النباتات الحجرية . . وتحت الكفين عمودان من الرخام الوردي الأملس الناعم المستدير .

كنا ننتظر الدليل فرج في هذا المكان الذي حدده للحوذي جو . . والناس يمرون بنا في ذهاب وإياب متصلين . حين جاء إلينا قال لنا سنبدأ من هنا من هذه البوابة ، ومن عند هؤلاء النساء اللواتي يفترشن الأرصفة الحجرية ذات الزرقة المطفأة ، قال ها هن ، كما تريان ، يجالسن دلاء وقففاً ، وسلالاً ، وجوانات ، وصناديق خشبية ، وحقائب تنكية ، وأخرى جلدية ، وبراميل تنكية وأخرى بلاستيكية ، وأكياس خيش مملوءة بالنباتات والأزاهير اليابسة ، وصناديق كرتونية واسعة ، وأواني نحاسية ، وأخرى من الألمنيوم ، هذه هي الألبان ، وأقراص الجبنة ، والقريش ، والزعتر الأخضر ، والذهبي ، والترابي ، والأصفر ، والنحاسي ، وها هو ذا الزيتون المعطون ، والمسلوق ، والمجفف ، والتفاحي ، والمقدسي ، والخليلي ، والتلحمي ، والمعطوش ، والمائي ، والزيتي ، والعسوادي ، والجوزي ، والخضيري ، وأبو لمعة ، والطولاني ، والمنقط ، والمدرّب والعسلي ، والخستاوي ، والعيني ، والريحاوي ، والغوشي ، والليلي ، والبناتي ، واللوزي ، وعوينة العجلة ، والقمري ، ورأس العبد ، والكموني ، والدومي ، والخرزي ، واللكسي ، والمزرزر ، والمكوشف ، وأبو عقدة ، وأبو خديد ، والصواني ، والمحزز ، والمهروس ، والجلط ، وراح يشرح لنا معاني الأسماء وأسباب التسمية . .

وأشار إلى نساء أخريات يبعن أشياء لا أدري ما هي ، وما فائدتها واستعمالاتها ، راح يسميها ويشرح لنا عن أهميتها ، كنا نمر بها ، وصوته يتعالى معدداً ، قرن الغولة ، أبو شوكة ، الدبوسي ، العصفر ، فولة المجنون ، القاسومة ، حشيشة الجبل ، عشبة ستنا مريم ، النبوشي ، بصل الثعالب ، المبروكة ، المفتولة ، الدبوسية ، الزنجبيل ، القرفة ، الطاموسة ، عنب الخلد ، بندورة الثعابين ، قثة الحمار ، الجهجان ، الخرفيش ، السوداوية ، المزنرة ، عشبة الراعي ، وردة الفرنجي ، الجريص ، أبو عكفة . .

أتعرف ، يا صديقي ، لولا تسجيلي لهذه الأسماء فور سماعي لها لما احتفظت بها ذاكرتي ، إنني أسميها لك ، كي تستعيدها من ذاكرتك مرة أخرى ، فلا بد من أنك قد مررتَ بهذه الأسواق وتجولت فيها وعرفتها ، أرجو أن تُسر وأنت تقرؤها . .

ها هي ذي رائحة طيبة ، لكأنها رائحة بخور أو مسك أو فاكهة تهب علينا ، رائحة في غاية الرهافة والنعومة واللطف . قال الدليل فرج ، ها نحن في مدخل سوق العطارين ، ستكون السوق قليلة الازدحام والاكتظاظ لأن غالبية متسوقي العطور من النساء ، والوقت ما زال مبكراً لكي يأتين إلى هنا . .

ها هي ذي واجهات المحال تقابلنا بلمعانها الأخّاذ ، وكأنها صفحات الينابيع ، محال في غاية النظافة والقيافة والترتيب ، وأرصفة ممدودة أمامها مثل الأكف المحناة ، مبلطة بالآجر القرميدي ، ونساء مثل أعواد الخيزران باكرن السوق بأثوابهن السود المطرزة بألوان بديعة يتخيرن المحال والواجهات ، فيصبحن بين داخلات وخارجات تلفهن الهمسات والتمتمات . . ها نحن نمر من أمام الواجهات البلورية وقد اصطفت خلفها الزجاجات الصغيرة والكبيرة ذات الألوان المتسلسلة من الأبيض إلى الأزرق إلى الأصفر ، إلى الأخضر إلى الأحمر . . وفي مقدمة الأرصفة ،

بائعو الزجاجات الفارغة ، والأزهار اليابسة ، والأوراق المعطرة . . يقف الدليل فرج لكي يشرح لنا ، فيقول هذه القفف والسلال وصناديق الكرتون والخشب فيها أوراق الليمون ، والطيون ، والغار ، والنعناع ، والزعتر ، والخاتمية ، والبابونج ، والمليسة ، والزوفا ، والطروسية ، والبيتامية ، والناشوية ، والخاتونية ، والعطرة ، والريحان ، وعريدة الجبل ، وعشبة الوادي ، وقناديل المغر ، ووراقة الماء ، والمنداية ، والمخملية ، والساهية ، وأم رقبة ، والشومر ، وهنا في الجوار توجد الأزاهير ، أزاهير الياسمين ، والجوري ، والشامية ، والملوكية ، وتاج العروس ، والشكرية ، والنرجس ، والعليق ، واللوز ، والأميرية ، والشموم ، والقرصعنة ، والدفلى ، والنوالة ، والنجدية ، والعرعر ، والمباركة ، والساكتة ، وفم السمكة ، والدودحان ، والبرقوق ، والصفرية ، والرقاقة ، والمسكية ، والمحكمة ، وزهرة الليل ، . . . أسمع الدليل فرج يسمي أنواع الأزاهير ، وأنا أكتب أسماءها ، وأستعيد لفظها . . ونمشي ، فأقرأ أسماء المحال ، فأرى أنها مأخوذة من أسماء الأزهار والأودية والينابيع والغدران ، والنساء ، وتجليات الصباح والمساء ، وكلمات الحب ، وعناوين الأغاني . .

هنا ، وعلى الأرصفة أرى باعة المعاجين والعطور المعبأة في أنابيب زجاجية وأخرى بلاستيكية رفيعة جداً مثل الأصابع ، كما أرى الباعة المتجولين وهم يشدون إلى صدورهم علباً خشبية أو أخرى كرتونية صغيرة مملوءة بالعطور ، والمكاحل ، والأصبغة ، يطوفون بها على الناس ، وينادون عليها مرغبين ، وباعة جوالين آخرين يحملون بين أيديهم أطعمة وأشربة ، منها سندويشات معدة ، ومنها أقراص خبز ، وجوز هند ، وقطع حلويات ذات أشكال زاهية ، نمشي فتبدو بعض النساء داخل واجهات البلور كما لو أنهن دُمى ، أو عرائس ، أو لوحات متحركة ، نمشي فتماشينا الروائح . . أسمع الدليل فرج يقول لنا : ما من نبتة أو زهرة في القدس إلا ووضع

العطارون منهـا عطراً ، لهـذا من الصـعب جـداً أن نحـيط بأنواع العطور ومسميـاتها ، هنا . . مسابح معطرة ، وأساور ، وخواتم ، وسلاسل ، وقطع خشبية ، وأعواد ، وشموع ، وصلبان ، وأتربة ، وصخور ، وحجارة ، . . كلها معطرة ، ومثل هذا الأمر لا يوجد إلا هنا في القدس . استوقفت الدليل فرج وسألته عن القطع الخشبية ، والصخور ، والحجارة ، والأتربة المعطرة ، فيقول : العطارون يبيعون كرات خشبية ، وقطعاً من الصخور والحجارة ، وصرراً من التراب ذات رائحة زكية تشبه رائحة الند والصندل ، تضعها النساء في خزن الملابس فتعطي الملابس رائحة عجيبة .

وندور في السوق ، فيمرُّ بنا غلمان وشبان أمطرونا بالعطر ، وأصواتهم تتعالى (شم وصلِّ على النبي . .) وبصرنا يحوّم هنا وهناك مثل الطيور . . ومن السقف التنكي تدلت فوانيس نحاسية مشدودة إلى سلاسل نحاسية لامعة . . تجول بينها طيور الحمام . . وعند نهاية السوق ، أو قبل نهايته بقليل ، رأينا اجتماعاً لحشد من الناس والبائعين يلتفون حول نفر من البغالة والبغال والكلاب وقد قيدوا شاباً من يديه ، وأوقفوه في مواجهة أحد أعمدة المحال ، وراحوا يتناوبون على تكسير زجاجات العطر فوق رأسه ، وماؤها المعطر يسحُّ فوق جبهته وعينيه ووجهه وثيابه ، وبعضهم الآخر راحوا يضربونه بهروات غليظة على ظهره وذراعيه ، والشاب يصرخ متألماً . . والناس من حولهم في إقدام وإحجام ، يتقدمون ، ويتأخرون في محاولة لفك أسر الشاب ، غير أن الهروات والبنادق المشرعة والبغال الضخمة ، والكلاب الشرسة تحول دون تقدمهم والوصول إلى الشاب ، فجأة يقتحم عدد من الرجال الشاب المصلوب على العمود الحجري ، يأخذونه عنوة ويخيمون فوقه ، فتنزل عليهم الهروات ضرباً ، وتتعالى أصوات إطلاق النار ، ويشيع الهلع والاضطراب ، وتتعالى أصوات قنابل الغاز والدخان . . وأمام اندفاع الناس نحو الشاب والرجال الذين خيّموا

فوقه يتأخر البغالة إلى الوراء ، وتنسحب البغال والكلاب في هياج واضح . . إحدى الواجهات البلورية وبسبب المدافعة والازدحام تحطمت . . فتكسرت زجاجات العطر ، بعدما اصطدمت البغال المتراجعة بالواجهة فسال ماء الزجاجات على الرصيف ، وخربت المقاعد والطاولات بعدما داستها البغال . . ومن بين الجمع المحتشد رأيت الشاب الذي قيدت يداه ، والذي ضُرب وديس محمولاً على أيدي مجموعة من الشبان وكأنه كيس من الرمل ، فقد تدلى جسده وتهدل مثل ثوب فضفاض فوق أيدي حامليه .

سألت الدليل فرج عن سبب معاقبة الشاب وضربه ودوسه بالأرجل ، وما الذي فعله؟ فقال : هؤلاء البغالة ، يا خواجة ، لا يحتاجون لسبب كي يفعلوا ما يفعلونه . . أنا يومياً أمر بهذه السوق ، ويومياً أرى ما رأيته أنت الآن . إنهم يفتعلون أتفه الأسباب لكي يقوموا بمثل هذا العمل العدواني الرهيب . قلت : أيحدث كل ما يحدث ومن دون سبب؟ قال : من دون سبب .

ونخرج من السوق ، وقد أفسد المشهد المؤلم مزاجنا ، سألني الحوذي جو : أنواصل؟ فقلت : نواصل ، ولكن دعنا نستريح قليلاً في أحد المقاهي كي نلتقط أنفاسنا ، فهمهم : كي نمحو ما رأيناه . لذلك مال بنا الدليل فرج نحو مقهى صغير ، يتصدر سوق العطارين من الناحية الغربية ، مقهى وسيع ، كثير الطاولات والكراسي ، تحيط به نباتات مشتولة في براميل بلاستيكية ، وأخرى تنكية ، وشجيرات سرو قصيرة موزعة مقابلة في المدخل . . صدقني ، وقد جلسنا قرابة الثلاثين دقيقة في المقهى ، لم أدر ماذا شربت ، كما لم أدر ماذا قلت ، فقد ظل فكري مشدوداً إلى ما حدث وما جرى للشاب الذي لا أدري إن بقي على قيد الحياة بعد ذلك الضرب العنيف ، والدوس الوحشي اللذين أصاباه . ما كنت أتصور أن يكون الأذى

على هذا النحو من الجور البشع . وسألنا الدليل فرج ما إذا كان بمقدورنا أن نواصل مسيرنا ، فنهضنا ، قال : سندخل إلى سوق اليهود ، إنها هناك ، وأشار بيده إلى سوق موازية لسوق العطارين ، تلك هي السوق ، حيث هو مدخلها قرب أشجار الكينا العالية الضخمة ، إنها تقابل سوق التجار والصياغ التي تبدأ من تلك الساعة الرخامية العالية . . ومشينا تحت رذاذ المطر المحمول على كفّ الهواء الرهو ، بدت في مقابلتنا تماماً طيور كثيرة العدد التجأت إلى سقوف شرفات البيوت ، وطاقاتها الحجرية ، وأرفف أخشاب النوافذ . . بدت البيوت وكأن حيطانها طيور ترادف بعضها وراء بعضها الآخر حتى نهضت واستقامت . . بدت الحيطان مثل لوحة معلقة للطيور الهاجعة . . وفي الفضاء طيور أخرى تحوّم على شكل دوائر وعناقيد متصلة . . فاستحال لونها إلى لون الغيوم الدانيات .

ها نحن في مدخل سوق اليهود ، وها هم البغّالة والبغال والكلاب لكأن مشهدهم مشهد رتيب منقول بيد ساحرة من مكان إلى الآخر ، تكاد البغال تكون هي البغال ، وقد غطيت عيونها ، ووقفت مثل تماثيل خشبية أو حجرية . . . والكلاب السمينة العالية هي نفسها وقد وقفت وقفات ذليلة ، والبغالة هم هم . . رجال سمان ، تحيط بهم البنادق الرشاشة ، والقنابل البادية ، وقد اعتمروا خوذ الحديد . . . أحد البغالة يشير إلينا ، فتقدمنا نحوه ، كنت قد أخرجت أوراقي فدفعتها إليه فنظر فيها ، ثم نظر في أوراق الحوذي جو ، ودعانا إلى الدخول مستبقياً الدليل فرج الذي راح يجيب عن أسئلته ، وقفنا على مبعدة منهما منتظرين الدليل فرج أن يلحق بنا . . ورأينا البغّال يدفعه بعصاه الطويلة نحونا . . حين وصل إلينا سأله الحوذي جو عن أسئلة البغّال ، فقال : لعنة الله عليه . لقد اعتدت على استفزازاتهم وأفعالهم الشائنة . في مستهل السوق يقف بنا الدليل فرج إلى جوار امرأة سمينة جداً ، منفوخة الوجه ، منفوشة الشعر ، تجلس فوق

ركبتيها وكأنها في صلاة، بدت كما لو أنها شحاذة، فأمامها قرعة كبيرة مفلطحة، مفرّغة، فيها بعض الأوراق النقدية، وقطع النقد المعدنية. سألت الدليل فرج: لماذا توقفنا هنا، فرائحة المرأة تزكم الأنوف. فقال: انتظر قليلاً، وراقب هذه المرأة وقرعتها والمارين في السوق. سألته: لماذا؟ فقال: هذه المرأة تعمل جابية للمال اليهودي. قلت: هنا؟! قال: هنا. قلت: كيف؟ قال: على كل يهودي يمر بالسوق أن يرمي في القرعة قطعة نقدية تبرعاً لصندوق المال اليهودي العام، وحين تمتلئ القرعة بمال اليهود المارين بالسوق في نهاية النهار، تحملها المرأة وتمضي بها إلى هيئة صندوق المال اليهودي العام، وإلا فإنها تطوف بالقرعة على أصحاب الدكاكين كي يتمموا نقصانها، ونبهنا كي نراقب، فعلاً كان بعض المارة يمرون بالعجوز، يحيونها، ويرمون قطعهم النقدية في القرعة، والعجوز شائحة وراء بصرها هنا وهناك.. قلت للدليل فرج: تبدو وكأنها بلهاء. قال: إنها معاقة، فهي طرشاء خرساء.. وتجاوزنا العجوز، وهي تنظر إلينا بغرابة شديدة، ربما لأننا لم نرم شيئاً من نقودنا في قرعتها.. وحين تجاوزناها سألت الدليل فرج: لماذا هذان البغالان قريبان منها. قال: يعملان على حراستها، فقد سرقت العجوز مرات ومرات.. ومضينا نجول في السوق، فرأينا البضائع، والمحال، والناس، والباعة يترادفون تباعاً.. تماماً مثلما تترادف اللهجات، والنداءات.. هنا تبدو واضحة الأعلام الإسرائيلية، والرموز الدينية، فهذه شمعدانات سباعية الأصابع، ونجمة داوود، والكتاب المقدس، وقطع النحاس والفضة التي حملت صور أعلامهم، منها صورة للكاتب فرانز كافكا، وأخرى للكاتب يوسف بن عجنون، وثالثة لـ بن غوريون، ورابعة لـ هرتزل.

كانت السوق غاصة بالناس، والباعة المتجولين، فسألت الدليل فرج عن سبب الازدحام الشديد هنا، فقال: عادة ما يبيع اليهود بضائعهم

بأسعار أرخص من أسعار الأسواق الأخرى ، لهذا فهم يكسبون الكثير من الزبائن . قلت : العرب واليهود معاً . قال : العرب واليهود معاً .

على الرغم من الازدحام الشديد استطعت أن أميز أن سوق اليهود هي سوق كثيرة البضائع ، كثيرة التنوع . . هنا دكاكين الصاغة تجاور دكاكين الأحذية ، ودكاكين الأطعمة تجاور الحمام اليهودي الذي يقصده الناس من داخل السوق وخارجه ، ودكاكين الثياب والأقمشة تجاور دكاكين النجارة ، ودكاكين العطورات تجاور أفران الخبز ، ودكاكين الخرداوات تجاور دكاكين بيع البيض والدجاج ، ودكاكين الصوف والقطن تجاور دكاكين الحلويات ، ودكاكين صنع المفاتيح تجاور دكاكين الحلاقة . . والباعة المتجولون كثرة ، منهم من يفترشون الأرصفة ، ويحيطون ببضائعهم ، ومنهم من يجوبون السوق ذهاباً وإياباً ، وباعة الأشربة الساخنة شكلوا حولهم حلقات من الزبائن الذين جلسوا فوق كراسي القش الواطئة . . وفي منتصف السوق تقريباً ، يقف رجل دين بثيابه السود ، وقبعته السوداء الطويلة داخل قفص من القصب ، قفص يشبه سلة كبيرة ، وقد تعالى صوته بالوعظ . وبعض النساء والرجال والأطفال أحاطوا به ركوعاً ، وطاسة نحاسية واسعة ظاهرة أمامه ، تكاد تكون بين قدميه ، راح بعض الناس يرمون فيها بعض القطع النقدية ، وبغّالة يركبون بغالهم ، يماشون الناس في جولانهم . .

فوق الأرصفة تباع الأحذية ، والسلال ، والثياب ، وقطع الصابون ، وأرغفة الخبز ، والمربيات ، واللحم القديد ، والأسماك ، وطيور الدجاج ، وأقراص الكعك ، وقطع الحلوى ، والأجبان ، والألبان ، والحبوب ، والبيض ، والمعلبات ، وأكياس المعكرونة ، والأصبغة ، والعطور ، والفواكه ، والخضار ، وأدوات النجارة والحدادة ، والكتب ، والشباك ، وفي وسط دوائر مضاءة رأيت بعض المهرجين يقومون بحركات استعراضية ، وسحرة يجذبون الناس إليهم ، خصوصاً الأطفال ، كما رأيت بعض النسوة يوزعن بعض الألعاب

وقطع الحلوى والهدايا الصغيرة على الأطفال الصغار مثل الطيارات الورقية ، والبوالين ، والأقلام ، والألوان . قلت للحوذي جو : تبدو السوق هنا ، وكأنها جمعية خيرية ، أو منتزه ، قال : لنسأل فرج . فقال فرج ضاحكاً : هنا ، يقوم تجار اليهود بهذه الأساليب لكسب الناس ، وإن لم يستطيعوا كسبهم فإنهم يكسبون أطفالهم الذين يجرونهم جراً إلى هنا من أجل الهدايا الصغيرة ، وقطع الحلويات . قلت : لكنني أرى أن جميع أنواع البضائع والحاجيات تباع هنا ، وأرى خليطاً من الناس ، لكأن السوق ليست خاصة باليهود . فقال الدليل فرج : هذا صحيح ، فالجميع يأتون إلى هنا . قلت : وهل سبب الازدحام هنا يعود إلى رخص الأثمان فقط . فقال الدليل فرج : لا ، وإنما لأن الأمان متوفر هنا ، فالعربي الذي يأتي إلى هذه السوق يضمن لنفسه عدم الأذى والعقاب ، وعدم السؤال أيضاً ، في حين هو معرض للأذى والعقاب في كل لحظة إذا ما دخل إلى الأسواق الأخرى .

عندما سمعت إجابة الدليل فرجٍ نظرت إلى الحوذي جو مستشيراً فهز رأسه ، وضغط على شفتيه مؤكداً . قلت : هل نخرج . فقال : نخرج . قلت : أما من مقهى في الجوار ، فقال الدليل فرج : أتريدان الخروج . قلت : نعم ، فمشى الدليل فرج أمامنا ، وأخذنا من منعطف فرعي ، فانسلت السوق منا ، أو انسللنا منها ، وإذا نحن في الساحة العامة ، حيث هي دوريات البغالة والبغال والكلاب وسيارات الجيش ، والناس في ذهاب وإياب ، واجتماع وتفرق ، وحوارات ، وهمهمات ، وصمت ، والسيارات تدور في الساحة كأنها تدور في أرجوحة واسعة . . ومجموعة من الشبان يقفون أمام الجدار الحجري ، وقد قيدت أيديهم ، ورؤوسهم في طأطأة الإذعان المذلة ، أشرت إلى الحوذي جو بيدي كي يراهم ، فهزَّ رأسه بأسى ، وهمهم الدليل فرج . . الحياة هنا ، مع هؤلاء البغالة ، هي هكذا اعتقال ، ومذلة . . كم أنا حاقد على نوبل الذي اخترع البارود ، هؤلاء البغالة

يحكموننا بالبارود ، ويذلوننا بالبارود ، ويحجبون المستقبل عنا بالبارود . . وأنتم يفسدون عليكم متعة رؤية هذه البلاد المقدسة بالبارود أيضاً . . لا لغة في هذه البلاد سوى لغة البارود ، هؤلاء البغالة رأيتهم مرات ومرات نائمين والبارود بين أيديهم . . قلت : لعلهم يخافونك . قال : طبعاً ، هؤلاء لصوص ، الخوف في داخلهم . . قلت : أما استطاعوا خلال السنوات الماضية إذابة هذا الخوف ، قال : يا خواجة لن يستطيعوا مهما حاولوا لأن الخوف يلد معهم ، مثلما تلد محبة هذا الوطن مع الفلسطينيين . . المسألة لها علاقة بالزراعة ، اسأل السيد جو . فنظرت إلى جو ، فرأيته يبتسم ، وهو يهمهم ، فعلاً المسألة لها علاقة بالزراعة . . فجأة رأينا نفراً من البغالة يطاردون رجلاً نحيلاً يلبس ثياباً كثيرة ، يكاد لا يقوى على الركض ، حين وصلوا إليه انهالوا عليه بالضرب ، حتى وقع على الأرض مدمّى . . قلت للدليل فرج : ما ذنب هذا الرجل ، يبدو وكأنه فقير الحال .

قال : إنه مجنون . وهو ضحية من ضحاياهم ، عذبوه في سجونهم حتى فقد عقله ، إنه لا يعرف أحداً من أهله لا أب ولا أم ولا إخوة . . بيته الآن هي هذه الشوارع والساحات . البغالة يتهمونه بالتجسس عليهم ، لأنهم يرونه ليل نهار ، وهو مسكين يأكل من أيدي الناس ، ويستحم داخل هذه البحرات وقرب هذه النوافير ، يتعرى ربي كما خلقتني ثم يستحم ، عندئذ يطير عقل البغالة . . مرة كادت الكهرباء تقضي عليه ، لأنها كانت على تماس مع الماء ، أنقذوه في الرمق الأخير ، وفي المشفى اشتروا له ثياباً ، وحلقوا له شعره . . يومياً يضربونه ، ويذلونه ، وهو يتحاشى المرور بهم ، لكنهم وحين يرونه . . يتراكضون نحوه ويضربونه . . مرات ومرات وجدوه نائماً في حاويات القمامة ، وفي الحدائق ، والعلب الكرتونية . . وهذا بالضبط ما يفزع البغّالة . . يقولون إنه عاقل ، وجاسوس ، لكنه يدعي الجنون ، والبلاهة . أنا شخصياً أعرف أهله ، فقد حاولوا استرداده من

الشوارع والساحات مرات كثيرة لكنه كان يعود إليها . . لقد حسب كل بيت سجناً ، لهذا صارت الشوارع ، والساحات ، والحدائق ، وحاويات القمامة مكاناً لمأواه ، وصمت الدليل فرج .

أصارحك ، أيها الصديق العزيز ، فأنا لا أدري ماذا يحدث لي عندما أرى مشاهد كهذه ، كما لا أدري ماذا يحدث لمزاجي . . أشعر وكأن قوتي خارت ، وأن روحي الداخلية تهاوت إلى قيعان سحيقة . . بعيدة ، لذلك قلت للحوذي جو ، ما رأيك أن نذهب . قال : إلى المقهى . فقلت : إلى البيت ، قال : امتلأت النفس؟ قلت : امتلأت النفس .

فمضينا نحو الساحة الخلفية التي أوقف فيها الحوذي جو عربته وحصانه ، نقدت الدليل فرج أجره ، واعتذرت له لما سببناه له من تعب ومشقة ، وحييت روحه الوطنية ، وصبره على البغالة ، وعدم تركه لعمله كدليل . ونقدت الشاب الذي أبقى العربة والحصان لديه . . أجره أيضاً ، ثم مشت بنا العربة تحت رذاذ مطري . . ، في الطريق لم أستطع مقاومة نفسي التي راحت تستعيد كل ما رأيته مثل شريط تلفزيوني . . ، وعند كل لحظة كنت أغص . . وكنت أسأل نفسي : لماذا يجري هذا في بلاد سيدنا؟! .

ملحوظة :

حين خرجنا من سوق اليهود ، قال لي الدليل فرج ، إنني سأسر برؤية سوق النصارى ، فقلت له . . دع ذلك لوقت آخر ، أرجوك ، فوافقني . . أستاذي . . سامحني ، لأنني حين أكتب إليك أتخلص من شحنات الألم والغصات ، أبعد المشاهد الدموية التي أراها إلى أمكنة بعيدة لا أريد رؤيتها أو مقاربتها . . لذلك أصارحك بأن نفسي قبل الكتابة إليك . . ليست هي نفسي بعد الكتابة إليك . . لقد بتَ نافذتي ، وملاذي . . لهذا أرجوك اكتب إليَّ كي تصفو روحي أكثر . . كي أشعر أنك معي .

في ساحة مسجد الصخرة

«أكتب إليك ،

بعد أن عدت من ليلة لها علاقة بالسحر ، والجمال ، والأشواق السماوية ، عدت وما كان في بالي أن أعود لولا أن الجسد تثاقل عليَّ ، ولولا أن النعاس دهمني أو كاد . . كنت برفقة الحوذي جو ، والدليل فرج . . .

منذ الصباح هاتفني الحوذي جو ، قال : اعذرني لن أستطيع القدوم إليك ، فقد ارتبطت بأمر شديد الأهمية ، ولا بدَّ لي من أن أكون بعيداً عنك ، عندما ألتقيك سأحدثك بالأمر .

قلت : ليلى . قال : ليلى . قلت : لعل السماء ساقت إليك رضاها مع المطر . قال : بالفعل ، فأنا أعيش أزهى أيامي بقربها . قلت : أليس بالإمكان رؤيتها . قال : ستراها ، ولكن عليك أن تنتظر بضعة أيام . قلت : بضعة أيام . قال : بضعة أيام بالضبط ، قلت : وفي المساء . قال : في المساء ، أعددت لك مفاجأة مهمة . قلت : ألا تخبرني بها . قال : أقول لك مفاجأة . قلت : طيب ، متى ستأتي ، قال مع الغروب ، أو قبل ذلك بقليل . سأهاتف الدليل فرج ، لأننا بحاجة إليه . قلت : إذاً المفاجأة في الخارج . قال : نعم في الخارج ، وأرجوك أن تنام ساعة أو ساعتين قبل قدومي إليك ، لأننا سنتأخر ليلاً . قلت : الأمر له علاقة بـ ليلى . قال : لا . قلت : بـ سيلفا . قال : لا ، قلت : بـ البغّالة . قال : لا . . قلت : زيارة

المكان . قال : زيارة المكان . قلت : سأنفذ تعليماتك بحذافيرها يا جو . قال : إلى اللقاء ، فقلت : إلى اللقاء .

بدا الحوذي جو مرتبكاً ، ورنّة من الاضطراب تخالط صوته ، ومع ذلك لم أقلق فما دام الأمر بعيداً عن سيلفا وليلى والبغالة فالدنيا بخير ، ظللت طوال الوقت منصرفاً إلى مشاهدة التلفاز ، وشرب القهوة ، وقراءة رواية لكاتب إسرائيلي اسمه يزهار سيملانسكي ، عنوانها (خربة خزعة) ، رواية صغيرة تؤخذ بيد واحدة ، ومن الممكن قراءتها في جلسة واحدة ، الرواية محتشدة بقطع الحديد المبرودة الحادة ، وطعوم حامضية ، وبطولات دونكشوشتية وقتل ، ودماء ، وتهجير ، . . كلما قرأت صفحة وددت أن أرمي الرواية جانباً ، لكن صفحاتها القليلة أغرتني كي أكمل قراءتها لأرى ماذا يريد هذا الضابط الإسرائيلي الذي يصف أفعال كتيبته العسكرية في أثناء احتلالها لقرية [خربة خزعة] الفلسطينية ، وكيف أنهم لغموا البيوت ، وقتلوا قطعان الأغنام والمعيز ، وطاردوا الأبقار والحمير والجواميس ، وطوقوا القرية من جهات ثلاث وتركوا للأهالي جهة واحدة كي يخرجوا منها ، كي يهربوا بأرواحهم . . وكيف أن الدرب المشجر راح يتلقى الذين سقطوا برصاص جنود الكتيبة على جانبيه ، وأن بيوت القرية ، وهي قليلة ، فُرغت من أهلها خلال ساعتين أو أكثر بقليل . . ويصف النساء والأطفال والشيوخ الخارجين ركضاً بعدما شبت النيران بالبيوت . . أنهم كانوا مثل الجرذان شاحبين خائفين يلفهم القلق مطرودين بأصوات الرصاص ، ولا شيء يشير إلى أنهم أحياء سوى أدعيتهم ورجاءاتهم المتصاعدة إلى السماء . وتقف الرواية عند ظفر جنود الكتيبة بالقرية ، ودخولهم إلى البيوت من أجل إجلاء من تبقى فيها . . وقتلهم للعجزة ، وللحيوانات التي لم تغادر مواليدها الجدد ، ونهبهم لما حلا بعيونهم وأخذه هدايا لعشيقاتهم ، وتذكارات لبطولاتهم . . كانوا وتنفيذاً لرغبة قائدهم مصممين

على ألا يبقوا على شيء يتنفس الهواء ، فالهواء ليس من حق الفلسطينيين ، ولا من حق حيواناتهم . . عليهم أن يخرجوا من هذا الهواء ، أن لا يمروا به أو يمر بهم . . لأنهم يلوثونه . . ويقف الكاتب ، عند سطر نافر ، يقول فيه ، هل كان الجنود محقين في قتل هؤلاء النساء والأطفال والشيوخ ومطاردتهم؟ ولا يجيب! مفاخرة بالدم ، والقتل ، والترويع ، ووصف للجثث المتعفنة ، والمهانة والمذلة اللتين سربلتا النساء والأطفال والشيوخ . . وحالات الخوف التي اجتاحت الجميع . يقول الكاتب لقد أحس بأن أشجار الفلسطينيين كانت خائفة وإلا لماذا كانت أغصانها ترتجف وتهتز . . مذكرات شخصية للكاتب يروي فيها مشاهد من أفعاله وأفعال أعوانه حين كان ضابطاً في الجيش الإسرائيلي . . ويختتم الرواية متفاخراً بأن أرض الميعاد استعيدت هكذا . . أي بالدم والقتل . .

بعد أن انتهيت من قراءة الرواية شعرت بالأسى فنمت كي أمحو ما علق برأسي من أحداثها ومشاهدها ، ولم أستيقظ إلا على قرع شديد على الباب . . فنهضت . . وأنا أهيئ كلمات الاعتذار للحوذي جو ، فلا بدّ من أنني تأخرت عليه ، فتحت الباب وفمي مفتوح على وسعه ، كنت أتثاءب باستمتاع ، وإذا بالباب سيلفا . . فارتبكت ، كنت عارياً أو أكاد ، لذلك مددت رأسي من الباب لأرى إن كانت العجوز أم أهارون برفقتها . . لكنني لم أجدها ، كانت سيلفا وحيدة ، فدفعتني بكفها برفق إلى الداخل ، وهي تضمني . . تراجعت خطوات إلى الوراء ، وارتميت على السرير . . لم أقل لـ سيلفا كلمة ، ولم تقل لي كلمة . . وظللنا هكذا هي معلقة فوقي مثل قنديل ، وأنا في حال من الاستسلام العجيب ، والباب مفتوح ، ولم ندرك بأنه مفتوح إلا عندما أغلق بهدوء ، لعل يد أم أهارون أغلقته ، أو لعل يد الحوذي جو أغلقته ، فتنبهت ، باعدت سيلفا عني ، ونهضت كي أرى اليد التي أغلقت الباب علينا ، وما إن وصلت إلى الباب حتى رأيت أم أهارون

تهبط الدرجات الخشبية . فتنفست الصعداء ، وأخذت شعري بين أصابعي حرثاً ، ثم عدت فتناولت ثوبي ، ارتديته ، وخرجت إلى المطبخ ، غسلت وجهي مرات ومرات ، ووضعت إبريق القهوة . . إذ لا بد من القهوة كي أعي ما يحدث . . وعدت إلى الغرفة ، وأنا أرى العجوز أم أهارون داخل بيتها تجول وكأنها تبحث عن شيء ما . دخلت ، فرأيت سيلفا ، ربي كما خلقتني ، تواقف مرآة الخزانة الطويلة ، وهي ترش جسدها بالبودرة ، والعطر . . يا لهذا الجسد الذي يعيدني دائماً إلى نبعة المرأة الأولى ، إلى شجرة الجمال الأولى ، إلى دنيا المؤانسة الأولى ، إلى روح المساكنة والطمأنينة التي تولدهما المرأة بحضورها ، إلى أبجديات الكيمياء الأنثوية الأولى . تستدير سيلفا ، وقد أحست بوقع خطاي ، وتدنو . . يا لهذا القبول . . لكأنها بستان ويدنو ، هودج ورد ويفوح ، قارورة عطر تتلامع ، وتشف . . هنا ، وفي هذا الوقت ، وأمام هذا الحضور الأنثوي . . لا مدار سوى مدار سيلفا ، ولا روح سوى روح سيلفا ، الآن من بمقدوره أن يفكر بالحوذي جو ، أو بالمشاهد المؤسية التي رآها تباعاً ، وبالأذيات التي راحت تتراكم كالبيادر . . من بمقدوره أن يهرب من هذه النيران الأزلية ، من هذا الدفء السراني . . دنيا دارت بنا دورتها المشتهاة ، فلم نعد . . إلا على قرع الباب . قلت لـ سيلفا : أنا على موعد مع الحوذي جو ، لعله بالباب . . وأخذت ثيابي ، وخرجت خلال لحظات . . وحين فتحت الباب كانت العجوز أم أهارون مرة أخرى . . نظرت إليَّ باسمة ، وقالت : القهوة جاهزة ، واستدارت . فعلاً لا بدّ من القهوة ، وعدت إلى سيلفا ، فرأيتها مثل بحيرة نبيذ ، أو بقعة أرجوان . . راحت تشع وتبرق . . كل شيء فيها ، يشع ويبرق قالت : أم أهارون . قلت : أم أهارون جاءت لكي نشرب القهوة . قالت : إن أردت النزول إليها عليك أن تحملني ، لأنني لا أستطيع النهوض . قلت : آتيك بالقهوة إلى هنا . قالت : ما أحلاك . هات فنجانك أنت أيضاً ، ودعنا

نشرب القهوة في السرير . . أريد أن أراك . قلت : جو في الطريق . لا بدَّ من أنه في الطريق ، لعل ملاكك الحارس آخّره في الطريق . . قالت : لماذا لا تقول إنه ملاكك الحارس هو الذي أخّره . . قلت : ربما . وهبطت نحو أم أهارون لأخذ فنجاني القهوة ، فوجدت عندها ، الحوذي جو يشرب القهوة ، فهب واقفاً يعتذر مني لأنه تأخر عليَّ . قلت : سيلفا . . فوق . قال : تدبر أمرك ، لأننا تأخرنا ، فالدليل ينتظرنا . . منذ أكثر من عشرين دقيقة . قلت ، وأنا أعود أدراجي دون أن أخذ القهوة ، حالاً حالاً . . دخلت الغرفة ، فوجدت سيلفا ممددة على بطنها وقد غمر رقبتها وظهرها شعرها الأشقر الطويل . . يا لمرآها المدوخ هذا . . أقف مشدوهاً لكأنني أراها للمرة الأولى . . امرأة من عطش ، كلما ناظرتها غرقت فيها أكثر ، وكلما وردت نبعتها ازددت عطشاً . . الآن ، من بمقدوره أن يطلب منها النهوض . وكيف لي أن أرفع بصري عنها . . اقتربت منها ، وهامستها : جو في الخارج ، قالت : والقهوة : قلت : في الخارج أيضاً . ولم أدر كيف لملمت جسدها ، وارتدت ثيابها ، ثم خرجنا معاً . شربنا القهوة ، ثم استأذنتُ أم أهارون والحوذي جو ، وسيلفا ، وعدت إلى غرفتي ، كي استبدل ثيابي ، دخلت فأخذت حماماً ساخناً ، ثم ارتديت ثيابي على عجل ، وهبطت . . فوجدت الحوذي جو وحيداً ، سألته عن سيلفا : فقال : ذهبت ، قلت : وأم أهارون؟ فقال : ذهبت أيضاً ، لهذا مضينا ، أخذنا عربته ومشينا إلى أين لا أدري!

ثمة ريح خفيفة تنشط بين حين وآخر . . وطيها نداوة محسوسة . . أشعر بالبرد يجتاح كياني ، ولكن روحي في صحو أكاد لا أتبين سببه . قلت للحوذي جو معترفاً : أنا بردان . قال : دقائق ونكون في المكان الذي نقصده . قلت : مطعم . قال : لا . قلت : دار سينما ، دار مسرح . قال : لا . قلت : مكتبة ، كنيسة ، مقهى ، قال : لا . قلت : مسجد . قال : مسجد .

كان الوقت قبل حلول الظلمة بقليل ، والأضواء راحت تتكاثر مثل كلام حميم ، والسيارات تجري في الطرقات مثل مسيل زيت ، والبيوت تبدو وتختفي ، وتجري هنا وهناك كلما مررنا بها مثل الأطفال العابثين ، والحدائق توازينا ، والمطر الذي بدأ رذاذه يصل إلينا . . يماشينا . قلت للحوذي جو : جو هل عملت في الجيش من قبل . قال : لا . قلت : في سجن؟ قال : لا . قلت : هل كنت قاطعاً للطريق في مستهل شبابك ، قال : لا . . قلت : إذاً لماذا لا تحدثني عن المسجد الذي سنزوره . قال : ألم أقل لك إن الأمر مفاجأة . قلت : ليس الأمر مفاجأة وحسب ، فأنت لا تحدثني أيضاً . قال : عقلي مشغول بها . قلت : ليلى . قال : ليلى . قلت : أليس معيباً يا جو ألا تعرفني إليها بعدما التقيتها . قال : أجل ، معيب ، ولكن الظروف لم تسمح بعد ، إذ لا بد من استشارتها . قلت : اسألها . قال : سألتها ، لكنها لم تجب . قلت : حقها ، فالنساء مثل الطيور لهن احتجابات ، وطيران ، وشرود . . لا أحد يعرف أسبابها . قلت : أتراها يومياً يا جو . قال : يومياً . قلت : وعن أي شيء تتحدثان ، أعني ألم تحدثها عني . قال : بلى حدثتها . قلت : وماذا قالت؟ قال : لم تقل شيئاً ، قلت : كيف؟ قال وقد أوقف العربة ، فصرّت عجلاتها ، وهو يستدير بوجهه إلى ناحيتي تماماً : لأن الموتى لا يتحدثون يا صديقي . قلت : ماذا؟! قال : ليلى ماتت . قلت : كيف؟ ومتى حدث ذلك ، قال : منذ وقت بعيد . قلت : لكنك كنت دائم البحث عنها . قال ، وقد جرت العربة . . : هذا صحيح ، لكنني كنت أبحث عن ميتة . قلت : في المرات السابقة حدثتني عن أخبار مفرحة تتعلق بها . قال : صحيح . لقد أخبروني يومذاك عن وجودها ، ففرحت ، وحاولت أن أوصل معاني فرحي إليك ، قلت : وسيلفا فرحت . قال : كانتا صديقتين . قلت : هل عملت في الشرطة السرية من قبل يا جو . قال : لا . قلت : إذاً من أين تأتي بهذا الكتمان ، أين تعلمته؟

قال : من ليلى . قلت : كيف؟ قال : ظللت صديقاً لها طوال سبع سنوات ، ولم أعرف مهنتها . كانت تقول لي دائماً إنها تعمل مع فنانين وفنانات في مجال المكياج ، وإن عملها في الليل غالباً . وقد صدقتها ، ولم أعرفها كاذبة في يوم من الأيام ، إلا عندما تعرضت لحادثة سيارة ، فذهبت إليها إلى المشفى ، وقد غابت عني أياماً دون أن تخابرني ، ذهبت إليها وقد تعافت من جروحها . هناك في المشفى رأيت أنفاراً من الجيش يزورونها فسألتها عنهم ، فقالت وهي تبكي : جو ، قد أموت . لأن عملية جراحية كبيرة تنتظرني ، لهذا أرجوك ، كن معي ، وسامحني . فقد كذّبت عليك . أنا لا أعرف شيئاً عن الفنانين ومهنة التجميل والمكياج ، أنا أعمل مع هؤلاء العسكر . أعمل سجانة! طار عقلي ، يا صديقي ، وأنا أسمعها ، فبدت لي وكأنها ليست ليلى التي عرفتها طوال السنين الماضية ، إنها مخلوق آخر الآن . المخلوق ، أي مخلوق ، حتى ولو كان حيوانياً ، حين يكذب يصير كائناً آخر . الكذب كيمياء خبيثة تغيّر الروح ، حتى الجسد تغيره . ومع ذلك غفرت لـ ليلى ، فقد كانت رؤيتي لدمعها فقط كفيلة بأن تجعل قلبي يهبط من عليائه لكي ينحني أمامها ، فليلى كانت بالنسبة إليَّ مثل الدورة الدموية . . فهي أكثر من ضرورية . . قلت : وهل ماتت إثر العملية الجراحية . قال : لا . ماتت بين يديَّ . قلت : ماذا تقول؟ قال : كنا في نزهة قرب وادي قدرون في الجهة الشرقية من القدس ، هن ، بالقرب من هنا . . كنا في غاية السعادة ، وقد حشرت جسدها ، قربي هنا ، في مقعد القيادة ، ولأنه صغير كما ترى جعلتها تجلس على ركبتي . . كانت تغني أغنيتها الشهيرة . . وداعاً أيتها الطيور ، والينابيع ، والقرى ، والحكايات ، وداعاً أيتها الأساور ، والخواتم ، أيتها الأمشاط وداعاً ، أبي ، أمي وداعاً ، أيها الأعزاء ، يا إخوتي . . ويا أصدقائي ، وداعاً . . وداعاً ثيابي ، وداعاً مدرستي ، واعذرني أيها الطعام ، وأنت أيها الشراب ، وسامحيني أيتها

الأشجار ، أيتها الأعشاب . . فأنا في غيبوبة الغياب . . أنا مع حبيبي ، وحبيبي معي . . أغنية ساحرة ، تغنيها ليلى بصوت ساحر أيضاً ، فجأة وكأنني ضللت الطريق ، أو لكأن الحصان ضلّ الطريق . . فانزلقت العربة نحو الوادي ، في البدء ، كنا على الحافة تماماً ، وكان بمقدورنا أن نعود إلى الدرب لكن حبال العربة ، وحبال الحصان . . أخذتنا جميعاً إلى قاع الوادي ، الحصان والعربة . . استقرا في قاع الوادي ، فوق الصخر ، صارا شظايا ، دم الحصان وأعضاؤه افترشت مساحة واسعة من الصخور . . أما أنا فلم أصل إلى القاع ، لكأن يد الله انتشلتني وعلقتني مثل ثوب فوق غصن شجرة ، أو لكأن الشجرة اختطفتني من ذلك السقوط المدوي . المهم أنني وجدت نفسي معلقاً على الشجرة سليماً لا أشكو من شيء سوى الرضوض . . وحين نظرت إلى الأسفل ، طار عقلي ، فقد مضت ليلى إلى الأسفل الأسفل وصراخها يملأ أذني ، وتجويف الوادي الوسيع . . وهبطتُ ، بعد أن قبلت الشجرة وكأنني أقبل أمي ، وقد شددت على أحد أغصانها منديلي الأخضر كي أعرفها إن عدت إليها من بين عديد الأشجار الكثيرة ، وهبطت وراء قلبي كي أصل إلى ليلى . . الشوك اقتات جسدي وثيابي ، وأنا في دربي الوعر . . ولم أنثن رغم تعبي ، وإجهادي ، وخور قوتي . . ووصلت إلى ليلى ، وجدتها مثل حبة رمان مفلوقة . . وبصيص ضوء يصدر عن عينيها الوسيعتين ، وخيط ابتسامة ناحلة يعبر وجهها مثل شعاع . . احتضنتها ، وجمعتها إلى صدري ، فأغرقني دمها . . حين أحست بي تماماً ، وحين توحد جسدها شهقت . انطفأت مثل قنديل ، مددت يدي إلى صدرها ، تفقدت نبضها . . فلم أجده ، بدت لي مثل صفحة كتاب مرَّت بها يد البلى فمحت أسطرها . . قلت : أرجوك جو ، توقف . فتوقف ، فدنوت منه وأخذته إلى صدري ، ورحت أهزّه مثل شجرة خبأت عصفوري الملون ، وكان يبكي . . وكنت أبكي . . بدونا في الشارع

مشهداً غريباً ، وقد توقفت السيارات من حولنا ، وهُرع إلينا البغالة وأحاطوا بنا ، وانهالت الأسئلة علينا . . ولم نجب بشيء . . سوى أننا أخذنا دمعنا برؤوس أصابعنا . . ومشينا . قلت : جو ، قل لي ، كي نطوي الحكاية ، منذ متى ماتت ليلى . قال : منذ تسع سنين . قلت : لكنك كنت تحدثني عنها ، عن غضبها ، ومواعداتها ، وعن غيابك عني بسببها . . قال : ومن قال ، يا صديقي إن الحبيب إن مات يغيب .

وصمتنا . فأحسسنا بوقع المطر وغزارته ، وشدة الأضواء . . ورأينا ازدحاماً . . قال الحوذي جو : وصلنا . . قلت : إلى المسجد . قال : إلى المسجد ، وأضاف أرجوك أن تساعدني في البحث عن الدليل فرج . . في هذا الازدحام الشديد . .

وقبل أن أسأله عن مكان وقوفه اقتحمنا الدليل فرج ، وأخذ العربة من الحوذي جو ، أعطاها لرجل سمين قصير ، وعاد إلينا ، قال : أنا آسف ، فقد أخذتكما من أشغالكما ، ولكن لا بدّ للصديق فلاديمير من أن يرى ويعيش طقوس هذه الليلة . قلت : ما مناسبة هذه الليلة . قال : إنها ليلة النصف من شعبان . . الناس يخرجون إلى المساجد من أجل العبادة ، والصلاة ، والأدعية ، والأذكار ، والمشاركة في حلقات التلاوة القرآنية ، والوعظ والإرشاد ، ومشاهدة رقصة المولوية . . ورجانا ألا نبتعد عن بعضنا بعضاً مهما اشتد الزحام ، وعلينا أن نتوقع زحاماً شديداً . . وأشار إلى درجات حجرية تكاد زرقتها تضيء بعدما غمرتها الأضواء . . وقال علينا أن نبقى هنا قرب هذه الدرجات . . مهما حصل ، فهي نقطة علامة لنا جميعاً . كنا في منفسح وسيع مبلط بالحجارة السود المرققة ، وحولنا أجمات من شجر السرو العالي ، أشجار متينة وقوية وكأنها أبنية . . بعضها آخى بعضها الآخر ولاذ به مثل طيور أصابها برد شديد ، وبعضها احتضن بعضها الآخر في رمادية خفيفة تشبه رمادية الغيوم . . وقفنا في ساحة مسجد قبة

الصخرة الوسيعة مشدوهين مشدودي البصر إلى جماعة من الرجال عديدها خمسون أو أقل ، بين أيديهم دلاء ، ومذاري ، وشواعيب ، وغرابيل ، وقفف ، إنهم يغنون أغنية شعبية كما أفهمنا الدليل فرج ، أغنية هي صلاة استسقاء ، لها نغمة رائعة الوقع ، ترجو كلماتها السماء المزيد من المطر . فقد سمعتهم يقولون : «أم الغيث غيثينا» ورأيت هؤلاء الرجال يجولون في مشهد كرنفالي ، وخلفهم رجال يحملون أكياساً ثقيلة الحمل ، وآخرون يحملون قدوراً واسعة ، وآخرون يحملون قرباً مملوءة بالماء ، ومن خلفهم آخرون يجرّون وراءهم أغصان الأشجار اليابسة ، ورجل محمول على الكتفين . . يغرف بطاسة نحاسية لها رهجة من دلو مملوء بالماء ويرش على الناس وسط رذاذ مطري طلق ، والناس ينشدون صلاة الاستسقاء ، وقد ارتدى الجميع الملابس الرثة ، وأكياس الخيش ، والجلود ، . . فبدوا وكأنهم مجموعة طالعة من العصور البدائية الأولى . . كان لرجائهم بحة حزن . . رأيتهم يجولون ويدورون في ساحة المسجد ، وكلما اقتربوا منا تعالت أصواتهم المتوحدة تنادي يا رب ، يا رب ، لأن أحداً ما من بينهم كان يدعو ويرجو ويلحف بالدعاء . . وهم من بعده يرددون يا رب . . يا رب .

وما إن أصبحوا في طرف الساحة ، حتى أركزوا الحجارة كأثافي للقدور التي ملأوها بالماء ، ودسوا أغصان الأشجار اليابسة تحتها ، وأوقدوا النار ، بينما الأدعية ، والأذكار ، والأناشيد ، والأغاني تتصاعد في تداخل عجيب ، وما إن يسخن الماء حتى أسقطت فيه الحبوب المختلفة ، القمح والشعير ، والأرز ، والعدس ، والحمص ، والكرسنة ، والفول . . وراحوا يخلطونها جميعاً بعصي خشبية طويلة . . وبخار الماء يتعالى ليشكل سحباً تشبه الغيوم الدانية التي تمر بالمآذن والقبب ، وأعمدة الكهرباء العالية . . سألت الدليل فرج ، من أين جاؤوا بهذه الحبوب ، فقال : لقد جمعوها من

البيوت . يقرعون الأبواب فتفتح لهم كما قال سيدنا المسيح عليه السلام ، فتعطيهم ربات البيوت ما وصلت إليه أيديهن من الحبوب القابلة للطبخ . .

قلت : وماذا بعد هذا الذي رأيناه؟ قال : حين ينضج الطعام ، يأكلونه بأيديهم ، من دون ملاعق ، ومن دون صحون توكيداً للفطرة والبساطة ، سيأخذ كل واحد منهم كمية من الطعام فوق طبق كرتوني ، أو طبق ورقي ، أو في طرف ثوبه ، أعني طرف ثوب الخيشي ويأكل . . لأن هذا الطعام هو مائدة مرفوعة إلى السماء كي تستجيب لهم ، فتحقق أمنياتهم ورجاءاتهم . . بأن ينهمر المطر أكثر فأكثر . .

ومن الطرف الآخر نرى رجلاً شيخاً له لحية بيضاء ، وعمامة بيضاء يلفها زنار أخضر لماع . . يحمله نفر من الناس على محفة خشبية وهو يقرأ في كتاب أدعية ، والآخرون من خلفه يرددون آمين ، آمين . . نراهم يطوّفون به في حلقة دائرية واسعة ، وقرب حوضة الماء التي تتوسط الساحة ، وفوق بساط كتاني مخطط بخطوط طولانية . . شرع نفر من الشبان يدورون حول أنفسهم وقد اتسعت ثيابهم البيض وانتفخت على شكل مراوح قماشية . . بدت الثياب مثل مظلات مقلوبة تتوسط الأجساد التي شدت خصورها بأحزمة بنفسجية مقصبة لها رهجة ولمعة ، وفوق رؤوسهم طرابيش حمر ، لكأنها من اللباد أو المخمل . . يدورون وسط الغناء المتعالي من حلقه كبيرة . راح محيطها يتسع ويتسع ، ونقر خفيف على الدفوف يماشي دوران الشبان واستداراتهم ، لاحظت أنهم يدورون على قدم واحدة ، لأن القدم الثانية تكاد لا تلامس شيئاً من البساط الكتاني المخطط . . يدورون مثل الطيور بعيون مفتوحة ، وأفواه مغلقة ، وعيون براقة ، وأقدام ناحلة ، ووجوه لها شقرة تشبه شقرة أقراص العسل . كلام ديني ، وأدعية ، وأناشيد ، ونداءات ، ورجاءات ، وصلوات ، وابتهالات ، وأغنيات ، . . ونقر خفيف على الطبول والدفوف ، وصاجات النحاس . . كدت أدوخ وأرتمي على

الأرض بدلاً من هؤلاء الشبان الذين مضى عليهم وقت طويل وهم يدورون ويطوفون . . كنت دائماً أشعر بأنهم طيور ، وأنهم سيطيرون من دون أدنى شك بين لحظة وأخرى ، لهذا رحت أراقبهم باهتمام كي لا تفوتني مشاهدة لحظة طيرانهم . . وغيابهم في الظلمة الفضية التي أدناها الليل فوقنا مثل ظلال خفيفة . .

وإلى جوارنا تماماً ، إلى اليسار من أشجار السرو المتجاورة التصاقاً ، اقتربت ثلاثة خيول بنية اللون ، تكاد لا تبين من سروجها ، وزينتها ، والمرايا التي غطت رؤوسها وجوانبها . . تعالى وقع حوافر ، فانتبهنا إليها ، وتعالى نشيد الناس الذين يمشون خلفها . . فانشددنا إليها . . كانوا يرددون التكبيرات ، والتسبيحات ، ويصرخون باسم شخص ينادونه بـ سيدي أحمد الرفاعي . . قلت للدليل فرج : من هؤلاء؟ قال : أهل النوبة ، قلت : من مصر؟ قال : لا ، قلت : من السودان؟ قال : لا . . إنهم مقدسيون . . فكلمة النوبة هنا تعني إبداء الكرامات والمعجزات التي خص الله بها نفراً من عباده ، وطلب إليَّ أن أتابع المشهد ، أن ننتبه أنا والحوذي جو ، إلى هؤلاء الذين أسماهم بالرفاعية وقال : إننا سنرى عجباً . . فعلاً رأينا هؤلاء النفر ، وعديدهم كثير . يشكلون حلقة واسعة مؤلفة من صفوف مترادفة ، وفي وسطها . . أشعلت نار كبيرة ، لها ألسنة لهب مخيفة ، أحاطت بها الخيول الثلاثة . . وفوقها الرجال الشيوخ الثلاثة أيضاً ، وأصوات الجميع تردد من خلف شخص لا أتبينه بوضوح ، لعله أحد الشيوخ الذين يعتلون صهوات الخيول . . إنهم يرددون الله الله ، الله الله . . بتناغم راح يتصاعد ، وكأن الكلمة الثانية توضح الأولى وتبديها ، أو لكأن الجرس الموسيقي أخذ بقلوبنا . . حطب كثير وضع فوق النار اللاهبة ، . . وما إن بدا الجمر ، وهو جمر مخيف أشبه ببيدر قمح ، حتى استلت من أخراج الخيول الثلاثة الواقفة أسياخ حديدية . . طويلة ، عاتمة اللون ، بعضها له مقابض قطنية أو

كتانية ، وبعضها الآخر من دون مقابض وأدخلت في الجمر . . عندئذ . . تقدم ثلاثة من الرجال ، وأمسكوا بأرسنة الخيول ، فهبط الشيوخ الثلاثة إلى الأرض ، كانوا متشابهين في اللباس ، ثياب طويلة واسعة ، وعمامات بيض ، بدت أقدامهم حافية . . وما إن هبطوا حتى ارتمى نفر ليس بالقليل أمامهم منبطحين على بطونهم ، فراح الشيوخ يدوسون على ظهورهم واحداً واحداً . . وقد شكل مشهد انبطاحهم درباً لكل من الشيوخ الثلاثة . . درباً طويلاً موصلاً إلى النار . . ومع خطواتهم الأولى تعالت الأدعية ، والنداءات ، وقولة الله الله الله الله تتعالى في ارتجافة أرضية صاعدة نحو السماء . . وقرب النار ، وفوق الأجساد المنبطحة ، راح الشيوخ الثلاثة يخلعون ثيابهم الطويلة ، ونثيث المطر ترسله الظلمة الفضية رذاذاً . . فبدت بطونهم وصدورهم ورفعت عماماتهم . . لحظتئذ ، ازدادت التكبيرات علواً ، حتى كدت أظن أن هذه التكبيرات راحت تسيّج هؤلاء الشيوخ الثلاثة . . واقترب الشيوخ الثلاثة من النار أكثر وراحوا يدورون حولها وهم يرددون الكلمة المتعالية المتكررة الله الله الله الله . . وفجأة امتدت يد أحدهم إلى الأسياخ المحشوة داخل الجمر ، فاستل أحدها ، فبدا جحيماً من الجمر ، لحظتئذ . . تعالت التكبيرات ، والتسبيحات ، ونداء يا سيدنا أحمد الرفاعي . . بدا الشيخ القابض على طرف سيخ الحديد المجمّر . . كما لو أنه يود الإغارة به على الآخرين ، أو لكأنه يقرأ عليه بعض الكلام . . أو لكأنه ينتظر زوال حمرة جمره . . لكن سيخ الحديد الذي راح الشيخ يدوره في الفضاء يزداد حمرة وشرراً . . كنت مرعوباً من أن يسقط السيخ المجمر على جسد الشيخ ، أو يمس صدره أو بطنه ، العاريين . . خفت أن تخون قوة الشيخ يديه ، فيسقط سيخ الحديد المجمر على قدمه أو على جزء من أجزاء جسده ، ولكم ذهلت . . وسط الصمت المطبق الذي التزمه الجميع . . حين رأيت الشيخ يدس سيخ الحديد في جنبه العاري ، فأصدر دخوله نشيشاً

يشبه نشيش النار حتى يصيبها البلل . . وتعالت صيحات الله أكبر . . حين رأى الحشد . . رأس السيخ بادياً من الخاصرة الثانية للشيخ ، والشيخ مغلق العينين والفم ، ثابت على وقفته . . ، ومن ثم يبعد ذراعيه مثل جناحي طائر يستعد للطيران ، فيأخذ سيخ الحديد مرة أخرى ، بالتقاطة مملوءة بالخفة والمهارة ، ثم يأخذ شيئاً من لعابه ويمسّد به فتحة الجرح في الخاصرتين ، توقعت وقد رأيت السيخ يمر بجسد الشيخ النحيل ، أن الدم سيتدفق مثل نافورة ماء ، لكنني لم أر نقطة دم واحدة ، وحين سحبه لم أر نقطة دم واحدة أيضاً . . في تلك اللحظة هرع اثنان من الواقفين ، غطيا جسد الشيخ بثيابه الطويلة ، وأخذاه إلى بساط مرتفع ، مشى الشيخ إليه فوق عدد من الأجساد التي امتدت أمامه درباً لقدميه الحافيتين . . وعند نهاية البساط المرتفع قليلاً جلس الشيخ فقدم إليه شراب في كأس نحاسية بادية .

الشيخان الاثنان المحيطان بالنار استعدا لفعل ما فعله الشيخ وسط دهشة الجميع ، وصيحات الله أكبر تتعالى . نظرت إلى الحوذي جو ؛ فهز رأسه مؤكداً دهشته أو لكأنه يضيف دهشته إلى دهشتي . وهمهم : رأيتُ هذا . . من قبل مرات ، وفي كل مة كنت أخاف على روحي من أن أفقدها . . قلت : هذا ما شعرت به . وسألت الدليل فرج عن الشيخ وماذا حلّ به : فقال لا شيء . . وساد الصمت مرة أخرى ، حين راح الشيخان يتعريان قرب النار ، وفجأة استلا سيخين اثنين ، جمرهما يكاد يشع . . فجمد الناس ، تخشبوا ، حتى الأشجار نسيت هواءها ، والأغصان نسيت اصطفاقها ، والغيوم طوت سرحانها . . والناس بلعوا الكلام ، كل الكلام . .

وفي لحظة واحدة ، أدخل الشيخان السيخين في رقبتيهما ، فجحظت عيونهما كما لو أنها تكاد تخرج من رأسيهما ، وانتفخت خدودهما بالهواء الثقيل وازرقت شفاههما وارتجفت . وراح الاثنان يدوران حول نفسيهما

دورة كاملة ، ثم وبلحظة واحدة أخرجا السيخين . . ولم تسل قطرة دم واحدة ، ولم تصدر عنهما أنة ولفتهما الأدعية والنداءات ، ثم اندفع إليهما نفر من الناس فألبسوهما ثيابهما ، ثم ارتمت الأجساد تحت أقدامهما الحافية مكونة لهما درباً قادهما إلى مجلس الشيخ الأول .

بدا المشهد من عالم آخر ، عالم صمت ، وترقب ، وخوف ، وذهول ، ذلك لأن الكثيرين توالوا على القيام بالأدوار التي لعبها الشيوخ الثلاثة ، وفجأة ، اندفع الدم من خاصرة أحدهم . . فانتفض أحد الشيوخ ، وهرع إليه ، وراح يرتق جرحه ، رأيته يفترش جسد الرجل ويسيل من لعابه على أصابعه ويمسح بها على الجرح . . حتى توقف الدم . . يا إلهي لكأننا في سيرك . . فكل ما يحدث لكأنه يحدث في سيرك ، فلا دماء ، ولا صرخات . . وإنما ابتهالات ، وأدعية ، وثناءات . .

وما إن انتهت الأدوار التي لعبها ضاربو الأسياخ ، حتى راح الجميع يقرؤون آيات القرآن ، وينشدون ، ويكبرون ، ويسبحون . . وشبان في طراوة العمر يطوفون على الجميع بكاسات مملوءة بماء الزهر ، والأشربة الساخنة .

ومن بين أفراد الحشد رأيت رجالاً يتقدمون نحو الشيوخ وفوق رؤوسهم أطباق خشبية مملوءة بالخبز وخلفهم رجال يحملون صناديق خشبية مملوءة بالخبز أيضاً شرعوا يوزعونها على الجميع ، والجميع ينحنون على الأرغفة يقبلونها ، ويرفعونها نحو جباههم ، تمتم الدليل فرج هؤلاء هم الخبازة ، ومن بعدهم أطل رجال يحملون براميل فيها حليب ، ولبن ، ومعهم دلاء بلاستيكية صغيرة جداً ، وطاسات بلاستيكية صغيرة جداً أيضاً ، راحوا يملأونها باللبن مرة ، والحليب مرة أخرى ويوزعونها على الجموع المحتشدة ، همس الدليل فرج ، هؤلاء هم الحلابة ، وحين خرجوا تقدم رجال يحملون بين أيديهم سلالاً ، وصناديق كرتونية وخشبية ، وقففاً ، وأسفاطاً . . مملوءة بالخضراوات ، والفاكهة . . طوّفوا بها على الناس حتى انتهوا منها . . قال

الدليل فرج هؤلاء البساتنة . . ثم دلف آخرون يحملون مواعين كثيرة ، خشبية ، وتنكية ، وكرتونية ، وبلاستيكية ، ونحاسية . . فيها ثياب ، وأقمشة ، ومناديل ، وأحذية ، وقمصان ، وأكياس ، وقطين ، وزبيب ، وجوز ، ولوز ، وقمح ورمان ، وصلبان ، وشموع ، ومرايا ، وفوانيس ، وشمعدانات ، . . همهم الدليل فرج . . التجار .

وهكذا توالى توافد أهل المهن والصنائع على الناس والدليل فرج يحدثنا عنهم . . وقد لفت انتباهي حضور الصيادين الذين جاؤوا من البحر ، ومن بحيرة طبريا . . ومن أجل إحياء هذه الليلة . . رأيتهم وقد ملأوا شباكهم بصيدهم الوفير . . ومما رأيته أسماكاً لا تزال حيّة ، حين وضعوها على الأرض كانت تزحف بقوة وكأنها داخل الماء . . وحين رشت بالماء قفزت في الهواء وكأنها تؤدي استعراضاً رياضياً . . .

وامتدَّ بنا الليل ، فمر بنا حملة المشاعل ، والشموع ، والقناديل . . فصارت ساحة المسجد أشبه بقنديل كبير كثير الضوء . . كنا في شبه متوالية سارّة من المشاهد المدهشة . . قلت للدليل فرج ، ألا ندخل المسجد ، فقال : الآن . قلت : شوقتني ، كي أرى المشهد ، فأشار بيده نحو بوابة المسجد الوسيعة . . حين تقدمنا ، بدا لنا الحجم الكبير جداً للناس ، لكأن أهالي القدس كلهم خرجوا واجتمعوا هنا في هذه الساحة التي رأيتها تتسع كلما جاءتها الأفواج البشرية الجديدة ، حقاً إن الأمكنة لا تبدو إلا بناسها . . حاولت أن أتلبث قليلاً أمام هذه الألوان البهارة التي تزين باب المسجد ، وجدرانه ، هذه الألوان التي تسيل من أعلى المسجد إلى الأسفل مثل مياه خصها الله بالحبور والدهشة . . ودلفنا من الباب ، والمدافعة والمزاحمة تأخذ بأجسادنا ، وما إن صرنا في العتبة حتى رأيت البشر مثل أشجار الغابة في اجتماعهم وكثافتهم ، فهم في جلوس ووقوف ، وركوع ، وانحناء ، وسجود ، وكانت القراءات ، والتراتيل ، والأناشيد ، والأدعية ،

والابتهالات ، والرجاءات تلفهم . . بدوا مثل أرغفة الخبز التي يأخذ بعضها بأطراف بعضها الآخر . . ولم نستطع الدخول ، وقبل أن استدير مثلما استدار الدليل فرج والحوذي جو نظرت إلى سقف المسجد ، إلى فجوة القبة . . فرأيت ما أذهلني . . فالأضواء ، والأنوار ، والألوان ، والرسوم ، والخطوط ، والأشكال ، . . كلها تسيل نحو الأسفل ، ومرايا مائية تمشي بها في هبوط وصعود مستمرين . . واستدرتُ مرغماً بسبب الازدحام . . لحقت بالدليل فرج والحوذي جو . . وفي الخارج سألت الدليل فرج : ومتى سنعود لزيارة هذا المسجد . . فقال : غداً . قلت : وهل سيكون أقل ازدحاماً . قال : أقل ازدحاماً ، قلت : والدهشة . . قال : ستكون أكثر مما رأيته . قلت وأنا أنظر إلى الحوذي جو : غداً ، فهز الحوذي جو رأسه موافقاً ، فقال الدليل فرج : غداً . . ومضينا عائدين ، والناس يقابلوننا بالوفود نحو المسجد ، لم أر في أيديهم سوى سجاجيد الصلاة . . ودعنا الدليل فرج فمضينا ، والسماء تهمي برذاذها الخفيف» .

ملحوظة :

في هذه الليلة لم أر البغالة ، والبغال ، والكلاب في الساحة ، أو بقربها . . وإنما رأيتهم يقفون بعيداً عند مفارق الطرق ، أقول لك هذا لأنني كنت أتوقع بأن ما من أحد سيفسد عليَّ هذه المشاهد الروحانية . . سواهم . .

أيها الصديق العزيز اكتب إليَّ . . كي يرحل قلقي عليك ، وكي تطمئن روحي المعذّبة بأسئلتها الثقال .

الأمريكيان

«لا أدري كيف أبدد قلقي عليك . .

فرسائلك . . لا تصل . لعلك لم تكتب إليَّ بعد ، وأنا لا أدري لأي سبب تصدّ عني . أخاف أن تكون مريضاً ، بالي مشوش ، وأسئلتي عنك تمطر في قلبي لهفةً إليك .

ها أنذا ، أمضي في هذا الصباح الماطر رذاذاً ، قاصداً مقهى (أبو العبد) في مدخل قلندية ، فقد خطر ببالي ليلة البارحة أبو العبد ، قلت لماذا لا أتعرف إلى أسرته ، ومكان سكنه ، وإن لم يكن الأمر متاحاً ، فلماذا لا أعمق علاقتي بذلك السجين عارف الياسين . . صدقني ، أنا الآن أمضي على شوقي مقابلة هذين الرجلين ، على الرغم من أنني أعرف جيداً بأنني سأرى ما يزعج نفسي ويؤذي روحي . . حين أجلس في المقهى مقابلة لهؤلاء البغالة الذين لا هم لهم سوى ابتداع الأساليب والطرق لإهانة الناس وتعكير صفوهم . . أمضي ، وفي البال ، أمنية ألا ينتهي الطريق . . ذلك لأن مرافقة هذا المطر أشبه بمرافقة عشيقة . . كيفما التفتَّ إليها سرّك منها ما تراه ، وكيفما لامستها أو حاككتها أيّدك حضورها بالمبهجات . . مطر طري كالنباتات ، أرفع يدي إليه كي أحييه في هذا الصباح . . مثلما تفعل هذه الأعشاب التي توازيني في امتداداتها الطوال . . كلما مضت السيارة أكثر . . ازداد رجائي أن يظل الدرب المعشب أطول ، وأن يبعد المقهى أكثر أيضاً . .

حين خرجت من البيت ، قابلت العجوز أم أهارون ، حييتها وتخطيتها دون أن أنتظر منها رداً ، لكنها صرخت في ظهري ، فتوقفتُ ، واستدرتُ نحوها ، سمعتها تقول لي : سيلفا جاءت ليلاً ، وسألت عنك . كانت قلقة جداً . انتظرتك طويلاً ، ثم مضت باكية . قلت : باكية . قالت : طبعاً فالعلاقة معك علاقة بكاء . ولم أجب . ومضيت . فلم أشأ تعكير مزاجي . . استدرت بوجهي عن العجوز أم أهارون ورميت ببصري وسط الحديقة . . فرأيت الأزهار ، والأعشاب ، والنوافير ، والطيور ، والأشجار تموج أمام ناظري كحلقة أطفال راقصة . . وبدت الحديقة مثل كف وسيعة راحت تحتضن رذاذ المطر بحنو ولطف شديدين . . هنا لا يسقط المطر ، بل يذوب .

ها هو ذا المقهى يطلُ عليَّ ، أو أنني أطلُ عليه ، يبدو بطاولاته الخشبية ، ومظلاته الملونة والمخططة ، وها هي ذي عريشة القصب المجللة بقطعة المشمع الوسيعة ، العريشة التي جعل منها أبو العبد مكاناً خلفياً متوارياً لمشروباته الباردة والساخنة . . يبدو المقهى مملوءاً بالمطر الخفيف . . فلا أرى فيه أحداً . . لعل الوقت ما زال مبكراً ، في البعيد الداني أرى البغالة أيضاً ، فوقفاتهم هي هي ، وبغالهم هي هي ، وكلابهم هي هي ، وأبصارهم المتطايرة في الأمكنة والأجواء والجهات هي هي أيضاً ، والناس المتجمهرون خلف حواجز الحديد هم هم . . المشهد بتمامه وبكل تفاصيله هو هو . أسأل نفسي إلى متى سيظل هذان الطرفان ؛ البغالة من جهة ؛ والناس من جهة ثانية . . قادرين على مماشاة انضباطية هذا المشهد؟ إلى متى سيظلان قادرين ، أحدهما على القمع ، والمنع ، والأذى ، والإخافة ، والقتل . . وثانيهما على الصبر الطويل المر . . أصل إلى المقهى ، فتبدو تحت شجرة الكينا العالية . . طاولة يجالسها شخص سمين شارد ، أمامه فنجان قهوة وكأس ماء بلورية ، يكاد لا يتحرك أو يميل . الطيور الحذرة اقتربت منه

كثيراً ، لعلها ظنته جزءاً من المكان أو فزاعة ليس إلا ، لأنه لا يتحرك أو يلتفت أو يستدير . . ما إن جلست ، حتى أبصرني أبو العبد ، يا ليقظة هذا الرجل ، يا لصحوه . . يا ليته كان طيراً ، ففطنته فطنة طير . . صرخ بي . . يا صباحٍ الفل والهنا يا خواجة . . فرفعت يدي له بالتحية ، ترك ما بيده جانباً ، وراح ينشف يديه بمريوله ، ثم تقدم نحوي بطوله الناحل . قال سبحان الله ، أنت تأتي ويأتي المطر . فابتسمت له ، وقلت : جئت لأشرب القهوة عندك . قال : يا ألف مرحباً . قلت : خطرت ببالي ليلة البارحة ، قال وهو يبتسم : فقط ليلة البارحة يا خواجة . . فأنت في بالي دائماً . قلت : لماذا . قال : لإنسانيتك ، ولدمعك الذي رأيته في عينيك ، وأنت ترى ما يفعله هؤلاء العميان بالناس ، وأشار إلى البغالة . وسألني : قهوة خواجة . قلت : قهوة . . ومضى من أمامي . رميت بنظري نحو الرجل الذي احتمى بشجرة الكينا من رذاذ المطر ، فرأيته كتلة صامتة في ثبات مطلق ، وقطة بيضاء ، شديدة البياض ، تقف فوق الطاولة ، وتمشي على سطحها ، وتشم فنجان القهوة ، وتحاول أن تشرب من كأس الماء . . يا لطمأنينة الرجل ، ويا لهدوئه . . إنه يرسل بصره إلى البعيد البعيد ولا يعود به ، لكأن بصره علق بشيء ما فما عاد يرتد إليه . وأنظر نحو البغّالة ، فأراهم يتحركون ببهوت وهم يشربون ما في كاساتهم البلاستيكية الكبيرة ، والبغال جامدة لكأنها كتل الظلام يواقفها البغالة ، والكلاب السمينة العالية تبدو واجمة مكفهرة ، فهي ليست كالكلاب العادية . . فهذه لا تهز ذيولها ، ولا تلتفت ، ولا تتحرك ، لعل هذه الكمامات المصنوعة من الأسلاك الحديدية الرفيعة اللامعة . . المحيطة بخطومها . . غيّرت طبيعتها ، أو لعلها هي نفسها أدركت طبيعة وظيفتها مع هؤلاء البغالة فصارت مثل كلاب السيرك رهينة بأوامر مدربيها وطلباتهم . . بدا مشهدهم وهم ، في اجتماعهم ، مشهداً لا حياة فيه ولا روح . . خصوصاً وقد أدركتْ نفسي ما هو طيه من أذى

وعذاب وقهر للآخرين . .

وجاءت القهوة ، ومعها كأس ماء ، ووردة جورية كبيرة . . قلت لـ (أبو العبد) : إنها كبيرة هذه المرة ، وأشرت إلى الوردة ، فقال : أنت الكبير يا خواجة . واستدار . فاستمهلته . قلت : هل سيأتي الرفيق عارف الياسين . فابتسم ، وقال : ربما . فهو عادةً ما يأتي .

قلت : جئت لكي أراه أيضاً ، قال : إن كنت مضطراً إليه ، أهاتفه . قلت : أنتظره قبل أن اضطر إليه ، وحاول أن يستدير ويتركني مرة ثانية ، قلت : أبو العبد ، ما لهذا الرجل القابع هناك ، أراه صامتاً لا يتحرك ، وأشرت إليه ، قال : إنه ضحية من ضحايا أولئك ، وأشار إلى البغالة . قلت : أيضاً . قال : أيضاً يا خواجة ، لا يوجد أذى أو ظلم أو مغالبة أو حزن هنا إلا وكان أولئك البغالة سبباً له . قلت : وما قصة هذا الرجل . فقال : اعذرني يا خواجة دقيقة واحدة وأعود إليك . . فإبريق القهوة على النار . ومضى من أمامي . .

كان المطر رذاذاً ناعماً ، والأرض أشبه بالمهاد الاسفنجي الذي راح يمتص كل نقطة مطر حتى نهايتها . . والسماء تدنو أكثر مما ينبغي لعل الغيوم ثقيلة السواد أدنتها إلى الأرض ، أو لعل حبالها السحرية دنت بالغيوم أكثر كي تمر بنا . . والطيور تجول هنا وهناك مثل الخطوط أو الأسطر التي تعطي صفحات البياض المعاني الباديات .

ها هما اثنان من الرجال يتقاودان ببطء ، يدلفان إلى المقهى ، رجلان سمينان ، ثقيلا الخطا . . يخطوان نحو إحدى الطاولات القريبة مني ، الدم يمشي في وجهيهما بوضوح شديد ، ولهاثهما ، على الرغم من بطء خطوهما ، يتصاعد صائتاً حتى يتنامى إليَّ . . نظرا نحوي بلا مبالاة ، ثم هبطا فوق مقعدين ، مطلقين زفرات الخلاص ، لحظات ، وكانت خطوات (أبو العبد) قد أدركتهما ، سمعتهما يطلبان قهوة سوداء بفنجانين كبيرين ،

وزجاجتي ماء ، وراح كلاهما يمسح عرقهم ، لا رذاذ المطر . . ورويداً رويداً تلاشى صوت لهاثهما وتوارى . أنظر إلى الرجل الآخر الذي ما زال بادياً أمامي ، فأراه على ثباته ووجومه واستدارته الجانبية وكأنه قطعة صخر . وألتفت نحو البغالة والناس ، فأرى بعض الرجال والشبان ، والنساء ، والشيوخ . . يماشيهم الأطفال . . يتقدمون نحو الحاجز ، فتدور بينهم وبين البغالة أسئلة ، ويثارُ كلام ، وتنشط الأيدي بالحركة . . أرى الأيدي ترفع راجية مرةً ، وزاجرة مرة أخرى ، وأسمع صراخاً لا أدري سببه ، ما أعيه جيداً هو أن مسافة قصيرة جداً تفصل ما بين الطرفين ، يجول الناس فيها ، وما من أحد يجالسهم سوى الانتظار المر ، والبغالة ثابتون في مكانهم لكأنهم مشدودون إليه برباط ، والناس في مكانهم لكأنهم مشدودون إلى انتظاراتهم برباط أيضاً ، وليس من كلام بين الطرفين سوى حوار السؤال الذي لا إجابة له سوى النهر . . هؤلاء لديهم سؤال ، وأولئك لديهم نهر . . معادلة لفيض ألمها تبدو خرقاء . .

يطل أبو العبد حاملاً صينية القهوة ، خطاه مثل بندول الساعة ، أخمن أنه كان من الممكن لهذا الرجل أن يكون راقصاً ، أو لاعب سيرك ، أو من هؤلاء اللاعبين المختصين بالقفز العالي . أسمعه يرحب بالرجلين بكلمات إنكليزية ، لكنة الرجلين أميركية . . أحدهما تناول فنجان القهوة الكبير ورشف منه ، والثاني عبَّ ماء الكأس الكبيرة أيضاً ، والتفت أبو العبد إليَّ ، فرآني أنظر إليه ، فتقدم نحوي . قال : خواجة ، أوامرك . قلت ضاحكاً ، وهل تنقصك الأوامر يا أبو العبد . قال : اعتدنا عليها . قلت : لفت انتباهي أنك لم تأت بالورد لهذين الرجلين . قال : الورد للحبايب فقط . يعني الورد للورد . هذان أمريكيان يأتيان إلى هنا دائماً . قالا لي : إن قهوتي طيبة فرحبت بهما . لكنني أشعر بأنهما في حالة ضجر دائم . يأتيان إلى هنا فراراً من ضيق ما . قلت : هما من أمريكا . قال : من

نيويورك تحديداً . قلت : وماذا يفعلان هنا . قال : يعملان . قلت : ماذا؟ . قال : أحدهما خبير غاز ، والثاني : خبير معادن . قلت : هنا ، وفي هذه البلاد ، لا غاز ولا معادن . قال : هما هنا لأنه لا يوجد غاز ولا معادن . قلت : منذ متى تعرفهما . قال : منذ سنوات . قلت : أسألهما إن كان بإمكاني الانضمام إليهما . قال : ممكن ، تفضل . قلت : لا ، استأذنهما أولاً . واستدار نحوهما ، وسألهما ، فرحبا بالفكرة . رأيت الاثنين يرفعان أيديهما بالتحية ، ويرددان بالانكليزية مرحبا ، مرحبا .

فنهضت إليهما ، فرحبا بي . وجاءني أبو العبد بقهوتي ، ووردتي أيضاً . قال أحدهما : قهوة في جو رومانسي ، وأشار إلى الوردة . قلت : أبو العبد يتوقع دائماً أن تأتي صديقتي إلى هنا . فهزا رأسيهما تقديراً ، عرفتهما إليَّ ، وعرفاني إلى نفسيهما ، أحدهما اسمه جاك ، والآخر نوفاك . . وعرفت أنهما يعملان هنا منذ أربع سنوات ، وأن المبالغ والمكافآت والتعويضات التي يتقاضيانها كبيرة جداً ، ومغرية جداً أيضاً . قلت لهما مندهشاً : هذه مبالغ كبيرة . قالا : لا يوجد هنا في هذه البلاد سوى المال . قلت : والظلم . قال أحدهما : كيف؟ قلت : ألا تريان ما يحدث على الحواجز ، وأشرت إلى الناس والبغالة . قال : من يرد جمع المال عليه ألا يرى شيئاً سوى المال . وقال الثاني : نحن لسنا سياسيين ، ولا قضاة ، ولا من جماعات حقوق الإنسان . نحن هنا للعمل ، لجمع المال . قلت : فقط . قالا معاً : فقط . وغمغم أحدهما على انفراد : غايتنا المال . قلت : ولكن المال موجود في أمريكا أيضاً . قال : المال موجود في كل مكان ، ولكنه ليس بهذه الوفرة التي نعرفها هنا . قلت : هل ستستمران في العيش هنا . قال أحدهما : سنستمر ما دام المال موجوداً ، وقال الثاني : وما دام الأمن موجوداً أيضاً . قلت : لكن لا أمان في هذه البلاد . . لم أر فيها سوى القلق ، والخوف ، والقتل ، والدماء ، ولم أسمع عنها سوى أخبار السجون ،

والاعتقالات ، والقهر . قال أحدهما : أنت أردت أن ترى وتسمع هذا . . نحن لسنا مثلك . قلت : كيف؟ قال : في أمريكا أيضاً قلق وخوف ، وقتل ودماء ، وإذا ما أنصت جيداً ستسمع أخبار السجون والاعتقالات والقهر أيضاً . قلت : لكن ما أتحدث عنه تجده في الشارع ، والمطعم ، والبيت ، قال : وهذا الذي تتحدث عنه موجود هناك أيضاً في الشارع ، والمطعم ، والبيت . . قلت : لكن هناك لا يوجد احتلال ، لا يوجد شعب محتل مقهور . قال : أنت الآن تتحدث في السياسة ، وأنا لا أحب الخوض في أمور السياسة . وقال الثاني : نحن هنا عمال . والعامل لا يريد سوى أمرين ، المال والأمان . وهما متحققان . قلت : وإن اختلت هذه المعادلة؟ قال : نفعل مثلما يفعل الطير عندما يجد ثعباناً في عشه . قلت : تصرخان؟ قال : لا ، نذهب إلى مكان آخر من أجل بناء عش آخر . قلت : بهذه البساطة . قال : وهل هناك أجمل من منطق الطير . قلت : وهل ما يتقاضاه زملاؤكم في أمريكا من مال قليل . قال : قليل بالنسبة لما نأخذه هنا . قلت : وما النسبة؟ قال : هنا نأخذ سبعة أضعاف ما نأخذه في أمريكا . قلت : وهل سبب مجيئكم إلى هنا . . هو المال؟ قال الثاني : المال والزمن . قلت : الزمن ، كيف؟! قال : نعمل هنا سنة مقابل عمل سبع سنوات هناك . قلت : وهل تعيشان حياة عائلية هنا . قال أحدهما بأي معنى . قلت : زوجة ، وأولاد ، وأصدقاء . قال : أنا وجاك وحيدان ، وصديقان ، وأهل مساكنة . قلت : صديقان صديقان؟ قال : صديقان صديقان ، قلت : وتعيشان حياة جميلة . قال : ونعيش حياة جميلة . قلت : ومن دون أولاد . قال : الأولاد مشاغبة على الحياة الجميلة ، حبر أسود يدلق على لوحة زاهية . نظرت إلى نوفاك وهززت رأسي ، فقال وكأنني أثرته : الأطفال عقم ، موت . قلت ضاحكاً : يا إلهي ، كيف؟ قال : الأطفال عندما يأتون ، يورّثون الأبوين عقماً اجتماعياً ، وموتاً بطيئاً . قلت :

هكذا؟ قال : طبعاً ، لأن الأبوين يدعان حياتهما ، أو قل يوقفان حياتهما من أجل الأطفال . قلت : وأين هي المشكلة . قال : ليس من حق الأطفال أن يدفنوا حياة الأبوين من أجل شؤونهم الخاصة . قلت : تربية الأطفال رسالة . قال : وأن نعيش بسعادة حتى آخر لحظة . . رسالة أيضاً . قلت : البيوت من دون أطفال مقابر . قال : العكس هو الصواب ، الأطفال في البيوت إعلان صريح وواضح عن مقابر تعد للأبوين . قلت : وهل هذا هو رأيك يا جاك . قال : طبعاً ، نحن على اتفاق تام . قلت : سامحاني إن سألتكما عن المرأة . قال جاك : المرأة شيطان . ومجنون من يأتي بشيطان إلى بيته . قلت : المرأة ملاك ، رحمة ، مؤانسة . قال : ماذا تقول؟ . . أنت لا تعرف الدنيا . . سبب شقاء العالم هو النساء . وسبب تدمير البيوت هو النساء ، العداوة الأولى التي عرفها الإنسان سببها المرأة ، القتل الأول الذي عرفته البشرية سببه المرأة .

كنت أستمع إليه وأنا أبتسم ، فأضاف نوفاك : حرب طروادة سببها امرأة ، الحرب العالمية الأولى والثانية سببهما المرأة . خراب المعبد ، وموت شمشون ، وأسى لوط ، وفرعون وهزيمة هتلر كله كان بسبب المرأة . . وحرت ماذا أقول ، فهتف جاك بحرارة : ترك الجنة والهبوط على الأرض سببهما المرأة . . قلت : لكن أهل هذه البلاد يقولون إن المرأة هي التي أقامت ملكهم فوقها . قال جاك : هذا لا يمنع من القول إن المرأة شيطان أستير . ألم تكن شيطاناً؟ : قلت : تقصد أن المرأة الشيطان بنت هذه الدولة هنا . قال بتأكيد واضح : طبعاً ، قلت : إذن المرأة تبني . قال : تبني من أجل الخراب . قلت : وهل سيأتي الخراب؟ قال طبعاً ، كل شيء من صنع يدي المرأة مصيره الخراب ، والزوال . . قلت : آراء عجيبة فعلاً . قال نوفاك مبتسماً : الحوار في الجلسات الأولى يكون صعباً وعجيباً ، لكن ما إن يتعرف أحدنا إلى الآخر . . حتى يصير الحوار ممتعاً عندئذٍ لا يظل عجيباً . وصرخ جاك منادياً

(أبو العبد) كي يحضّر لنا سندويشات وعصيراً ، تقديراً لي بوصفي قد أصبحت صديقاً لهما . .

ولم نعد إلى الحديث المتواصل مرة أخرى ، لأن البغالة اشتبكوا مع الأهالي ، رأيت مجموعة من الشبان الصغار يرتدون سراويل الجينز ، والأحذية الرياضية ، يناورن البغالة ، يقذفونهم بالحجارة ، والبغالة يميلون عن الحجارة التي بالكاد تصل إليهم ، ولم ندر كيف أمسك أحد البغالة بأحد الشبان ، لعلنا سهونا قليلاً أو أن المشهد فاتنا ، رأينا الفتى يتلوى مثل شعاعة ضوء بين يدي البغالة الذين اجتمعوا عليه ضرباً ، يضربون ساقيه ، وعجيزته ، وظهره ، ورأسه ، وكتفيه ، وبطنه ، وذراعيه . . بدا غير قادر على حماية نفسه من الضربات الهابطة عليه ، بدا مثل شجرة أخذتها العاصفة اجتماعاً ، وصرخاته ، وصرخات الآخرين ، وهمهمات البغالة كلها متعالية في صخب مؤلم وحزين . . قلت لهما : انظرا الظلم ، فقال جاك : ضرورات الأمن تبيح هذا . قلت : يكاد الفتى يموت بين أيديهم . قال : اعتاد الفلسطينيون على الموت مثلما اعتدنا على أخذ المهدئات . . قلت : لكن هذا لا يحدث في أي بلد في العالم . قال نوفاك : كيف؟ إنه يحدث في أرقى البلاد الديموقراطية . قلت : هكذا؟ ، قال : هكذا! قلت : أنا لا أصدق أن مثل هذا يحدث في أي بلد من البلدان . قال أنا وجاك نؤمن ، ومن دون نقاش ، أن العالم أُفسد ، فصار مثل حبة تفاح مملوءة بالدود ، لا شيء يشير إلى التفاحة سوى قشرتها الخارجية . وقال جاك : انتبه أيها الصديق الروسي ، لقد قالوا لنا إن بعض الشبان الفلسطينيين يأتون إلى الحواجز من أجل التحرش بالجنود ، أي من أجل إدامة المنازعات والمطاردات ، وبعضهم الآخر مستأجرون من جهات إعلامية يرمون الجنود بالحجارة إلى أن يطاردهم الجنود ، فتغدو الحالة مثل مطاردة الثور للمصارع ، فالثور لا يستفز إلا عبر حركات المصارع ، وعبر طعناته أيضاً . وقال نوفاك :

وبعضهم يأتي من أجل الجلوس والفرجة ، ومن أجل إدامة قلق الجنود واستفزازهم . قلت : ألا يأتي أحد منهم يطلب العبور من أجل مريض ، أو حاجة اضطرارية ، قال نوفاك : ممكن . قلت : لكنني لا أتصور أحداً يقبل بأن يموت أو يكاد من أجل مال يأخذه من جهات إعلامية . . قال جاك : كيف؟ ألا يموت أهل المخدرات من أجل المال . الجواسيس ألا يخونون أوطانهم من أجل المال ، النساء ألا يخن أزواجهن من أجل المال ، وقال نوفاك : المال يحل أطهر الأثواب وأشرفها ، قلت باندفاع : أهل المخدرات ، والجاسوسية ممكن ، لكن ما هو ليس ممكناً أن تخون المرأة من أحبته . المرأة لا تخون حبيبها ، ولا تبيعه أبداً ، المرأة تخون غاصبها . قال جاك : المرأة تخون في كل وقت ، تخون في الليل والنهار ، ومن يأمن المرأة لا يعرف المرأة . . وأخذنا الحديث عن المرأة ، كانا معاً جبهة عداء للمرأة ، وكنت قد أدركت غايتهما ، لهذا كان الحوار عبثاً ، وكان الهجوم والدفاع عبثاً أيضاً واستغرقنا الصمت ، فقلت لـ جاك : وهل تفكران بالعودة إلى أمريكا . قال : طبعاً ، يومياً نفكر بأمريكا . قلت : ومتى تعودان . قال : حين ينتهي النفط . قلت : النفط؟ هنا لا يوجد نفط! . قال : أعني عندما يختفي الأمن ، ويقل الماء ، قلت : وأنت يا نوفاك ، قال : كل ما يقوله جاك أوافق عليه .

كنا قد أكلنا السندويشات التي أحضرها أبو العبد ، وشربنا المزيد من القهوة . . حين جاءت سيارة كبيرة ، توقفت بموازاة المقهى ، فنهض الأمريكيان جو ونوفاك ، وودّعاني وانصرفا ، حين استدارا ، بدا الاثنان كأنهما توأم ، أو لكأن أحدهما يماشي مرآته . . فالمشي ، والحركة ، والألوان . . وحلاقة الشعر . . كلُّها متشابهة . . ركبا السيارة ومضيا دون أن يلتفت أحد منهما إليَّ . . كان إلى جواري أبو العبد ، يراقب ذهابهما أيضاً . قال : إنهما عجيبان ، منذ سنوات وهما يأتيان إلى هنا ، يطلبان

القهوة نفسها ، والسندويشات نفسها ، ويدفعان المبلغ الذي أطلبه دون زيادة قرش واحد ، من المرة الأولى عرفت طلباتهما فحفظتها ، إنهما يعملان بالقرب من هنا ، يأتيان مشياً كرياضة صباحية ، ثم يذهبان إلى عملهما في السيارة . قلت : هل تعرف أنهما زوجان . قال : كيف؟ قلت : إنهما يعيشان معاً كزوجين . قال : غير معقول . قلت : لماذا غير معقول؟ قال : أما تكفينا مصائب البغالة ، حتى يأتي أمثال هؤلاء بأفاعيلهم الشيطانية المخجلة . قلت : هذا أمر طبيعي . حرية اختيار . قال : لا يا خواجة ، المسألة ليست مسألة اختيار ، الاختيار أمر رباني ، فطري . فأنت تقبل على الأعشاب بالفطرة ، وتصد عن الأشواك بالفطرة . الشذوذ ليس اختياراً ، إنه مرض اجتماعي ، لو بحثت عن أسبابه لوجدتها . قلت : أنا غير موافق على كلامك يا أبو العبد . قال : خواجة ، اعذرني ، هل أنت صاحب ميل . . قلت : لا ، ولكنني مؤمن بأن الحرية هي الحرية . . قال : الحرية التي تخرّب الفطرة ليست حرية . الحرية تعني الحس السليم يا خواجة ، قلت : ماذا تريد أن تقول؟ قال : هؤلاء البغالة ، وأشار إليهم ، هل تروقك أفعالهم قلت : لا ، إنها تؤلمني . قال : لأنك صاحب حس سليم ، صاحب فطرة . هؤلاء البغالة يا خواجة ، والأمريكيان جاك ونوفاك . . ليس لديهم الحس السليم ولا الفطرة . . أتعرف لماذا؟ قلت مبتسماً : لماذا؟! قال لأنهما يرتويان يومياً من نبعة الشذوذ . قلت : والغلبة لمن يا أبو العبد ، للفطرة أم للشذوذ . قال : للأسف تحتاج الفطرة إلى تأييد كثير حتى تواجه الشذوذ لأنه انتشر وعم حتى صار له رؤوس ، ما إن يُقطع رأس حتى ينبت رأس جديد . . قلت : بدأت تتحدث عن الأساطير يا أبو العبد . قال : لا والله يا خواجة ، لا أساطير ولا خرافات . . هذه هي الحقيقة . . فرؤوس الشذوذ باتت كثيرة ، وأيدي الشذوذ باتت كثيرة أيضاً . .

واقترب شاب نحو المقهى ، كان يقف أمام الحاجز مع الكثيرين ،

تقدم ، فبدت صفرة وجهه ، وتجاعيده العميقة . . سأل عن دخان ، فمضى أبو العبد كي يحضر له علبة . وخطا الشاب خلفه ، فناديته بكلمة عفواً ، فاستدار نحوي ، بدا وجهه عابساً ، كحلياً أو يكاد ، قال : نعم . قلت : سؤال إن كان وقتك يسمح . فمشى نحوي خطوة أو خطوتين ، وقال مرة ثانية : نعم . قلت : كنت هناك ، وأشرت إلى جمهرة الناس الذين يقفون قرب الحاجز . قال : نعم ، قلت : هل يمنعونكم من العبور؟ . قال : نعم . قلت : وهل ستعبرون؟ . . . قال : نعم . قلت : أتأتي يومياً من أجل العبور ، وتمنع؟ قال : نعم . قلت : والناس كذلك ، قال : نعم . قلت : هل تخاف أولئك ، وأشرت إلى البغالة . قال : نعم . قلت : وهل يزداد خوفك منهم؟ قال : نعم . قلت : وحقدك عليهم . قال : نعم .

وسألته دون أن أهتم بعودة (أبو العبد) وعلبة الدخان معه : وهل ستظل تأتي يومياً إلى هنا لكي تعبر : قال : نعم ، قلت : حتى ولو ضربوك؟ قال : نعم . قلت : وهل ضربوك من قبل؟ قال : نعم . قلت : ألا تجلس وتشرب القهوة معي . فهزَّ رأسه شاكراً ، وتململ في وقفته . قال أبو العبد : الخواجة ، يعزم عليك ، إنه روسي يزور البلاد ، وليس من حزب (إسرائيل بيتنا) ، فهزَّ رأسه شاكراً أيضاً . وابتسامته الناحلة تكاد تبين ، وهمّ مثل طائر . . كي يعود ، فقلت : وهل ستظل تنتظر؟ قال : نعم ، وابتسم لي ابتسامة عريضة ثم استدار ، شاب ليس بالطويل ولا بالقصير ، عيناه المحمرتان بحيرتان من الحذر العجيب ، وخطاه العجلى نار في هشيم ، وحين صار بين الجمهرة ضيّعت ملامحه ، فقد صارت الجمهرة كلها متماثلة بناسها ، وألوانها ، وحضورها . . إنها ضفة واحدة تقف على مبعدة كف واحدة من حاجز حديدي خلفه تماماً يقف بغالة وبغال وكلاب وسيارات ذات شبك حديدي عاتم ، لا شيء يصحبهم سوى الأسلحة البادية والكلمات الناهرة ، والنظرات الغاضبة . . والاستعلاء العميم .

ونهضت ، وأبو العبد يرجوني أن أمكث أكثر ، قلت : لقد رأيت بعض ما وددت رؤيته ، وسمعت بعض ما وددت سماعه ، لكن اعلم أن محبتي لك هي التي قادتني إليك ، وقد تمنيت أن تتاح لي الفرصة كي أتعرف إلى أسرتك ، وأن أعمق معرفتي بالرفيق عارف الياسين ، فقد أحببت حديثه ، إن جاء أخبره بسؤالي عنه ، وسأعود من أجل أن أراك وأراه .

ومضيت ، ومودة (أبو العبد) تلفني ، مررت بجوار الرجل الجامد ، الثابت . . الجالس إلى الطاولة من دون حركة ، أو إشارة ، أو كلام . . فرأيته يحدق في جمهرة الناس ، والحاجز الحديدي ، والبغالة والبغال والكلاب وسيارات الجيش . . وكأنه حدأة ، مشيت لا رفيق لي سوى المطر ، ودقات قلبي التي تقول لي إن سيلفا تنتظر أوبتي بفارغ الصبر» .

ملحوظة :

في الطريق ، توقفتْ إلى جواري سيارة طويلة فيها خلق كثيرون ، أحدهم وهو الرجل الأنيق الذي يجاور النافذة في المقعد الأمامي ، رجاني بالإنكليزية أن أقدم بطاقة التعريف ، فناولته إياها . .

فنظر فيها ، ثم أعادها إليَّ شاكراً تعاوني . . مضت السيارة ، ومضيت في طريقي ، ولا شيء يلوّب في لهاتي . . سوى أسئلتي المرة ، فأي أمن هذا الذي يقصدونه ، وأي خوف هذا الذي يعيشونه . . أيها الصديق الغالي ، اكتب إلي أرجوك ، وقل لي . . هل صادفت مثل هذا . . حين كنت هنا ، أرجوك اكتب ، وإلا سأترك المكان وأعود إليك .

مع ثلاثة اسرائيليين..
في المقهى الصغير!

«أكتب إليك ،

بعد أن أفقت من نوم عميق ، لقد شعرت بالتعب ، وبانحطاط القوة في جسدي ، فأخذت حماماً دافئاً ونمت . الآن ، وقد استيقظت ، أشعر بصفاء ذهني كامل ، وبراحة عميقة ، وشهية مفتوحة على الطعام ، أكلت كما لم آكل من قبل وشربت أكثر من فنجان قهوة ، وها هي ذي كأس النبيذ أمامي ، وإلى جوارها بطاطا مقلية ، وخسة كبيرة الحجم ، وصحن زيتون ، وقطع جبن ، ومرتديلا ، ونقانق ، وأجنحة دجاج . . تلفني حالة من الهدوء العجيب ، والطمأنينة الوارفة . .

قبل ساعات فقط عدت منهكاً بعد تجوال طويل ممتع قضيته مشياً على قدمي في أحياء القدس ، مشيت على غير هدى ، ومن دون دليل ، قلت عليَّ أن أقود نفسي في هذه البلاد الجميلة ، فأرى بعينيَّ ، وأحس بقلبي ، وما من رفيق لي سوى الكاميرا التي راحت ، كعادتها ، توقفني كي ألتقط الصور الجميلة .

في البدء وصلت إلى ساحة باب العمود ، ورحت أرتب الأمكنة في ذهني ، فها هو ذا المقهى الذي جلسنا فيه مرات عدة ، ها هو ذا اسمه مكتوب بحروف بارزة ، [مقهى الباشورة] ، وخلفه تماماً حارة الباشورة وفي الجوار حارة الأشراف ، وهذا هو المدخل إلى المسجد الكبير ، وها هم الناس جمهرات جمهرات في نفير متتالٍ يدلفون إليه ، وها هم البغالة يواقفون

بغالهم ، وكلابهم ، وسياراتهم ، وأسلحتهم ، وقلقهم ، وحذرهم وأسئلتهم ، وعيونهم شائحة هنا وهناك ، أرى من بينهم فتيات لولا شعورهن الطويلة ، ومؤخراتهن السمينة ، وصدورهن النافرة . . لما صدق الناظر إليهن أنهن فتيات ، فهذه الوقفة لا تقفها الفتيات عادة ، وهذه النظرات الذئبية لا ترسلها الفتيات عادة أيضاً ؛ فالفتيات نبات الأرض ، والنبات نبات . خطا الناس بطيئة ، منكسرة أو تكاد ، خطا تكاد تقف عند سماعها لأي أمر ، أو صرخة ، أو طلقة نار . . وباعة جوالون ينادون على بضاعتهم ، لكأنهم يستأنسون بأصواتهم استجراراً للطمأنينة النفور ، كل ما حولي يلفه ضباب خفيف ، لكأنه دخان الفضة الرهيف ، ومطر ناعم يتهادى فوقنا حيياً مثل ريش النعام .

أمر بالمقهى فأرى نفراً من الناس يجالسون طاولاتها . . ونظراتهم ذاهبة إلى البعيد البعيد ، وماسحو الأحذية ، وبائعو الأمشاط ، والدخان ، والمناديل الورقية ، وعلب الكبريت ، والشموع ، وقطع الحلوى ؛ يجولون بين الطاولات وفوق الأرصفة ، وفي صدر المقهى اصطفت الأراكيل الزجاجية ، والنحاسية ، والفضية . . كأنها تلاميذ مدرسة في اصطفافهم الرياضي ، أصعد الدرجات الحجرية التي جالسها المتعبون ، والمنتظرون ، والمتأملون ، والباعة . . فأرى حجارتها كأنها الأشجار التي نهضت على جذورها العميقة ، وأقف أمام الأعمدة العالية ، أدور حولها في استدارة تشبه استداراتها . . أعمدة حجرية زرقتها ، تحت المطر الرذاذي ، تلمع وتبرق مثل خيوط الحرير ، وأعمدة رخامية بيض ذات رهجة وردية تشبه ريش الأوز ملاسة ونعومة ، أعمدة تعلوها تيجان حجرية متدلية مثل النباتات ، حانية بظلالها على الأعمدة ، تخترمها الرسوم والخطوط حفراً غائراً وآخر نافراً . . وبسبب علوها لا تدرك العين جمالها كله . . وأشجار السرو الضخمة العالية تبدو مثل الأيائل . . دانية وبعيدة في آن ، قريبة ونافرة في آن ،

وأشجار زينة عالية ذات تعريشات واسعة لا ورق لها سوى أزهارها . . أغصان من الزهر النيلي البرّاق . . أزهار صغيرة الحجم مثل حبات الخرز ؛ لكرة كثافتها لا تبدو أوراق الأشجار الصغيرة المدببة . . إنها تهبط وتعلو فوقنا مثل أجنحة خفاقة واسعة ، والغيوم دانيات دانيات . . تكاد لولا طلوع النهار . . تماشيني . .

أقف أمام الحيطان العالية ، فأرى الحجارة الصوانية الضخمة القريبة مني ، حجارة بيض مشرّبة بالحمرة الوردية تعلوها حجارة راحت تصغر وتصغر كلما حلّقت في البعيد العالي ، حيطان محتشدة بالرسوم ، والتزيينات ، والحجارة النافرة ، والنوافذ الوسيعة ، والأقواس الحجرية الحانية . . رسوم لأسود وخيول ، وأيائل ، وأبقار ، وطيور ، وثيران ، وجرار ، وسيوف ، ورماح ، وأباريق ، ودلاء ، وأزهار ، ونباتات يقطين ، وقرع ، ودوالي عنب ، وقصب ، وأشجار زيتون ، وخروب ، وليمون ، وبلوط . . رسوم صاغتها الحجارة باستداراتها ، واستقاماتها ، وتعامدها . . فبدت الحيطان العالية مثل متاحف جدارية . . أمشي على علوة من الأرض فتمشي معي المآذن والقباب ، هنا مساجد تتلوها مساجد ، وأسطحة تتلوها أسطحة لزوايا وأروقة وتكايا تعلوها قبب ملونة ، ومزينة بالرسوم ، وتحتها قبور ، وفسحات مبلطة مكشوفة ، وأخرى مغطاة بالحصر وقطع اللباد ، مساجد يتوالد بعضها من بعضها الآخر . . فتتسع مساحاتها وتمتد ، وها هي ذي الكنائس ذات القباب النحاسية المتعددة الصلبان تخطف الأبصار ، وطيور حمام كثيرة تحوّم داخل سحب الغيم . . فتبدو مثل ليرات الفضة وهي تتقلب بين جنبات الغيم . . كنائس كثيرة صغيرة وكبيرة . . أمرُّ بها وتمر بي فأرى الناس محتشدين قرب بواباتها الخشبية العالية البراقة ، تبدو الكنائس كثيرة هنا ، وكأن امتدادها وازدحامها يكاثران أبوابها ، وساحاتها ، ونوافذها ، وقبابها ، وصلبانها ، وناسها . . كنائس تحيط بها مساحات

العشب ، والنوافير ، وسواقي الماء ، والأشجار الكثيرة الكثيفة ، وأمامها وخلفها ، وحولها ، وفوقها ، وفي جنباتها ، وأروقتها ، ونوافذها ، وأقواسها ، وأبهائها . . يطير الحمام ويحط الحمام في إيقاع فطري لا تمله العين . .

ها أنذا أقف أمام قبة الصخرة ، أمام المسجد الذي يحتشد الناس في جنباته الوسيعة ، فأرى اللون الذهبي يكاد يسيل من القبة نحو الحيطان ، أترقب سيلانه حقاً عند حواف البناء ، أتخوف من أن يغطي اللون الذهبي زرقة هذه الجنبات والنوافذ ، والأقواس ، والشرفات البادية . . ألوان تموج من خلف الغيوم ، وتتلامع ، وتتدافع حتى ليكاد المرء يعجز عن رؤيتها في نظرة واحدة ، فالزرقة تشف حتى لتصير لوناً أبيض ، والحمرة الوردية تشف حتى لتصير بلون الزهر ، وهذا اللون الذهبي يشف حتى ليغدو حقل أقحوان . . أرى الألوان تتداخل ، وتتماهى ، وبعضها يميل نحو بعضها الآخر ، أخاف من سيلانها نحو الأرض ، أخاف على الناس كي لا تغرقهم الألوان ، اقترب أكثر من الحيطان . . فأرى المثلثات ، والمربعات ، والمستطيلات ، والمثمنات ، والدوائر ، وأنصاف الدوائر ، والمكعبات ، كلها تصنع زينة الجنبات ، والنوافذ ، والشرفات ، والحواف الدانية ، تماشيها عبر أسطر قرآنية تدور حول البناء دون أن تدوخ أو تتعب ، وخطوط بعضها يعلو بعضها الآخر في تشكيلات بديعة لا تميل أو تنحدر ، ونباتات يلتف بعضها ويلتوي على بعضها الآخر محاكاة للكلام المضيء الذي يعلو امتداداً مثل المآذن ، ورسوم الدوالي الحانيات على النوافذ الزجاجية الملونة محتشدة بالعناقيد البادية . . دنيا من الجمال ، والصور ، والنباتات ، والطيور ، والحيوانات ، وأدوات الصيد ، والحرب ، والأواني والكؤوس ، والجرار ، والخطوط ، والنقوش الذهبية ، دنيا كأنها كتاب ، كل صفحة فيه شوق وأمنيات ، وكل التفاتة إليه متعة ورواء . .

ها أنذا أماشي الأسوار العالية ، أماشي نوافذها ، وحجارتها التي تكاد

تنطق، والأشجار التي تباريها، وسواقي الماء الصخرية التي تحاذيها، والطيور التي تحط فوقها . . يا إلهي لكأن المكان بستان ولا شيء فيه سوى بيت وحيد . . أصور ما أراه كي أراه .

أظن أنني مررت من قبل بهذه الأسوار وماشيتها وبهذه الأشجار، والنوافذ، والسواقي، والطيور . . ووواقفتها، وأن دهشتي سالت هنا مرات ومرات . . أعرف ذلك . . لكن نفسي تنكر عليَّ ظني هذا، لكأنني أرى ما أرى للمرة الأولى، هذه طيور كثيرة، ليست حماماً، إنها ملونة، وذات أعناق طويلة، وأرجل طويلة ولكنها ليست طيور اللقالق التي نعرفها، طيور أراها للمرة الأولى، وهذه المياه المتدافعة من السواقي ليست المياه التي رأيتها من قبل، وهذه النوافذ الدانية مني لم أرها أيضاً بهذا الجمال والزرقة اللامعة، وهذه الأشجار التي تتكاثف أوراقها وتدق حتى لتبدو عرائش من حبق أو ريحان . . تنحني نحو الناس والجدران والظلال مرة واحدة وبحياء عجيب هذه لم أرها أيضاً . كل شيء هنا أراه للمرة الأولى، لكأنني لم أمر بهذا المكان من قبل . يا لهذه الأمكنة، ويا لهذه الأشجار يا لجدتها الدائمة .

فجأة، وبينما أنا مأخوذ بما أراه، أنتبه ليد تهزّ كتفي، ألتفت نحوها، فأرى الدليل فرج، يقف بمحاذاتي باسماً، يقول لي : خواجة إنني أناديك فلا ترد عليَّ، أبتسم للدليل فرج . وأرحب به . وأسأله دون أن أعي إن كان سؤالي مناسباً : فرج، هل جئنا إلى هنا من قبل . فيقول : جئنا يا خواجة جئنا . أقول : لكأنني أرى المكان للمرة الأولى . فيقول : لقد قلت هذا الكلام أيضاً في المرة السابقة . قلت : فرج، صارحني، هل هذه المدينة مسحورة . قال : لا . قلت : هل هي تدور . قال : كيف؟ قلت : هل هي موجودة فوق خشبة مسرح وتدور؟ قال : لا . قلت : هل أنت متأكد يا فرج . قال : أرض هذه المدينة صخر يا خواجة . قلت : لماذا إذاً أراها في كل

مرة وكأنني أراها للمرة الأولى . قال : لأنها مقدسة . فكل ما يقال عنها يظل جديداً كأنه لم يقل من قبل ، وكل رؤية لها تظل جديدة كأنها لم تكن من قبل . . قلت : ومن يغيّرها ، يا فرج؟! قال : يد الله ، الناس ، النهارات ، والقلوب . . . قلت : هل يحدث هذا معي فقط؟ قال : لا ، إنه يحدث معي أيضاً ، وأنا ابن القدس . . قلت : هذا كلام يريح قلبي حقاً . قال : حين أكون وحدي أراها جديدة ، وحين أكون مع الناس أراها جديدة ، مدينة خرافية لا تريك كل شيء دفعة واحدة ، إنها مثل النساء الجميلات كل إمالة لهن جدة ، ، قلت : فرج ، أراك هنا . قال : لشغل يا خواجة . قلت : مع زوار . قال : لا ، الآن أجلس مع اثنين من الاسرائيليين هناك ، وأشار إلى مقهى رصيفي صغير ، كراسيه البيض بادية للعيان ، وأضاف : أتمنى إن كنت غير مشغول ، أن تأتي وتتعرف إليهما . قلت : لماذا؟ قال : خذ فكرة عن هؤلاء كيف يفكرون ، وكيف يعيشون؟ قلت : هل حدثتهما عني . قال بالمصادفة ، وحين مررت من أمامنا ، قلت : وهل مررت من أمامكم . قال : نعم ، وناديتك ، لكنك لم تلتفت إليّ ، لعلك لم تسمعني . قلت : أنا آسف ، فهذه المدينة استولت عليّ . فهي لا تقبل من أحد أن يعطيها نصف اهتمامه . قال : هذه مدينة تصيب المرء ، بأعراض الهوى والعشق . قلت : فعلاً يا فرج ، جملتك صحيحة تماماً .

وماشيت الدليل فرج في استدارة راحت تميل بنا نحو المقهى الأبيض ، وقد مرَّ بنا خلق كثيرون ، وباعة ، وأشجار ، وعربات جر ؛ يا إلهي من أين لهذه المدينة القدرة على استقبال كل هؤلاء الخلق ، إنني أراهم في قدوم ، وإياب ، ودوران ، ووقوف ، وجلوس ، وركوب ، وجري ، واضطجاع ، واندهاش ، وتأمل ، وشرود ، وكلام ، وإنصات ، وحضور ، وغياب ، وبيع وشراء ، ومناداة ، ورجاءات ، وأدعية ، وصلوات ، وتمتمات ، وهمهمات ، وغمغمات . . أراهم يجولون في دروب ، وأحياء ، وساحات ، ودور عبادة ،

ومحال، وتلال، وجبال، وأودية، ألتفت إلى يميني فأرى هوة واسعة لوادٍ عميق مملوءة بالأشجار، والصخور، والغيوم الطافيات.. تبدو الأبنية واقفة على حافة الوادي الدائري الشاسع مثل الحراس لا شيء حولها سوى الدروب، والأشجار، وسواقي الماء الجارية. يسألني الدليل فرج عن الحوذي جو، فأقول له: لم يأتِ معي إنه مشغول، لهذا جازفت وخرجت وحيداً كي أرى المدينة. قال: القدس، يا خواجة، لا ترى من دون دليل، قلت: لكنها أليفة ووادعة. قال: إنها كذلك، ولكن ما إن تماشيها حتى تنبت في رأسك آلاف الأسئلة. تظن للوهلة الأولى أنك قادر على معرفتها، وإدراك كل شيء من دون سؤال. ولكن هذا مجرد ظن، فالقدس مثل الغابات، صحيح أن ما فيها مدرك ومعروف، ولكن تذوق الجمال يحتاج إلى دليل، وحلاوة المدينة تبدو من خلال الأسئلة والأجوبة.. من دون دليل تفوتك، يا خواجة، أشياء كثيرة.. قلت: فعلاً، كانت الأسئلة تماشيني كلما ماشيتها.. أسئلة مُرّة راحت توقفني مرات ومرات.. حتى كادت تفسد عليَّ متعة الرؤية.

واستدرنا كي نقابل المقهى بعد أن وصلنا إليه فانتحى بي الدليل فرج جانباً، نحو طاولة يجالسها ثلاثة أشخاص، وقد تململوا في مقاعدهم ببطء، ورحبوا بي،.. قلت للدليل فرج وأنا أستوي في جلستي: أهم من هنا؟ قال: من هنا. وراح يعرفني إليهم ويعرفهم إليَّ، فأدركت من كلامه أن اثنين منهم يعملان في الصحافة، وواحداً في الجيش، وأن أحد الصحفيين التحق بالطاولة في أثناء غيابه، عندما تركهم ولحق بي لمناداتي. قال الأبعد منهم واسمه عامير: ها سيد فلاديمير، هل أعجبتك بلادنا؟ فهززت رأسي له، وتمتمت: إنها جميلة، خصوصاً هذه الأبنية العتيقة. قال: هذه مدينة داوود وسليمان، بنتها الملائكة بأوامر منهما. قلت: أهي باقية من ذلك العهد. قال: نعم، وهل تظن غير هذا؟ قلت:

أظن أن الجيوش ، وقادة الجيوش مثل نبوخذ نصر الفارسي ، وطيطس وهادريانوس الرومانيين . . . دمروا ما بناه داوود وسليمان . قال : أتظن ذلك؟ قلت : أظن ، قال : هذه خرافة . يا سيد فلاديمير ، ما يبنيه الأنبياء لا يهدم . قلت : كتب التاريخ تتحدث عن هذا التدمير بالتفصيل . قال وهو يقهقه : وهل تصدق كتب التاريخ؟ التاريخ يكتبه المنتصرون يا سيد فلاديمير . قلت : لكنكم عدتم إلى هنا بسند تاريخي؟! قال الرجل العسكري مندفعاً : عدنا بوعد إلهي ، وليس بسند تاريخي . هذه الأرض هبة الله لنا . . قلت : لكنها سكنت قبلكم ، وبعدكم ، وعمرّت قبلكم وبعدكم . قال : هذا صحيح ، لأن الله سخّر لنا الآخرين من أجل بنائها . . تماماً مثلما سخر الله الملائكة والجان لداوود وسليمان كي يبنوها مرة أخرى . . قلت : من أجل بنائها ، أم من أجل بناء الهيكل . قال : الهيكل أساس المدينة ، جوهرها . قلت : وأين هو الآن؟! قال : ألم تقل إن المدينة دمرت مرات . قلت : صحيح . قال : إذاً الأشرار دمروه ، ولكن الكتاب المقدس يحدد لنا مكانه ، وهو هنا ، تحت هذه المساجد والكنائس التي لا بدّ من إزالتها كي تبدو أساسات الهيكل . . لعلك تدري ، يا سيد فلاديمير ، أن يد الحرب قذرة مثل المكنسة ، لا تبقي على شيء . . . قلت : ألهذا تحاولون منع أهل الأديان الأخرى من الدخول إلى أمكنة عبادتهم . قال : لا بد من فطمهم ، وتدريب أرجلهم على المشي في اتجاهات أخرى . . قلت : لكن الكنائس هنا تؤرخ لحياة السيد المسيح ، مثلها مثل المساجد التي تؤرخ للنبي محمد . قال الصحفي الثاني ، واسمه روكي : وأين هي معابدنا إذاً؟ أين هو تاريخنا؟ قلت : لا أدري . قال : نحن ندري . إنها تحت هذه الأبنية التي لا أطيق رؤيتها . قلت : كيف لا تطيق رؤيتها؟ قال : إنها جاثمة فوق جسدنا الديني وجسدنا التاريخي ، وهذان الجسدان منذ آلاف السنوات يئنان ويتوجعان . . وآن الأوان لأن ننقذهما . قلت :

وإلى أين ستذهبون بهذه الكنائس والمساجد . قال ببساطة شديدة : الكنائس إلى روما ، وأثينا ، وموسكو . . ، والمساجد إلى مكة والشام واسطنبول . قلت : وهل يقبل أهل الكنائس ، والمساجد مثل هذا الأمر؟ قال : وهل نحن قبلنا بالتدمير الذي حل بدور عبادتنا؟! قلت : إذاً أنت تطالب بأن تغلق المساجد والكنائس الموجودة في كل أوربا . قال : كيف؟! قلت : لأنك تطالب بعودتها إلى بعض الأمكنة فقط . قال : هذه مسألة تخص أوربا ، أنا أطالب بعودتها كي نستعيد دور عبادتنا . قلت : هذا منطق غير عصري ، أنت تطالب بالانقلاب على الحاضر ، من أجل الماضي . قال : مَنْ ليس له ماض ليس له حاضر . قلت : لكن العرب الذين تحاربونهم اليوم ليسوا هم من دمر دور عبادتكم . قال : هذا تفصيل تاريخي لا يهمنا! . . قلت : ما تطالبون به اليوم هو تفصيل تاريخي أيضاً! قال : تفصيل تاريخي ولكنه أساسي وجوهري ؛

وصمتُ لأن الحوار بدا عقيماً لا يفضي إلى شيء . كنت قد طلبت قهوة ، فجاءتني ، ولم أشرب منها إلا عندما باتت باردة ، قلت في نفسي الحوار بارد مثل هذه القهوة الباردة .

وانتبهت إلى الرجل العسكري وهو يوجه الحديث نحوي ، قال : روسيا ، يا سيد فلاديمير ، تغيرت بفعل البلشفية ، والآن زالت البلشفية ، فهل يقبل الروس الأصلاء التغيّرات الاشتراكية؟ قلت : ما كان بحاجة إلى التغيير تغير ، وما حرص الروس على بقائه بقي . قال : لكن الكنائس أعيد فتحها . قلت : لأن الروس لم يرضوا عن إغلاقها . قال : إذا الماضي له سطوة ، قلت : أعترف أن للماضي سطوة . قال : لهذا نحن نريد استعادة الماضي ، نحن من دون الماضي لا حياة لنا ؛ وماضينا غني جداً ، ومؤثر جداً ، ولا بدّ من استعادته كاملاً . قلت : لكن الدنيا تغيّرت ، وتخطت ذلك الماضي . قال : كل شيء تم رغم أنوفنا . كنا ضعفاء ومتفرقين . قلت :

والعرب اليوم يقولون كل شيء تغيّر ويتغير رغم أنوفهم لأنهم ضعفاء ومتفرقون . قال : هذه دورة التاريخ ، قلت : أنت مؤمن إذاً بأن ما تفعلونه من تغييرات سيذهب أدراج الرياح . قال : فعلاً سيذهب أدراج الرياح إن لم نحرسه بالقوة . قلت : للقوة أدوار . قال : وعينا بأهمية القوة سيلغي المداورة على القوة . قلت : كيف؟ قال : ألا ترى حرص أوربا الشديد على أسرار التكنولوجيا والتقنيات . قلت : أرى . قال : هذا الحرص محروس بالقوة وليس بالأسرار فقط . قلت : وأنتم؟ قال : نحن مهمتنا أكبر ، نحن نحرس الماضي والحاضر والمستقبل بالقوة . فالتفريط بالقوة يعني زوالنا . قلت : لكن قوتكم متوحشة . قال : القوة دائماً متوحشة ، وهل كان جنكيز خان ، ونابليون بونابرت ، والاسكندر المقدوني ، وطيطس ، وهتلر ملائكة؟!

ولم أجب ، ظللت على صمتي ، فتدخل الصحفي عامير قائلاً : هذه البلاد دفعنا من أجلها المال والأرواح مرات ومرات ، قلت : كيف؟ قال : لقد اشترى إبراهيم المغارة من عفرون ابن صوحر الكنعاني ، بـ أربعمائة شاقل فضة ، ويعقوب اشترى مكاناً لقومه من حمور الكنعاني ، وداوود اشترى بيدر أرونة اليبوسي بخمسين شاقلاً من الفضة ، قلت : إذاً أنتم شراة ، أهل مال ، اشتريتم الأرض من أصحابها فصارت لكم . قال : هي لنا . . أصلاً . قلت : كيف؟ ألم يرفض اليهود دعوة النبي موسى أن يدخلوها بعد خروجهم من مصر . قال : صحيح ، رفضوا الدخول لأنهم كانوا ضعفاء . قلت : والعرب يسكتون عما تفعلونه اليوم لأنهم ضعفاء . قال الرجل العسكري : وسيظلون ضعفاء ، قلت : أهذه نظرية عسكرية؟ قال : نعم ، إنها نظرية عسكرية . قلت : لكنكم بحاجة إلى العرب . قال : لا ، لسنا بحاجة إليهم ، قلت : دائماً كنتم بحاجة إليهم . قال : كيف؟ قلت : ألم يبنوا الهيكل لكم كما ذكرتم . قال : لا ، قلت : ألم تأخذوا الأخشاب من ملك صور ، ألم تستعينوا بالبنائين الكنعانيين ، هذا أمر

مكتوب في كتبكم . قال : الاستعانة كانت بسيطة ، ليست على هذا النحو الذي تتحدث عنه . قلت : تذكر كتبكم أن عدد البنائين كان أكثر من مائه وثلاثة وخمسين ألفاً . قال وهو يهزّ رأسه : الرقم ليس مهماً . قلت : واليوم هم يبنون مستوطناتكم . والجدار العازل! قال : اعتادوا على هذه الأعمال . قلت : لقد أخفتموهم وظلمتوهم وجوعتموهم فاضطروا إلى القيام بهذه الأعمال . هذا هو الدليل فرج ، أسألوه إن كان لديه أرض ، وهو ابن القدس ، والتفتُ إلى فرج ، وسألته ، ألديك أرض يا فرج . قال : لا قلت : ألم تكن لديك؟ قال : كانت . قلت : وأين ذهبت أرضك . قال : استولى عليها الجيش ، فانتفض الرجل العسكري وضرب الطاولة بقبضة يده ، وقال : قل اشتراها الجيش . قال فرج : الأخذ بالقوة شيء ، والبيع والشراء شيء آخر . التعويض ليس بيعاً ولا شراءً . قال الصحفي روكي : ضرورات الأمن تقتضي مثل هذا الأمر أحياناً . قلت : كل الأحيان . فالأمن هنا خرافة ، أسطورة . قال : العبث بالأمن ، عبث بالمستقبل . الحياة تدور وفق عجلة الأمن . فالأمن حين يكون موجوداً كل شيء جميل يكون موجوداً أيضاً . وقال الصحفي عامير وهو يشير إلى الناس الذي يصعدون الدرجات هامين بدخول بوابة المسجد : قلبي يحترق ، وأنا أرى هؤلاء المذنبين دائماً يدخلون إلى هذه الأمكنة الواجب إزالتها . قلت : لو أزيلت ستزال دولتكم . والتفتُ إلى الدليل فرج ، وسألته ، ما رأيك يا فرج؟ قال : صحيح . قال عامير : الدولة تعني القوة ، فما دامت القوة موجودة فالدولة موجودة . وأكبر فضيحة أو مأساة أو مشكلة آثارها لا تدوم سوى أيام . العرب مفطورون على النسيان ، لا يستطيعون العيش من دون النسيان . قلت : النسيان خاصية الإنسان وليس خاصية العرب وحدهم . وقال فرج موضحاً : لدينا أمثال تقول : بأن العربي لا ينسى ثأره وإن مرت عليه أربعون سنة . قال الصحفي روكي : العرب درسناهم دراسة معمقة ، ومن

جميع الوجوه ، هم أصحاب نفس قصير ، وعاطفة ، وانفعال ، ولا يخضعون إلا تحت الضغط والمال . هذه البلاد التي تراها يا سيد فلاديمير اشتريناها بالمال ، كل ما تراه من أبنية وأشجار وينابيع اشتريناها بالمال . قلت : وإن أراد الفلسطينيون شراءها الآن . قال : من يملك المال لا يحتاج إلى المال . قال فرج : الخواجة فلاديمير يقصد لو أن الفلسطينيين أرادوا شراء ما اشتريتموه . قال : البلاد ليست للبيع . قلت : والعرب لا يريدون التنازل عنها . قال : العرب يقولون أموراً كثيرة ، وهم أهل كلام أصلاً وهذا لا يهمنا في شيء ، ما يهمنا هو ما نقوله نحن . قلت : لكنهم يتحدثون عن تاريخ ، ومعتقدات ، وأمكنة مقدسة ، قال : هذا من وجهة نظرهم ، فالتاريخ نحن من يحدد مساره ، والمعتقدات نحن من يقدر أهميتها ، والقداسة رهينة بما نراه نحن مقدساً . قلت : وهم . قال : لا يهمنا من أمرهم شيء . ولكن ثق تماماً أننا نعرفهم جيداً ، نعرفهم أكثر مما يتوقعون . قال فرج وكأنه يطلق زفرته الأخيرة : والعرب يعرفونكم جيداً ، وربما أكثر مما تتوقعون أيضاً . قال : مثلاً؟ قال فرج : مثلاً ، لا يوجد ما هو أغلى من المال عندكم . قال : والتاريخ أيضاً ، فالتاريخ هو من أعادنا إلى هنا . قال فرج : أظن أن المال هو من أعادكم إلى هنا؟ ، قلت ، وقد تحمست للفكرة : إذاً لماذا لا يشتري العرب ما اشتراه اليهود . . يا فرج ، قال : إن وعوا هذه الأهمية سيفعلون! قال الرجل العسكري : أنا على قناعة بأن القوة هي التي أعادتنا إلى هنا ، فلا شيء خارج القوة . قلت : القوة سحر ، ينتقل من يد إلى يد . وقال فرج : القوة لا تدوم . . فقال الصحفي روكي وهو ينهض مودعاً : لا شيء نعمل عليه سوى القوة . القوة هي الأب والأم . قلت : الحروب الصليبية قامت على القوة ولكنها انتهت . قال عامير : لقد قرأنا الدرس الصليبي جيداً ، ولن نفرط بالقوة كما فرطوا هم بها . قلت : وهل تتوقعون الخروج من هذه الأرض؟! قال الرجل العسكري : لا ، فلدينا قوة لن يحلم أعداؤنا

بامتلاكها ولو عاشوا ألف سنة . قلت : ما دام الأمر كذلك ، لماذا أشعر بأنكم خائفون من كل شيء . قال : من كل شيء؟ ماذا تقصد؟ قلت : أراكم تخافون من الأبنية والبيوت فتهدمونها أو تنسفونها أو تستولون عليها ، ومن أشجار الزيتون . . فتحرقونها ، أو تقلعونها ، ومن الناس ، فتعلون الحواجز الكبيرة جداً متاريس بينكم وبينهم ، قال : نحن نستولي على البيوت لأن لدينا مواطنين لا يمتلكون بيوتاً ، وتلك البيوت أهلها غائبون ، وأجدادنا اشتروها منهم ، ولدينا الأوراق الثبوتية ، وأشجار الزيتون صارت مخابئ لكل من يريد العبث بالأمن ، والحواجز ضرورة لإشعار الناس بأن العين الإسرائيلية لا تنام أيضاً . قلت مبتسماً : لكنها ستنام ، سيأتي يوم وتنام . قال : لديَّ موسوعة حيوانات كبيرة ، سأهديك في المرة القادمة الجزء الخاص بالذئاب قلت : أتقصد أنكم ذئاب . والآخرون نعاج . قال : بالضبط . قلت : وهل تخافون من تبادلية الأدوار ، أن يصبح الفلسطينيون ذئاباً ، وأنتم أغناماً . قال الرجل العسكري : مستحيل . قلت : لا مستحيل في التاريخ ، ألم تقرأ عن الاستنساخ والنعجة دولي ، من كان يحلم بذلك ، قال : هذا مجرد مزاح لا غير . قلت : يبدو أن كل ما لا يوافق هواكم هو مزاح . قال : علينا أن نجعله كذلك . قلت سائلاً : أأنتم أقوياء حقاً؟ قال ضاحكاً : طبعاً . قلت : وما سبب قوتكم . الأسلحة ، الأمن ، الصحو ، قال : لا ، توزيع الأدوار هو الأهم .

وطال النقاش والحوار إلى الحد الذي أغضب أحد الصحفيين فهجم على الدليل فرج ، واتهمه بالإرهاب ، والتعصب الأعمى ، وهدده بسحب البطاقة التي تخوله العمل في قطاع السياحة كدليل . . ونهضت مودعاً ، فقال لي الرجل العسكري : آمل أن نلتقي مرة ثانية كي نخلصك من بعض الأفكار التي تتبناها خصوصاً الأفكار التاريخية ، وأرجو أن أقنعك في المرة القادمة أن التاريخ من دون قوة لا قيمة له ، ونحن نمتلك القوة

والتاريخ ، قلت : أنا لا أؤمن بالقوة مطلقاً ، حضارات كثيرة أسست قلاعاً ، ومجالات حيوية وحرستها ليل نهار . . لكنها مضت ، فالقوة مهما بلغت يظل عمرها قصيراً . وهزَّ الصحفي عامير يدي وهو يودعني ، وقال : آمل أن تعتمد في أثناء زيارتك دليلاً يهودياً ، فالدليل فرج ليس موثوقاً ، وهو لا يراعي قواعد مهنة السياحة وشروطها . فتدخل فرج قائلاً : أنا هنا ، في هذا النقاش ، لست دليلاً سياحياً . أنا أناقش ما أعرفه وما أؤمن به من أفكار . الحوار معكم شيء ، والعمل المهني ، كدليل سياحي ، شيء آخر .

أحسست بانكسار الدليل فرج . فقلت لهم : لقد رافقني الدليل فرج مرة أو مرتين ، وقد تعرض لإهانات كثيرة من جنودكم ، فقد ضربوه ، وأدموا وجهه . . . ولم أسمع منه إلا المعلومات الخاصة بالمكان . همهم الرجل العسكري وهو يستدير : كانوا محقين!

وانتهى اللقاء ، فمضيت برفقة الدليل فرج ، مخلفين وراءنا طاولة بيضاء صغيرة عرشت فوقها الأفكار الساخنة ؛ وفي الطريق ، قال لي الدليل فرج : أنا مدين لك يا خواجة فلاديمير وفرح بك أيضاً ، لأنك هززت قناعاتهم . قلت : ما داموا مؤمنين بالقوة لا أحد يهزّ قناعاتهم ، قناعاتهم لا تهتز إلا بالقوة . قال : أنت محق . لا بدّ من القوة . ثم سألني بعد فترة صمت : خواجة فلاديمير إلى أين؟ قلت : إلى البيت . قال : ألا تريد أن ترى شيئاً . قلت : لقد تجاوزنا منتصف النهار ، وأشعر بشيء من البرد وبشيء من الجوع لذلك أود العودة إلى البيت . قال : أرجو أن تعلم ، أنني بخدمتك دائماً ، قلت : أعرف ذلك يا فرج ، وشكراً لك . وودعته وأنا أقول له لعلنا نلتقيه أنا والحوذي جو يوم الغد . فهز رأسه ممتناً ، ومضى ، ومضيت» .

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملحوظة :

أعترف أمامك ، أن الثقة المفرطة لهؤلاء الاسرائيليين الثلاثة أخافتني ، إنها تعني المزيد من القتل ، والدم ، والحزن ، والمقابر ، والصبر ، والظلم ، وانتظار ما لا يدنو . صديقي الحبيب ، أرسل إليك صورة لـ سيلفا ، وأخرى للحوذي جو ، وثالثة لي . . راجياً منك أن تقرأ وجوهنا ، فتكتب إليَّ عما شعرت به . محبتي الدائمة .

جِرار اللعنات

«أعترف ،

أن شوقي هو من يدفعني إلى مجالسة الورق والكتابة إليك . فالكتابة ذاكرة ، ورسم ، وحياة ، وأمنيات . . . بها أجسد ما أرى ، وبها أرسم ما أحس به ، وبها أشتاق ، وأبوح ، وبها أمحو ما غمَّ قلبي . . .

ها أنذا وحيد في غرفتي ، لا مؤنس لي سوى شرابي ، وشمعتي الطويلة التي راحت تذوب ، وذبالتها المتناقصة تقول لي إن الليل مضى أو كاد ، وإن الفجر . . يحيط البيت بفضته الكابية ، أمامي فوضى ثيابي ، وصحون طعامي ، وكاسات الشراب ، وبعض الصحف والمجلات ، وفي الطرف الداني مني ، معطف سيلفا ، الذي نسيته هنا معلقاً فوق ثيابي المعلقة ، فقد جاءت أخيراً بعد غياب دام أياماً . . لعلها تركت معطفها قاصدة ، كي يظل طيفها محوماً داخل غرفتي مثل الطيور . لقد غادرتني للتو ، تركتني نشيطاً ، ممتلئاً بالصحو والعافية . . على غير عادتي وعادتها أيضاً ، ففي المرات الماضية ، ما كان الواحد منا يترك الثاني إلا كتلة مطفأة ، جسداً مبللاً بالنشوة الكاملة . . كم بكت سيلفا قبل أن تغادرني ، وكم لامت نفسها ، وكم أوجعت قلبي ، الآن وبعد ليلتي هذه معها ، بت على يقين أنها ضحية ، ضحية المكان ، والوظيفة ، والمعتقد ، وبدت لي ، وحالما غادرتنا العجوز أم أهارون مثل طائر أصابه طلق ناري ، فراح يحط ، ويطير ، ثم يحط ويطير ، دون أن يدري ما يفعله . . لقد أطار الطلق صوابه ، فصار

تائهاً ، يطير ملاحقاً روحه ، ويحط بها كي لا يتخطفها الفضاء العميم . . . جاءتني والعجوز أم أهارون ، تسبقهما رائحة الكعك ، كنت قد خرجت لتوي من الحمام ، وأويت إلى فراشي ، ورحت أقرأ قصص (الدروب الظليلة) للمدهش إيفان بونين ، لعلك تعلم كم أحببت قصص ذلك الرجل ، فهو يحدثك عن الحب ، وكأن ما يحدث يحدث معك ، أو لكأنك تتمنى أن يحدث لك ما يحدث لأهل الحب في قصصه . . كنت أقرأ السطر الذي يقول : تكاثر الثلج فأحاط بعربة ميشا ، وتلوى الدرب وضاق عليه وعليها ، ولم يكن في باله لحظتئذٍ سوى ناتاشا التي مشى إليها منذ ساعات على الرغم من المناخ الرديء . . كان وكلما تكاثف الثلج حوله ، يفكر بدفء بيتها ، والشاي الساخن ، وثيابها الشفيفة الملونة ، وبرق ساقيها ، وضحكتها التي ترن كالأجراس . . عند هذا السطر قُرع بابي ، فهمهمت مرحباً ، فدلفت سيلفا ، يا لها ، وهجة ضوء ، قنديل يمشي على قدمين ، نهر يأتيني إلى روضتي ، ندى يسري في نباتات الليل فيلمع مثل خيوط الحرير ، تدنو طي هدأة شاسعة ، فأميت جسدي لعلها تهبط فوقي فتأخذني بالذراعين . . تدنو فأرى ابتسامتها الوسيعة مثل حديقة ، وأسمع همهماتها الخافتة لكأن نداوة المساء بللتها فأعطشت حروفها . . تدنو . . فتبدو من ورائها العجوز أم أهارون ، وهي تحمل بين يديها صينية خشبية مملوءة بالطعام . . وصوتها يتعالى منبهاً . . لعله نائم فتقول سيلفا التي حاذتني : إنه يقرأ ، وتنحني فوقي مثل دالية . . تقبّلني ، فآخذها ملء ذراعيَّ احتضاناً . . يا لهذا الوجه الوردي ، ويا لهذا الشعر الأشقر الكثيف ، ويا لهذا المذاق الساحر . . تقفان ، هي وأم أهارون ، فأقف . أرمي الكتاب جانباً ، وأماشيهما إلى الطاولة . . تضع العجوز أم أهارون صينية الطعام ، فأراها مملوءة بأصناف عدة من الحلويات والكعك فتمشي في الغرفة رائحتان ، رائحة سيلفا ، ورائحة الكعك . . أسأل العجوز : أهو عيد ميلادك

يا أم أهارون ، أم عيد الفصح؟ فتقول : عيد الفصح ، إنه يدنو . . فأبارك لها العيد ، بينما تخلع سيلفا معطفها ، فآخذه منها وأعلقه فوق ثيابي . . وأسألهما هل نأخذ شاياً أو قهوة ، أو نكتفي بالنبيذ ، فتهمهم العجوز أم أهارون : شاي ، وتقول سيلفا : قهوة ، أرجوك ، فأنا متعبة من يوم عمل طويل طويل ، . . وأدعهما جالستين إلى الطاولة ، العجوز أم أهارون تطوف ببصرها في أرجاء الغرفة لكأنها تتفقد محتوياتها ، وسيلفا تعيد رأسها نحو مسند الكرسي ، وكأنها تود الذهاب في إغفاءة ريثما أعود ، بدا لي وجهها مثل هالة القمر وقد راح الغيم يمرّ به خفيفاً ، فأعود إليها ، إلى وجهها أنحني عليه ، وأقبله ، فتجفل سيلفا مثل صفحة ماء رميت بحصاة ، ترى وجهي فوق وجهها ، فتبتسم وهي ترفع إليّ ذراعها مسحاً على صفحة خدي ، وعنقي ، تبدو ألوفة مثل فرس هدّها الطراد الطويل . . أتركها وأمشي نحو المطبخ كي أعد القهوة والشاي ، والعجوز أم أهارون تصرخ بي : إياك أن تفكر بـ سيلفا . . كي لا تجرها إليك . . . لحظات ، وأخذت الشاي والقهوة إليهما ، فوجدتهما غارقتين في حديث حول فرار بعض السجناء من سجن اسمه (عوفر) ، كانت العجوز أم أهارون تسأل ، وسيلفا تجيب ، سمعتها تقول للعجوز : إنهم كائنات غير عادية ، جان ، شياطين . . لأن ما قاموا به ليس فعلاً بشرياً ، إنه عمل يفوق التصور . . قلت متدخلاً في الحديث : ما الأمر . قالت سيلفا : أخبارنا التي لا تحبها . قالت العجوز أم أهارون : لا يحبها . . كيف . قلت : إذا كانت الأخبار أخبار قتل وتعذيب وإغلاق وسجن . . فهل عليّ أن أحبها ، قالت العجوز : عليك أن تتفهم ضرورات الأمن ، فأعداؤنا يتكاثرون مثل الأرانب ، ولا بدّ من عقلنتهم ، ولعقلنتهم لا بد من القوة ، فالأمن ابن القوة .

قلت : أي أمن ، وأي قوة يا أم أهارون ، والقتل أصبح مثل الأرواح الشريرة التي تحوّم في كل مكان؟ قالت : إنهم ، بأفعالهم الشيطانية ،

يدفعون أبناءنا إلى قتلهم ، قلت : إنهم يطالبون بحرياتهم . قالت : البحث عن الموت ليس حرية ، إنهم هواة موت . قلتُ وأنا أرى سيلفا تصب الشاي لي ولأم أهارون : منذ ثلاثة أيام وأنا أرى الشوارع ، والممرات ، والطرق . . مغلقة ، والحواجز منتشرة ، وليس بين الحاجز والحاجز سوى أمتار قليلة . بربك يا أم أهارون . . ما الذي سيحدث من أفعال شائنة بين الحاجز والحاجز . . وليس بينهما سوى عشرة أمتار؟! قالت : لا طمأنينة مع هؤلاء الأوغاد . علينا أن نتمتع بأعيادنا مطمئنين ، علينا أن نرى أطفالنا في الحدائق ، والشوارع ، والمدارس ، والمسارح ، والمحال التجارية ، والمطاعم ، والمقاهي . . مطمئنين آمنين . الأمن كتاب القوة . قلت : وكتاب القوة لا رحمة فيه ولا شفقة . قالت : الرحمة والشفقة في المشافي ، ودور المسنين . . أنت لو رحمت الشيطانَ قتلك! قلت : يبدو أن الخوف ، هنا في هذه البلاد ، مخلوق هوائي ، مخلوق خرافي يمشي في كل الأمكنة . . قالت : الخوف ، حارس الصحو ، نعمة الله علينا نحن أبناء اسرائيل ، لولا الخوف لما عدنا إلى أرض الأجداد والآباء . . الخوف كان طريقنا ، وسيظل طريقنا . قلت : لا حياة مع الخوف ، والخوف هو السبيل نحو الانطفاء رويداً رويداً . وهمت العجوز أم أهارون أن تقول شيئاً ، غير أن سيلفا التي صرخت وهي تضرب الطاولة ، وقد دفعت جسدها كله نحونا ، حالت دون أن تقول شيئاً . قالت سيلفا : أرجوكما ، ارحماني ، فأنا آتي إلى هنا ، كي أنسى ، كي أُخرج رأسي مما أراه وأعيشه ، أرجوكما . . هذا الحوار يقتلني ، يعيدني إلى ما لا أحب رؤيته ، وإلى ما لا أحب سماعه ، أرجوكما ، ورمت رأسها فوق الطاولة وراحت تبكي . يا لوجه سيلفا ما أجمله حين تبلله الدموع ، رفعتُ رأسها ، فرأيت ووجهها مثل آنية فضة سحت فوقها الدموع ، آخذ دموعها على أطراف أصابعي ، وأقبلّها .

فتنهض العجوز أم أهارون وهي تقول : يا لبنات إسرائيل هدّهن

السهر ، ارحمنا يا رب . وتخرج ، وسيلفا تصرخ في ظهرها لكي تبقى ، لكن العجوز تحمل جسدها الثقيل ، وتمضي ، فتلحق بها سيلفا ، وتعود بها قبل أن تهبط الدرجات الخشبية . . وتجلسان ، تضحك سيلفا ، فتمد العجوز أم أهارون يدها إلى وجهها وتمسد خديها بأصابعها الغليظة ، وتقول لها : إنك تدفعين الثمن ، أعرف ذلك ، وتسألها سيلفا : قولي لنا ، يا أم أهارون ، كيف صنعت هذا الكعك اللذيذ . قالت : كعك عيد الفصح . كنت أصنعه مع أمي ، رحمها الله ، هي التي علمتني كيف أصنعه حين كنا في الغياب . . ، كما كنت أصنعه مع حبيبي فريد ، لقد حملته إليه مرات ومرات ، وهو بين رفاقه يحرسون الحدود . . منذ رحيله ، وأنا أصنعه بمفردي ، وعادة ما يبقى حتى العيد القادم ، فما من أحد يقاسمني فرحتي بالعيد . . قمت مرات ، وحين كنت شابة ، بصنعه وتوزيعه على مدرستين قريبتين من هنا ، لكن صحتي منذ عامين لا تساعدني على هذا ، لكنني ما زلت أرسل إلى طلاب المدرستين كعك عيد الفصح . لي ابن جارة ، اسمه عودي ، يحبني ، يأتيني كل عيد ويأخذ ما لدي من كعك من أجل توزيعه على الطلاب . . منذ سنتين حرمت من زيارة الطلاب ، ومن رؤية الفرحة في عيونهم . . قالت سيلفا : ها نحن هنا ، نقاسمك فرحة العيد ، ألست سعيدة بنا ؛ فغصت العجوز أم أهارون ، وراحت تنظر إليَّ قبل أن تجيب . قلت : قولي يا أم أهارون ألست سعيدة معنا . قالت : أنت تفكر كما يفكر أعداؤنا ، ما تقوله يخيفني ، ويبعث الأسى في نفسي . قلت : وسيلفا؟ قالت : سيلفا . . من أحب بنات إسرائيل إلى قلبي . فتنهض سيلفا ، وتعانق أم أهارون ، وتقبّلها ، وهي تهمهم : وفلاديمير طيب . طيب جداً ، لو أنك تدخلين إلى قلبه . إنه خائف من القادم . يحس أن حياتنا أشبه بقنبلة وسوف تنفجر عما قريب . فقالت أم أهارون : عليه أن يطمئن ، فما دامت القوة موجودة ، فالأمن موجود ، وما دام الأمن موجوداً ،

فالمستقبل لنا . . قلت : القوة بالون ، كلما تضخم أكثر اقترب انفجاره أكثر . صرخت العجوز أم أهارون : يا لكلامك . إنه يؤذيني . وتلتفت إلى سيلفا ، وتضيف : صدقيني إنه يؤذيني . فتقول سيلفا مؤنبةً : فلاديمير ، دعك من أم أهارون . إنها رائعة وجميلة ، ورقيقة ، وعلينا أن نحتفل بعيد الفصح دونما خلاف أو مشادات . . أرجوك . . قلت : حاضر . قالت سيلفا : لقد جئت إليك برواية مهمة لكاتب إسرائيلي معروف اسمه عاموس كينان ، لعلك سمعت به . قام العرب في مدينة حيفا بترجمتها إلى اللغة العربية ، عنوانها (عين حارود) ، قلت : وما معنى العنوان؟ قالت : اسم موقع تاريخي ، انتصر فيه أجدادنا على الأعداء الذين غزوا أرضنا . ستسرك الرواية ، وترى مدى حفر الذات اليهودية في تاريخها المشرف . قلت ، وأنا أنظر إلى العجوز أم أهارون : أهي رواية تاريخية؟ قالت : ليست تاريخية تماماً ، وإنما تستلهم التاريخ . قلت : سأقرؤها ، ونتحاور بشأنها فيما بعد . وأخذنا الحديث إلى الأدب الإسرائيلي والفنون والثقافة ، وهل هذه الثقافة تنتسب إلى المنطقة هنا ، أو أنها تنتسب إلى الثقافة الأوربية؟ وهل أدباء إسرائيل مقروؤون في البلاد العربية؟ وما التعويل الذي يتوقعه المرء من أدوار الثقافة لجسر هوة الدم والقتل والعداء بين الطرفين؟ كانت العجوز أم أهارون تستمع ، لكنها حين تعقد الحديث وتشعب أكثر نهضت ، وهي تقول : أنتما تتحدثان في أمور لا أعرف عنها شيئاً ، ولا أريد أن أكون بينكما مثل فزاعة الطيور ، فرجتها سيلفا أن تبقى ، لكنها أصرت على المغادرة ، وخرجت . ولم نتيقن أنها غادرتنا حقيقة إلا عندما راحت الدرجات الخشبية تئز تحت جسدها الثقيل . لحظتئذ ، تبادلت النظر وسيلفا ، وابتسمنا ، ومد أحدنا يده إلى الآخر ، فشدتني إليها ، فنهضت من مقعدي البعيد عنها ، وخطوتُ نحوها وجاورتها في جلستها وأدنيت رأسي من صدرها فعبقت رائحة جسدها وملأت نفسي ، إنها رائحة بخور

وطيب ، ورأيتها تدس جسدها تحت ذراعي ، فأخذتها طيَّ صدري وضممتها . وراحت تهمهم بأنها تركت عملها وجاءتني لأن ما رأته في السجن أطار صوابها . لقد رجت إحدى صديقاتها أن تقوم بمهامها الليلة ، بعدما ادّعت أمامها أنها مريضة ، وتفكيرها مشتت ، ومزاجها معتكر ، فوافقت زميلتُها ، وأخبرت مدير السجن بذلك . قلت : لا أظن أن درباً قادك إليَّ سوى درب الشوق . فقالت وهي تهز رأسها وتزم شفتيها : إطلاقاً ، ما قادني إليك الليلة هو نفوري من السجن . فما عدت أحتمل ما أراه ، ولم أعد أقوى على قبول المكاره التي تتكاثر فيه مثل القمامة . القرف يجول في جميع أنحاء السجن ، الأذى هواء يستنشقه الجميع ، السجّان والمسجونون ، والقمل يفتك بكل ما تراه العين . يا للسجن إنه وجه من وجوه جهنم . فأسايرها بقولي : السجن لعنة . لكن ما الذي حدث؟ قالت وقد أرخت رأسها على صدري ، وأصابعها تمسح جسدي : في الصباح حضرت ساعات التحقيق الأولى ، وقد اعتدت على المشهد ، أسئلة ، وأجوبة ، وصراخ ، وتهديد ، وضرب ، ودماء ، وخوف ، ورجاءات ، وتعليق بالحبال ، وشبح على الأعمدة ، وحشر في أكياس الكتان السميكة القذرة ، وكلاب تمارس العض والنهش مثلما يمارس الأطفال المطاردة في الحدائق العامة ، أكياس خيش مملوءة بالعقارب والثعابين ، وأخرى مملوءة بالقواقع الحلزونية ، وثالثة بالضفادع . . يدخل المسجونون إليها بالضرب والدفع والجلد والصراخ ، ثم تربط فتحاتها ، فيصير الواحد منهم مع القواقع ، والعقارب ، والثعابين ، والضفادع ، وتحرك الأكياس وتقلب ، ثم تدحرج . . عندئذ لا شيء يعلو على صراخهم الذي يملأ المكان . . كل هذا اعتدت عليه ، لكن هذا الصباح كان مختلفاً ، فقد جاؤوا بسجين له وجه مشوه لكأنه ضرب بساطور ، جرح كبير يشق جبهته ويتدلى فيشق أنفه وشفتيه ، وذقنه ، وجاؤوا بآخر بترت ساقه للتو ، وما زال الدم ينزف منها وصراخه

يتعالى يكاد يخترق السقف ، رأيتهم يأتون بمقلى وسيع مملوء بالزيت ، يحمله أحد طباخي السجن بيديه الاثنتين ، كان الزيت يغلي ، ثم ومن دون أن يعي السجين ماذا سيحدث ، دلق الطباخ الزيت المغلي على ساقه المبتورة ، فصرخ وهو ينتفض مثل ديك مذبوح . لم ندر كيف نهض ، وراح يحجل على قدم واحدة وهو يصرخ ، ويستند إلى الحيطان ، لا بدَّ من أن قوة الألم أنهضته ، ودارت به حتى خارت قواه فارتمى على الأرض . وسحبوه إلى جوار السجين صاحب الوجه المشوه ، وقالوا له ، إن لم يعترف فمصيره هكذا ، وأشاروا إلى السجين المبتور الساق . ولأن السجين لم يتكلم ، انهالوا عليه بالضرب ، داسوه بأحذيتهم الثقيلة ، أدموا وجهه ، وكسّروا أسنانه ، وأصابوا إحدى عينيه فراحت تنز دماً بعدما اصطبغت بالزرقة العاتمة ، وحين راحوا يسألونه راح هو يئن ويتوجع ، ولم يقل كلمة واحدة ، لأول مرة في حياتي أرى كيف يتحول الكلام إلى أنين . . وحين يئسوا منه ، تركوه ، قالوا له ، سندعك مع سيلفا ، قل لها ما تشاء . ولم أدر كيف مددت يدي نحوه أريد وقف نزف جروحه الكثيرة ، بللت المناديل ، ورحت أمسح جروحه ، ودمه ينز ، وأنينه يتعالى ، طلبت شيئاً من الملح ، ورحت أمسح جروحه بالماء والملح ، وهو يتوجع . قلت له راجية : قل ما عندك ، قل ما تعرفه ، فهم لن يتركوك حياً قبل أن تعترف ، ليس أمامك سوى الاعتراف . سيقطعون ذراعك ، أو رجلك ، أو يقلعون إحدى عينيك ، ربما سيقطعون لسانك أو أذنك . . أعرف أنك ستخرج ، ولكن لن تخرج إلا مشوهاً ، لن تقبل بك لا زوجة ، ولا ابنة ، ستكون عالة على أولادك ، اعترف ، قل ، وأنا سأتكفل بكف الأذى عنك ، إذا كنت لا تريد الكلام ، خذ هذه الأوراق ، وأجب عن هذه الأسئلة التي كتبوها . قل أي شيء ، أكذب ، ألّف . . المهم أن تشغلهم بشيء بدل أن ينشغلوا بك . كنت أتحدث وأثرثر والسجين أمامي يئن ، تكاد روحه تخرج ، صدره يعلو ويهبط

مثل طبل ينفخ ثم يفرّغ من الهواء . قلت له : أرجوك ، أنا لست مثلهم ، قل ولو كلمة واحدة تريحك . ففتح عينيه على وسعهما ونظر إليّ فابتهجت روحي ، أحسست أنني أفلحت أخيراً ، فها هو ذا يستجيب إليّ ، لم أقف عند عينيه القانيتين ، وهززت له رأسي ، وقلت مشجعة : قل ولو كلمة واحدة تريحك ، فقال بحروف واضحة كلمة لا تزال ترن في سمعي مثل جرس ، قال : كلاب ، ثم أغمض عينيه ، وكف عن الأنين ، فنهضت مذعورة ، وغادرته ، وحين وقفت في الباب واستدرت نحوه ، رأيته جثة هامدة والدم يحيط بها مثل السياج . وخرجت . وصمتت سيلفا . قلت : إنهم يتألمون . قالت : ونحن . قلت : أنتم تتألمون أيضاً . قالت : كيف؟ قلت : هم يتألمون من الظلم ، وأنتم تتألمون لكثرة ما تظلمون . قالت : كلانا نغرق في بحر الألم . كلانا في فضاء واحد ، سجّان ومسجون . قلت : ما رأيك بفنجان قهوة؟ قالت : أنا أريد أن أنام ، أن أنسى ، أن أمحو . . فما حاجتي إلى الصحو . قلت : لكنك معي . قالت : ما رأيته في الصباح مازال معي أيضاً ، قل لي ، ساعدني ، كيف أمحوه ، قلت ممازحاً : بالقهوة . قالت : بالقهوة . قلت : بالقهوة . وأنهضتها على ذراعيّ ، واحتضنتها ، وأخذتها فوق ذراعي اليمنى وماشيتها نحو المطبخ ، وهناك ، أمام المرآة الطويلة ، أمام المرآة السحرية واقفتني سيلفا ، وقد أشرق وجهها وأضاء ، وراح كل منا يجول في حقل الآخر ويجمعه إليه ، ورويداً رويداً . . مشينا على أعشاب منداة ، وغطتنا غيوم وظلال ، ورافقتنا نايات ، وغسلت أقدامنا مياه منعشة ، وبارتنا أشجار ، وشرفات ، ومشاتل ورد ، وعربات جرّ ، وشبابيك ، وسواقي ماء ، ودنت منا أطباق خبز ، وزبيب ، ولوز ، وجوز ، وأراجيح محتشدة بالأطفال ، وأزاهير ، وحاذتنا مظاللةً أجمات قصب متطاولة حتى عنان السماء ، وأمامنا اصطفت أباريق فضة ونحاس وزجاج ، وأكواب مملوءة بالأشربة الفواحة ، وحولنا افترش الأرض رذاذ مطر

كأنه النوافير . . وعمّنا هدوء طاف بنا هنا وهناك ، وأخذنا إلى حيثَ لا ندري خدرٌ حيي ناعم حالم . . لم نعد منه إلا على هزّ يدي العجوز أم أهارون . فنهضنا نواري نفسينا . . تركنا المطبخ ، والمرآة ، وأرضية الخشب لأم هارون ، وعدنا إلى الغرفة ، حيث احتمت سيلفا بي واحتميت بها . قالت لي : لا أدري ماذا يصيبني حين أواجه تلك المرآة وأنت قربي ، قلت : وأنا لا أدري أيضاً . قالت : اللحظات التي أقضيها معك هي التي تنسيني ما أرى ، وما أعيشه من ألم . قلت : لولاك لكانت حياتي هنا ناقصة .

وكاد النعاس يطوينا ، لولا أن العجوز أم أهارون جاءتنا بالقهوة ، قالت : اعذراني ، فقد بت أخاف عليكما . خصوصاً على سيلفا . رائحة الغاز ملأت البيت مرة أخرى ، فخمنت أنكما في المطبخ ، وأن طائر الحب اختطفكما . لهذا جئت . أخاف ، لا سمح الله ، أن تأخذكما غيبوبة الغاز . كانت العجوز تتحدث ونحن ننظر إليها كمذنبين . وضعت القهوة ، ومضت . رجوناها أن تجلس إلا أنها تعذرت بأشغالها ومضت . سألتني سيلفا : متى ستعود؟ قلت : لا أدري . أشعر بأن روحي لم تشبع من الرؤية بعد ، وأن أمكنة كثيرة ، وتواريخ كثيرة . . لم أعرفها بعد . . قالت أفكر برحيلك . قلت : لماذا؟! قالت : لأنني أفكر بالرحيل معك . قلت : بسبب الحب . قالت : لا ، بسبب الشقاء الذي أعيشه يومياً ، وأضافت : تصور أنهم جاؤوا اليوم بجرار ، وأباريق ، وصحون ، وطاسات ، وشمعدانات ، وأوان فخارية . . إلى السجن . قلت : إلى السجن . قالت : إلى السجن . قلت : نماذج فخارية؟ قالت : لا ، حمولة سيارات شحن كبيرة ؛ أدخلوها إلى السجن ، إلى قاعات التحقيق الوسيعة جداً ، وإلى قاعات التعذيب الخشبية ، رأيتها مصفوفة بمحاذاة الجدران . لقد صفّها ورتّبها السجناء ، منذ أن رأيتها قلت ستقع اليوم الواقعة .كانت جميعها مملوءة بالكتابات . قلت : كتابات ، قالت : كتابات كتبها طلاب المدارس ، لقد أخذوا هذه الأواني

والجرار إلى المدارس ، طلبوا من طلاب المدارس الإسرائيلية أن يكتبوا العبارات التي يودون توجيهها إلى السجناء الفلسطينيين في سجونهم . . وقد كتبوا! قلت : ماذا؟ قالت : كتبوا عبارات بذيئة ، وعدوانية ، وشتائم ، ولعنات ، . . قلت :إنهم طلاب مدارس . قالت : أنا حزينة لأن كلام أبنائنا في المدارس غدا شتائم وعدوانية . قلت : هل هم طلاب في المدارس الدينية ، قالت : نعم . قلت : وهل التعاليم تأمرهم بذلك .! قالت : الأمر محزن ، ومحزن جداً ، قلت : وماذا فعلوا بالجرار بعدما وصلت إلى السجن . قالت : لقد استدعوا السجناء واحداً واحداً ، وراحوا يكسرون الأطباق والأواني والجرار على رؤوسهم . مشهدية من الدم ، والصراخ ، والتوجع ، والأنين ، والأذى . . عشتها هذا الصباح ، لقد رأيت السجناء مثل الأسماك الصغيرة التي تحاول انتشال نفسها من الوحل ، رأيتهم داخل أكوام الفخار والغبار يغطيهم ، يغطي جروحهم ، ودمهم النازف ، كميات كبيرة من الأواني كُسرت على رؤوس السجناء ، عشرات منهم نقلوا إلى المشافي ، وعشرات راحوا يعملون على تنظيف المكان من قطع الفخار المكسورة . . السجن وخلال ساعات تحول إلى مكسر فخار . قلت : وهل هذا يحدث للمرة الأولى . قالت : لا ، إنه يحدث سنوياً ، لكنني لم أره بهذه الوحشية كما رأيته اليوم . قلت : إنه طقس سنوي . قالت : طقس سنوي ، هدفه انتزاع اللعنات وطردها من البيت الإسرائيلي ، قلت : يبدو أنه طقس لطرد الأرواح الشريرة . قالت : بالضبط . قلت : وهل يمارس هذا الطقس في السجون فقط ، قالت : لا ، إنه يمارس في مقابر الفلسطينيين أيضاً ، وفي الطرق ، وأمام المساجد . قلت : وفي المقابر المسيحية ، قالت : وفي المقابر المسيحية . قلت : وأمام الكنائس؟ قالت : وأمام الكنائس . . أيضاً . قلت : وماذا يعني هذا؟ قالت : التطهير . تخليص الروح الإسرائيلي من الشر ، وإلحاقه بالآخرين .

قلت : ولماذا الآخرين؟ قالت : لأن الله لم ينظر إليهم . قلت : وكيف عرفتم أن الله لم ينظر إليهم . قالت : التعاليم الدينية تقول هذا . قلت : وأنتِ ما رأيك؟ قالت : أنا لا رأي لي . قلت : وهل شاركت في كسر الجرار والأواني الفخارية ، قالت بحدة : لا . لا أقوى على ذلك . قلت : مثل هذا المشهد يحدث من أجل جلب الحظ . قالت : ومن أجل طرد الأرواح الشريرة . قلت : حين تدخل العروس بيتها الجديد تكسر أمها وصديقاتها جراراً صغيرة أمامها أو خلفها طلباً للحظ . قالت : وطرداً للأرواح الشريرة . قلت : أنتم تفعلون مثل هذا في أعراسكم . قالت : نعم ، قلت : والفلسطينيون أيضاً . قالت : ربما ، لكن ما أعرفه أنهم يلصقون قطعة عجين بحجم رغيف الخبز في واجهة البيت الجديد . قلت : هم يتباركون بالقمع . وأنتم تتباركون بكسر الجرار . قالت : طقوس ، فقلت : طقوس .

بدونا ، ونحن في آخر الليل ، مثل شمعتين تذهبان في إذابتهما الأخيرة ، بدونا ذبالتين من وهج قليل . . فنهضت سيلفا مثل عمود ضوء ، وسط الأضواء الخافتة التي تلف الغرفة . قالت لي : أغلق قميصي ، أرجوك فيداي ترتجفان ، فأغلقته بأزراره البيض ، فأخذتني إليها ، وغمرتني بذراعيها ، وهي تهمهم . . آه يا حصاني الحبيب . ومضت مثل أوزة جلاها الماء تمشي على مهل . . تجوز بي الدرجات الخشبية هبوطاً . أهمهم لها : يبدو من المحال أن يرتوي المرء من الحب . قالت : لماذا؟ قلت : لأنني في هذه اللحظة أشعر بشوقي إليك . فانعطفت نحوي ، وأخذت عنقي بأصابعها الطوال وأدنته من شفتيها . . وقبّلته . . قلت : ضوء العجوز متقد ، لعلها ترانا . قالت : إن رأتنا فهي تدخل الفرح إلى قلبها . فعلاً كانت العجوز واقفة بالباب . فمرت بها سيلفا ، أخذتها طيَّ ذراعها وقبلتها . سمعتها تسألها أما زالت على صحوها ، فتقول العجوز لها : حين تأتين لا أستطيع النوم إلا عندما تخرجين . روحي تظل معك .أخاف عليك!

فتشكرها سيلفا ، ثم تقبّلها ثانية ، وهي تنتحي بها جانباً ، في مدخل الباب . أقف منتظراً سيلفا وقد شعرت بطراوة الندى ، ورهافة النسيم وبرودته المنعشة . .

وتستدير سيلفا ، تخبُّ نحوي فوق خطاها العجلى ، فأماشيها إلى سيارتها ، أواقفها مسافة قبلة ، ثم تمضي . . . فأستدير عائداً ، وقرب نافذة العجوز أم أهارون أقف فلا أرى الضوء ، لأن العتمة ابتلعته . فأصعد الدرجات الخشبية . . وأنا أهزّ رأسي ، وقلبي يحدثني بأن العجوز قبضت من سيلفا . . ثمن الوقت الذي قضينا معاً» .

ملحوظة :

أعطيت والدتي رقم هاتفك ، وعنوانك في الجامعة ، سوف تمر بك لتسأل عنك ، لأنني ما عدت أطيق قلقي عليك . . أرجوك هاتفني ، واكتب إليَّ ، محبتي .

المخيمات، والمفتاح، والمقهى

«أمس ،

لم يتركني الحوذي جو ، ولم أتركه إلا عند الصباح ، لقد أدرك ونحن نتناول طعام الغداء أن النهار لم يكن لنا ، وأننا رأينا معاً ما لا يسر وما لا يرضي ، فقد أحسَّ بأنني تأثرت جداً من غياب عارف الياسين ، وقوده إلى السجن مرة ثانية ، فراح يواسيني ، قلت للحوذي جو : مسكين عارف الياسين الآن سيعيد سيرة السجن مرة أخرى ، سوف تستيقظ جروحه القديمة ، وسوف تفتح ندوبه الزرق مرة ثانية ، وسيمر بأمكنة ما أراد أن يعود إليها يوماً ، وسيواجه وجوهاً ما أحب رؤيتها ، وسيُجبر على أطعمة عافتها نفسه مراراً طوال ثلاثين سنة ، وسوف يُعطي بضع سكائر في اليوم ، لعله سيندم لأنه خرج فرأى الحياة الطبيعية من جديد ، ثم ها هو ذا يعود إلى حياة الحبس مرة ثانية . رفع جو رأسه ، وقال : من أدراك أنها المرة الثانية ، لعله ، وبعد خروجه من السجن ، عاد إليه مرات كثيرة . قلت : أي حياة هوان هذه يا جو؟! قال : مآل أهل القضايا الكبرى أن يصبروا . قلت : وهل سيجد عارف الياسين أحداً من رفاقه القدامى في السجن . قال : ربما ، ولكن حياة السجن تفرض على السجين أن يكوّن صداقاتٍ مع الآخرين . الحياة داخل السجن من دون صداقات جحيم آخر يضاف إلى جحيم التعذيب ، والتحقيق . قلت : وهل نستطيع زيارته يا جو . قال : الوقت مبكر جداً . فنحن لا نعرف مكان سجنه ، وأظن أن التحقيق معه سيأخذ

وقتاً طويلاً قبل أن يسمحوا لأحد بزيارته . قلت : ما أصعب الموقف يا جو ، فقد خرج من بيته إلى المقهى ، ولن يعود إليه . أهل بيته ماذا سيقولون الآن؟ قال : الفلسطينيون اعتادوا على مثل هذا الغياب . وعليك أن تعلم يا فلاديمير أن عنوان الفلسطينيٍ بات معروفاً : إما بيته ، وإما عمله ، وإما السجن . فالأمور واضحة جداً ، أهل بيته سيعرفون عنوانه مباشرة ، فما دام الرجل غير قادر على العمل ، وغير موجود في بيته ، فعنوانه المضمون والواضح أمامهم هو السجن ، وفي النهاية أبو العبد سيخبرهم . تبقى مسألة معرفة مكان السجن فقط ، وهذه سهلة جداً . قلت : كيف؟ . قال : لدى كل فلسطيني خريطة مكانية للسجون الإسرائيلية ومن الممكن الطواف عليها خلال يومين أو ثلاثة ، لمعرفة مكان السجين .

قلت : ألا ينكر المشرفون على السجون وجود المساجين لديهم . قال : لا ، بل على العكس تماماً ، إنهم يفتخرون بوجودهم ، ويتسابقون على حيازتهم واحتجازهم ، قلت : بي فضول لمعرفة السجون من الداخل . قال بأسى : ألم تخبرك سيلفا عن أحوالها؟ قلت : بلى ، لكنها تبكي كثيراً عندما تحدثني عنها ، خصوصاً عندما تصف لي حالات التعذيب ، والشلل ، والدماء ، والصراخ ، والوسخ ، والموت البطيء . . والأمراض المتفشية . قال باستنكار : تبكي! لماذا؟ قلت : من شدة تأثرها ، فهي ، كما تعرفها امرأة رقيقة ، لا بدّ من أن روحها تتشظى وهي ترى ما ترى . قال : ليلى كانت كذلك . قلت : تحدثك عن السجن . قال : نعم . قلت : وتبكي ، قال : كثيراً . ثم أضاف : لكنني صدمت عندما عرفت من كثيرين خرجوا من السجون أنها كانت لا تقل قسوة وشراسة عن السجان الآخرين الذين يعذبون مساجينهم . قلت : قيل لي مثل هذا الكلام عن سيلفا . لكنني لا أصدق . فسيلفا مخلوق آخر معي ، وردة ، قبضة عشب ، جرعة ماء ، لها روح مثل روح العصافير ، ما إن أضمها أو أقبّلها حتى تصير

في عالم آخر . قال : وليلى كانت كذلك . قلت : إذاً ، من أين يأتي هذا التناقض . قال : من التربية ، والاعتياد ، من الدربة ، والمشاهدة ، والمخالطة ، والمجالسة ، والاستماع ، والتعاليم الدينية ، والتعليمات والتوجيهات ، ومراقبة الآخرين للآخرين ، وجداول التقييم ، والترقية . . كلها تجعل منهن كائنات شرسة . أحد المساجين قال لي ، وهو رجل عجوز ابن ستين سنة ، أو أكثر ، إن ليلى شكَّت عينه بما يشبه المخرز ، فأطفأت ما تبقى فيها من نور ، قلت : ولماذا؟ قال : شكا لها العجوز ضعف نظره فاستوضحته ، قال لها لعل الماء الأزرق سقط على عينه ، فهو ما عاد يرى الناس ، والحيطان سوى غباشة . فقربته منها لكي ترى عينه ، وحين صارت عينه في متناول يدها ، شكتها بدبوس حاد تربط به شعرها ، فصرخ العجوز وراح يدور مثل ثور من شدة الألم ، ثم أخرجته ، ودماء عينه تسيل على وجهه . . هذا العجوز توفى قبل سنتين تقريباً ، كنت أعرفه جيداً ، وقد زرته مرات ، وكنت أطلب منه أن يحدثني عن ليلى كي أكرهها ، لكن كل أحاديثه لم تغير عاطفتي تجاهها لكأنها أشبه بكيمياء الدم ، فهي تسري في عروقي ولا سبيل لكراهيتها ، فما عرفته معها لم يكن حباً وحسب ، بل كان أكثر من حب ، أكثر من جنون .

قلت : وما زلت تحبها؟ قال : وسأبقى . ثم رفع بصره إليَّ : وقال : وأنت ، ما شعورك تجاه سيلفا . قلت : حقيقةً ، أنا لا أصدق أن تقوم بما يقوله الناس عنها ، اليوم أخبرني عارف الياسين أنها أكثر خلق الله في السجن شراسةً وعدوانيةً تجاه السجناء . قال : سيلفا ، وليلى ، وأمثالهما . . لهن حياتان ، حياة داخل السجن ، هي بالضبط حياة السجن المقرفة ، حيث توجد ثنائية الجلاد والضحية ، والقاتل والمقتول ، والسجين والسجان . . وحياة أخرى خارج السجن ، حياة اللطف ، والأنوثة ، والمتعة . . إنهن يسكبن ماء الحياة الثانية على نار الحياة الأولى كي تستمر

هذه الثنائية الجهنمية في بدوها على شكل ظالم ومظلوم ، وقاتل ومقتول ، ومنتصر ومهزوم . .

قلت : أحياناً ، عفواً ، ليس أحياناً ، بل ومنذ عرفت ما يقال عن سيلفا ، صرت أحتقر نفسي وألومها ، فأنا ، وأمثالي ، نساعد سيلفا وأمثالها على الاستمرار في مثل هذه الثنائية الكريهة التي تتحدث عنها . لا بد من أن تنتبه هذه الكائنات التائهة ، أن تعود من حقول الظلم ، إلى حقول الحياة . إن استمرارية الدفء والعاطفة والكلام الجميل الندي ليلاً ، هي التي تغذي استمرارية الجفاء ، والغلظة ، والظلم ، والنهر ، والقسوة البادية نهاراً . لا بدّ من أن ينقطع خيط هذه الثنائية . قال : كيف؟ قلت : بالتوعية ، وعدم الاندفاع عاطفياً مع هؤلاء النساء المحطمات . قال : وهل كنت تدري عن حياة سيلفا شيئاً ، قبل أن تغرق في بحيرتها العاطفية ، قلت : لا . قال : وأنا مثلك ، لم أكن أعرف شيئاً عن ليلى! قلت : لكن عندما نعرف مثل هذا عنهن علينا أن نفعل شيئاً مضاداً . قال : هن ينظرن إلى عملهن بوصفه عملاً وطنياً . قلت : هذه ليست وطنية . هذه جريمة . تصور ، يا جو ، أن تكون الحبيبات ، والأمهات ، والأخوات مجرمات ، وقاتلات ، ثم تصور بعد ذلك الحال التي سيكون عليها أبناؤهن . . أي مجتمع سينتج بعدئذ ، وأي حياة سوف تعاش؟ قال : لكل هذا . . ترى الفلسطينيين ، يسمّون الأمكنة بالمفردات التي تليق بها . . فهنا وفي محيط القدس توجد ثلاثة أودية ، واحد اسمه وادي النار ، والآخر اسمه وادي الجحيم ، والثالث اسمه وادي جهنم ، وساحات القرى ، والمدن يسمونها ساحات الاعتقال والمذلة ، والسجون يسمونها : مقابر الأحياء . قلت : لكنهم ، وكما عرفت ، يتعلمون فيها ، قال : يتعلمون فيها من أجل أن يمحوا تسميتها ، ويجولون في الساحات طلقاء من أجل محو تسميتها ، ويزرعون الأودية ، ويحفرون السواقي من أجل محو تسميتها أيضاً ، قلت : أشعر بأن

الحياة هنا ، كائن يبكي ، كل شيء ، يا جو ، أراه يبكي ، حتى مطر السماء القليل الحيي أشعر بأنه بكاء . قال : شجرة الظلم امتدت هنا واتسعت ، واستطالت فروعها ، وظلها بات يشمل البلاد كلها . فهززت رأسي له ، فأضاف : لو ذهبت إلى البحر ، يا صديقي ، ستجد أن قوارب الصيد الفلسطينية مأسورة ومسجونة في مربعات بحرية ، وأن مطاردتها في عرض البحر بادية مثلما ترى مطاردة الجنود هنا للآخرين في الشوارع ، هناك ، وعلى الشواطئ سترى معتقلين فلسطينيين معصوبة أعينهم ، ومقيدة أيديهم . . مثل هؤلاء الذين تراهم هنا معصوبي الأعين ، مقيدي الأيدي ، محتجزين إلى جوار الجدران ، أو مرميين في الساحات العامة . ولو ذهبت إلى المقابر ستجد الأمر ذاته ، ولو ذهبت إلى المخيمات سترى الأمر نفسه . قلت : جو ، مخيمات الفلسطينيين . . لم نزرها كما يجب . لم نقف على مصيرها . قال : إنها شوك . ومصير الشوك إلى زوال . قلت : ولكن الشوك ، نبات له دورة فصلية ، فما إن يزول حتى يعود نباتاً ويقوى فيصير شوكاً . قال : هذا صحيح ، لكن المخيمات التي هي أشبه بالأشواك محتشدة بالألم ، والغصات ، والأذيات . . لن تبقى ، لأن أرض أهلها وبيوتهم على مبعدة قليلة منها ، ما من هواء يمر بالمخيمات إلا وهو قادم من تلك القرى ، والمدن ، والبيوت التي سكنت فيهم ، وسكنوا فيها . . إنه أشبه بالرسول الذي يحمل إليهم الأخبار السارة يومياً ، يقول لهم إن رجوعهم إليها قريب . قلت : وإن رجعوا . قال : ستظل هذه المخيمات . قلت : كيف؟ قال : قبل سنوات سألت أحد الفلسطينيين عن مصيرها ، فقال لي : إنها ستظل متاحف ، أبنيةً لا سكان فيها ، تاريخاً يزار . . . سيأتيه الأحفاد زائرين كي يعرفوا في أي مكان عاش فيه أجدادهم ، ومن أي ظلم طلعوا . قلت : هذا كلام شاعري ، يا جو ، قال : بربك ، يا صديقي ، ألن تشتاق إلى زيارة مخيمات الفلسطينيين ، إذا ما تحولت إلى متاحف . قلت : الروح تظل

عطشى لكل ما هو إنساني ، لكن أنت يا جو ، إن تحققت مثل هذه اللحظة التاريخية ، ألا تأتي معي؟ . . قال : أشعر بأنك خائف . قلت : الخوف شيء إنساني . قال : لقد قال لي ذلك الرجل الفلسطيني بأن عليَّ أن أزور المخيمات ، كي أرى أمكنة الفلسطينيات التي كن يخبزن فيها ، ومستودعات الحطب ، وبراميل الدقيق ، والقمح ، والعدس ، وأن أرى ثياب الأطفال الفلسطينيين الذين قتلوا برصاص الجنود تشبثت بها المسامير المدقوقة في الجدران ، أن أرى كتبهم ، وحقائبهم ، وأقلامهم ، وأحذيتهم المطاطية . . والأثواب الفلسطينية المطرزة . . الباقية شاهداً على رحيل البنات الفلسطينيات قبل الأوان ، أن أرى الدوالي ، وأشجار الرمان ، والبرتقال ، ومشاتل النعناع والحبق ، أرأيت ، حين زرنا مخيم شعفاط ، كم هي البيوت الفلسطينية مجنونة بالنعناع والحبق ، وأن أقرأ الشعارات المكتوبة عن الحيطان ، وأن أقرأ ما حفرته أيدي الأطفال الصغيرة على جذوع الأشجار ، وما كونته من ألعاب ، ورسومات وخربشات على الأبواب . .

وصمت الحوذي جو ، لعل ملوحة دمعه أوقفته عن الكلام . . يا لجو الآن ، ما أرقه ، ما أصفاه . قلت : وأنا أهزّه ؛ جو ، أعترف ، بأنك الآن مرآتي ، ما أشد صفاءك ، ما أبداك . . ورأيته يبتسم ، وهو يستل دمعه بأطراف أصابعه . . قال : حين يشعر المرء بالأمان . . يقول كل شيء ، ويعبر عن كل شيء . فمعك ، يا صديقي ، أشعر بالأمان . . فاعذرني على بوحي ودمعي ، قلت : جو ، أنت هنا ، منذ زمن طويل ، فما الذي تنتظره؟ قال : أشياء كثيرة قلت : منها ، قال وهو يبتسم : أن تصير مخيمات الفلسطينيين متاحف . قلت : لتزورها . قال : لا ، وإنما لكي أعمل فيها دليلاً .

لحظتئذٍ ، لم أقو على ضبط نفسي ، فنهضت وخطوت نحوه وعانقته ،

فهذا الرجل مجنون ، إنه طفل ، فهو ما زال يبكي لقد تبلل خدي بدمعه ، لذلك حاولت أن أخفف من عاطفته ، وحاول هو قدر طاقته أن يصارحني ، فيخرج كل ما استبطنته ذاته على مر الأيام . قلت : جو ، صارحني ، هل نحن الذين نعي حقيقة الفلسطينيين . . قلة؟ قال : لا . قلت : لماذا لا نعرفهم ، لماذا لا يصرحون عن أنفسهم . .؟! قال : لأن الظروف خسيسة لا تقف إلى جانبهم!! قلت : ومتى تصير الظروف نبيلة . قال : عندما يتكاثر النبل . النبل اليوم قليل .

بدونا أمام رواد المطعم ، وأمام الخدم كائنين محط ريبة ، لذلك لم أستغرب ، وهو أيضاً لم يستغرب قدوم أربعة من الجنود مدججين بالسلاح ، يمشون نحونا ، وما إن وصلوا إلى طاولتنا ، حتى طلبوا منا أوراقنا ، فأخرج الحوذي جو الأوراق ودفعها إليهم ، فنظروا فيها طويلاً ، وبعد أن تيقنوا من المعلومات المكتوبة فيها لم يغادروا ، بل جالسنا اثنان منهم ، وظل اثنان منهم على وقوفهما . . كنت أنا وجو بحراسة أربعة رجال وأربع بنادق ، داخل مطعم صغير ، وعيون رواده مصوبة نحونا ، والخدم يسدون الباب ، وخلف لوح الزجاج الواسع الطويل ، وقفت سيارة جيش محبرة بلون وحشي رمادي ، وفي داخلها سائق حلق شعر رأسه بالموسى . . فراح يلمع مثل طاسة نحاس ، أمضى الجنود معنا وقتاً ، على الرغم من قصره ، شعرت بطوله المديد المقيت ، سألونا عن انطباعاتنا عن البلاد ، وهل أعجبتنا؟ فقال الحوذي جو لهم إنه أنفق عمره هنا ، وإنه سيظل هنا حتى يحقق كل أمانيه . وسأله عن أمانيه ، فقال مبتسماً : الأماني مثل صور الكاميرا . . يجب أن تظل طي العتمة ، وإظهارها إلى النور قبل اللحظة المناسبة ، يودي بها ، وسألوني أيضاً كيف رأيت بلادهم وما الذي أعجبني فيها فقلت : أهم شيء رأيته هو الانتباه ، والحذر ، فقالا : إنها ضرورات الأمن ، ثم نهضا .

قلت للحوذي جو : ظننت أنهم سيعتذرون في نهاية الأمر ، فقال : يعتذرون لماذا؟ إنهم يعتقدون بأنهم يقومون بواجبهم . قلت : ومن وشى بنا ، أعني من أخبرهم؟ قال : أحد عمال المطعم . أو أحد الرواد من حولنا . قلت : وما الذي قلناه حتى أثرنا مخاوفهم . قال : العناق . . قلت : وما الذي يعنيه هذا العناق . قال : ربما خافوا من أن هذا العناق يعني الوداع الأخير فيما بيننا ، وأن أحدنا سيغادر ، والآخر سيظل . . كي يفجر نفسه بالمكان . ألم تلحظ اضطراب الناس وحركتهم . قلت : لم أنتبه ، لكن أهكذا يفكرون؟ قال : أقول ربما . قلت : لكن الجنود جاؤوا بسرعة عجيبة . قال : هؤلاء أمن المطاعم ، إنهم موجودون قرب كل مطعم . قلت : ما دام الأمر كذلك فإنني أقترح على سكان هذه البلاد أن يصنعوا تماثيل للخوف . . قال وقد شرد قليلاً : أتدري متى يشعر اللص بالأمان . قلت : متى؟ قال : حين يموت ، قلت : فقط ، قال : فقط ، لأن حياته كلها خوف ، خوف قبل السرقة ، وخوف في أثنائها ، وخوف بعدها . . قلت : ماذا تقصد؟ قال : هؤلاء مثل اللصوص ، حياتهم كلها خوف ، لأنهم أخذوا ما ليس لهم . هؤلاء سرّاق الإرث الإنساني ، سراق التاريخ . . قلت : والنهاية؟ قال : ما دامت القوة حاضرة ، فالنهاية لن تقترب ؛ قلت : والحل : قال لا بدَّ من تعادلية في القوة ، وسوف يحدث هذا ، فالقوي لا يظل قوياً ، تماماً مثلما هو الضعيف لا يظل ضعيفاً . قلت : أعجبني تصويرك لهم بأنهم لصوص . قال : أقول لك هذا ، وفي بالي مشهد لا أنساه ، مرة أخذت فلسطينياً من هنا ، من القدس الشرقية ، قبل عام ١٩٦٧ ، أخذته إلى قرية في محيط عكا اسمها (شعب) ، سكانها فلسطينيون ، ويهود في آن معاً ، هناك في القرية عرفت أن سكان القرية الأصليين هجّروا بالقوة ، فخرجوا إلى لبنان وسورية ، وأن اليهود هجّروا سكان قرية فلسطينية أخرى واقعة إلى جوار جسر بنات يعقوب قرب نهر الأردن ، هجروهم إلى تلك القرية ،

أعني (شعب) ، وأجبروهم على السكن في بيوت الفلسطينيين الذين غادروا بيوتهم تحت تهديد السلاح ، فسكنوا مجاورة مع اليهود الذين سكنوا نصف بيوت القرية . . قلت : ولماذا هجروا سكان القرية تلك القريبة من النهر المقدس . قال : لأنهم كانوا يريدون تحويل ماء النهر عن مجراه .

المهم أن هذا الرجل ، وهو عجوز قارب عمره السبعين سنة ، له بيت في هذه القرية ، وقد جاء في دورة طويلة ، استغرقتها الطريق التي حملته من أحد مخيمات بيروت في لبنان إلى الأردن إلى القدس . . هنا في القدس تعرفت إليه ، جاءني به أحد معارفي ، وأوصاني به خيراً ، ورجاني أن أوصله إلى قرية (شعب) قرب مدينة عكا كي يرى أقارب له هناك ، فوافقت لقاء مبلغ كبير ، أعني كان يومذاك كبيراً جداً ، أذكر أن ذلك العجوز كان طريفاً ومسلياً ، وصاحب مزاج رائق . قال لي في الطريق . . أنتم أهل بريطانيا أذكياء ، وأذكياء جداً ، أعطيتم اليهود فلسطين ، من أجل تخليص أوربا من مشكلاتها ، وفي هذا ذكاء ما بعده ذكاء ، وأنتم أذكياء الآن لأنكم تعملون أدلاء تحت حماية اليهود ، أنتم حميتموهم حتى أخذوا البلاد ، وهم الآن يحمونكم من أجل أن تعملوا فتجمعوا ما شئتم من المال فضحكت ، ورحت أستمع إلى قصصه الكثيرة ، وفي الطريق سألته عن سبب زيارته إلى القرية . . . فقال : إنه يمتلك فيها بيتاً ، وأن لا أقارب له فيها ، لأن جميع أهالي القرية خرجوا بالقوة ، فهو يذكر ذلك جيداً ، لقد نسف اليهود أربعة أو خمسة بيوت من بيوت القرية ليلاً ، فطار صواب الأهالي ، ودب الفزع والخوف فيهم ، فخرجوا . . ورصاص اليهود يلعلع في الأجواء . . قال : اليهود أخرجونا كبشر ، لكن البيوت والأشجار والذكريات ، والتواريخ ، ظلت ، فهم لا يستطيعون إخراجها أو اقتلاعها أو إذابتها . . قلت له يومذاك ، وها أنتذا تعود كي ترى القرية مرة أخرى . قال : نعم . أريد رؤيتها قبل أن أموت . . لعل هذا هو مشواري

الأخير مع الحياة . قلت : وماذا تريد أن ترى بالضبط . قال : البيت . وأرجو الله عز وجل أن يكون موجوداً ، باقياً على حاله ، وأن تكون أشجاره باقية لآكل منها ، وبئره باقية . . لأشرب منها ، وأن يكون بابه باقياً كي أفتحه . قلت : تفتحه؟ قال : نعم ، لقد أتيت بمفتاحه إنه معي ، أنظر . . ونظرت ، إنه مفتاح حديد أسود طويل ينتهي بدائرة واسعة . قلت : وماذا ستصنع به . قال : سأفتح به الباب كي أُري سكانه بأنه لي ، سأقول لهم من يمتلك المفتاح يمتلك البيت ، فالمفتاح اليوم هو هويتي . قلت : هذه مفاجأة . قال : ليست مفاجأة ، إنها قصة التاريخ ، بيننا وبينهم ، وعلى اليهود أن يعرفوا جيداً بأننا لا نفرط بالذاكرة ، قلت : لم أفهم ، ماذا تقصد؟ قال : هذا المفتاح نسخة عن المفتاح الأصلي الذي ورثته لابني قبل موتي من أجل الساعة الآتية لا ريب . . قلت : أي ساعة . قال : ساعة الفتح . قلت : فتح الباب . قال : لا ، فتح البلاد . بدا العجوز لي وكأنه أحد أبطال المسلسلات التلفزيونية ، يروي لي حكاية غريبة مدهشة حقاً ، أو أنه شخص يعود من تاريخ بعيد ، يبحث عن مستقبل صار بعيداً أيضاً . . . وحين وصلنا إلى مدخل القرية رأيت شلالاً من الألوان يكسو وجه العجوز ، فخفت عليه من الموت الفجائي ، بدت عيناه زائغتين ، حائرتين ، يقظتين لا تدريان ماذا تريان في كل هذا المشهد الذي انفتح أمامه فأذهله ، فقلت له مخوفاً : انتبه ، يا عم فتحي ، وهذا هو اسمه ، وكنت أيامذاك شاباً ، الفرح الكثير مثل الحزن الكثير . . إنني أخاف عليك . قال : مَ؟ قلت : أخاف من أن قلبك لا يحتمل ما تراه . قال : يا رجل ، عمك فتحي مر على رأسه الكثير الكثير حتى غطاه الشيب ، ألا ترى؟ قلت : أرى الشيب ، وأرى رجفة يديك وشفتيك . قال : الشوق يهزني ، ولكن لا تخف على عمك فتحي ، قلت ها هي يافطة القرية تقترب ، قال : قرأتها من بعيد ، فنظر عمك فتحي صار أقوى من أيام زمان ، واستدار الحوذي جو نحوي ، وأضاف :

صدقني ، يا فلاديمير ، لم أتمنَّ شيئاً لحظتئذٍ ، سوى أن أضع كفي على صدر ذلك العجوز كي أحس بنبضات قلبه ، لعلها كانت تقرع صدره الناحل مثل طبل . . حين صرنا تحت اليافطة تماماً ، وفي مواجهة القرية التي راحت تبدو رويداً رويداً مثل باخرة كبيرة أشرفت على الميناء . . نظرت إليه وقلت : أشرق وجهك يا عم فتحي وأضاء . قال : الشوق وأحواله . حين وصلنا ، فوجئ العجوز بأن نصف سكان القرية من الفلسطينيين الذين هجّروا إليها قسراً من قريتهم الواقعة على نهر الأردن قرب جسر بنات يعقوب ، ونصفهم الآخر من اليهود . قال بأسى : ذهبت الفرحة يا جو . قلت : لماذا؟ قال : أخاف أن يكون فلسطيني سكن البيت . قلت : وما المشكلة ما دام المفتاح معك . قال : حلمت طول عمري أن أعيش لحظة فتح باب البيت بالمفتاح إن عدت إليه أمام مغتصبيه اليهود لأقول لهم بوضوح : صحيح أنهم أخذوا البيت بالقوة ، ولكن المفتاح ظل معنا ، صحيح أنهم صنعوا مفاتيح جديدة للأبواب ، ولكن المفاتيح الأصلية لا تزال بحوزتنا نحن أهلها . . قلت : أرجو أن تحقق حلمك يا عم فتحي ، وأضاف الحوذي جو : صدقني ، يا فلاديمير ، أن الرجل العجوز وقع ميتاً حين فتح باب بيته ، وقد كان سكانه من اليهود ، وقد فوجئوا مفاجأة عظيمة بأن الباب يفتح عليهم ، فتعالى صراخهم . . لكن العجوز لم يسمع إلا جزءاً بسيطاً من الصراخ ، لأنه ما إن انشق الباب كي ينفتح إلى آخره . . حتى وقع العجوز أرضاً . . حاولت قدر استطاعتي أن أعيد نبضه إلى صدره ، إلى قلبه . . . لكن محاولاتي ذهبت عبثاً ، فقد مات العجوز . وبسببه سجنت سنوات ثلاثاً بتهمة تعاوني مع الفلسطينيين ، ثلاث سنوات سجن أضفتها إلى خمس عشرة سنة سجنتها بسبب موت ليلى وقد كانت أمنيتي ، وأنا داخل السجن ، طوال السنوات الثلاث ، أن أحوز المفتاح ، أن يصير لي . . كميراث أرثه عن ذلك الرجل العجوز الذي اسمه

فتحي . . قلت : جو ، كم أنت جميل في هذا النهار ، كم أنت إنساني ، أصدقك القول : إن صمتك المتكرر طوال الأيام التي قضيناها معاً ، كان يحيرني ، ويجعلني أتساءل ، وأخمن بأنك متعاونٌ على نحو ما مع الإسرائيليين ، وأنهم بأساليبهم الجهنمية اشتروك ، قال بعفوية : جو ليس للبيع ، قلت : وأمثال جو ليسوا للبيع . . ودققت على صدري .

فرحت بجو ، فرحت بحديثه ، وفرحت بصفائه ووضوحه . . لذلك أكلت كما لم آكل من قبل ، وشربت كما لم أشرب من قبل . وقلت لجو : أرجوك ، يا جو ، انتبه ، أنا في لحظة فرح عارمة ، احرسني ، وانتبه كي لا أقع أرضاً فقد أفرطت في الطعام والشراب . قال : الصديق الحقيقي لا يخشى شيئاً إن كان في حراسته صديق حقيقي . .

ولعل الوقت طال بنا ، دون أن نشعر بامتداده ، فقد كانت الأحاديث متتالية ، ورشيقة ، وعذبة مثل الأمواج . . موجة تحمل الأمل ، وأخرى تذهب به . . ولم أنتبه ، وأعِ نفسي ، إلا عندما صرت في البيت ، وبقربي الحوذي جو يذرع الغرفة مشَياً وانياً . . . ونظره مصوبٌ نحوي ، كنت في فراشي ، فخجلت ، وقد رأيت جو قربي . . قلت : آسف ، يا جو ، أنت منذ متى هنا؟ قال : الحمد لله ، أتشرب القهوة . قلت ، وقد أحسست أن في الأمر شيئاً : أشرب . قال : حاضر ، وتركني ، وتوجه نحو المطبخ ، لحظات فقط وأنا لم أنهض من سريري بعد ، وجاءت القهوة ، وقد سبقتها رائحتها العابقة ، يا لهذا الجو ، ما أجمله . . قال : ها . . هل أنت في صحوك تماماً ، قلت : تماماً . قال : الحمد لله . اشرب القهوة . فشربت وأنا أسأله منذ متى هو عندي ، وهو لا يجيب ، يتحايل عليَّ بكلام متقطع دون أن أفهم منه شيئاً . قلت : جو هل أنت من صنع القهوة . قال : لا . قلت : من؟ قال : سيلفا . قلت : سيلفا . قال : سيلفا . قلت : أين هي؟ قال : في المطبخ . قلت : وحيدة . قال : لا ، معها العجوز أم أهارون . قلت : كيف جاءت ،

قال : أخبرتها . قلت : لماذا؟! قال : خفت عليك ، قلت : والآن؟! قال : أنت بخير ، فصحوك عال . قلت ، وقد أخذتني رعشة الخوف : ماذا يا جو . هل كنت في حالة سكر شديد ، فهزَّ رأسه هزات عدة ، قلت : وأنت ؛ صبرت عليَّ . فهز رأسه الهزات ذاتها . قلت : ولك زمن طويل هنا؟ فهز رأسه أيضاً . قلت : وهذه الساعة الجدارية صحيحة . فهزَّ رأسه أيضاً . قلت : أنحن في الصباح تماماً . قال : تماماً . قلت : وهل حدث شيء أفسد عليك وجودك هنا . قال : العجوز . . أم أهارون جاءت مرات عدة ، وأخبرت الشرطة مرات عدة ، فجاؤوا وسألوني عنك ، فقلت لهم القضية وما فيها أنك شربت أكثر مما ينبغي ، فما صدقوني ، صوروك صوراً كثيرة ثم ذهبوا ، فأخبرت سيلفا ، فجاءت ، وعندما عادوا ومعهم طبيب ، فحصك ، ثم خرج مصدقاً روايتي ، قال لي ولهم : ساعة أو أكثر بقليل ، ويستعيد وعيه ، لقد أفرط في الشراب . قلت : وأنت ظللت حارساً لي . قال : نعم . قلت : جو . . أنا فخور بمعرفتك . وأطلت سيلفا ، تقدمت نحوي ، وأخذتني في عناق طويل ، ومن خلفها رأيت العجوز أم أهارون بوجهها العابس . ودون استمهال خرج الجميع ، العجوز أم أهارون استدارت دون أن تقول كلمة ، وسيلفا خرجت إلى عملها بعد أن وعدتني بالعودة مساءً ، والحوذي جو . . خرج لرؤية صديق واعده على اللقاء صباحاً» .

ملحوظة :

في الظهيرة جاءني الحوذي جو ، فرجوته أن أذهب برفقته إلى مقهى (أبو العبد) فحاول منعي بسبب حالتي الصحية ، لكنني أقنعته بأنني بخير ، فخرجنا ، ولكن لم أر (أبو العبد) ، ولم أدخل إلى المقهى ، فقد واجهتني عند مدخله تماماً يافطة كبيرة مكتوبة باللغات الثلاث الإنكليزية ، والعبرية ، والعربية ، تقول : المقهى مغلق أمنياً ، غمَّ قلبي ،

ودارت بي الأرض ، ولولا وجود الحوذي جو ما كنت أدري ما أفعله ، فقد عاد بي إلى البيت .

أيها الصديق العزيز ، ماذا أفعل ، قل لي ، اكتب إليَّ ، أرجوك ، كي أرفع حيرتي . .

في مستوطنة جفعات شاؤول

«أعذرني ،

لأني أكتب إليك كتابة متقطعة . أكتب إليك من غرفتي ، ومن مقهى (أبو العبد) في قلندية . . أمامي قهوتي ، وكأس الماء المتوجة بالوردة الحمراء ، تبدو الوردة أشبه بالكمين في هذا الصباح الدافئ الذي قلَّ مطره ، وبدت شمسه حيية ، تظهر وتحتجب ، وسرت الحركة في شوارعه .

يتناهى إليَّ صراخ البغالة ونهرهم لجمهرة الناس القريبة من الحاجز ، لأول مرة أدقق النظر في المكان جيداً ، فأرى الحواجز الباتونية تتداخل فيما بينها على شكل حرف (Z) بعضها يضيق ، وبعضها الآخر يتسع . هناك في الطرف البعيد ، يقف البغالة وبغالهم وكلابهم وسياراتهم في انتظار ما يُخرج الكتلة البشرية الأكثر قرباً مني . . عن انضباطها وهدوئها .

جئت إلى هنا ، بعدما واعدت الحوذي جو على اللقاء ، قال لي محمساً : باكر الصباح ، وتعال إلى مقهى قلندية ، سأوافيك إلى هناك ، ولا تنسَ طعامك وقهوتك ، والكاميرا ، أمامنا عمل طويل . قلت : إلى أين سنذهب ، قال : الأمرُ سر ، عندما نلتقي أخبرك . قلت : حاضر .

جئت مبكراً ، وأخذت بركة (أبو العبد) هذا الرجل الذي راح يرق ، ويضيق ويقصر مثل قلم الرصاص . فرحت برؤيته مثلما فرح برؤيتي . قال لي : والله العظيم ، أنت ابن حلال يا خواجة . ليلة البارحة تذكرناك ، أنا وعارف الياسين ، لقد سألني عنك . فقلت له إنك تأتي بين حين وآخر .

فأخبرني أنه مشتاق إليك ، ولديه ما يحدثك عنه . قلت : وهل أخبرك بشيء . قال : قليلاً . قلت : وما هو هذا القليل . قال : لا أريد إفساد مفاجأة عارف الياسين . كما لا أريد أن أقع بين يديه ، فيسلقني بلسانه الحاد . قلت : وهل سيأتي إلى هنا . قال : طبعاً . قلت : متى؟ قال : عارف الياسين لا مواعيد ثابتة له ، يأتي نهاراً وليلاً ، يأتي في الصباح الباكر مثلما يأتي في المساء المتأخر . قلت : وهل تتوقع مجيئه الآن؟ قال : ربما . قلت : إن جاء سيكتمل النهار في مطلعه .

بدا الصباح هادئاً أكثر مما ينبغي ، والنباتات ، والأشجار ، والبيوت ، والأعمدة ، ويافطات الإعلان . . واقفة في وضوح بدا أكثر مما ينبغي . . ومن بعيد رأيت الأمريكيين اللذين تعرفت إليهما في المرة السابقة يتقاودان كتلتين بطيئتين من لحم ثقيل يلفهما لهاث طويل . . جلسا إلى أقرب الطاولات المحاذية للشارع ، دون أن ينظرا إليَّ ، فخفّ إليهما أبو العبد مرحباً ، ثم استدار وهو ينظر إليَّ غامزاً بعينه ، وكأنه يقول لي ها هما الزوجان جاءا . فهززت له رأسي ، وحين عاد إليهما بالقهوة والسندويشات مرَّ بي ، قال : أهل أمريكا هنا . قلت : صباح مبارك . قال : أي صباح مبارك يا خواجة ، والبداية ، كما ترى ، اثنان من أحفاد لوط . قلت : الدنيا أذواق ، وأمزجة ، وعلينا أن نحترم خيارات الآخرين ، يا (أبو العبد) وسألته : ما أخبار الذين كُتب عليهم الوقوف ، وأشرتُ إلى البغالة ، قال : هؤلاء ، أهل مهنة ، اعتادوا الوقوف مثلما اعتادوا على إهانة الناس وإيذائهم ، قلت : هل صحيح (يا أبو العبد) أن بعض الفلسطينيين يأتون إلى الحواجز من أجل استفزاز البغالة . قال : انظر يا خواجة إلى أي واحد منهم ، انظر إلى الأغراض والحاجيات التي يحملونها . . هل تدل هيئاتهم وحاجياتهم على الاستفزاز ، لو كانوا أهل استفزاز لنشبت بينهم خصومات ومعاركات طوال . . إنهم أصحاب حاجات ، بينهم مرضى ، وطلاب ،

وعمال ، وبنات ، وأمهات ، وجدات ، وشيوخ . .

قلت : إنني على قناعة بهذا ، لكن بعض اليهود يقولون مثل هذا الكلام . قال : إنهم يريدون جعل البلاد ملكاً لهم وحدهم ، كما يريدون أن يكونوا هم أصحاب الرأي والقول .

مجانين ، والله العظيم مجانين يا خواجة ، لو صارت البلاد لليهود وحدهم لقامت القيامة ، هؤلاء . . مجانين ، فالقدس كما رأيتها ، إنها مدينة الله ، ليست لدين بعينه ، وليست لبشر بعينهم . . إنها مدينة ممدودة على كف الله ، وهذه الجبال التي تراها ليست سوى البادي من كف الله ، وهذه الأودية ليست سوى خطوط هذه اليد المباركة . . قلت : وهل يعي هؤلاء البغالة هذا الكلام؟ . قال : القوة أعمت عيونهم ، فما عادوا يرون في مرآة الدنيا سوى صورتهم . وأضاف : أراك تكتب ، وأنا لا أريد صرفك عن الكتابة ، فريثته لأنني أحب الاستماع إليه ، فامتدَّ الحديث بيني وبينه ولم يقطعه سوى قدوم عارف الياسين الذي فرحت بمجيئه ، أحسست بأنه كائن نباتي له طراوة خاصة ، كائن قصصي له حكايته ، كائن يكاد يتآكل ويمحي مع مرور الأيام . . جلس ، وطلب قهوة ، وراح يدخن ، وهو يسألني عن صحتي ، وغياباتي الطوال . وسألته عن السجن ، فقال حياة اعتدناها قلت : عارف ، سمعت (أبو العبد) يقول إن القيامة ستقوم إن جعل هؤلاء البغالة الدولة يهودية صرفاً . قال بحدة وسرعة : هذا صحيح ، ولكن القيامة ستقوم عليهم حتى لو لم يجعلوا الدولة يهودية هؤلاء نور ، غجر ، رحالة ، يا رفيق ، القوة هي التي جعلت لهم بيوتاً ، ودولة . . وأخذ نفساً من سيكارته ثم أضاف : الأرض ، هذه الأرض الطيبة صارت لهم بقرة حلوباً ، هذه البقرة هي التي ستخرجهم . . قلت : كيف؟! قال : سيجوعون البقرة ، ويطلبون منها الحليب . عندئذٍ لن يكون في مواجهتهم سوى جنون البقر . قلت : لماذا تعتقد أن هذا سيحدث؟ قال : لأنهم حلبوا كل شيء ،

حتى العصافير حلبوها ، حلبوا النهر حتى شحت مياهه ، حلبوا الحقول فصارت حبة البرتقال بحجم حبة البندورة ، حلبوا الينابيع حتى صارت مأوى للجرذان والعناكب . . قلت : لكنهم يقولون إنهم استصلحوا أراضي الصحراء في النقب . قال : هذه كذبة ، هناك مزارع لكبار السراق منهم جرفوا تربة نهر الأردن ، وأخذوها إلى هناك . قلت : وما غرامهم بصحراء النقب . قال : تقليعة ، ابتدعها بن غوريون ، قلت : عارف ، كيف ترى المستقبل؟ قال : رفيق ، نحن دفعنا ثمن هذه الأرض ألف ألف مرة ، ثمنها كان دماء ، وشهداء ، وخراب بيوت ، وخلقاً من المشوهين ، والعاطلين ، والسجناء ، ومقابر لا حدود لها ، وآخر شيء دفعناه هو مواسم هذه الأرض التي تذهب حليباً إلى دلائهم وقِربهم . قلت : والمعايشة المشتركة معهم ، أعني العيش المشترك ، قال : هذا وهم ، كذب . اليهود لا يريدون مثل هذا العيش ، ولا يريدون الحرب ، كما لا يريدون السلم ، موتهم في الاثنين معاً ، وحياتهم هي بين تلك وهذا . . قلت : والحل؟ قال : عليهم أن يخرجوا ، يكفي ما سرقوه! نحن لا نريدهم بيننا . إنهم غرباء ، إذا قبلنا نحن بهم ، فالأرض تلفظهم . قلت : كيف؟ قالوا : انظر إلى حياتهم ، إلى مشيهم في الشوارع ، إلى بيوتهم ، إلى حركتهم الاجتماعية ، إلى الخوف في عيونهم . . كل هذا يؤكد لك أنهم غرباء . إنهم لا يعيشون مع شيء أكثر من عيشهم مع الخوف ، لا رفيق لهم سوى الخوف . حتى داخل السجن ، يا رفيق ، هم خائفون . والله العظيم ، ما كانوا يتجاسرون على إجراء التفقد العددي للمساجين ليلاً ، كنا ننظر إليهم من بين قضبان الزنازين وهم يجرون التفقد الليلي ، في أول المساء ، نرى واحداً منهم يتقدم من باب العنبر ، وثلاثة أو أربعة يمسكون بحزامه من الخلف استعداداً لشده إلى الوراء مخافة أن يسحبه أحد السجناء إلى داخل العنبر . قلت : تذكرت شيئاً ، وأنت تتحدث عن السجن ، والسجناء ، أود

أن أسألك عنه ، وهو تكسير الفخار داخل السجن ، فضحك عارف الياسين ، قال : مهزلة ، حالة عبث ، مهزلة من مهازل كثيرة ، كانوا يأتون بأواني الفخار ، ويكسرونها فوق رؤوسنا ، وصدورنا ، وركبنا . . الفخار عندهم لعنة ، لهذا يودون توريثها لنا . . صدقني وبعد موسم تكسير الفخار السنوي ، في عيدهم الذي أسميناه عيد اللعنة وموعده في مثل هذا الربيع ، أعني في مثل هذه الأيام ، كنا وعلى الرغم من جراحنا ، والأذيات التي لحقت بنا ، نضحك ملء رؤوسنا ، قلت : تضحكون ، لماذا؟ قال : لأنهم ينفقون وقتاً طويلاً في صناعة أواني الفخار من جهة ، والكتابة العبرية عليها من جهة ثانية ، ثم وخلال ساعات تتكسر الأواني وتُرحل كسرُها إلى خارج السجن .

قلت : وهل كنتم تعرفون ماذا كتبوا عليها بالعبرية ، قال : رفيق ، أصغر واحد فلسطيني ، يدخل إلى السجن ، يتعلم العبرية ، كلنا نعرف العبرية ، . . فالكتابات لم تكن سوى شتائم ولعنات لكن أكثر كلمتين كانتا تتكرران هما كلمة [خَزيريم] ، وتعني خنازير ، وكلمة (ممزير) وتعني ابن الحرام ، كنا نضحك لأن كتاباتهم كانت تتحطم بتحطم الأواني الفخارية ، وشتائمهم كانت تصير غباراً ومداساً لأحذيتنا . قلت : وصديقتك سيلفا ، هل كانت تشارك في تكسير الأواني . قال ، وقد جحظت عيناه : أكثر الجميع شراسة كانت سيلفا ، أنا لم أر حقداً في حياتي يحمله مخلوق مثل الحقد الذي تحمله سيلفا لعنة الله عليها ، أذكر أنها لم تكن تكتفي بتكسير الأواني فوق رؤوسنا ، بل كانت تدس قطع الفخار المتشظية في أفواهنا ، وعيوننا . . كانت تحز خدودنا وجباهنا ، وظهور أيدينا بقطع الفخار الحادة . . امرأة شريرة لكأن جمالها جمال كلاب . قلت : كيف ، ماذا تعني؟ قال : أحياناً تتوهم بأن الكلاب الجميلة لا تعض ، وأنت بذلك تخالف قانون طبيعة الكلاب ، لأن الأصل في طبيعة

الكلاب هو أنها تعض ، وسيلفا تربيتها تفرض عليها أن تكون شريرة وحاقدة . قلت مهوناً عليه : لعلك تكره النساء يا عارف ، فأنت تتحدث عن سيلفا بقسوة . قال : إطلاقاً يا رفيق ، أنا لم أنظر إليها في يوم من الأيام على أنها امرأة . تصرفاتها وأفعالها تجعلها خارج التصنيف البشري وليس التصنيف النسائي فقط . امرأة صار سمعها يعشق الأنين والتوجع والاستغاثات والرجاءات . ورؤيتها صارت تعشق الدم ، والتكسير ، والجروح ، والإغماءات ، والكي ، والتعليق ، والموت . . قلت : أراك تلبس السواد دائماً؟ قال : في السجن وطول ثلاثين سنة كنت ألبس ثياب السجن ولونها بني ، بت أكره هذا اللون ، وأنفر منه . الآن أرتدي الملابس السود حداداً على اغتصاب البلاد . قلت : هكذا . قال : هكذا ، فما دامت البلاد مغتصبة ، سيظل اللون الأسود رفيقي . . فهؤلاء البغالة ، يا رفيق ، سوّدوا عيشنا ، جعلوها طيناً . قلت : أنت الآن خارج السجن ، عليك أن تبني حياتك من جديد ، أن تمشي نحو المستقبل . قال بأسى : المستقبل أخذه البغالة ، أكثر شيء استهدفوه في حياتي هو المستقبل . تعرف يا خواجة ، المستقبل صار هذه السيكارة ، فأنا لا أصدق أنني سأنهي تدخينها دون تدخل هؤلاء الأوباش ، ورمى السيكارة في صحن الرماد . وزفر .

وجاءنا أبو العبد ، بقهوة إضافية . قال : خواجة ، لم تخالط أصدقاءنا الأميركان اليوم . قلت : عارف الياسين يحول بيني وبينهم ، فضحك عارف الياسين ، وتمتم : ربي يسامحك يا رفيق ، أنا لا أصادر لك رغبة ، تفضل . قلت : بالحق ، يا عارف ، ما رأيك بالأميركان؟ قال : أهل مصلحة ، لا علاقة لهم بالعدالة . إنهم يعرفون كل شيء عن قضيتنا ، ومع ذلك لا تستطيع أن تعرف الأميركاني من الإسرائيلي مهما حاولت . قال أبو العبد ، وهو يهم بالاستدارة : عارف الياسين متشائم ، يا خواجة ، ربما

يحتاج إلى علاج . غضب عارف الياسين ، ونهض ناهراً أبو العبد الذي مضى من أمامه هرولة . واقتحمنا الحوذي جو ، ورجاني أن نمشي لأن الوقت بات ضيقاً ، فرجوته أن يجلس قليلاً ، فقال : سنعود إلى هنا ونجلس الوقت الذي تريده ، فنهضت ، ودّعت عارف الياسين ، ومضيت وهو يهمهم : كنت أود أن أقول لك شيئاً مهماً حدث لي في السجن ، يارفيق ، فوعدته بالعودة السريعة . وركبنا في العربة . . التي راحت تباري حاجز قلندية حيث هما الضفتان المتواجهتان ، جهة الناس الذين يتجمهرون في الضفة الأقرب إلينا ، والبغالة وبغالهم وكلابهم وسياراتهم الذين يجتمعون في الضفة الأبعد . . قلت للحوذي جو : انظر ، إنها مقابلة مؤلمة . قال : الطرفان ينتظران الفرج . قلت : من السماء . قال : من السماء . . وأضاف بالمناسبة نحن ذاهبان إلى إحدى المستوطنات القريبة من هنا ، سوف نرى احتفالاً . قلت : احتفالاً . قال : احتفالاً . قلت : وهل المستوطنة قريبة ، قال : إنها قريبة جداً ، وقد أقيمت في عام ١٩٥٠ على أنقاض قرية عربية اسمها (دير ياسين) قلت : هل هذه القرية تخص عارف الياسين الذي تركناه في المقهى . قال : لا أدري ، ولكنني لا أظن ذلك . فاسم ياسين هنا ، غير اسم ياسين هناك . . وأضاف : ما حدث في هذه القرية كانت سبباً في تهجير الكثير الفلسطينيين من قراهم عام ١٩٤٨ لأن أخبار الترويع ، والقتل ، والحرائق ، وبقر البطون وصلت إلى أسماع جميع أهالي القرى المحيطة بها ، ففر الناس بأولادهم ، ونسائهم ، وماشيتهم طالبين الأمان . . كان عدد سكان هذه القرية قرابة ٥٠٠ نسمة ، قتل اليهود منهم النصف تماماً ، والنصف الآخر حُملوا في سيارات وطافوا بهم في القدس ، ثم قتلوا بعضهم ، قلت : وهل كان القتلى من الرجال فقط ، قال : لا ، من الرجال والنساء ، والأطفال ، لكن المروع كان أن نساء حوامل بقرت بطونهن ، فشهقة الموت لم تكن واحدة بل كانت شهقات ، قلت : والقرية .

قال : القرية أزيلت تماماً . قلت : ألم يبق منها شيء . قال : بقيت المقبرة . قلت : شاهدة على ما حدث ، قال : شاهدة على ما حدث ، وصمت الحوذي جو . . فرحت أطوف ببصري في من حولي ، رأيت التلال وقد غطتها البيوت القرميدية ، بيوت حديثة تستدير حولها الطرق ، وتحاذيها الأشجار ، وإلى جوارها ساحات للملاعب ، والحدائق ، والسيارات ، بيوته مجتمعة إلى جوار بعضها بعضاً ، لكأنها محتشدة تجاه خوف ما ، أو هبوب رياح ، أو خبر طالع ، أو كارثة قادمة ، وإلى الأسفل أودية عميقة ، ومنحدرات ، وصخور ، وأشجار كثيفة ، سمعت الحوذي جو يقول : ما رأيك ، هل ستمطر السماء . قلت : يبدو أنها ستمطر . قال : سنحضر طقساً له علاقة بالمطر . قلت : في المستوطنة؟ قال : في المستوطنة . قلت : كيف عرفت؟ قال : لي صديق يعيش فيها أخبرني بذلك فرجوته أن نحضر هذا الطقس . . قلت له لدي صديق روسي ، سيرافقني إلى هنا ، فرحّب بذلك . قلتُ : سنحضر صلاة استسقاء ، قال : صلاة استسقاء .

وانحدرت العربة بنا في منحدرات تظللها الأشجار من الطرفين ، وإلى جوار المنحدر الضيق ، طريق واسعة راحت السيارات تركض فيها مترادفة بألوانها وحجومها وناسها ، قال الحوذي جو : انتبه ها هي ذي المستوطنة ، قرأت اليافطة التي تنبه على وجودها في نهاية المنحدر الذي علا حتى صار شبه تلة جرداء لا أشجار فيها ، ولا بساتين ، قرأت اسمها (جعفات شاؤول) باللغات الثلاث كالعادة ، الإنكليزية ، والعبرية ، والعربية . . ومضينا خلف العربة في صعود بطيء صعب ، فلاقتنا البيوت بأبوابها ونوافذها المغلقة ، وقضبان الحديد التي تزنرها في سياج دائري محكم ، وبقربها مساحات للعشب ، ونوافير ترش الماء رذاذاً ، وفي البعيد مراصد بلورية يقف فيها جنود وحشد من الخلق ، صغار وكبار ، ارتدوا أجمل الثياب ، وتوازعوا الساحة الوسيعة الدانية منا وقوفاً . وجلوساً على المقاعد

الخشبية ، ورويداً رويداً اقتربنا من مدخل المستوطنة ، الذي توازعه الخفراء المسلحون . أوقف الحوذي جو العربة ، وأخذ الأوراق التي تعرف بي وجمعها إلى أوراقه وهبط نحوهم ، كنت أنظر إليهم مثلما ينظرون إلينا ، وحواجز الحديد الثلاثة متقاربة فيما بينها ، لا يفصل الواحد منها عن الآخر سوى أمتار قليلة ، ووراء كل حاجز مسلحون ، وبنادق ، وخوذ حديد ، وأحذية ثقيلة ، وفوق المدخل تماماً ، برج مراقبة زجاجي ، تعلوه كاميرا ، يبدو في داخله جندي يجلس مسترخياً وراء رشاش كبير الحجم ، طويل السبطانة . . وفي مواجهته تماماً برج مراقبة زجاجي آخر تعلوه كاميرا يشبهه تماماً في داخله جندي يجلس الجلسة نفسها ، وأمامه رشاش شبيه بالرشاش الأول ، وفي المنحدر ، وبموازاة المستوطنة تماماً ، ثمة جنود مسلحون ، وصناديق خشبية عالية وضيقة ذات نوافذ وأبواب ، ومصاطب زفتية عالية مكونة من اللون الأصفر الفاقع تجبر السائقين على تخفيف سرعة سياراتهم . . تبدو المستوطنة وكأنها قرية عسكرية ، فالأسيجة الشائكة تحيط بها ترادفاً ، سياج خلف سياج . أرى الحوذي جو يعود إليّ ، بعدما نظر أحد الجنود المسلحين في الأوراق ، وما إن يقترب مني حتى أسأله إن مضت الأمور على خير ، لأنني رأيت وجهه معتكراً . قال : نعم ، ولكن علينا أن نبقي العربة في الخارج ، قلت : أين؟! قال : سأبعدها عن المدخل ، انتظرني ، فهبطت ، ورحت أراقب الحوذي جو وهو يقود عربته بعيداً عن المدخل ، وحين أوقفها ، أخرج عليقة الحصان ، ووضعها في رقبته ، واستدار نحوي ثم مضينا نحو حواجز الحديد ، كان الجنود ينظرون إلينا بريبة وحذر ، ومررنا من الحاجزين الأولين ، ثم توقفنا عند الحاجز الثالث بانتظار مجيء صديق الحوذي جو الذي لم يتأخر كثيراً ، تعرّف إلينا ، ثم استأذن الجنود ، وأخذنا إلى داخل المستوطنة . . بدت الشوارع ، والساحات ، والبيوت ، والأعشاب نظيفة ، كأن الناس لا يمرون بها أو

لكأنهم لا يعيشون فيها ، واقتربنا من الحشد ، كانوا ينظرون إلينا بتحديق مركز ، فقد عرفوا أننا غرباء ، صديق الحوذي جو عرّف بنا على أننا أصدقاء له ، وللشعب الإسرائيلي ، وأننا جئنا كي نرى الطقس التوراتي الذي يقيمه اليهود منذ آلاف السنوات . . وأخبرهم أننا زائران ، فارتاحت نظراتهم في أحداقهم قليلاً ، وتوارت حدّتها على نحو ما . . وقال الرجل للحوذي جو ، عما قريب تنطلق الجموع ، وسألنا إن كنا نرغب في أن نشرب شيئاً من القهوة ، فهز الحوذي جو رأسه بالموافقة ، فذهب الرجل كي يحضر القهوة ، لحظتئذٍ مال الحوذي جو نحوي ، وقال : إن كنت تود مخاطبة صديقي اليهودي ، فاسمه ربحي ، وهو يعمل في شركة سياحية ، تعرفت إليه من خلال عملي كدليل ، لا أعرف عنه الكثير مع أنني أعرفه منذ سنوات ، إنه يعرف العربية ، ولكنه لا يتحدث إلا بالعبرية ، . . جاءت القهوة ، فشربناها ، وجلسنا ننتظر ، فمر وقت طويل علينا ، قبل أن يتقدم نفر من الرجال بلباسهم الكرنفالي الملوّن ، وراحوا ينفخون في قرون بقرية أو جاموسية كبيرة ، شكلها مفزع حقاً ، فتصدر عنها أصوات غليظة قاسية . قال ربحي لـ جو . . بدأت الطقوس . فسأله جو : وما الذي سيحدث؟ قال : الأفضل أن تعرف الطقس بنفسك . الشرح يفسده . فهزَّ رأسه وهو يبتسم . ملأت أصوات القرون المكان ، فنهض الناس جميعاً ، ونهضنا . رأينا خلقاً يفرغون أكياساً مملوءة بالصوف ، والقطن ويرتبونها إلى جوار الطرق ، والمداخل ، ومساحات العشب ، فبدت مثل البيادر ، ودونما إمهال مشى نافخو القرون ، تبعهم ضاربو الطبول ، والصنوج النحاسية ، وحاملو قرب الماء ، والدلاء ، أمسك الحوذي جو بأصابع يدي ، وشد عليها ، وهمهم ، دعنا نتأخر قليلاً ، فنصبح في مؤخرة الحشد كي نرى المشهد كاملاً ، فوافقته . . رأينا النساء ، والرجال ، والشبان يأخذون بعضاً من جزز الصوف ، وأكوام القطن ويرفعونها فوق قضبان حديد لها رؤوس

حادة ، بدت جزز الصوف وأكوام القطن كأنها الأشجار ، وقضبان الحديد الطويلة الحادة كأنها الجذوع . . ومشوا بها ، سأل الحوذي جو ربحي مستفسراً عن هذا المعنى فقال : الصوف والقطن يعبران عن السماء ، وقضبان الحديد تعبر عن رغبة الناس في تحريك صفحة السماء الساكنة ، كي تمطر . قال الحوذي جو : وهل الناس يعتقدون . . أن السماء ساهية عنهم أو أنها في حالة صدود . قال : بالضبط ، وهم يعتقدون أيضاً أن السماء مخلوق ينام ويستيقظ ، وأنها في هذه الفترة ، أي عند احتباس المطر وانقطاعه إنما هي في حالة سبات ونوم وغفلة عنهم ، ولا بدَّ لهم من إيقاظها عن طريق هذه القضبان الحديدية الحادة . قلت للحوذي جو : أسأله وهؤلاء الأطفال الذين يحملون الأبر الصغيرة والكبيرة ، وقد وضعوا فوقها قطعاً صغيرة من القطن . . فمال نحوه وسأله ، فقال ربحي : إنهم يقومون بالمهمة نفسها . . إنهم يشكون القطن الذي يعبر عن السماء بالأبر كي تتنبه السماء وتستيقظ فتفلت ما أمسكته من مطر . قلت لـ جو أسأله : أليست السماء معبرة عن الذات الإلهية . فقال ربحي له : نعم . إنهم يعتقدون ، وقد احتبس المطر ، أن الله انشغل عنهم بأمور أخرى ، وبلدان أخرى ، لذلك فهم ينبهونه كي يتوجه إليهم . . قلت للحوذي جو : أليس في الأمر قسوة ، وعدم تأدب مع الخالق ، فسأله جو ، فأجاب ربحي : لا توجد رسميات ما بين الله وشعبه المختار . مثلما لا توجد رسميات ما بين الأب الحنون وأبنائه الأبرار .

وراحت الأصوات تتعالى باللغة العبرية في ترانيم غنائية لم أشعر وأنا أستمع إليها أن فيها تهيباً ، أو رجاءً ، أو تذللاً ، ومع ذلك طلبت من الحوذي جو ، أن يترجمها لي ، كي أفهم معانيها ، فراح جو يترجمها ، وأنا أسجل معانيها في دفتري ، تقول الترنيمة التي كانت أكثر تكراراً :

أيتها الزرقاء النائمة

أفيقي ، أفيقي
لأن النهار طلع
والربيع جاء . .
ولا ماء في الدنان
هيا اغسلي وجهك . . . وانظرينا
كي ترتوي الأرض . .
ومدي يديك . . . نحونا
كي تجري الأنهار والسواقي . .
أيتها الزرقاء النائمة
أفيقي ، أفيقي
قبل أن نغضب عليك .

عجيبة هذه الترنيمة ، إنها أشبه بتهديد للسماء ، والذات الإلهية . .

وأدور ببصري هنا وهنا ، فأرى نساءً يحملن فوق رؤوسهن ملاحف بيضاً ، وأخرى زرقاً ، يحملنها على عصي خشبة مدببة الرؤوس ، فتبدو فوقهن وكأنها الخيام . . . تهزها النساء فترتعش الملاحف بفزع وجفول ، وحاملو القرب والدلاء يرشون الناس بالماء ، والعمال الذين يتوسطون مروج العشب يرشون الناس برذاذ المطر عبر الخراطيم البلاستيكية . الجميع ، بدوا حريصين على أن تبتل ثيابهم .

وظللنا ندور وندور حتى طوّفنا بشوارع المستوطنة كلها . . ولم نر خلال هذا الطواف باباً يفتح لنا ، أو نافذةً تستطلع خبرنا . . كانت البيوت المتشابهة جداً ، كتلاً اسمنتية مغلقة ، بدت لي وكأنها بيوت تزحف فوق الأرض ، بيوت لا جذور لها ولا امتدادات ، والجنود المسلحون يبدون مثل ألعاب الأطفال داخل أبراجهم الزجاجية المحيطة بالمستوطنة التي تجلت أمام بصري كأنها ملعب لكرة القدم . . أرى الجنود يتحركون بفتور ، وكأنهم

اعتادوا الجلوس الطويل ، أحس بالتناقض العجيب ما بين البرج الزجاجي ، والأسلحة المحتشدة في فضائه الضيق . نمرُّ ببيوت عليها شارات الإسعافات الأولية ، وأخرى تشير إلى أنها مطعم ، وثالثة تشير إلى أنها قاعة للمطالعة ، ورابعة للكهرباء ، وخامسة تكومت أمامها قضبان الحديد والأخشاب ، ونمر بمدرسة ، وملعب لكرة السلة ، وجرار زراعي ، قلت للحوذي جو : اسأل ربحي ، هل هؤلاء الناس هم سكان هذه المستوطنة؟! فسأله ، وأجاب ربحي أنهم جاؤوا من القدس ؛ ومن المستوطنات المحيطة بها ، فعدد سكان هذه المستوطنة بضع عائلات وحسب . قلت للحوذي جو مستفسراً ، معقول ، مستوطنة طويلة عريضة ، ومسيجة بالحراس والأسلحة ، ليس فيها سوى بضع عائلات . . فسأله ربحي ، وراح يستمع إليه ، ثم قال لي : إنه يقول إن حال هذه المستوطنة مثل حال المستوطنات الأخرى ، وإن عدد سكانها في الليل أقل عادة من عدد سكانها في النهار . وإن دواعي الأمن تجبر السكان على الخروج منها عند الغروب ، والعودة إليها في الصباح وقد لا يبيت فيها أحدٌ ، وفي نهاية الجولان وصلنا إلى نقطة البداية ، وهناك راح الجميع يتناولون السندويشات الصغيرة ، ويشربون ما امتلأت به الأكواب البلاستيكية ذات اللون الأبيض .

كان الجميع يفترشون المقاعد الخشبية ، ومروج العشب ، وفجأة راح الرذاذ ينهمر على الجميع من خراطيم المياه التي وجهها العمال نحوهم ، فعلا الصخب والضحك ، وتداخل الكلام ولم يمض من الوقت سوى ساعة أو نحو ذلك ، فسألت الحوذي جو : هل انتهى الطقس؟ فسأل ربحي الذي أجابه بأن صلاة الاستسقاء انتهت ، ولكن بمقدورنا أن نبقى حتى وقت الظهيرة كي نتناول طعام الغداء في مطعم المستوطنة . فسألني جو عن رأيي ، فقلت له : اشكره لأن لدينا مواعيد أخرى لا بدّ من إنجازها ، فشكره ، ومضينا وإياه نحو مدخل المستوطنة ، سألني جو في الطريق يبدو

أنك عجلت الرحيل . قلت : الأمكنة التي لا طيور فيها لا يمكن للمرء أن يبقى فيها .

وخرجنا ، استدار هو إلى داخل المستوطنة ، واستدرنا نحن نحو العربة . . وما إن وصلنا إليها ، حتى استعادَ الحوذي جو عليقة الحصان الكتانية من رقبة الحصان ، وعلقها إلى جوار العربة ، ثم ركبنا فيها ، وعدنا في دوران دائري كي نأخذ الطريق إلى القدس ، قلت للحوذي جو : لم نر أنقاض القرية ، قال إنها في الطرف الآخر المتواري خلف أشجار الزيتون والبرتقال . ولم يتبق منها سوى القليل . قلت : والمقبرة قال : موجودة بالقرب من الأنقاض ، لقد أعاد الفلسطينيون ترميمها مرات ، لأن المستوطنين كانوا يدمرونها بين حين وآخر ، ويغطونها بالقمامة أيضاً ، لكن روائح القمامة حالت دون استمرار عادتهم هذه . قلت : هل بالإمكان زيارة المقبرة . قال : بالإمكان طبعاً ، قلت : أرجوك . . دعنا نراها . . ومضت بنا العربة وسط نهار لا شمس له ، ولا مطر ، نهار يلفه غيم شديد العلو ، كثير البياض .

استدارت العربة بنا ، فإذا نحن أمام حاجز حديد آخر ، يواقفه جنود تتأرجح على صدورهم بنادقهم السود اللامعة ، أوقف الحوذي جو العربة وهبط ، واقترب منهم ، وبين يديه أوراقنا ، وراح يتحدث معهم ، ولم تمض سوى لحظات حتى عاد ، وهو يهمهم : لا يمكن الدخول إلى المقبرة . قلت : لماذا؟ قال : لأنهم يقولون إن المقبرة ليست متحفاً ، ولا مطعماً ، ولا دار سينما ، . . أهل الموتى وحدهم هم الذين يزورون المقبرة . قلت : أهم قالوا لك هذا؟ قال : نعم ، قلت : كنت متشوقاً لأخذ صور للقبور والأنقاض .

وعادت بنا العربة كي تنحدر نحو الطريق السفلي ، وبينما هي تنحدر رأيت أبراجاً خشبية محمولة على أعمدة ، لها سلالم حديد مشدودة إلى الأرض ، يقف فيها جنود مسلحون . قلت وأنا أشير إليهم : أحياناً تحسب

أن ما من متر في هذا البلاد إلا وعليه حراسة مشددة . قال الحوذي جو : الخوف يولد مع الناس هنا ، قلت : لعلكَ تقصد أن الناس يولدون في الخوف . قال : بالضبط ، كما قلت .

فجأة ، وحين وصلت بنا العربة إلى أول الطريق ، أوقفتنا سيارة جيش بإلحاح شديد ، طلب جنودها منا الأوراق ، فناولهم الحوذي جو إياها ، نظروا فيها ثم أعادوها إلينا ، وأشاروا لنا أن نستمر في سيرنا ، قال الحوذي جو : أترى حتى الطرق محروسة بالخوف . قلت : كل شيء هنا ابن الخوف . ومشت العربة ، ولفنا الصمت . ثم انتبهت على صوت الحوذي جو يسألني : إلى أين؟! قلت : إلى مقهى أبو العبد . قال : إلى قلندية؟ . قلت : إلى قلندية .

بدت الأنسام التي راحت تقابلنا رخية ندية ، والشمس متوارية وراء غيم متداخل بعيد ، ومن حولي تناثرت مساحات قليلة من العشب تبدو بين الصخور العالية التي تحيط بنا ، وراحت القدس تبدو لنا بينما العربة تصعد الدرب بطيئة متوانية . . ها هي ذي القبة الذهبية تبدو رويداً رويداً كأنها شمس أرضية ، تبدو فتبدو من حولها البيوت ، وقباب الكنائس ، والشوارع ، وأشجار السرو العالية ، وأشجار الزينة ، والساحات ، والأدراج الحجرية ، والأسواق المقبوة ، والسيارات ، والناس ، والطيور المحومة في تشكيلات بديعة تعلو وتهبط لكأنها أسيرة أرجوحة الهواء الخفيف . يسألني الحوذي جو مرة ثانية : قلندية ، فأقول له : قلندية ، فقد وعدت عارف الياسين أن أعود إليه . قال : ومن بعد؟ قلت : سنجلس قليلاً ثم إلى البيت ، إلا إذا كان لديك رأي آخر . قال : اقترح عليك أن نتناول الغداء معاً . قلت : كما تريد ، يبدو أن لديك ما تقوله . قال : أجل ، لديَّ الكثير ، قلت : حاضر . وانعطفت العربة بنا نحو الشارع المؤدي إلى المقهى . من هذه الزاوية أرى البغالة وهم يواقفون الناس وحواجز الحديد ، والسيارات ،

ومكعبات الاسمنت الضخمة ، من هنا تبدو صورتهم أوضح ، فهذه الصناديق الخشبية لا أراها حين أكون في المقهى ، لعها أمكنة للنوم ، ومستودعات للأسلحة ، والثياب ، والأطعمة ، تبدو وكأنها دفنت في حفر ترابية ، التراب والرمال تحيط بها من جميع الجهات ، أمامي تبدو الأدراج الخشبية التي تهبط إليها . . وأمامها أرى دراجات نارية ضخمة ، لم أرها من قبل ، لأنها مستورة بهذه الصناديق الخشبية الواسعة . كما توجد سيارة إسعاف بيضاء طويلة متوارية خلف الصناديق . . وفي مواجهة الشارع رأيت نفراً من الجنود يحرسون الجنود الواقفين أمام حواجز الحديد . . فأتمتم يا إله الحراسة ، كل شيء هنا حراسة ، حتى الحراسة محروسة بالحراسة . . تستدير بنا العربة ، كي نواجه بوابة المقهى مباشرة ، ها هي ذي عريشة (أبو العبد) تظهر أمامنا بجلاء ، وها هو ذا أبو العبد يجول بين الكراسي والطاولات ، ينحني عليها فيمسح بعضها ، ويرتب الكراسي ويحاذيها بالطاولات . . لم أر أحداً في المقهى ، فهمهمت للحوذي جو : يبدو أن عارف الياسين فقد الأمل في عودتي ، فمضى . قال : الآن نسأل (أبو العبد) ونعرف خبره . توقفت العربة ، فهبطت منها . واتجهت نحو (أبو العبد) الذي ما إن رآني حتى خفَّ إليَّ مرحباً . قلت : يبدو أنني تأخرت ، فذهب عارف الياسين . قال : لا يا خواجة ، أنت لم تتأخر ، وعارف الياسين لم يمضِ . قلت : أين هو إذاً ، قال أخذوه ، وأشار إلى البغالة . قلت : لماذا؟ قال : ابن الحرام لا يُسأل عن أفعاله . وهؤلاء أولاد حرام لا يسألون عن أفعالهم . قلت : لا بدَّ من أن أمراً ما قد حدث كي يأخذوه! فهزَّ رأسه بالإيجاب . قلت وقد انضم الحوذي جو إلينا : أخبرنا ماذا حدث يا (أبو العبد) . فقال : لم يطق عارف الياسين مشهدية القبل التي راح يتبادلها الأميركيان هنا في المقهى . وأنا لم أطقها أيضاً ، فنبهتهما ، لكن أحدهما قال لي ناهراً . هذا أمر خاص ، انصرف . حين قال لي : انصرف .

غلى الدم في عروقي ، فهممت بالانقضاض عليه لأشق رأسه بصينية النحاس ، لكن عارف الياسين كان أسرع مني ، رمى نفسه مثل باشق على الأميركيين في آن معاً ، وراح يضربهما يميناً وشمالاً وصراخهما يتعالى طالبين النجدة ، لحظات وجاء البغالة ، أخذوا عارف الياسين جثة هامدة ، بعدما ضربوه حتى كف عن الحركة ، أخذوه كتلة دم . وعندما تدخلت مدافعاً عنه ، نالني من ضربهم الكثير أيضاً . توقعت أنهم سيأخذونني مع عارف الياسين غير أن الأميركيين دافعا عني . قالا لهم ، بأنني لم أفعل لهما شيئاً ، وحين مضى عارف الياسين في سيارة الجيب ، حاولت أن أكلمه إلا أنه كان غارقاً بدمه ، وقد تورم وجهه ، وعلت جبهته وخديه الكدمات الزرق . قلت : والنتيجة يا أبو العبد؟ قال : أخذوه إلى السجن ، وربك وحده يعلم متى سيفرج عنه . قلت : وأنت ماذا ستفعل؟ قال : أنا بانتظار أن يعود البغالة كي يبلغوني قرار إغلاق المقهى .

قلت : سيغلقونه؟ قال : هذا أضعف الاحتمالات . . ورجاني أن أجلس ، أنا والحوذي جو ، كي نشرب القهوة ، غير أنني لم أستطع الجلوس ، فلقد رأيت الأسى لوناً يرتديه وجه (أبو العبد) . قلت : وهل تعرف مدة الإغلاق . قال : ربك أعلم . ربما ستة أشهر ، سنة ، أكثر ، أقل ، لا أدري . قلت : لكن ما حدث أمر تافه ، وأنت لا ذنب لك فيه ، فلماذا تعاقب . قال ضاحكاً : أنا صاحب الثور . فالثور إن نطح أحداً ، أو داس زرعاً ، فصاحبه مسؤول عنه لذلك فإن العقوبة واجبة ، قلت وأنا أستدير : هل نستطيع أن نفعل لك شيئاً يا (أبو العبد) قال : تكفي إنسانيتك يا خواجة ، قلت : سأمر بك غداً ، وأرجو أن أراك ، وأرى المقهى مفتوحاً ، فابتسم ابتسامة مشقوقة ، وقال : للأسف لن تجدني ، فالبغالة أعرفهم يا خواجة سيغلقون المقهى ، قلت : سأمر غداً . قال : يا ألف مرحباً . قلت له وهو يماشيني خطوة خطوة نحو الحوذي جو : قلبي معك يا (أبو العبد) ،

فشكرني مرات ثم وقفنا مواجهة ، نظرت إليه ، ونظر إليَّ ، ولم أدر مَنْ بادر مَنْ بعناق حميم ، وركبت في العربة ، وأبو العبد واقفاً يرفع ذراعه بالتحية والسلام . . ولم يلتفت ، أو يستدر . . إلا عندما ابتعدت العربة عنه» .

ملحوظة :

اعذرني على تفاصيلي هذه ، لكن لا بدَّ من قولها لك . . كي لا تخنقني ، ساعدني بالكتابة إليَّ . أرجوك .

صباح يباكره الألم

«**أكتب إليك ،**

كي أقول لك صراحة إنني مريض بهذا المكان ، فهل عانيت أنت مما أعانيه الآن ، كلما مررت بهذه الشوارع ، والأبواب ، والأشجار ، تسارّرني نفسي قائلة متى ستعود إلى هنا مرة ثانية ، أكاد لا أرتوي مما أراه ، فهذا المكان عطش ، والذين يمرون به عطشى ، والدخول إليه عطش ، والخروج منه عطش ، قل لي ، أيها الصديق الغالي ، أي عطش شعرت أنت به هنا؟ قل لي ، أخبرني كي أضم عطشي إلى صدري وأماشيه . .

ها أنذا أدور في شوارع القدس وحيداً ، وفي صباح باكر جداً ، فأشعر أنني لم أمر بها من قبل ، ها هي ذي كنيسة القيامة ، مثل طائر أسطوري أرخى جناحيه في الفضاء الوسيع ، ها هي ذي الأسواق التي تجاورها تدور حولها في صلاة دائمة ، وها هم الباعة قد باكروها تجول بهم نداءاتهم ، وها هي ذي الأشجار مغسولة ، لامعة ، وعربات الجر تمشي الهوينا لا شيء يقودها سوى وقع حوافر خيولها . . وها هي ذي تلال الشمع ، والبخور ، والطيب ، تطلق هواءها المعطر رواءً للنفوس ، تسحرني الأضواء والأنوار ، والقناديل المتمايلة . . ها هم الناس في دخول وخروج ، ووقوف وجلوس ، وقد لفتهم فتنة المكان . . ها هي ذي خطاي تمشي بي ، تمرّ بي بالمساجد المتتالية ترادفاً ، ها هي ذي القباب الملونة الزاهية ، والمآذن العالية تعبرها الغيوم وكأنها حقول قطن تمشي على قدمين . . وها هي ذي الحمائم تواقف

السقوف ، والشرفات ، وحواف الأبنية صامتة . . كأنها في صلاة ، أجل يا صديقي ، كل شيء هنا ، كل الكائنات . . تصلي حتى الحمام . . الغيوم ، والهواء ، والروائح ، والأشجار تصلي أيضاً . . منذ أتيت إلى هنا ، وأنا أحلم بهذه المباكرة الصباحية . . للقدس ، وددت أن أراها وهي طيِّ نومها ، غافية . . لكن هيهات ، فيقظة القدس مثل منامها . . صحو على صحو ، وددت أن أرى الباعة وهم يدخلون إليها ، أن أرى الأشجار وهي تُنهض قاماتها ، والمحلات وهي تشرّع أبوابها ، والساحات وهي تجلو وجهها بنثيث الماء ، والأعمدة وهي تتطاول وقوفاً ، والأسوار وهي تستدير وتعلو ، والحمام وهو يهم بالطيران ، والبيوت وهي تطلق أهلها إلى الدروب ، والشرفات وهي تمتلئ مثل البحيرات رويداً رويداً بالنساء الساحرات ، ذوات الوجوه الوردية ، والأرصفة وهي تغصّ ببائعات اللبن ، والزبدة ، والقشدة ، والعسل ، والجوز ، واللوز ، والخبز ، ومربيات الورد والزرع . . أن أرى الأزهار وهي تباكر الضوء بكفوفها الشفيفة . . وقد غطتها حبات الندى ، . . لكن الأمنيات هنا في القدس تظل أمنيات ، إذ ليس بمقدور أحد أن يعرف النهار من الليل ، أو أن يعرف اليقظة من المنام . . هنا حياة سرمدية . . نور دائم ، وضوء متصل ، وغيوم لا تفارق المآذن والقباب . . غيوم وادعة تمر بالصلبان والأهلة للتحية والسلام ، وحمام حباه الله بالسهر الطويل ، والتحويم الدائم ، والأمان الأبدي . . كيفما تلفت المرء رآه ، لا شيء في هذا الصباح سوى عتمة فضية تلف الأمكنة ، وضوء حيي يهبط من أعالي القباب ، والشرفات ، وقمم الجبال ، وسفوح التلال ، يهبط على مهل مثل مناديل الحرير . . لكأن أيدي بنات القدس التي تسقي النباتات في أعالي البيوت . . توزع الضوء هنا في هذه الحارات التي تضيق على الناس ، فتجعل الأيدي تحاكك الأيدي ، والأثواب تلامس الأثواب ، والعيون تلاقي العيون . . وهذه النباتات المتدلية هي أشبه بالتحيات المندلقة من

النوافذ ، والشرفات . . ها هي ذي دانية تودّ أن تمسح الرؤوس بالرضا والأمان . . وهذه الحجارة الوردية تتعالى حجراً حجراً حتى تصير بيوتاً . . إنها أشبه بالكتب وقد احتشدت بالرسوم ، والرموز ، والإشارات . . كل شيء هنا في القدس أشبه بكتاب مفتوح ، فأنت تقرأ ، وتعرف ، وتدرك ، وتعي دون أن تعرف اللغات ، أنت تمشي كما تمشي الأسطر ، وأنت تنتهي قبل أن تنتهي الأسطر ، هذه يافطات وإشارات ، تقودك ودونما دليل ، تظل تقول لك جملتها الأبدية ، من هنا رجاءً ، فتتبعها ، شوارع تبدو مستقيمة ، لكنها دائرية ، تدور بك دون أن تتفطن للبدايات أو النهايات ، تدور وكأن مطراً ناعساً استولى عليك ، تحار من أين أتى كل هؤلاء الناس إلى القدس والشمس لم تشرق بعد ، لكأن الناس يعملون هنا حراساً للمكان ، كي لا يتخطفه الظلام . . أناس يمشون ، ويقفون ، ويجلسون ، ويتكلمون ، ويتساررون ، لكأن النهار ليس في غبشة الفجر . . أطفال ينشطون فوق خطاهم ، وبأيديهم طاسات ، وصحون مملوءة وفارغة ، أراهم يحتشدون جماعات أمام باعة الدبس ، والفول ، والحمص ، والقشدة ، واللبن ، والخبز ، والجبن ، والمربيات . . . ها هم باعة الشوندر والمخلل ، يوزعون صحونهم الصغيرة فوق مقاعد خشبية طويلة ، تبدو الصحون وكأنها زينة للمكان . . نداءات خافتة حيية يطلقها الباعة مرنمة صافية . . وامرأة هنا إلى جواري تماماً ، قرب مدخل الكنيسة ، وضعت صاجاً مقبباً فوق نار لاهبة ، وحزمة كبيرة من أعواد القنب التي راح بياضها يتخطف الأبصار . . كانت تغني وهي تخبز أقراص الزعتر ، والسبانخ ، وإلى جوارها جلست صبية طويلة الشعر ، يكاد حسنها يسيل ، ترق العجين ، وتقدمه إليها ، . لعلها ابنتها ، وغلام صغير ، ابن عشر سنوات أو نحو ذلك ، يقف حاملاً بين يديه طبقاً صغيراً من القش ، بدت فوقه أقراص الزعتر والسبانخ التي راح يوزعها على المارين . . أقترب من المرأة والصبية

أجالسهما فترحبان بي بابتسامتين واسعتين كالضفاف ، أسأل المرأة ، منذ متى وهي تخبز أقراصها ، فتقول : جاءت قبل ساعتين كي توفي نذرها ، جاءت من بيتها حافية ، كي تخبز أرغفة الخبز ، وأقراص السبانخ هي وابنتها . . أسألها عن النذر ، فتقول ، هذه ابنتي ، واسمها فضة ، كانت مريضة ، فنذرت لستنا مريم نذراً أن أخبز يوماً كاملاً أمام كنيسة القيامة إن تشفعت لي وقبلت دعائي بأن تشفى فضة . . وأن آتي إلى المكان حافية ، وأعود منه حافية أيضاً . . قلت وأنا أنظر إلى فضة : ما أجمل فضة ، إنها نهار . قالت : أكرمتني العذراء ، فجعلتها نبتي . تناولني المرأة قرصة زعتر شقراء ، زيتها لا زال يفور . وتقول : كلها ساخنة ، فهي لذيذة ، فأقتطع منها لقمة ، وأنا أنظر إلى يدي فضة التي ترق العجين ، أرى أصابعها الطوال تدور حول رقائق العجين رقصاً ، أرى انسدال أجفانها فوق عينيها . . يا لهذه الإطباقة الحالمة ، أرى منديلها المقصب وقد راحت أطرافه تتراقص فوق جبينها ، تبدو فضة مثل غيمة بللها الندى العميم . تسألني المرأة عن اسم بلادي ، فأخبرها ، فتقول لي : أنتم بناة الكنائس هنا ، منذ القديم وأنتم هنا في القدس ، فأشكرها . تقول إنها تعرف بضع كلمات روسية ، فطلبت منها أن تقولها ، قالت (خليب) فترجمتها لها : حليب ، وقالت (فادا) قلت : ماء ، قالت (لوب لو) فقلت : أحبك ، سألتها وهل ابنتها فضة تعرف اللغة الروسية ، فقالت : لا . وهزت فضة رأسها نافية . وهي تبتسم ، يا لهذا الابتسام الذي يشبه جريان ساقية . وتقول المرأة إنها ، وفي مطلع حياتها ، حين كانت تلميذة تعلمت بعض دروس اللغة الروسية هنا في الكنيسة ، لكنها ، مع مرور الأيام نسيت اللغة ، وأخبرتني أنها عملت معلمة طوال ثلاثين سنة ، وأن ابنتها فضة تدرس الكيمياء في الجامعة ، وابنها الصغير ، وأشارت إليه ، في صفه الخامس ، وسألتني إن كنت مقيما في القدس ، فقلت لها : نعم ، قالت سأعطيك بعض الأرغفة لتأخذها

معك ، كي تتذكرنا . قلت : للذكرى فقط ، قالت : وهل هناك ما هو أجمل من الذكرى؟ وسألتها إن كان بيتها قريباً من هنا ، فقالت : لا ، بعيد . قلت : وهل تعيش في أمان كونها بعيدة عن زحمة القدس . قالت : لا أمان في القدس ، مثلما هو لا أمان فيما حولها . . فسيارات الجيش تجول في الأمكنة وترابط فيها مثل الكوابيس . والجنود يدهمون البيوت ساعة يشاؤون . قلت : عمَ يبحثون . قالت : إنهم خائفون ، ولكي يعيشوا ينشرون الخوف في كل مكان . قلت : وهل هم خائفون فعلاً؟ قالت : طبعاً ، وخوفهم خوف مرضي . إنهم مرضى بالخوف . قلت : إنهم يبحثون عن تاريخ لهم .

قالت : هم يكذبون الكذبة ويصدقونها . هؤلاء لم يكن لهم أي تاريخ في هذه البلاد . قلت : ربما تاريخهم في بلاد أخرى . قالت : لا ، هؤلاء لا تاريخ لهم في أي بلد من بلدان العالم . قلت : إذاً ، أين هو تاريخهم؟! قالت : في جيوبهم ، في البنوك ، في المحلات التجارية ؛ المال تاريخهم ولا تاريخ لهم سواه .

قلت : وهل أنت خائفة . قالت : طبعاً خائفة ، خائفة على بيتي ، وأولادي ، وزوجي ، نحن لا نعرف كيف نصل إلى غاياتنا ، هذا المجتمع الذي نعيش فيه مجتمع عسكري ، أغلق علينا كل شيء ، البيوت ، والأحياء ، والقرى ، والمدن . قلت : وماذا يريدون . قالت : قتل المستقبل . قلت : وهدم القدس ، قالت : وهدم القدس ، لكنهم لن يستطيعوا لأن هذه المدينة ، مدينة للرب ، فهي أرضه المقدسة . . إنها شبيهة بالنباتات ، والأشجار . . فقيامتها دائمة . . نظرت إلى المرأة ، فرأيتها تنظر إليَّ ، قلت : أود معرفة اسمك لو سمحت . قالت : زهية . قلت : سعدت بهذه المعرفة يا زهية ، ونظرت إلى فضة ، وقلت : وسعدت أيضاً بمعرفة الكيمياء ، فابتسمت فضة وشكرتني ، كم يشبه وجهها أرغفة الخبز التي تدور تحت

يديها مثل الأقمار ، واستأذنتهما بأن آخذ لهما صورة . فوافقتا ، صوّرتهما ، ومضيت حاملاً كمية من الأرغفة وأقراص السبانخ والزعتر .

ولم أبتعد عنهما كثيراً ، عندما تعالى من خلفي صراخ حاد ، وكلامٌ متداخل ، فاستدرت لأرى نفراً من البغالة ، يركبون بغالهم ، وقد داست حوافرها عجين زهية ، وضربت نارها ، ونثرت حزم القنب المجاورة لها ، ولعلها أيضاً داستها هي وفضة ، عدت ركضاً ، نحوهما ، لكن كثرة الناس الذين أحاطوا بهما حالت دون رؤيتي لهما ، ودون رؤية ابنهما أيضاً ، ولكن عرفت من الناس بأن البغال داستهما فعلاً . . فظللت واقفاً طي وجومي وذهولي ، وجملة عالقة في لهاتي تجول : ضاع نذر زهية ، وحين انفض الناس رأيت رجلاً ينثر بعض الطحين على بقعة دم . سألته عن الدم ، فقال : دم المرأتين اللتين داستهما البغال .

لحظتئذ ، لم أقوَ على الوقوف أو الكلام ، فمضيت أجر نفسي جراً نحو المقهى الذي واعدت الحوذي جو أن ألتقيه فيه ، وحين وصلت إليه طلبت قهوة فجاءني النادل بها ، فرشفت منها رشفة . وزممت شفتيّ عليها . كم كان طعمها مالحاً ، لعلها ليست هي المالحة ، وإنما هو فمي المالح . كدت أبصقها لولا احترامي للمكان . . ورويداً رويداً ، أخذت القهوة تصفو في فمي ، لذلك طلبت فنجاناً آخر . . رأيت نفراً قليلاً من الناس يجلسون في المقهى ، أحدهم ، وهو الأقرب إليّ ، يضع قبعة سوداء صغيرة فوق رأسه قليل الشعر . كان ينظر إليّ حين نظرت إليه ، ولم تمر سوى دقائق ، حتى نهض وجاءني مستأذناً بالجلوس إلى طاولتي . فرحبت به . بادرني التحية بالعربية ، فرددت التحية بالعربية أيضاً . لذلك سألني إن كنت من القدس ، فقلت : أنا روسي أزور القدس . قال : يهودي . قلت :لا . قال : وهل أعجبتك عاصمتنا . قلت : جميلة . قال : جميلة فقط . قلت : جميلة جداً . قال : كم ستبقى هنا . قلت : حتى أرى القدس . قال : معنى

هذا أن زيارتك قصيرة جداً . قلت : لا ، إنها طويلة ، لأن المدينة ساحرة ، ومغوية ، ليس مثلها بلاد . سألته : وهل هو من هنا . فقال : أباً عن جد ، قلت : أباً عن جد . منذ متى . قال : منذ سنوات بعيدة . جدي عاش هنا ، وأبي . . قلت : وأين كانا قبل أن يعيشا هنا . قال : في بولونيا . قلت : وكيف ترى مصير البلاد؟ قال : مصير البلاد هو الذي نعيشه الآن . قلت : كيف؟ قال : عدنا إلى هنا بوعد إلهي ، وحماية إلهية . قلت : أعرف أنكم تعيشون تحت الحماية الدولية . قال : وهل تأتي هذه من دون الحماية الإلهية . قلت : تعليمك ديني . قال : ديني ، لم أدرس أي شيء سوى علوم الدين . قلت : وقناعتك بأن البلاد لكم وحدكم . قال : طبعاً ، لنا وحدنا . قلت : والفلسطينيون . قال : غاصبون . قلت : غاصبون . قال : غاصبون . قلت : لكن لهم تاريخ ، وحياة ، وعمران في هذه البلاد . قال : كل هذا حدث في غفلة منا . الضعف يولد الغفلات . قد يكون لهم شيء في بلادنا ، لكن هذا لا يلغي حقنا التاريخي والإلهي فيها . قلت : أتؤمن بأن هذه الأرض أرض الله الصغيرة . قال : نعم . قلت : ما دامت أرض الله لماذا لا تعيشون مع الفلسطينيين بسلام .

قال : هذه الأرض لا يعيش فوقها شعبان . قلت : والحل؟ قال : على الفلسطينيين أن يخرجوا ، يكفي ما أخذوه من بلادنا . لقد أكلوا خيراتها سنوات طوالاً . قلت : هم يقولون إنكم غاصبون ، محتلون . قال : إنهم واهمون ، ليقرؤوا الكتاب المقدس ، ليقرؤوا التاريخ . قلت : إنهم يقولون بأن هذه البلاد لهم لأنهم قرؤوا الكتاب المقدس والتاريخ . قال : قراءتهم ناقصة . قلت : هل تحبهم . قال :لا . قلت : لكنهم بينكم ، معكم في السكن ، ومعكم في الشارع . . قال : حين أراهم يدوسون شوارع القدس أشعر كما لو أنهم يدوسون قلبي . قلت : أراك مبكراً هنا . قال : أعمل حارساً للمكان . قلت : حارس ليلي . قال : ليلي ونهاري معاً .

كنا في المقهى المحاذي للمسجد الأقصى تماماً ، وأمامنا امتدت ساحة وسيعة ذات بلاطات بيض ، بلاطات كبيرة وواسعة ، بعضها يأخذ برقاب بعض وصولاً إلى الحائط الغربي من المسجد ، حيث تعالت الحجارة الوردية الكبيرة جداً فوق بعضها ، وصولاً إلى السقوف الوسيعة التي تعلو القباب الوسيعة أيضاً .

سألت الرجل وأنا أشير إلى الساحة الفارغة : يقول الفلسطينيون إن هذه الساحة ملعونة ، إنها أرض اللعنات والبكاء . قال : إنهم أهل حقد . فهذه الساحة ساحة المتطهرين وأهل الدعاء ، عين الله ، عندما تريد رؤية القدس تنظر أول ما تنظر إلى هذه الساحة ، قلت : يقولون إنها كانت حياً للمغاربة الذين قدموا إلى القدس كحجاج . قال : ألم أقل لك ،إنهم غاصبون ، بعض المغاربة استولوا أيام العثمانيين على هذه الساحة ، وبنوا أكواخهم ، وحين أعادنا الله إلى هنا ، رفعنا تلك الأكواخ ، وجعلنا عين الله ترى الساحة ، والمتطهرين الذين يقفون فيها يومياً . هنا لا يجوز البناء ، البناء محرّم . قلت : رأيت الكثيرين منكم ، يبكون ، ويكتبون ، ويدسون الأوراق في الشقوق . ما قصة هذه الشقوق . قال : إنها الفجوات بين أصابع الذات الإلهية . . التي تأخذ الأماني والرجاءات ليلاً . قلت : لكن الفلسطينيين يقولون إن عمال التنظيفات ، يأتون في آخر الليل ويجمعون الأوراق ، ويحرقونها . قال بحدة : كاذبون . إنهم يتقولون دائماً . قلت : والبكاء ، قال : نبكي الهيكل ، وأيام سيدنا سليمان ، نبكي الظلم الذي وقع علينا . قلت : وهل كان الهيكل هنا ، قال : نعم . قلت : وهل كان بهذا الحجم الكبير . قال : نعم . قلت : الفلسطينيون يقولون إنه لم يكن لكم هيكل ، وإنما كان لداود وسليمان بيت كبير ، فيه غرف كثيرة لزوجاتهما . قال : يتقولون ، ويحرفون الحقيقة . قلت : أتنكر أن داوود وسليمان كانا مزواجين . قال : هذه عادة الملوك . قلت : والزوجات تحتاج إلى غرف

مستقلة ، قال : يبدو أن الفلسطينيين غرروا بك . قلت : لا ، لم يغرروا بي ، لكن زوجتي كانت فلسطينية . قال : كانت . .؟ قلت : ماتت . قال : كانت دليلتك . قلت : نعم . قال : عليك أن تتخذ أخرى . قلت : أن أتزوج يهودية؟ قال : نعم منها ستعرف الحقيقة كاملة . قلت : يقول الفلسطينيون إنهم هم من بنوا كل ما تراه العين في القدس . قال ساخراً : أن يبنوا ، هذا لا يعني أنهم يمتلكون ، ها هم يبنون المستوطنات الآن ، والجدار المقدس . . فهل يمكن القول إنهم يمتلكون الأرض . قلت : أقصد أنهم يقولون عنكم إنكم أهل خيام ، وبدو رحل ، قبائل لم تعرف الاستقرار في مكان . قال : هذا هراء . نحن أهل هذه الأرض . قلت : وهم يقولون إنهم أهل هذه الأرض . قال : كلامهم كلام روايات ، وليس كلام تاريخ .

لقد أخذوا حقهم في البناء ، أهلنا دفعوا للنحاتين والنجارين فضة ، وأطعموا وسقوا الصيدونيين الذين جاؤوا بخشب الأرز إلى بحر يافا . لقد أمرهم بذلك الملك الفارسي كورش . كلامي كلام تاريخ وليس كلام روايات كاذبة . قلت : كلامك هذا يقول عنه الفلسطينيون إنه روايات أنتم كتبتموها وأنتم من أعطاها القدسية ، والرب لا علاقة له بها . قال : إنهم مجرد كذبة ، طوال الوقت يكذبون . قلت : أنت تتحدث من الكتاب المقدس . قال : طبعاً . قلت : وهم يتحدثون من قرآنهم أن نبيهم محمداً جعل من هذا المسجد الذي هو قبالتنا منطلقاً نحو بوابة السماء . قال : يقولون ما يشاؤون ، نحن الآن في أرضنا ، وعلينا حمايتها ، علينا أن نحافظ على قوتنا ، أن نتفقدها مثلما تتفقد النساء الحوامل أجنتهن ، وأن نحرس ضعفهم كي يبقى إلى أبد الآبدين . قلت : أتؤمن بأن هذه البلاد مقدسة . قال : نعم . قلت : إن كانت مقدسة في نظركم لماذا تسفكون الدماء ، وتقتلون الفلسطينيين يومياً . قال : أتظن أن ما نفعله فعل قتل . قلت : طبعاً . قال : لا ، هذه قرابين ، نقدمها باسم الرب ، كي يبارك يدنا ، ويعز

قوتها . قلت : ما من قيم في الدنيا تدعي أن قتل الآخرين هو مجرد قرابين ، قال : نحن لا تهمنا الدنيا . . ما يهمنا هو ما نقوله وما نؤمن به ،أن نبقى هنا فوق أرضنا ، وأن يظل العالم ، كما تقول ، يدور حولنا ، ويسمع كلامنا ، ويرى بأعيننا . . لا بأعين الآخرين .

حاولت في أثناء حديثي معه أن أطلب له مشروباً يشربه غير أنه أبى . قال لي ، وقد أراني زوادته : أنا لا أشرب إلا شرابي الذي أعددته في البيت . صاحب هذا المقهى فلسطيني ، إن أعطيت له شيئاً من مالي ، سيأخذه ويشتري به سلاحاً كي يقتلني . قلت له إنه يفكر بطريقة عجيبة . فقال : على العكس تماماً ، أنا أفكر بطريقة منطقية . إن أي تعاون مع الفلسطينيين سينقلب علينا . قلت له : السلام هو الحل في هذه المنطقة . قال : القوة هي الحل ، ولا حل سواها .

ونهض ، وهو يقول إنه : مضطر للمغادرة ، ومضى ، رأيته يلتحق بثلاثة أشخاص وقفوا على مقربة من وسط الساحة ، وراحوا يشيرون إلى الحائط المواجه لهم ، والذي قابله اثنان أو ثلاثة من أهل القبعات السود ، وقد غرقوا بالبكاء والتمتمات . . وفي البعيد ، حيث هي زاوية الساحة رجل قوي البنية ينفخ في قرن ماعز طويل ، نفخات خاليات من النغم والمعنى . وحين وصل إليهم ، تبادل وإياهم الكلام ، ثم راح يضربهم ، والثلاثة يتحاشونه ، ويبتعدون عنه ، ثم رأيتهم يتراكضون بعيداً عن الساحة ، ركضهم جعل دورية من البغالة تلاحقهم ، فأحاطت بهم ، وبدا المشهد . . . عصياً مرفوعة ضاربة ، وأذرعاً مرفوعة تصد الضربات ، وبغالاً تضيق على المضروبين الدائرة . . إلى أن انطرحوا أرضاً . . ربما داستهم البغال لأن صراخهم تعالى مألوماً . .

لحظتئذ ، واريت نظري ، لأن سيارة الجيش الرمادية . . اقتربت منهم حتى كادت تدهسهم ، ورأيتهم يركبون فيها واحداً واحداً تحت وقع العصي

الضاربة . . همهمت لنفسي : صباح يباكره الألم» .

ملحوظة :

لعلك تعرف ، أنني أكتب إليك كي أشركك في ألمي ، وكي أخفف من حملي . . أنت تساعدني أكثر لو أنك تكتب إليَّ . . أنتظر أسطرك . . كي أراك فيها .

في بيت أم أسعد

«دعني أصارحك ،

وأنا أكتب أسطري هذه ، أنني لولا كتابتي إليك بين وقت وآخر . . لاختنقت هنا ، أنت جهتي المغناطيسية التي أرسل إليها آلامي ومخاوفي كي لا تلتهمني . . فما سأقوله لك عجيب وغريب في آن معاً .

ها قد جئت إلى هذا المقهى الرصيفي الضيق ، وحيداً ، كي أنتظر الحوذي جو ، والدليل فرج ، لقد أسرني المسير الصباحي في شوارع القدس قبل شروق الشمس . أعترف بأن لهذه الصباحات طراوة ، ونداوة ، وصفاء ، ومتعة لم أعهدها من قبل ، قال لي الحوذي جو : أمر بك ونخرج معاً . قلت : لا ، ورجوته أن نلتقي في المقهى قرب باب العمود . قال : ستذهب وحيداً وماشياً . قلت : سأذهب وحيداً وماشياً . .

بعد نحو ساعتين من تجوالي ، وتنقلي بين بوابات القدس . . مضيت إلى المقهى وجلست منتظراً ، فجاء الحوذي جو ، وجاء الدليل فرج . عندما وجدا القهوة أمامي اعتذرا عن تأخرهما ، فأخبرتهما بأنني بكّرت ، وأنهما لم يتأخرا .

وسألني الحوذي جو : إلى أين نذهب . قلت أود أن نرى بيتاً أو أكثر من بيوت المقدسيين . وسألت الدليل فرج إن كان ذلك ممكناً . قال : ممكن ، لكن لماذا؟ قلت : كي نرى حياتهم ، وأشياء أخرى . قال : أنا جاهز . قلت : اشرب القهوة أولاً . قال : سنشرب المزيد من القهوة في البيوت . قال

الحوذي جو : إذاً . . لنمض . فقمنا . . شعرت بنفسي منكسرة مثل لوح زجاج ، فوجها زهية وفضة ظلا مثل طيفين يتقافزان أمام ناظريَّ . وظلت بقعة الدم التي حاول أحد الحاضرين امتصاصها بالطحين . . تتراءى أمامي مثل بحيرة دمع . .

قال الدليل فرج ، اقترح عليكما أن نذهب إلى حارة السعدية القريبة من هنا ، حارة هادئة بعض الشيء ، وهي حي من أحياء القدس المشهورة . أبنية قديمة جداً ، وأشجار عتيقة ، وبشر لا يتحدثون إلا عن أمرين : الماضي ، والمستقبل . قلت : والحاضر . قال : الحاضر يحكي عن نفسه . ومضينا . كنت مدهوشاً لأنني دفعت ثمن خمسة فناجين قهوة . لم أنتبه لنفسي أنني أفرطت في شرب القهوة . لعلي كنت أمحو طعم الملح في حلقي . قلت للنادل : خمسة . قال : خمسة . قلت له : كيف تسمح لي أن أشرب خمسة . قال : قهوة القدس مفيدة يا خواجة ، لا تضر قط . قلت : وهل أنت طبيب . قال مبتسماً : هذا الأمر بدهي ، ومعروف ، لا يحتاج إلى طبيب .

ومضينا ، انعطفنا . . نحو مدخل حجري ضيق ، بعد أن تركنا إلى جوارنا دورية بغالة ، وبغال ، وكلاب ، وسيارات جيش ، وحواجز حديد ، ومكعبات اسمنتية كبيرة ، كان الجنود يواجهون بعض الناس ، وما من حوار بين الطرفين سوى الرجاء من جهة ، والنهر من جهة ثانية . . .

قابَلَنا المدخلُ باكتظاظة لباعة أرغفة الدبس ، والقشدة ، والعسل ، رأيتهم يقفون وراء صناديقهم اللامعة ، رأيتهم يبيعون أرغفة الدبس بعد أن يرشوها ببودرة السكر المطحون ، . . وبمحاذاتنا ، وانسدالاً على الحيطان راحت النباتات تتدلى من الشرفات ، وحواف النوافذ مثل الحبال . . حتى لتكاد تلامس رؤوسنا ، لكأنها حدائق معلقة . . نهايات النباتات عندنا وبداياتها هناك في الأعالي ، في الشرفات قرب هؤلاء النساء الجالسات

يشربن القهوة ، وقد هبطت رائحة القهوة وراحت تمشي من بيت إلى بيت . ثمة أطفال ، ذكور وإناث ، بين أيديهم أوان مملوءة بمشترياتهم ، وأخرى فارغة تنتظر الامتلاء ، إنهم في ذهاب وإياب ، ينظرون إلينا بوجوه باسمة ، الحوذي جو يلمس على رؤوسهم ، فيكثرون من النظر إليه . قال الدليل فرج للحوذي جو : بمداعبتك هذه عرفوا أنك لست إسرائيلياً ، لذلك فهم يبتسمون لك .

بدت الشرفات والنوافذ متقابلة ، ومتقاربة فيما بينها ، الواحدة منها تكاد تعانق الأخرى ، فالنباتات تتلاقى مساً ، وألوان الزهر ، والخضرة تزيد حجارة الجدران الوردية جمالاً ، والصفاء والهدوء يعانقان البيوت ، أمر بمحال صغيرة ضيقة ؛ محال خضراوات ، وفاكهة ، ونجارة ، وخياطة ، وتطريز ، وحلويات ، وفول وحمص ، وزجاج ، ومرايا ، وأدوية ، وخبز وكعك ، وألبسة ، هنا سوق صغيرة ملحقة بالبيوت ، أرى سلالاً تتدلى من الشرفات ، تدنيها من المحال حبال مشدودة إلى أسيجة الشرفات ، أرى بداخل السلال المتدلية الدانية أوراقاً مكتوبة فيها أسماء الحاجيات التي تطلبها سيدات البيوت ، وأرى سلالاً أخرى محتشدة بالحاجيات تعلو نحو الشرفات ، يا للحبال والسلال هنا ؛ إنها سر من أسرار البيوت . .

يقف بنا الدليل فرج أمام قوس حانية وسيعة ، لها بوابة خشبية كبيرة ، مصفحة بقطع القصدير المثبتة بمسامير نحاسية كبيرة ، يقول لنا هنا بداية الحارة وقد سميت بحارة السعدية نسبة إلى السيدة حليمة السعدية مرضعة النبي محمد (، أو أنها سميت بهذا الاسم طلباً للهناءة ، والعيش السعيد) ، وأضاف : انظرا إلى رسوم البوابة ونقوشها . . فدنونا من صاج القصدير . . فرأينا مطاردات بين مجموعة من الحيوانات تحيط بها أشجار ، وغدران ، وبيوت ، وجبال ، وتحوّم فوقها طيور ، وأنهار تضافغها أعشاب وصخور ، ونساء دانيات من الضفاف . . وفي البعيد قطعان أغنام وأبقار

ومعيز وحمير ورعيان ، تبدو البوابة أشبه بمدونة قروية . . ندخل من البوابة ، فتحيط بنا أبواب البيوت المتقدمة جداً نحو الممر الضيق ، تبدو وكأنها نباتات تحيط بالسواقي ، ومنذ البيت الأول راح الدليل فرج يسلم على الناس الجالسين في الشرفات ، فبدت التحيات في صعود وهبوط ، ولم تكن حال الدليل فرج كذلك ، وإنما حال العديد من الناس الذين يمرون من حولنا . كان الجميع يرحبون بنا ، وابتساماتهم بادية ، وكلمات الترحيب تلفنا . التفت الدليل فرج إلينا ، وقال بإمكاننا أن ندخل إلى أي بيت من هذه البيوت ، لكنني أقترح عليكما أن ندخل إلى بيت من آل السعدي ، بيت لخمسة أولاد وأمهم الأرملة ، كانت معهم أختهم أيضاً لكنها تزوجت . قال الحوذي جو : ولماذا اخترت لنا بيت أرملة . قال : اخترت البيت لموقعه ، فهو مطل على كنيسة القيامة ، والمسجد الأقصى ، وهو في علوة مكانية تتيح لنا أن نرى أموراً كثيرة ، ثم إن هذه الأرملة تصنع قهوة لا يوجد أطيب منها في أحسن قهاوي القدس ، قلت : ليبارك الله خطانا ، كان الأطفال يمرون بنا مثل شرارات الضوء . قال الدليل فرج : انظرا ما أجمل الأطفال قلت : لكأنهم أبناء الصباح . وقال الحوذي جو : فرج ، أشم روائح طيبة ، غير روائح القهوة . قال : هذه روائح الكعك ، والحلويات . فأنت تعرف بعد أيام يحل عيد الفصح للمسيحيين الذين يتبعون للتقويم الغربي . قلت : وهل هذه الحارة ، حارة المسيحيين ، قال : حارة المسيحيين والمسلمين معاً . هنا البيوت متداخلة ، والأسر متجاورة ، ومن الصعب على الزائر أن يميز أسرة مسيحية من أسرة مسلمة ، تماماً مثلما ترى تجاور الكنائس والمساجد ، حتى ليظن المرء أن المآذن طالعة من وسط الكنائس ، أو أن قباب الكنائس تعلو أسطحة المساجد ، حتى النباتات التي تراها متدلية . . حاول أن تعرف أين هي جذورها ، ومن أي الشرفات تتدلى . . الأمر صعب ، وصعب جداً ، فالنباتات ، والأزاهير متداخلة ومتشابكة . .

فالجذور للجميع مثلما هي المناظر للجميع ، وكذلك هي الروائح . . إذْ من الصعب أن تعرف من أي البيوت تخرج ، وتنتشر ، إنها كائنات سحرية تمضي من بيت إلى بيت ، فالعقائد هنا ، والنباتات ، والبيوت ، والروائح توحّد هذا الاجتماع ، وتعطيه نكهة مميزة حتى لتبدو الحارة وكأنها بيت كبير متعدد الأبواب والنوافذ ، والشرفات ، والنباتات ، والناس . . تدور بنا الطريق ، فتنحي مرة إلى اليمين ، وأخرى إلى اليسار ، والبيوت تماشيها في الإنحاء ، تظل أشبه بالسياج المؤنس للطريق التي نثرت البيوت حولها اصطفافاً ، ألحظ الأبواب وقد تقدمتها الأيدي النحاسية التي ترمز للقادم أن يقرعها كي تفتح له ، بعضها مغلق بإحكام ، وبعضها الآخر مشقوق مثل رغيف . . قال الدليل فرج : ها . . قد وصلنا . علينا أن نصعد هذه الدرجات الخشبية . فصعدناها . كانت النباتات تحيط بالدرجات مثل الحراس ، نباتات نعناع وحبق رأيت مثلها قرب عتبات بيوت مخيم شعفاط ، ظلت النباتات تماشي الدرجات وتماشينا إلى أن وصلنا إلى البيت . قلت للدليل فرج : هنا بيت الأرملة . قال : هنا ، ونحن نناديها بأم أسعد . امرأة رائعة . وتقدمنا الدليل فرج ، وقرع الباب ، فأطلت امرأة شابة ، ما إن رأتنا حتى ابتسمت فشع الضوء في وجهها ، وهمهمت وكأن المفاجأة أطفأت كلماتها فأصابها العطش . . همهمت مرحبة بالدليل فرج . الذي اندفع نحوها مصافحاً . قال : ضيفان يزوران القدس ، جو من ايرلندا ، وفلاديمير من روسيا . أحبا أن يتعرفا إليك . فقالت : وهي تنقّل نظرها إلى وجهينا : يا مرحبا . يا ألف مرحبا . تفضلوا . ودخلنا ، منذ اللحظة الأولى لاقتنا رائحة النباتات ، ورائحة القهوة . قلت : رائحة قهوة . قالت المرأة : الدنيا صباح ، والصباح من دون قهوة ليس صباحاً . مال الحوذي جو نحوي وهامسني : أهي أم أسعد أم هي ابنتها . فسألت الدليل فرج ، وقد خرجت المرأة ، فقال : أم أسعد ، فهز الحوذي جو رأسه . جلسنا في فسحة الدار فوق

كراسي وسيعة لها تطريزات مخملية ، خطفت نظري اللوحات ، والصور ، والبسط ، وقطع السجاد ، والفوانيس ، والشمعدانات ، والصلبان ، وصور ستنا العذراء ، وسيدنا المسيح المعلقة على الحيطان ، بدت غرفة الجلوس أشبه بالمتحف ، فحولي وفي مرمى نظري أيقونات ، وأجراس ، وقبب نحاسية ، وأخرى زجاجية ، وصور عائلية ، وكتب مقدسة مجسمة على شكل قطع خزفية كتاباتها ملونة ، وطيور تجسدها أحجام برونزية ، وأخرى خشبية ، وسنابل قمح ، وأزاهير . . بادية في أوانٍ زجاجية ، وأحواض سمك ذهبي اللون ، وأباريق نحاسية وأخرى فضية ، موزعة هنا وهناك . . طوّفت بنظري ثم عدت به حين دخل شابان ، تتقدمهما أم أسعد ، قالت المرأة : فادي وشادي اثنان من أولادي ، لي اثنان آخران غائبان ، وبنت اسمها ربى تزوجت ، وبيان في الداخل سيحضر بعد قليل ، فنهضنا ، وصافحنا الشابين ، وجلسنا نتبادل الحديث كي نتعارف أكثر . قالت أم أسعد : أود أن أعتذر لأن ضجة الأولاد تصل إلينا ، إنهم أولاد الجيران مع ابني بيان ، إنهم يلوّنون البيض . قال الدليل فرج : هل من الممكن أن نرى ماذا يفعلون . فقالت أم أسعد : بكل سرور ، تفضلوا .

فنهضنا ، ولحقنا بها . . إلى أن دخلنا إلى إحدى غرف البيت ، فرأينا مجموعة من الأولاد يتحلقون حول سلال عدة ، بعضهم يرتبون البيض فيها بعد أن يلصقوا عليها عبارات التمني وبعضهم يلون البيض بالألوان الممزوجة بالماء . قالت أم أسعد معرفة : أولاد الجيران ، محمد ، سامي ، جمعة ، محمود ، وابني بيان ، سألت الدليل فرج عن الأولاد ، فسأل أم أسعد ، فقالت : مسلمون ، أبناء جيراننا ، يساعدون بيان في تجهيز بيض العيد ، قلت مستغرباً : أمر طيب . فقالت أم أسعد . انظر هنا ، هذا الكتاب المعلق هو الكتاب المقدس ، وإلى جواره القرآن الكريم معلق أيضاً . قال الحوذي جو : مجاورة جميلة ، تشبه مجاورة الكنائس للمساجد . قالت أم

أسعد : بالضبط ، فحياتنا مشتركة ، ومصيرنا مشترك ، هذا هو تاريخ المدينة . بدا الأطفال أشبه بفراخ الطيور ، فقد لفهم الخجل ، وراحت أصابعهم تدور حول البيض تطوي أطراف اللصاقات وتثبتها . . قالت أم أسعد : الجميع هنا ، وفي الأعياد يساعد بعضهم بعضاً في صنع كعك العيد ، فالحياة متداخلة . . هنا يا خواجة ، لا يمكن لأحد أن يعيش بعيداً عن الآخر . . قلت : كيف؟ قالت : البيوت ، الشوارع ، النوافذ ، الشرفات ، والناس ، والظلم ، كل هذا يساعد الجميع على التعاون . قلت : حتى الظلم . قالت : الظلم والمحبة هما من يساعدان الناس على الاجتماع والتعاون .. واستدرنا ، فأعادتنا أم أسعد إلى غرفة الجلوس مرة ثانية . قال الحوذي جو : الدليل فرج ، أخبرنا أنك تصنعين أحسن قهوة صباحية ، فضحكت ، وغطت وجهها بكفها ، وقالت : فرج يحبنا ، قهوتي عادية ، ولكن طيبة . . وخرجت لتعد القهوة . قلت : فرج ، كم عمر هذا البيت . قال : من عمر القدس . قلت : آلاف السنين ، قال : آلاف السنين . قلت : وكيف رفع الأقدمون هذه الحجارة الكبيرة فوق بعضها بعضاً ، قال : بالحبال . والخبرة . العقل هو الذي بنى هذه المدينة فوق هذه الجبال التي نراها هنا ، فأينما تمشي في القدس تحس بأن العقل والعمل إرادتان كانتا متلازمتين . قلت : لكأنها أبنية أبدية . قال : تبدو كذلك على الرغم من الكوارث الحربية التي تعرضت لها ، والكوارث الطبيعية التي عصفت بها . .

وعبقت رائحة القهوة ، فقال الحوذي جو : أم أسعد قادمة . . فعلاً أطلت أم أسعد ، وكأنها امرأة أخرى غير التي استقبلتنا . . بدت بثوبها الفلسطيني المطرز أشبه بعروس أو دمية . وبدا وجهها أكثر ضوءاً . . جلست ، وهي تهمهم مرحبة . قلت لها : ما أجمل هذا الثوب . قالت : إنه من أمي . هي التي طرزته ، وأنا لا ألبسه إلا في الأعياد ، وفي حضرة

الضيوف ، قلت : لكأنه ثوب سحري لقد أعادك صبية ابنة عشرين . قالت : روح أمي فيه . قال الدليل فرج : أم أسعد ، جئنا كي نسلم عليك ، فتدخل الحوذي جو : وكي نشرب القهوة أيضاً ، وأضاف الدليل فرج : وكي تحكي لنا عن حياتك هنا ، وأنت تجاورين الكنائس والمساجد . .

قالت : أحلى جيران . حين تكون الكنيسة جارة ، والمسجد جاراً . . أي نعمة هذه ، أي بركة؟لكن حولنا الآن ، ومنذ سنوات ، توجد حواجز تفصلنا عن الكنيسة والمسجد ، هذه الحواجز تتمثل في راكبي البغال ، والمهاجرين الذين احتلوا بيوتاً كثيرة فيما حولنا ، بحجة أن أصحابها غائبون ، هؤلاء الإسرائيليون يقومون باستفزازات يومية على مدار الساعة من أجل تهجيرنا من هنا ، من أجل تفريغ البيوت ، يرمون علينا الحجارة ، والأوساخ ، والقاذورات ، ويطلقون القنابل الدخانية ، يقتلون طيور الحمام ، ويضايقون الأولاد في ذهابهم وإيابهم ، وهم يأتون بين ساعة وساعة للتفتيش ، يكسرون الأواني الزجاجية ، ويقلبون البيت قلباً ، ثم يخرجون وأنا أشيّعهم بدعائي أن تغضب ستنا مريم عليهم .

قلت : أم أسعد ، هل نستطيع أن نرى أين يسكن اليهود .

قالت : ها هم ، إنهم جيران السوء ، وأشارت بيدها نحو نوافذ البيت . قلت : أنستطيع أن نقترب كي نرى . قالت : طبعاً . فنهضنا جميعاً ، واقتربنا من إحدى النوافذ ، أبعدت أم أسعد الستائر ، وفتحت النافذة ، فواجهتنا غرف طابقية أعلى من بيتها ، في شرفتها سكان بلباس النوم . قلت : أهم اسرائيليون . قالت : نعم . انظروا انتبهوا لنا ، إنهم ينظرون إلينا بريبة ، رأيت بندقية على مقعد مجاور لأحدهم . كانوا يشربون القهوة . نهض أحدهم وتقدم نحونا مباشرة ، وراح يتكلم بعصبية واضحة : قلت للحوذي جو : ماذا يقول؟ فقال : يقول نحن لسنا سينما ، وعلينا أن نخجل ، ويطلب منا الدخول ، فدخلنا ، أغلقت أم أسعد النافذة وأسدلت

الستائر . قلت : هل هؤلاء جيرانكم فقط . قالت : لا إنهم يحيطون بالبيت من جميع الجهات ، وفتحت لنا نافذة ثانية مواجهة للأولى ، فنظرنا منها . فبدت امرأة سمينة ، متقدمة في العمر ، تنشر غسيلها على الحبال . قلت : إسرائيلية . قالت أم أسعد : إسرائيلية . . نظرت المرأة إلينا بغضب ، وراحت تنفض قطع الثياب المبتلة بانفعال واضح . سألتُ أم أسعد : هذه الشباك ، والأسيجة المحيطة بالبيت لماذا يا أم أسعد ، هل هي للحمام؟ . قالت : لا ، إنها موانع ، كي لا تصلنا القاذورات والأوساخ والأتربة التي يرمونها علينا . وأضافت : تعال ، وأخذتني من يدي ، وقادتني نحو نافذة ثالثة ، فتحتها ، وطلبت مني أن أنظر ، فنظرت ، قالت كل هذه الأوساخ المكومة هنا ، يرمونها علينا أسبوعياً ، فأقوم أنا وأولادي وأبناء الجيران بتنظيفها يومياً ، أوساخ وقاذورات ، وعلب أطعمة فارغة ، وأحذية مقطعة ، وأوراق ، وبقايا أطعمة . .

وعدنا إلى جلستنا ، فطلب الدليل فرج منها أن نرى البلاطتين . فاعتكر وجهها . قالت : يكفي هذا الآن يا فرج . دع البلاطتين للمرة القادمة . قال الدليل فرج وهو ينظر إلينا : قد لا يعودان إلى هنا . . وأشارت إلينا . قالت : من يشرب قهوة أم أسعد مرة يعود إليها مرات . قلت متدخلاً : ما أمر البلاطتين يا أم أسعد . فنظرت أم أسعد إلى الدليل فرج نظرة عتب . وقالت : أنت حزايني يا فرج ، مثلك مثل أهل فلسطين ، صار الحزن رفيقاً أبدياً لنا ، ونهضت أم أسعد ، قالت : في البيت بلاطتان ، واحدة هناك ، وأشارت إلى عتبة البيت ، بلاطة بيضاء وسيعة ، مختلفة في لونها الأبيض عن لون بلاط الغرفة الأبيض أيضاً . والثانية في الداخل . وتقدمت نحو البلاطة الموجودة قرب عتبة الباب ، هذه البلاطة أحتفظ تحتها بدم زوجي عساف (أبو أسعد) ، لقد قتلوه هنا ، في باب البيت . قلت : الإسرائيليون . قالت : الإسرائيليون . قلت : لماذا؟ قالت

جاؤوا بأمر إخلاء للبيت فطار عقل عساف . واشتبك معهم ، فتعاونوا عليه حتى قتلوه . كان أبو أسعد يعمل حجاراً ، بنيته قوية ومتينة جداً ، لولا السلاح الذي يحملونه ما كانوا يقدرون عليه . وانحنت أم أسعد ، وحركت البلاطة ، ثم رفعتها وإذا بمربع وسيع محاط بالشمع الشفيف ، وتحته بقعة دم محتشدة بالضوء . قالت وقد احتشد الدمع في عينيها : دم عساف . فربّت الدليل فرج على كتفها ، سحت دموعها ، وبدا انكسارها . فغطت البلاطة ، ونهضت ، ومشت بنا نحو الداخل . قالت متلعثمة : وهنا البلاطة الثانية ، بلاطة شبيهة بالبلاطة الأولى ، انحنت فوقها ، ثم حركتها ، ورفعتها . . وطلبت منا أن ننظر ، فنظرنا ، إنها قطعة صخرية ذات لون وردي ، بادية تحت البلاطة تماماً ، وثقب دائري يتوسطها . قالت : اقتربوا ، رجاءً ، وانظروا ، إنهم في الأسفل . فتقدمتُ ، ونظرتُ من الثقب ، إنهم في الأسفل فعلاً . رفعت رأسي ، وقلت : من هؤلاء . قالت : الاسرائيليون . لقد حفروا تحت البيوت ، وبنوا بيوتاً لهم ، قال الدليل فرج : بنوا مدينة تحت المدينة ، قال الحوذي جو : وهو ينظر بإمعان : يا إلهي إنهم أشبه بطيور الخفاش . قال الدليل فرج : فعلاً إنهم كذلك . قلت : أم أسعد ، أهذا الحفر تحت بيتك فقط؟

قالت : لا ، تحت البيوت جميعاً . لقد حفروا تحت الصخور التي تستند إليها البيوت . قال الحوذي جو وكأنه يكلم نفسه : إذاً ، البيوت مهددة بالانهيار . فقالت أم أسعد : كل شيء مهدد بالانهيار . وليس البيوت فقط قلت : الأمر مخيف حقاً . قالت أم أسعد : مخيف جداً . قلت : وماذا تنتظرون؟ حتى تقع البيوت! قالت : هذه الأرض ما اعتادت أن تخون أهلها . قلت : هذا كلام عاطفي ، يا أم أسعد ، علمياً من الممكن أن تقع البيوت فجأة . قالت : أنت لا تعرف أرض القدس إنها صخرة واحدة تحمل كل هذه البيوت . ولو أتت كل الدنيا لتدمر هذه الصخرة لن

تستطيع عليها . قلت : أم أسعد ، هذا كلام غير علمي ، قالت : الإسرائيليون يعرفون أنه غير علمي أيضاً . وقطع الأولاد علينا الحديث ، عندما جاؤوا إلينا بطبق من القش وزّعوا عليه بعض قطع الكعك ، والحلويات ، وأدنوه منا ، وقبل أن ننهض قُرع الباب بعنف ، وصوت غليظ يتعالى «الجيش ، الجيش» ، فتحت أم أسعد الباب ، فدخل مجموعة من الجنود ، باندفاعة لا تخلو من التوحش والجلافة ، أجساد مبرومة وثقيلة مثل براميل الزيت ، صرخ أحدهم : ماذا تفعلون هنا؟ كنا قد وقفنا جميعاً ، فقلت ، وأنا الأقرب إليهم : إننا في زيارة . فقال متقدمهم : الأوراق . فأخرجت أوراقي ، وأخرج الحوذي جو ، والدليل فرج أوراقهما .

نظر الجندي في أوراقي متأملاً ثم أعادها إليَّ ، ثم نظر في أوراق الحوذي جو متأملاً أيضاً ثم أعادها إليه ، وحين تناول أوراق الدليل فرج ، رفع يده إلى الأعلى وانهال به على وجه الدليل فرج ، فصرخ فرج متوجعاً ، وصرخت أم أسعد ، وصرخ الأولاد ، وقد وقع طبق الكعك ، وقطع الحلوى من بين أيديهم . ولم أدر كيف اقتحمه الآخرون أيضاً ، فانهالوا عليه ضرباً ، وركلاً . . وفي لحظة واحدة صار فرج بين أقدامهم . ولم نستطع فعل أي شيء لأجله ، كانت الأرجل تدوسه بقسوة شديدة ، والكلمات البذيئة جداً تطاله والجنود يخيّمون فوقه ، والدم يصبغ وجهه ويديه ، والأنين يلفه . كنا متفرجين على ضحية اسمها فرج ، وصراخ الأولاد ، وأم أسعد يتعالى . . وفجأة تخافت كل شيء ، الضرب ، والركل ، والشتائم ، والبكاء ، والصراخ . . حين ابتعد الجنود عن الدليل فرج ، كان مطروحاً على بطنه ، وصوت أم أسعد يتعالى حزيناً متقطعاً : مات ، مات . ولا أدري من أين جاء الماء الذي دلق فوق جسد فرج ، فغسله ، فارتعش كما لو أن تياراً كهربائياً مسه . وخرج الجنود دون أن يقولوا لنا كلمة ، ودون أن ينظروا إلى وجوهنا . . وحين أصبحنا من دونهم رأينا طبق القش ، وقد

مزقته أحذية الجنود، وقطع الكعك والحلويات وقد هرست دوساً بالأحذية الثقيلة . . قلت لأم أسعد التي راحت تمسح جروح فرج : من أخبرهم؟ قالت : الكلاب الذين يقفون وراء النوافذ، فأخذت بيدي طرف الستارة الأقرب إليَّ، ونحيتها كي أرى ما وراءها . . ورأيت الذين رأيتهم من قبل وهم يرقصون ابتهاجاً . . ونظراتهم مصوبة نحو بيت أم أسعد . . إنهم يرقصون، ويشيرون، ويشتمون! .

وخرجنا، بعد أن استعاد الدليل فرج وعيه . اعتذرنا له طويلاً لأننا نحن السبب، واعتذرت أم أسعد منه طويلاً، لأنها هي وأولادها وبيتها كانوا السبب . . فهمهم الدليل فرج : من أجل البلاد كل شيء يهون . وخرجنا» .

ملحوظة :

عند الباب، أخبرتني أم أسعد أن هذه المرة هي المرة السادسة أو السابعة التي يُضرب فيها فرج داخل بيتها، ومع ذلك فهو يعود، أيها الصديق العزيز، قل لي أي بشر هؤلاء، أخبرني كتابةً، أرجوك .

ساقيةُ شراب الورد
في الحي الأرمني

أكتب إليك ،

لأقول لك ماذا رأيت ، وماذا سمعت في حي الأرمن . أمس اتفقت مع الحوذي جو والدليل فرج أن نذهب إلى حي الأرمن بعد أن عرفت أن بيوته مهددة بالهدم ، وأن سكان مهددون بالطرد .

خرجت كعادتي ، في هذه الأيام الأخيرة ، وحيداً وعلى نحو مبكر جداً ، يلفني ضباب خفيف ندي ، تجول به أنسام باردة رخية . . أحسست بنشاط غير عادي يمشي في جسدي ، وبمزاج رائق جعلني أغني أغنية السنونو الذي يعود إلى أعشاشه في الربيع ، وحين لا يجدها ، يبني أعشاشه الجديدة ، وتوقفت طويلاً عند جملة تلخص بحث السنونو عن عشه ، تقول : لم يعرف السنونو أنه حين يغادر عشه ، عشه يغادر المكان أيضاً ، فالأعشاش تدوم إلا بالمحبة . بدت بيوت القدس تنجلي أمام ناظري بيتاً بيتاً ، وراحت حجارتها الوردية تشع نوراً . . لكأنها دلاء واحدها يصب الماء في الآخر . . كيفما تلفت أرى جمال البيوت ، والأشجار ، والطرق الندية ، والشوارع التي أطلقت ناسها ، والمحال التي فتحت أبوابها ، والأطفال وهم في جريانهم البهي كالأنهار . .

أصل إلى المقهى ، فأراه مازال يبيت على مقربة من الرصيف الناحل الضيق خالياً من الناس أو يكاد ففي البعيد ، خادم ينحني على كيس أسود كبير ، ورجل وحيد يجالس طاولته ، يبدو شعر رأسه الأحمر ، ولحيته

الحمراء الكثيفة مثل علامتي إرشاد ، منذ أن رآني صرخ بي محيياً بالروسية (زراتسي) ، فحييته بالروسية أيضاً (زراتسي) ، فنهض ، وبيده كأسه ، وحين استوت قامته إلا قليلاً ، دار دورة سريعة حول نفسه ثم سقط مغشياً عليه ، فمضيت نحوه مهرولاً ، وانتبه الخادم لوقوعه أيضاً ، فركض نحوه ، وحين وصلت إليه رأيته يتلوى بين يدي الخادم ، وهو يهمهم بالروسي أيضاً . إنه يلوم جسده الذي خذله . لعله شعر بالدوخة المفاجئة ، أجلسناه على الكرسي مرة ثانية ، كان لا يقوى على الحركة وعيناه تتوامضان ، سألت الخادم عنه ، فقال : إنه روسي ، لا يعرف سوى بعض الكلمات العربية ، جاء منذ أول الليل إلى هنا ، ولم يزل حتى هذه الساعة . . قلت : يبدو أنه شرب كثيراً ، فقال : شرب كثيراً ، وأشار إلى صناديق البيرة الفارغة ، قلت : هذه كلها . فقال : نعم ، كلها . سألت الرجل الروسي الذي راح ينظر إليَّ ويبتسم ببلاهة ، لماذا يدمر نفسه بالشراب . فقال : إنهم كذَّبوا عليه ، فقالوا له إنه سيجد كل شيء هنا ، فهنا ألف ليلة وليلة ، وإنهم خدعوه بأن هذه البلاد بلاد العدل والحرية ، وبلاد اللبن والعسل ، وإنه لم يجد شيئاً من هذا . . كان يتحدث ببطء وكأن لسانه مربوط ، كان يتأتئ فلا تستوي الكلمات في لهاته فتبدو عصية المخارج ، تدور في تكرار لا تحبه النفس ، كلمات لا علاقة لها بالصباح ، والضوء . . وأخبرني أنهم اضطهدوه منذ وصوله إلى المطار ، عاملوه كعبد أسود لأن أمه ليست يهودية . قالوا له إنه روسي يهوديته ناقصة ، أعطوه منزلاً من الخشب ، في حين أخذ الآخرون الذين جاؤوا معه منازل جيدة في المستوطنات . . لقد جعل من البيت الخشبي مبولة ، كي يقول لهم إنه ليس كلباً ، فالبيت الخشبي لا يليق إلا بالكلاب ، وقد عرف أن اليهود السود الذين قدموا من أفريقيا . . أخذوا بيوتاً خشبية أيضاً ، إنهم مثله ، أي كلاب أيضاً . سألته ما دام بيته الخشبي صار إلى ما صار

عليه ، فأين يعيش إذاً؟ قال : في المقاهي ، وفي الشوارع . . الكراسي والأرصفة صارت بيتي ، سريري الذي أنام فيه . انظر إلى جسدي لقد أخذ شكل الكراسي لكثرة ما نمت عليها . قلت : لكن الآخرين يظنون بأنكم معززون مكرمون هنا . قال : كذب ، نفاق سياسي . يوم واحد في روسيا يساوي آلاف السنين هنا . هنا لا توجد حياة إلا لأهل المصالح . هذه بلاد للمصالح وليست بلاداً للعيش ، بلاد الكذب . قلت : لكنهم يقولون إن البلاد بلاد ديمقراطية ، وإن حقوق الجميع متساوية ، قال : الديموقراطية هنا تحتاج إلى تعريف . قلت : كيف؟ قال : تخدم في الجيش رغم أنفك هو ديمقراطية ، تقتل ، تسجن ، تظلم ، تدوس ، تكذب ، تراوغ ، تضرب ، تشتم ، تنافق ، تسرق ، ديمقراطية . الديموقراطية هنا مثل عجين تلعب به المصالح كيفما تشاء . قلت : ألم تخدم في الجيش . قال : ولن أخدم . أنا جئت إلى هنا ليس من أجل قتل الآخرين . قلت : جئت من أجل ماذا؟! قال : جئت من أجل أن أعيش حياة أحسن من حياتي في روسيا . قلت : وماذا وجدت ، قال : قرف . قلت : لماذا لا تعود إلى روسيا قال : أخذوا جواز سفري . أنا هنا مشرد ، أنتظر موتي فوق كرسي أو رصيف . حتى لغتي يريدون مني أن أنساها قلت لهم أنا أحب الشراب ، والشراب يحب الغناء ، وأنا لا أغني إلا بالروسية ، أريد أن أغني بالروسية وهذا ما يغيظهم ، من أجل هذا الغناء الذي يرافق الشراب . . ضربوني ألف مرة . كان صوت الرجل عالياً ، لهذا ، وقد لحظت بأن رواد المقهى راحوا يفترشون أكثر من طاولة ، طلبت منه أن يخفض صوته قليلاً ، فقال لي : أنت تقمعني أيضاً . ومال على الكأس فأخذها بذراعه ، فسقطت على الأرض وانكسرت ، وصرخ : قل لي : إلى أين أذهب لأتحدث بصوت عال . فنهضت كي أذهب إلى طاولة أخرى بعيدة عنه ، غير أنه أمسك بطرف معطفي . قال لي : إلى أين أنت ذاهب . ادفع الحساب عني . ليس معي

نقود ، فأنت ابن بلدي . . لا تتركني هكذا . فقلت له : حاضر . وناديت الخادم ، فجاء إليّ ، سألته عن حساب الرجل ، فقال : لا شيء . قلت : كيف؟ قال : الرجل الذي كان معه ليلاً دفع حسابه . قلت : المقهى لا يطلب منه شيئاً . قال : لا شيء . .

طبعاً ، لم يفهم الرجل الروسي أي كلمة مما قلناه أنا والخادم ، لذلك أخبرته بأنه غير مطالب بأي حساب ، وأن الرجل الذي كان معه ليلاً دفع الحساب . قال : مادام الأمر كذلك ، عليك أن تسلفني مبلغاً صغيراً كي لا أحتاج لأحد في الليل . فأخرجت قطعة نقدية وناولته إياها ، ثم استدرت تاركاً إياه ينظر إليها بإمعان . .

وجاء الدليل فرج أولاً ، وأخذ قهوته ، ثم جاء الحوذي جو ، وأخذ قهوته ، أيضاً في هذه الأثناء ، وصل إلينا الرجل الروسي . وضع راحة يده فوق كتفي وقال للدليل فرج ، والحوذي جو بالروسية طبعاً ، هذا الرجل روسي نبيل ، لقد أعطاني هذه ، ورفع القطعة النقدية أمام أعينهما ، وأضاف : إنها تساوي كل ديمقراطية اسرائيل ، . . فشكرته ، ونهضا متوجهين نحو العربة ، وما إن وصلنا إليها حتى ركبنا فيها ومضينا . قال الدليل فرج : إلى حيّ الأرمن ، قلت : إلى حي الأرمن ، وسألني الحوذي جو : ما شأن هذا الرجل الروسي؟ قلت : حين وصلت إلى المقهى لم أجد غيره . لذلك ناداني ، وقص عليّ بعضاً من مآسيه هنا ، قال : وماذا يريد؟ قلت : يريد أحداً يشكو إليه آلامه . قال : وكنت أنت الضحية . قلت : كنتُ الضحية . قال الدليل فرج : إنه سكير ، رأيته مرات وهو يتعرض لضرب البغالة . قلت : يقول إنهم يمنعونه من الغناء بالروسية . قال : حين يسكر لا يعي ماذا يفعل .

كانت الأشجار تبارينا ، والسواقي تماشينا ، سواق صوانية مرفوعة على أعمدة ذات تيجان ، راحت تدور حول السور ، أو لكأن السور يدور بها .

سألت الدليل فرج : إن كانت مملوءة بالماء ، فقال : لا .

حولنا ، وبالقرب منا أشجار أزهارُها زرق تدلت فروعها فأعطت الشارع جمالاً أخاذاً ، والبلاطات السود اللامعة تقودنا رويداً رويداً إلى حي يشبه القلعة ، أبنية عالية ، وحجارة صوانية ذات بياض مشرب بالحمرة القانية ، في مدخل الحي تماماً ، قوس حجرية عالية ، تحيط بها واجهتان أماميتان حجريتان أيضاً ، في طرف الفسحة ، أوقف الحوذي جو عربته ، ووضع عليقة التبن في رقبة حصانه ، ثم التحق بنا . كنت أنظر إلى الرسوم والنقوش على الحجارة إنها أشبه بالكتاب المحتشد بالمعاني ، ها هو ذا سيدنا في نقش واضح معلق على الصليب ، وحوله نباتات وأزاهير ، وفوق رأسه تماماً صليب ، وإلى جواره شموع لها ذبالات موقدة ، لولا طبيعة الحجر لرأيناها تسح وتسيل ، وهذا ذئب ، تحيط به مجموعة من الذئاب ، تجتمع بالقرب من قدمي سيدنا الحافيتين ، هيئاتها متحفزة ، وعيونها مفتوحة ، قلت للدليل فرج : إنها ذئاب أليست كذلك . فقال : ذئاب حراسة تحرس بوابة الأرمن . واجتزنا البوابة فرأينا فتاة طويلة ، ملأى ، لها صدر مشدود ناهد ، ووجه حمرته نافرة ، يشبه قرص عباد الشمس ، كانت تقف وراء صندوق زجاجي مملوء بالعصير الملون ، وحولها وأمامها أكواب بلاستيكية بيض . أشارت إلينا بلطف أن نقترب فاقتربنا ، وراحت تملأ الكاسات بانتظار وقوفنا حولها ، سألت الدليل فرج عنها ، فقال : سترى . ناولتنا الكاسات وابتسامتها تكاد تأخذ وجهها كله رقة وجمالاً . كان الشراب شراب ورد ، وكان لذيذاً حقاً . وكانت كلمات الترحيب رائعة . سألتها : إن كانت بائعة . فقالت : لا ، أنا ساقية شراب الورد في حي الأرمن . قلت : أهو بالمجان؟ فقالت : بالمجان ، وحين استوضحتها أكثر قالت : إنها تمثل عتبة الترحيب الأولى بزائري الحي . قلت : وهل تسقي جميع الداخلين إلى الحي قالت : الجميع . قلت : والجنود أيضاً . قالت : الشراب للزوار فقط . .

بدا وجهها هو الذي يتكلم لا فمها ، وبدوت أمامها متأملاً في هذا الوجه الصباحي المشرق الذي يعلو قوامها العالي ، وجه دائري من أي زاوية تنظر إليه ، تراه يضحك ويشع . قلت لها وأنا أناولها كأسي الفارغة : إنه شراب لذيذ . فشكرتني . سألتها إن كانت هي التي تصنعه ، فهزت رأسها بالإيجاب ، وأشارت إلى الصناديق الخشبية ، وأواني البلاستيك الكبيرة المملوءة بالماء ، وأكياس السكر المرتبة فوق بعضها بعضاً ، وقالت : هو ذا معملي ، قلت : وجهك يبدو كما لو أنه مغسول بماء الورد ، فابتسمت وأحنت رأسها نحو صدرها ، ولم تقل كلمة . اقتربت منها أكثر ، وقلت لها : أريد أن أقول لك كلمة سر ، فمالت نحوي ، وأدنت أذنها مني . قلت : إن كان لك حبيب فهو أسعد أهل الدنيا . فضحكت ، واهتزت في مكانها وماجت مثل هودج ورد . وقبل أن أستدير سألتها عن اسمها ، فقالت : ميرنا . قلت وأنا أستل آخر نظراتي إلى وجهها الوردي : ما أجملك يا ميرنا يا ساقية شراب الورد في الحي الأرمني . .

ومضينا وسط الحي ، والبيوت تضيق علينا ، ورائحة القهوة ، والكعك ، والحلويات ، تعبق في المكان . . كان الناس أشبه بالطيور ، فقد انتشروا في الشرفات ، وفوق الأسطحة ، وأمام المحال ، وفي الشوارع ، وفي المقاهي الرصيفية الصغيرة ، والباعة الجوالون ينادون على بضاعتهم ، نوافذ كثيرة وشرفات كثيرة أيضاً زينت بالأسلاك الكهربائية التي احتشدت بالمصابيح الصغيرة جداً ، فبدت مثل أطواق الخرز ، كنا مسحورين بالنباتات المتدلية ، والوجوه الجميلة الرضية ، ومداخل البيوت النظيفة ، وبالأبواب اللامعة ، وبالابتسام الذي راح يقابلنا به الصغير والكبير ، النساء والرجال ، ومن حولنا تتوازع طيور الحمام الأرضَ ، والسماءَ معاً ، لكأن المكان قريةٌ للحمام . .

فجأة وأمام أحد المحال التجارية ، واقفنا رجل ، أخذ الدليل فرج بين

ذراعيه ، وراح يقبّله ، وفرج يناديه بـ (أبو غابي) ، كنا ، أنا والحوذي جو في جوارهما تماماً ننتظر انتهاء المشهد ، فناظرنا الرجل ، وتقدم نحونا ، وأخذ أيدينا وهزها بحماسة وعزم وهو يسأل الدليل فرج : من أين الأصدقاء فأخبره . فقال : أنا أحب روسيا جداً . كل شيء له علاقة برائحة روسيا أحبه . قلت وأنا ابتسم : لماذا؟ قال : من أجل انجي حبيبتي الروسية التي كانت ، قلت : كانت؟ . قال : كانت . . قلت : ماتت . قال : ماتت . قلت أنت تتذكرها إذاً . قال : معها عرفت معنى الحياة ، وطعم السعادة ، وروعة الحب . فالحياة من دون حب كذبة ، قشر جوز ، تبن . ورجانا الرجل أبو غابي ، أن ندخل إلى بيته ، أن نستريح مسافة فنجان قهوة . قلت : يا إله القهوة! قال : القهوة في هذه البلاد تفتح المخ يا خواجة ، اشرب منها ما استطعت ، فهي مباركة ، نظرت إلى الحوذي جو مستشيراً ، فهز رأسه بالإيجاب ، لذلك تبعنا الرجل الذي أغلق باب دكانه بإحكام ، ومشى أمامنا ، فصعدنا خلفه فوق درج حجري مزنر بسياج خشبي ، وقف أمام باب خشبي ذهبي اللون ، وعالجه بالمفتاح ، فانفتح ، دخل ، ودخلنا خلفه .

بدا البيت أشبه بالحديقة ، نباتات وأزاهير ، ومقاعد جلوس ، وسجاجيد ، وجلود خراف ، وحيطان تكاد لولا متانتها تقع على الأرض لكثرة ما علق عليها ، بيت أشبه بمتحف صغير ، حيطان مملوءة بالأيقونات ، والنحاسيات ، والسجاجيد ، والرسوم ، واللوحات ، والثياب ، والكتب ، والسبحات ، والطرابيش ، والعقل ، والمناديل ، والشموع ، والتطريزات ، والصور ، والخشبيات ، ورؤوس الحيوانات ، والجلود . قال : أرجو أن تتسلوا بالنظر إلى موجودات البيت ، ريثما أصنع القهوة ، قلت للحوذي جو : تبدو البيوت هنا مسحورة ، فجمالها الخارجي لا يضاهيه سوى جمالها الداخلي . فقال : الناس ، هنا يحبون بيوتهم يعشقونها ، خطونا إلى داخل البيت خطوات وأبصارنا معلقة على الحيطان ، وأيدينا تلمس الداني منها ،

لكأننا في محل للتحف الشرقية ، تماثيل خشبية ، ونحاسية ، وعاجية ، وفخارية . . توازعت المكان ، وشمعدانات خشبية ، ونحاسية ، وفضية ، وخزفية ، وفخارية . . تلوذ بالزوايا . . بدا البيت مرتباً وأنيقاً ونظيفاً جداً ، وهادئاً أيضاً ، وعاد أبو غابي إلينا ، فقلت : تبدو وحيداً قال : طبعاً . فبعد أنجي لا توجد نساء ، أنا لم أعرف النساء بعدها ، قلت : يبدو أنك كنت تحبها كثيراً . قال : إلى حد أنها أخذت قلبي معها . أنا الآن رجل أرمني من دون قلب . أعيش منذ عشرين سنة من دون قلب . ورفقاً بي ، وكي لا أموت قهراً ، تركت لي ابنتنا الوحيدة التي ربيتها ، وعشت معها . قلت : ألا تزال معك . قال : لا تزال معي . لعلكم مررتم بها ، إنها ساقية شراب الورد في مدخل الحي . قلت ، وقد نهضت فوق طولي : ميرنا ابنتك ، قال : ابنتي . قلت : يا الله ، ما هذه المصادفة ، قال : مصادفة؟! . قلت : لم أكن أتوقع أنني سألتقي بأهلها . قال : كل أهل حي الأرمن أهلها ، قلت : ما أجملها وما أطيب شرابها . قال : أهل الحي ، اختاروها كي تكون ساقية شراب الورد في حينا . إنهم يدفعون لها مرتباً شهرياً . قلت : لها ابتسامة لم أرها على وجه امرأة . قال : هي أمها . أمها ضيعتني بابتسامتها . .

وأخذنا الحديث ، فقد قص علينا أبو غابي قصة غرامه بـ إنجي الروسية وما عاناه من غيرة وعذاب وهو يحرسها كحبيب ليل نهار . وعرفنا منه أنها ماتت في ظروف غامضة بعد غيابها أياماً عن البيت . قال مؤكداً : لقد قتلوها . قلت : من؟ قال : الذين لا يخافون الله . ولم أسأله توضيحاً ، فقد راحت دموعه تسح .

فجأة ، ونحن نشرب القهوة ، انشق الباب على ميرنا ، ساقية شراب الورد ، بدت بكامل طولها وإن كان وجهها متجهماً . صُعقتْ هي حين رأتنا . فابتسمتْ ابتسامتها الساحرة ، ولم أدر كيف نهضتُ دون أن أعي ، فمثل هذا الجمال لا بدَّ من تحيته وقوفاً . دنت منا مثلما تدنو الأشجار ،

ومدت يدها نحونا وصافحتنا ، ثم أخذت أباها من يده ، وانتحت به جانباً ، تمنيت لو أنها تجلس معنا ، كي نرى هذا الجمال الخرافي ، غير أنها لم تأتِ ، فقد عاد أبو غابي إلينا وحيداً ليقول لنا إن دورية للبغالة سحقت صندوق الشراب ، وأغرقت أكياس السكر بالماء ، وكسَّرت صناديق الخشب ، وضربت ميرنا وطردتها . قلت دون وعي مني : ضربوها . قال بأسى : ضربوها . قلت وقد خيم الوجوم علينا : كيف يضربونها؟! فهز أبو غابي رأسه . قلت له : أتسمح لي أن أكلمها . فقال لكأنه دهش من طلبي : أستأذنها أولاً ، ونهض متجهاً نحوها . قلت وكأنني أحدّث نفسي : أمثل هذا الجمال يضرب . قال الدليل فرج : لا أحد هنا في هذه البلاد بعيد عن الضرب . وعاد أبو غابي . قال : تفضل وقادني إلى غرفتها . رأيتها واقفة في وسط الغرفة بثوب ذهبي جعلها تشع من شعر رأسها إلى موطئ قدميها ، قابلتني بابتسامتها المشقوقة مثل حبة رمان ، ودعتني إلى الجلوس قرب مرآتها ، قلت : وهل تحتمل هذه الغرفة وجود جميلتين فيها ، وأشرت إلى المرآة ، فضحكت ، قلت : ما أجمل ابتسامتك . قالت : شكراً ، وراحت تنظر إليَّ ، فقلت : أنا آسف . أخبرنا أبو غابي بأنهم ضربوك ، قالت وابتسامتها لا تفارقها : اعتدت على هذا الأمر . قلت : كيف؟ قالت : لقد كسروا صندوق الزجاج مئات المرات ، وداسوا أوراق الورد اليابسة ، وأفسدوا السكر ، ورموا الكاسات ، وكسروا الصناديق . . وضربوني كثيراً . قلت : ألم يروا جمالك؟ ثم لماذا يفعلون هذا؟! ما ذنبك؟! قالت : لأنني أرحب بزوار الحي باسم الأرمن ، لا باسمهم . قلت : وهل هذا ذنب؟! قالت : يعدونه ذنباً . قلت : وأنت؟ قالت : سأظل ساقية شراب الورد في حي الأرمن . تقاليدنا ، سنحافظ عليها ، قلت : لكنك تبدين حزينة ، قالت : طبعاً حزينة ، لأن زواراً سيمرون بمدخل الحي لن يجدوني ، ولن يشربوا من شراب الورد الأرمني . . أخاف من أن يقولوا إن الأرمن بدلوا

تقاليدهم . قلت : هذا يعني أنك ستعودين إلى السقاية . قالت : غداً ، ومنذ الصباح ، سأكون في مكاني أسقي الزوار . قلت ، وقد أدخلت لهجتها الواثقة الفرح إلى نفسي : ما أجملك يا ميرنا . . ما أبدى صلابتك . فشكرتني ، قلت : هل أراك إن جئت غداً إلى الحي . . قالت : مؤكد ، وستشرب من شرابي . قلت : هذا يسعدني . فقالت : ويسعدني أيضاً . قلت : أنا أعرف أن العاشق إذا طلب شيئاً من حبيبته ، يكون غير جدير بالعشق ، لأن عليه أن يتصرف وفق إحساسه . قالت : ماذا تقصد؟ قلت : أتمنى لو تسمحين لي بأن أمسح على شعرك . قالت : وهل أنا حبيبتك . قلت : ياليت . قالت بدلال : لم أمشطه بعد . قلت : إنه جميل هكذا ، جميل جداً . فأحنت رأسها نحوي ، فرفعت كفي ، ومسحت على شعرها ، يا لهذا الملمس الساحر كنت أعرف ، ولعلها هي أيضاً تعرف أن الوصول إلى شعر المرأة هو الوصول إلى سر من أسرار حساسيتها ، لذلك مالت بوجهها نحو كفي ، فتجرأت ، ومسست صفحة خدها وطرف أذنها فارتعشت يدي ، ولكأنني توهمت بأنها أدنت وجهها مني ، فدنوت بوجهي منها ، دنت أكثر ، فدنوت أكثر ، وانحنيت ، قبلت طرف خدها الداني مني ، ثم اعتدلت مدهوشاً مرعوباً مما حدث ، ووقفت هي حيرى تغطي فمها المفتوح بكامل كفها ، لا تدري ماذا تقول ، كما لا تدري كيف تتصرف . . فخطوت نحوها نصف خطوة حتى كدت ألامسها ، فما كان منها إلا أن مالت نحوي ، فأخذتها بين ذراعيَّ ، وتلاقى خدانا ، فشهقت وشعت الحرارة في جسدينا . . يا إلهي . . أي ميرنا هذه ، شجر حور ، بستان جمال . . رأيتها وهي مخدرة أو تكاد تغمض عينيها . منتظرة ، يالنداء العينين المغمضتين فدنوت بشفتي الراجفتين من شفتيها ، وقلت في نفسي ، يا رب ساعدني ، فأمالت وجهها عني ، حيّدته ، وسلّت جسدها من بين ذراعيَّ . . ثم شكرتني على شعوري تجاهها ، قلت راجياً :

ألا تجلسين معنا . قالت : في المرة القادمة إن عدت إلينا ، قلت : مناي أن أعود ، واستدرت خارجاً . ولا أدري كيف حف جسدي بحافة الباب ، فانتبهت . وإذ بيد الحوذي جو تهزني . أنظرُ إليه ، فأسمعه يقول لي : أين شردت ياصديقي؟ ولم أجب . إذ ليس من المعقول أن أقول له إنني شردت مع ميرنا . نظر إليَّ أبو غابي ، وقال : خواجة لا تنزعج ، الأمر اعتدنا عليه . قلت : هذه البلاد محتشدة بالمكاره قدر ما هي محتشدة بالجمال قال : فعلاً هي كذلك .

ونهضنا ، وبالقرب من الباب ناولنا أبو غابي صلباناً خشبية صغيرة ، قال : هذه من صنعي ، خشب زيتون . قلت : خشب زيتون . قال : خشب زيتون نشتريه من الجنود ، هم يقطعون أشجار الزيتون ، ثم يبيعونها لنا ، شجر أغلى من الذهب . . والله أبكي طوال اليوم وأنا أنشرها . . فهذه الأشجار كانت رفيقة سيدنا في الليل والنهار ، إنهم لا يعرفون قيمتها . قلت . : ربما يخافون منها . قال : بالفعل يخافونها . وحين خطونا إلى خارج الباب ، سألني أبو غابي : خواجة أتدري لماذا جذوع أشجار الزيتون مشققة؟ قلت : لا . قال : حزناً على سيدنا . قلت : ألهذا؟ . قال : لهذا طبعاً . . ومضينا» .

ملحوظة :

أعترف ، ياصديقي ، أنني خرجت من بيت أبي غابي محمولاً على ارتعاشة كفي التي مسحت على شعر ميرنا ، وعلى ارتجافة شفتيَّ اللتين مستا خدها . وأعترف لك أيضاً بأنني بحاجة إلى كتابتك . . . فاكتب إليَّ . . . رجاءً .

في رواق سلوان

«أكتب إليك ، وقد بتُّ وحيداً

كنت والحوذي جو قبل ساعات من الآن ، نتبادل الحديث . صارحته بأنني أود تغيير مكان سكناي ، فهذه العجوز أم أهارون لا تطاق . أشعر وكأنها خفير يترصد كل حركاتي . كائن لا ينام ، نهاراً تبدو مثل عين راصدة قبالتي ، وليلاً تدور حولي كالأشباح . أخبرتني سيلفا أنها وكلما جاءت إليَّ تأتيها بهدية كي ترضى عن دخولها ، وأنها تخبر جهات الأمن بدخولها وخروجها . لقد حققوا مع سيلفا مرات عدة في مكان عملها ، في السجن ، عن طبيعة علاقتها بي . قال الحوذي جو : وإن غيّرت مكان سكناك ، فالحال لن تكون أحسن . الظروف الأمنية هنا ، هي الظروف الأمنية . الجميع هنا مكلفون بالحراسة الأمنية ، الجميع مخبرون عن كل شيء لا يرونه طبيعياً . قلت : كل شيء هنا غير طبيعي . قال : لذلك لا تنزعج من القيل والقال ، ولا من المراقبة ، هذه العجوز أم أهارون تأخذ راتباً من الأمن مثلها مثل الكثيرين غيرها ، قلت : وسيلفا يا جو . قال : ما بها . قلت : أكاد لا أصدق أنني عشقت سجانة . قال : انسَ عملها . قلت : كيف؟ قال : أنت غير مضطر لسؤالها عن عملها . قلت : هي التي تتكلم عن السجن ، هي التي تجعل من لقاءاتنا مناحة . . إنها تكره السجن ، وتندب حظها العاثر لأن أقدارها قادتها إلى مثل هذا العمل ، قال : الأعمال الأخرى لا تختلف كثيراً عن عملها . دعك من عمل سيلفا .

واجعلها مؤنساً لك في أيامك الباقية . أنت هنا زائر ، ولست مصلحاً اجتماعياً ، قلت : بت أعيش التناقض داخل نفسي . فأنا لا أصدق أن سيلفا كائن متوحش داخل السجن ، يعني سجانة بحق وحقيق ، فهي كائن رهيف ، ودود يبكي أكثر مما يتكلم حين تلتقيني ، قال : دعك من هذا التفكير . دعك من النظر إلى الأمور وقد أبدت تناقضاتها . فأنت لا تعيش الحالين معاً ، أنت تعيش حالاً واحدة مع سيلفا واحدة . اسأل نفسك سؤالاً جوهرياً هو : هل أحبتك سيلفا؟ إن كانت إجابتك : نعم ، انسَ كل شيء ، واعمل وفق هذه (النعم) ، وإلا فتصرف كما تشاء . قلت : أشعر أن سيلفا جزء من حياتي هنا . قال : أتراها ضرورية . قلت : لا . قال : إن كنت متأكداً من عدم ضرورتها ، دعها . قلت : لهذا أرى أنه لا بدَّ من تغيير سكناي . قال : وما دخل سيلفا بتغيير سكناك . قلت : كي لا ألتقيها . قال : إن غيرت مكان سكناك دون إخبارها ، ستعرف مكان إقامتك خلال ساعات . . أنسيت أنها في الأمن . قلت : ما الحل إذاً؟ قال : لا أرى سبباً جوهرياً لتغيير مكان سكناك . قلت : أصارحك يا جو ، أنني أشعر بالانقباض ، وأنني أفكر بالرحيل . قال : لكنك لم تر شيئاً بعد سوى القدس! أنت لا تزال تدور في محيطها ، ألا تفكر بزيارة طبريا ، والنهر المقدس . قلت : بلى . قال : رحلة مثل هذه ليست جميلة من دون سيلفا . قلت : سيلفا . قال : سيلفا . قلت : ومتى نذهب إلى طبريا . قال : وقتما تشاء . قلت : غداً . قال : لا ، بعد غد . قلت : وهل نحتاج إلى دليل . قال : أنا الدليل . قلت : وسيلفا؟ قال : عليك بإخبارها ، لأننا سنحتاج إليها كثيراً . . وخرج الحوذي جو ، وهو يوصيني بأن أجهز نفسي ، وأن أرتب حاجياتي لأننا سنقضي ليلة أو ليلتين هناك . حين صار الحوذي جو في الباب ناديته : جو ، أرجوك ، انتظر . أود أن أرى القدس ليلاً مرة أخرى . قال : الآن . قلت : الآن . قال وهو يحك رأسه : لكن . . قلت :

دعك من لكن ، عشاؤك عليَّ . قال : حاضر . فنهضت ، ارتديت ثيابي ، وملأت إبريق القهوة ، وأخذت كاميرتي ، وخرجت خلف الحوذي جو الذي راح يصفر لحناً راقصاً . وبينما كنت أهبط الدرجات الخشبية ، رأيت العجوز أم أهارون واقفة في منتصف الطريق بالقرب من الكراسي الموزعة تحت أشجار الحديقة . حييتها ، وأخبرتها أن قطعة كاتو كبيرة موجودة على طاولة المطبخ ، إن رغبت بها فإنني أهبها إياها مقابل أن تدعو لي أن يكون مسائي جميلاً . فلم تقل العجوز كلمة واحدة ، ومضيت .

أعترف لك أنني وكلما خرجت كي أرى القدس ، أشعر بفرط نشاط في جسدي ، ورقص في روحي ، ولهفة يموج بها قلبي . . لكأن المدينة سحرتني ، فأنا أخرج إليها مثل عاشق يخرج للقاء عشيقته ، للآن . . لا أصدق أنني أقابل حجارة منقوشة ، أو أقواساً حانية ، أو مساجد أو كنائس ، أو حارات وشوارع . . وإنما أقابل البشر والأزمنة ، والنداءات البادية والمضمرة ، والأشواق المحلومة ، أمشي في حقل من البهجة ، والرضا . . فأسأل الله الأمان . آه يا صديقي . .

ما أبشع أن تفسد طمأنينة الطيور وهي تجول في الحقول ، فالقدس ، وفي لحظة واحدة ، تحولنا جميعاً إلى طيور . . لكن يدها الراشحة بالزيت لا تمر برؤوس هؤلاء البغالة . . فيظلون بغالة . . ها هم يقفون هنا ، قرب بيت العجوز أم أهارون ، ها هم يوقفون العربة ، فيهبط إليهم الحوذي جو بأوراقنا ، ينظرون فيها ، ثم يعيدونها إليه ، فيستدير . وما إن تمشي العربة أمتاراً قليلة حتى تقف مرة ثانية . أسأل الحوذي جو لماذا توقف ، فيقول لي : طلبوا منا الوقوف . وأشار إلى جنود يجلسون في داخل سيارة عسكرية مررنا بها ، فهبط الحوذي جو إليهم بأوراقنا ثانية ، وعرضها عليهم ، فنظروا فيها ، ثم أعادوها إليه ، فاستدار نحوي عائداً . ركب في العربة . . وانطلقنا . قلت : قل لهم إن البغالة الذين هم خلفنا رأوا الأوراق ، ولم نبتعد عنهم سوى

أمتار . قال : هؤلاء رقباء على أولئك . لو طلبوا الأوراق بعد متر من مكاننا هذا . . سأعطيها لهم . قلت : إنهم يفسدون المساء . قال : المساء فقط؟ . فهززت رأسي أسى . .

من حولي حدائق سارَّة لا تشبع منها العين ، ونثيث النوافير يلفنا كأنه مطر غافٍ ، وطيور ألفت الأضواء فراحت تنتقل فوق الأعشاب ، وتحت الأشجار التي سيجها النور البّهار ، وفي أعالي الأشجار تعرش الزقزقات وتمتد . . يسألني الحوذي جو : ماذا سنرى ، فأقول له : كل شيء . فيضحك وهو يهمهم : لا يوجد شيء في الدنيا اسمه كل شيء . قلت : ماذا أفعل ، فأنا لا أدري ماذا رأيتُ وماذا لم أرَ . لكأن نظري تحول هنا ، في القدس ، إلى ممحاة . إنه يمحو كل ما يراه كي يراه . قال : أقصد هل نمشي ونجول مع الناس ، أو نبقى في العربة . . فتجري بنا في الشوارع . قلت : كما تحب . قال : دعنا نبقى قليلاً في العربة ، وإن كنا معرضين للتفتيش أكثر . قلت : إذا كانت الحال كذلك . . دعنا من العربة ، كي لا يفسد أحد علينا هذا المساء .

فعلاً ، وبالقرب من ساحة باب دمشق ، أوقف جو العربة ، إلى جوار مجموعة من الأشجار ، فتقدم نحوه رجل عجوز ، أخذ العربة ، والحصان ، ثم مضينا . كنا نماشي السور المضاء بأنوار كثيفة ، والناس من حولنا يدخلون إلى المساجد والكنائس ، ويخرجون منها ، وباعة الشموع ، والصلبان ، والأشربة ، والخبز ، والكعك ، والمسك ، والعنبر ، والسبحات ، والمناديل ، والقبعات ، والجوارب ، والأواني الفضية والنحاسية ، بعضهم يفترشون الأرصفة ، وبعضهم يواقفون المداخل والأبواب والأعمدة والناس ، ودوريات البغالة ، والبغال ، والكلاب تجول بين الناس ، وأخرى تقف خلف حواجز الحديد ، بعض الجنود تسوروا الأبنية بأسلحتهم البادية . . نمشي فتلفنا روائح الطيب والبخور . بعض أهل الحاجات والمعاقين ، نساء ورجالاً

وأطفالاً ، يقتعدون الأرصفة . . قلت للحوذي جو ، وقد مشينا طويلاً ، أين نحن الآن ، قال في الجنوب الغربي من القدس ، نحن هنا ، في حي سلوان ، قلت : أنحن قرب العين التي التقينا بها أول مرة ، قال : بالضبط ، قلت : وهل نستطيع رؤية العين . قال : كما تحب . إنها قريبة . قلت : والنساء . . بائعات الجوز ، واللوز ، والزبيب . . والخبز ، قال : أظن أن الوقت أصبح متأخراً ، لكن ربما نجدهن ، ومشينا في درب ضيق ، راحت المحال تزاحمنا ببضائعها التي تصدرت الأبواب ، هنا بضع طاولات تشكل مقهى صغيراً ، وهناك بضع طاولات تشكل مقهى صغيراً آخر . . يا لهذه الأحياز المكانية ، على الرغم من ضيقها تبدو وكأنها تتسع لكل شيء ؛ حتى الدواب ، الحمير ، والخيول التي تمرّ بنا يقودها أصحابها . . تجد لنفسها متسعاً في المكان . هنا أيضاً البغالة وبغالهم وكلابهم . . إنهم في كل مكان علامة فارقة ممهورة بأسلحتهم ، أشعر بأنني لم أمر بهذا الدرب ، ولم ألق مثل هذا الترحيب ، فهنا نساء ، وشبان يحملون بأيديهم أواني فضة ، ونحاس ، وأباريق ، وكاسات ، وأطباق قش مملوءة بالأطعمة والأشربة . . أرى فيها : جوزاً ، ولوزاً ، وزبيباً ، ورماناً ، وتيناً يابساً ، وقطع حلوى ، وكعكاً ، وخبزاً ، . . والأيدي تمر بها دون أن تخلو مما فيها . . لكأن كائنات سرية تملؤها باستمرار فتمحو نقصانها . . أرى الماء ، والأشربة الملونة . . أسأل الحوذي جو عن هؤلاء الواقفين بأبواب المحال ، فيقول : هؤلاء هم السقاة الصغار . قلت : وأين هم الكبار؟ . قال : أولئك الذين رأيتهم يحيطون بالكنائس والمساجد . . ينادون الناس والحجيج كي يشربوا ويأكلوا مما حملته أيديهم ، وأضاف : لا أدري إن كنت قد مررت برواق سلوان . قلت : رواق سلوان . قال : إنه خلف هذا الدرب ، سنراه بعد قليل ، قلت : وماذا فيه . قال : أهل الله . قلت : أهل الله . قال : أهل الله . قلت : ماذا تقصد؟ قال : سترى القرائن ، والمتأملين ، وأهل الحظوة ، وأصحاب

الكرامات ، سترى احتشاداً للبشر ، والحيوانات ، قلت : البشر والحيوانات . قال : اجتماع البشر أهل الحاجات ، والحيوانات ذات الأذيات والأمراض ، قلت : وهل يأتون إلى الرواق ليلاً فقط ، قال : لا ، إنهم يأتون ليل نهار . قلت : وهل من ميزة للنهار على الليل . قال : الليل . . لأهل الأسرار الكبرى . .

كان كلام الحوذي جو غامضاً ، لذلك رحت أفكر به . . وانفتح الدرب الضيق على ساحة واسعة تكاد تكون دائرية لولا وجود كتل صخرية تحاذيها فتزاحمها ، في الساحة عربات ، وسيارات ، وبشر ، وباعة ، . . وتنحدر بنا الساحة إلى أرض واطئة نزلنا إليها عبر درج حجري ، ومنه تتفرع الدروب ، بدت الساحة مثل حلبة الملاكمة ، فالناس ينزلون منها ويصعدون إليها من جميع الزوايا . . انحدرنا مع خلق من البشر ، فانكشفت أمامنا خيام مشرعة ، تكاد تكون سقوفاً فقط تحملها أعمدة خشبية ، وبداخلها وحولها وفي أطرافها رأينا البشر ، والحيوانات ، والنيران ، والقدور ، والأواني ، وسمعنا الأصوات المتداخلة ، والنداءات ، والرجاءات ، والابتهالات ، والأدعية . . وترنيمات الله الله الله الله المتصاعدة .

بدا المشهد أشبه بكرنفال . قلت للحوذي جو : ما هذا ، لكأن المدينة هنا . قال : هنا أسرار المدينة . قلت : كيف؟ قال : هنا يقيم الدراويش ، والمتصوفة ، والمجاذيب ، وإلى هنا يأتي أهل الحاجات . .

قلت : فقط . قال : ومن حولهم ، وبسببهم ، يوجد أصحاب المهن . . هنا اللحامون ، والنجارون ، والحدادون ، والنساجون ، والخبازون ، والطباخون ، والنحاسون ، والصاغة ، والسقاؤون . . قلت : فقط . قال : وباعة الكتب ، والأوراق ، والأحبار ، والأطعمة ، والصلبان ، والشموع ، والبخور ، والعطور ، والقطن ، والثياب ، والحبال ، والفؤوس ، قلت : وماذا يفعل كل هؤلاء هنا . قال : سترى . .

كنا نهبط في منحدر حاد ، يقودنا درب ناحل يوازي طريقاً عريضة في الجانب الآخر ، تمشي فيها السيارات والعربات ، والخيول ، والحمير ، . . وفي أول الخيام رأيتُ عرائش من قصب احتشد فيها الناس ، وغصت بها الأصوات المتداخلة . سألت الحوذي جو عنها ، فقال : هذه عرائش تشبه مكاتب الاستعلام . هنا الناس يسألون عن أهل الله إن كانوا حاضرين ، كما يسألون عن الكيفية التي يقضون بها حوائجهم . . لم ندخل إلى العرائش ، ولم نسأل أحداً ، وإنما مررنا بها ، كانت الكلمات الأكثر تردادا هي (من هنا) ، (من هناك) . . والناس يسيلون في المكان مثل دمع الشموع . . رأيت عرائش فيها رجال ونساء وأطفال يتحلقون حول رجال تكاد أجسادهم تشف لكثرة نحولتها ، وآخرون يتجمهرون حول آخرين تكاد أجسادهم تنفجر لكثرة اكتظاظها . . كانت الأسئلة والأجوبة دائرة بين أهل السؤال وأهل الجواب ، والناس ينشطون في الحركة ، والعمل ، هنا في الطرف الأيمن ، وبعيداً عن العرائش . أرى رجالاً يكسّرون الحجارة ، ويقطّعونها ، ثم يرتبونها في سلال من شبك الحديد ، ورجالاً يحفرون الأرض ، وينتشلون التراب بقفف كاوتشوكية ، وينقلونه إلى أمكنة أكاد لا أراها ، ورجالاً يحملون قرب الماء على ظهورهم ، وبأيديهم كاسات يملؤونها بالماء ويسقون الناس ، ورجالاً يحملون أغصان الأشجار إلى مقدمات عرائش النجارة ، ورجالاً يطبخون ، ويوزعون الأطعمة في صحون كرتونية على الناس الطاعمين ، ورجالاً ينتشلون الماء من آبار تتوازع المكان ، ورجالاً يعطرون أيدي الناس بماء الزهر وهم يتمتمون ويدعون ويرجون . .

وأرى نساء يعجن ، ويخبزن ، وأكواماً من الحطب تجاورهن ، وحولهن أطباق القش ، وقد امتلأت بالأرغفة الساخنة . . وصبايا وفتياناً وأطفالاً يطوفون على الناس بأطباق وصوان مملوءة بالخبز ، وأقراص القريش ، والزعتر . . وأخريات ينسجن على أنوال ، ومغازل ، وأخريات يطرزن ،

ويفتلن الحبال ، وبعضهن يوشمن الأيدي ، والأنوف ، والذقون ، وبعضهن يصنعن الأساور ، وأطواق الخرز ، وأخزمة الأنوف والآذان ، وحجارة الكحل ، والأصبغة ، والدهون . قلت وقد حرت ودهشت مما أراه : ما هذا يا جو؟ قال : كل هؤلاء الذين تراهم يعملون هنا هم أصحاب نذور ، بعضهم نذر إن قضيت حاجته فإنه سيعمل يوماً كاملاً في السقاية أو الإطعام أو النجارة ، أو الحدادة ، أو النسيج ، أو الطبخ ، أو الحفر ، أو تقطيع الحجارة وصقلها ، أو ذبح الخراف والأبقار والمعيز ، وتقطيع لحمها ، وبعضهم نذر أن يحمل الأخشاب ، والحديد ، أو أن يشدّوا الحبال ويجدلوها ، أو أن ينتشل الماء ، أو أن يحمل أكياس الطحين ، ويوزع الخبز قلت : والنساء؟ قال : والنساء أيضاً ، فالنذر نذر .

بدا الناس كأنهم لا عمل لهم في الحياة سوى عملهم هذا ، وبدا الباعة في نشاط محموم ، وبدا الرواق الطويل الذي يقف على حافة وادي سلوان . . وكأنه المدينة كلها . . رأيت صحون الطعام وأرغفة الخبز ، والخضار ، والفاكهة . . تتوافد إلى العرائش في أطباق كرتونية وسلال ، فلا ينتبه إليها أحد . ثم تؤخذ الأطباق وتستبدل بغيرها ، أطباق كثيرة متطايرة فوق الأيدي أراها تجول هنا وهناك في ذهاب وإياب لكأنها في سباق مع الأدعية والابتهالات والرجاءات المتصاعدة إلى السماء . .

هنا ، وفي نهاية الرواق ، أرى بعض العرائش وقد احتشد فيها الناس الذين ينقرون على الدفوف ، وأرى غلماناً يدورون على الجميع بكاسات ماء الزهر ، وأصواتهم تتعالى بكلمة واحدة هي (الله) ، يكررونها بخشوع . . أسأل الحوذي جو عنهم فيقول : هؤلاء هم الدراويش والمتصوفة . . والمجاذيب . . إنهم يتعبدون . . أرى حول العرائش طيور الحمام تجول في طمأنينة ما بعدها طمأنينة ، وكأن أصوات الدراويش خدرتها ، أو طوت حذرها ، وأرى بعضها الآخر يجول في فسحة النور المطلة على الرواق

من أعالي أسوار القدس ، تبدو الحمائم لكثرتها وكأنها أسقف من ضوء . . تمر بنا فتيات يلبسن أثوابهن المطرزة ، وبين أيديهن أطباق الخبز ، وأقراص الزعتر والقريش . . يدنينها منا باسمات ، فنأخذ منها لقمة أو لقمتين ، ويقترب منا غلمان طوّقوا أعناقهم بحبال التين اليابس . . وبين أيديهم أواني النحاس المملوءة بحبات التين الدائرية ذات اللون الذهبي الجميل . . تتلبث أمامنا الأواني ، والعيون السود ، وتمتمات الشفاه ، فنأخذ حبة تين أو حبتين . . وهذه امرأة طويلة ، متقدمة في السن ، تقف بالقرب من عمود للنور . . تعطي لكل من يمر بها حبة جوز ، وهي تتمتم بحروف لا تصير كلمات . . وهذه حلقة غناء ، وتصفيق مرنم ، رجال اصطفوا في صفين متقابلين ، أخلوا بينهم مسافة تجول فيها رقصاً فتاة على غاية من الحسن والجمال والرشاقة ، أراها تتخطف الأبصار بتلويحة ذراعيها ، وانحناءة صدرها ، ومرجحة شعرها الطويل . . أراها تكاد تلامس الأرض بأصابع يديها ، وقوس ظهرها الذي انحنى أمام المغنين المصفقين . . يتقدم الصفان اقتراباً نحو الفتاة الراقصة حتى يكادا يطبقان عليها ، ثم وبتلويحة من ذراعيها وبدوران مغزلي من جسدها يبتعد الصفان عنها إلى الوراء ، تبدو الفتاة وهي تدور كأنها طير يهم بالطيران . . أرى الصفين يزدادان طولاً ، وأرى الرجال يتناوبون على الغناء والتصفيق الموحد ، كما أرى فتيات جميلات يبادلن الفتاة الراقصة الدور ، أكاد أذوب بما أراه . . أسأل الحوذي جو : ماذا يفعل هؤلاء؟ فيقول : لا أدري . أول مرة أراهم في مثل هذا المشهد ، ومن خلف الصفين أرى نساء يقذفن من أطباقهن القشية حبات القمح ، والأرز ، والشعير . . فتتطاير من فوق الرؤوس كشعاعات ضوء ، وبعضهن الآخر يرش الملح فتتناثر حباته مثل نقاط الفضة المذابة .

ومضينا ، جذبني الحوذي جو من يدي ، وقال : إذا ما ظللت على هذا النحو من الانبهار والدهشة ، فستبيت هنا ، ولن تفي بوعدك لي بأن

تأخذني إلى العشاء . قلت : أرجوك يا جو ، دعنا قليلاً من الوقت أيضاً كي تجوع أكثر . ولم يسمع جو كلامي ، ولم يستجب لرأيي ، فرجاني أن نمشي ، وإن كان لي رغبة في مشاهدة المزيد ، فلنحقق الرغبة في ليلة قادمة أو نهار آخر ، قلت مهدداً : جو ، أنت دليلي . قال : أنا الآن صديقك .

فجأة ، وبينما أنا أنقاد لرغبة الحوذي جو صعوداً نحو الدرجات الحجرية ، تعالى صوت الدوي ، والرصاص ، وامتلأ المكان بالدخان الأبيض ، والأسود ، والملوّن ، وساد الهرج ، والصراخ ، وتداخلت النداءات ، والأسماء ، والرجاءات ، واختفت أصوات النقر على الدفوف ، والضرب على الطبول ، وتلاشى التصفيق ، والغناء ، والعزف على الناي ، وغابت أسقف القصب . كل شيء ، أراه أمامي ، وفي المنحدر تماماً ، يغوص في عتمة مطبقة فلا العرائش تبين ، ولا الناس ، ولا الأخشاب ، ولا قطع الحديد ، ولا أعمدة النور ، ولا طيور الحمام ، فقد غرق المكان في ظلامة ضافية . . أسأل الحوذي جو عن الذي حدث ، فيقول لا أدري ، لكن الناس الصاعدين مدافعة فوق الدرجات الحجرية ، أسمعهم يقولون إنها مناورة ، تدريب على حالات الطوارئ ، ولا أدري كيف سحبني الحوذي جو بعيداً عن الأجساد الصاعدة المتدافعة ، وظللت وإياه نتابع الأصوات الضاجة ، وسحب الدخان التي تعالت فصارت سقفاً للمكان . .

ومثلما حدث الأمر فجأة ، أعيدت الأنوار فجأة أيضاً ، فبدا البغالة ، والبغال ، وسيارات الجيش ، وسيارات الإسعاف ، والكلاب وهم في حالة تحفز واضطراب . . وبدا المكان ، ومن العلوة التي نقف فيها ، حطاماً أو يكاد . . غابت هندسته ، واختفت العرائش ، والسقوف والأعمدة ، كل شيء بدا أمام عينيَّ محطماً ومدمراً ، بعض الناس بدوا على هجعاتهم ممددين . . لا حركة في أجسادهم ولا حياة ، ورويداً رويداً راحت سيارات الإسعاف تنقلهم . . سألت الحوذي جو : أهم أموات . . أم ماذا؟ قال : ربما

داستهم الأرجل . . لحظات وغاب البغالة والبغال ، وانسحبت سيارات الجيش والإسعاف ، وتوارت الكلاب . . وظل المكان كتلة خراب . . ولا أدري كيف رحت أسمع النداءات ، والرجاءات ، والابتهالات ، والأذكار ، تتعالى ببطء وقد لفتها بحة أصفى من الموسيقى وأحن . . فسألت الحوذي جو إن كان يسمع ما أسمعه ، فقال : أجل ، قلت : لعلهم عادوا إلى طقوسهم . قال : ربما . قلت : أي بشر هؤلاء يا جو . قال : إنهم يشبهون الجروح . . قلت : كيف؟! قال : لهم دورة حياتية تشبه دورة الجروح . قلت : لم أفهم ما قلت يا جو . قال : الجرح ، وما إن يصير جرحاً حتى يشرع في الاستشفاء . قلت بافتخار : أنت حكيم هذا المساء يا جو . إنهم كذلك بالضبط .

كنا في مكان ظليل ، لا أضواء بهَّارة فيه ، ولا عتمة مطبقة ، وكان الحوذي جو ، يقول لي بنبرة عالية : هيا ، تعال . . ومشى أمامي ، فخطوت نحوه محاولاً الوصول إلى كتفه كي أوقفه . . لنرى كيف سيعاد المشهد السحري مرة ثانية ، لكن يدي لم تصل إلى كتفه ، وإنما وصلت إلى يد أخرى ، ولم تكن تلك اليد سوى يد سيلفا . يا إلهي ، من أين نبتت هذه الـ سيلفا . هل أخبرتها العجوز بخروجي؟ فجاءت تبحث عني في محيط القدس ، أو أن الأمر مجرد مصادفة . . شدتني سيلفا إليها وقبلتني ، وتمتمتُ لها : أأنت هنا؟! ولم تجب لأنها راحت تنظر إلى الحوذي جو الذي وقف يضحك . قلت : لقد أحسست يا جو أن الأمر ليس طبيعياً ، فنبرتك العالية جعلتني أشكك بأنك معي ، وأنك ليس جو الذي أعرفه ، قالت سيلفا : لقد رآني منذ دقائق ، وأنا طلبت منه أن يصمت ، أن يدعك مأخوذاً بما ترى . قلت : أرأيت يا سيلفا؟ إنه سحر ، أليس كذلك . قالت : إنه العالم الآخر . قلت : عالم التوبة . قالت : لا ، عالم الاعتراف . قلت : أنتِ هنا . . لماذا؟ فرجة أم اعتراف؟! قالت : جئت كصاحبة حاجة . قلت :

وما هي؟ قالت : أسرار ، والأسرار أسرار . قلت : وإن قضيت حاجتك؟ قالت : سأفي بنذري . قلت : وما هو نذرك؟ قالت : أسرار أيضاً . فالحاجة ، وتحقيق المراد ، والنذر . . ثالوث سري . .

كنا نمشي ثلاثتنا . . فوق خطا قصيرة عاثرة . بسبب ازدحام الناس وتداخل الاتجاهات ، سمعت جو يقول لي ، وقد صعدنا الدرجات الحجرية المفضية إلى الساحة الوسيعة : الآن ، إلى أين؟! قلت : إلى العشاء . وسألت سيلفا : ما رأيك في عشاء خفيف . فاعتذرت لأنها تناولت غداءها متأخرة ، وأنها مرتبطة بمواعيد لها علاقة بالعمل ، ورجتني أن أعذرها . حاولت معها ، لكنها اعتذرت .

وقد تركتنا فعلاً ، مضت إلى شارع فرعي ، وغابت في زحمة الناس . قلت للحوذي جو : ألا نعود إلى رواق سلوان . . فنرى المزيد . قال : دع الأمر لليلة قادمة ، أرجوك . قلت : إذاً إلى العشاء . قال : إلى العشاء . ومضينا» .

ملحوظة :

أصارحك بأن قلبي حدثني وحين مضت سيلفا ، أنها تركتنا كي تذهب إلى غرفتي . . حتى إذا ما عدت إليها وجدتها في فراشي ، لكن حديث قلبي ظلَّ أرجوحة للخيال ، فحين عدت إليها لم أجدها . . لذلك جلست كي أكتب إليك . أرجوك يا صديقي ، افعلها هذه المرة ، واكتب إليَّ ، لأنني أفتقدك كثيراً .

الغربان والتابوت

«أكتب إليك كي أصفو ،

فأنت ، وعلى البعد أيضاً شريكي الذي يقاسمني ما أعيشه ، وما أراه ، وما أسمع به .

ها . . قد عدت من مقهى قلندية ، مطفأ أو أكاد ، عدت بصحبة الحوذي جو الذي أراد أن يبقى إلى جواري بعض الوقت ، غير أنني صرفته ، قلت له : أرجوك يا جو ، دعني وحدي ، فلن أصفو إلا في وحدتي ، حاول كثيراً أن يبقى إلى جواري ، وقد رآني أنهار أو أكاد ، غير أنني صرفته ، فمضى ، وهو يهمهم بأنه سيطمئن عليَّ بعد ساعة ، وعليَّ ألا أنزعج من سؤاله عن حالي . فوافقته . طيب جو ، ومحب ، أراه ينظر إليَّ ، وكأنه ينظر إلى نفسه في مرآة كبيرة ، لعله لاقى ، وعايش ما ألاقيه الآن ، وما أعيشه من أذيات ومشاهد طافحة بالألم .

كنت ، وكعادتي ، قد خرجت مبكراً بثياب الرياضة ، تدرعت بمعطفي ، وأخذت بعض السندويشات ، وإبريق قهوتي ، وزجاجة عصير ، والكاميرا . . رتبتها داخل حقيبتي الصغيرة ومضيت ، حرصت على أن أتفقد أوراق إقامتي والتصاريح ، نظرت إليها في جيب الحقيبة حتى اطمأنت روحي ، ومضيت .

يا إلهي ما أجمل صباحات القدس ، غبش ، وضباب ، وغيوم دانية . . تجول في المكان . . لكأن أصابع سرية تدفعها برفق من أعالي الجبال

والتلال نحو البيوت ، والأشجار ، والدروب ، والطرق ، والناس . . غبش آسر له عيون كثيرة مثل المرايا . . وضباب حنون رقيق طري يتهادى فيمر بوجهي مثل أيدي الأطفال الصغيرة الناعمة ، ومطر رذاذ حيي خافت يحط على شعري وجبهتي مثل عصافير صغيرة تحط على عيدان رفيعة . . فيأخذها الرقص والتأرجح فتهبط وتعلو في تعالق بديع لا تشبع منه العين . . أرى بعض عمال الحدائق يمشون تحت رذاذ الماء ، فوق الأعشاب ، وقرب الشجيرات ، وبين أيديهم المقصات الطوال . . لكأنهم كلام الحدائق . . . تمر بي سيارات عجلى ، وتوقفني أكثر من دورية للبغالة ، يطلبون الأوراق والتصاريح ، فأُناولهم إياها . وكي أتخلص منهم أركب سيارة أجرة وأمضي ، أحدهم رأى إبريق القهوة ، فسألني إن كان مملوءاً بالقهوة ، فهززت له رأسي بالإيجاب ، قال ممازحاً : هل تشارك أحداً بقهوتك . قلت : أتريد كوباً . قال : إن كنت تود المشاركة ، فأخرجت إبريق القهوة ، ودلقت منه شيئاً في كوب البلاستيك الأبيض ، وما إن رأى شراب القهوة السحري حتى أوقفني . قال : كفى . كنت أمازحك . قلت : ألا تريد أن تشرب ، قال : لا . فهززت رأسي له وأنا أعيد دلق القهوة في الإبريق ثانية ، ومشيت ، وإحساسي يقول لي إن البغال أراد أن يرى القهوة ويتأكد من وجودها في الإبريق . . حقاً .

كان بي شوق لرؤية صاحب المقهى (أبو العبد) ، وعارف الياسين السجين الذي اقتادوه مرة أخرى إلى السجن بعد عراكه مع الأميركيين ، خطر ببالي أبو العبد ، والتهمني طيف عارف الياسين ، ليلاً وأنا في وحدتي . فقررت أن أمر بالمقهى لعل البغالة أعطوه أمراً يخوله بفتحه واستقبال الزبائن ، أو لعلهم أفرجوا عن عارف الياسين . كانت قد مرت عليَّ أيام بعد تلك الحادثة . . وها أنذا أعود وحيداً ، في الطريق هاتفني الحوذي جو ، سألني إن كنت قد استيقظت ، قلت : استيقظت . قال : أنت

في صباحك الرياضي . قلت : أجل ، ولكنني أمشي نحو مقهى (أبو العبد) في قلندية . . قال : هل ألحق بك إلى هناك قلت : أتمنى ذلك . قال وإن كان المقهى مغلقاً . قلت : بيننا الهاتف . وسألني إن كنت قد خططت لمشوار جديد . قلت : أود رؤية الحي الأرمني مرة أخرى . قال : من أجل ساقية شراب الورد . قلت : من أجل ساقية شراب الورد . قال : لماذا؟ قلت : لا أدري يا جو . ثمة أسئلة لا أجوبة لها ، وعدم الإجابة عنها يجعلها أكثر سرانية وأكثر جمالاً . قال : وثمة مخلوقات تعذبها السماء بالنساء ، وأنت منهم . قلت : لا ، يا جو . فأنا بعدما ماتت رشيدة زوجتي الفلسطينية ، العكاوية ، كما أخبرتك سابقاً ، قلت لنفسي : الآن ، آن أوان الفطام عن النساء ، وقد التزمت بذلك ، وعشته وقتاً طويلاً ، وقد جئت إلى هنا مفطوماً ، لم أعرف امرأة بعد رشيدة . كنت وكلما تعرفت إلى امرأة ، طوال السنوات الماضية ، كان عقلي يجري حسابات سريعة كانت كلها في صالح قناعتي بالفطام . لم ألتفت إلى امرأة كجسد أو شهوة ، إلى أن قدمت إلى هنا ، سيلفا كانت مغويتي الأولى ، بها بدأت أولى خطواتي لمحو الفطام ، قال : وساقية شراب الورد . قلت : أتمنى أن تصير مغويتي الجديدة . قال : وسيلفا؟ قلت : عقلي نافر منها . قال : وقلبك . قلت : آخ من قلبي . لا أحد يمرّغ أنفي في التراب سواه . .

واقتربت من المقهى ، بدت من التلة المحاذية له ، البغال ، والبغالة ، وسيارات الجيش ، وصناديق الخشب الكبيرة البادية على شكل غرف صغيرة ، وبدت حواجز الحديد ، والمكعبات الباتونية ، وها هم الناس يبدون أيضاً جمهرة مثل جمهرة النحل . . جمهرة يلفها الضباب . . أسأل نفسي وأحدثها منذ متى هؤلاء هنا ، وإلى متى سيظلان ضفتين؟ أجعل من نظري طيراً يطوف فوق المقهى لعلي أرى (أبو العبد) في مشهده البديع ، وقد خف إلى الزبائن بصينيته المملوءة ، فوق طوله الناحل ، لكن لا أرى

المقهى بوضوح ، وتصعد بي السيارة فأسمع طلقات نارية تعبر إلى الفضاء ، لا أدري إن كان مصدرها أفراد دورية البغالة الواقفين قرب حواجز الحديد ، يعلو بي الدرب أكثر ، فتباريني أشجار السرو ، ومساحات العشب المنداة . يا لحظي الطيب . . ها هو ذا أبو العبد يواقف أحد الزبن قرب طاولة تستظل بالأشجار من رذاذ المطر الخفيف ، إذن ، المقهى مفتوح ، لكن منذ متى لا أدري . لعلي تأخرت حتى عدت إلى هنا . ولا بدَّ من أن (أبو العبد) قد جهز نفسه كي يعاتبني لغيابي عنه ، ورجوت الله أن تكون إجابة (أبو العبد) حين أسأله عن عارف الياسين ، بأنه خرج من سجنه ، وأنه بخير ، ودارت بي السيارة حول المقهى حتى واجهتني بوابته وأمام البوابة هبطت ، كنت ، وأنا أدور قد أشعرت (أبو العبد) بوجودي ، فرحّب بي ، وابتسم لي . يا إلهي ، لا أدري من أين يأتي هؤلاء البشر بالمودة ، كيف يقدرون عليها في ظل ظروف جهنمية .

دخلت من البوابة ، فوجدت (أبو العبد) واقفاً بانتظاري . صافحته ، فانحنى على كتفي ، وربّت على ظهري بمودة ، وراح يسألني وأنا أتقاود وإياه إلى الطاولة التي اعتدت أن أجلس إليها ، عن أحوالي ، وغيابي الطويل . قال لي إنه كان يدعو الله ويرجوه ألا أكون قد سافرت ، فقد صار يشتاق إليَّ وكأنني واحد من أفراد عائلته ، فصارحته بأشواقي ومودتي له ، وأن من يأتي بي إلى هنا هو الشوق . فقال : من جهة الشوق ، لك أشواق كثيرة في قلبي ، ولكن أعترف لك بأنني بت أخاف عليك . أشعر ، وكلما لاح طيفك في بالي أن دمي يتحرك باتجاهك . وسألني بصوت خافت : ألك أصل فلسطيني يا خواجة . فنظرت إليه بعينين جاحظتين وقلت : لا . قال : لكنك لا تتعاطف معنا فقط ، بل تدافع عنا . قلت : أحوالكم ، وظروفكم لا تحتاج إلى نسب الدم ، لأن نسب المعنى هو الأهم . قال : لم أفهم ما تقصده بنسب المعنى . قلت : أقصد بالمعنى . . هو الذي أراه من

ظلم واقع عليكم ، ما أحس به من أذى يصيبكم ، وما يفعله أصحابك البغالة . . من تحطيم لكل أمل يلوح في الأفق . . للعيش المشترك ، قال : خواجة لم أفهم شيئاً ، أنت تقول ، في هذا الصباح ، كلاماً كبيراً . . قلت : أنتم الإسرائيليون معاً ضحية هؤلاء البغّالة . قال : لم أفهم . قلت : أذى البغّالة لا يلحق بكم وحدكم . إنه يلحق بالإسرائيليين الذين يتحكم بهم البغّالة بوصفهم قيادة . هذه القيادة دموية . . لا تفهم الملك إلا بقرنه بالدم . قال : أنت تتكلم كلاماً كبيراً ، ياخواجة ، ولا بدَّ من قهوة مركزة كي أفهمك ، وتمتم : قهوة ، فقلت : قهوة . ومضى وأنا أنظر إليه ، فإياب (أبو العبد) يشبه قبوله عليَّ ، جسد ، رغم نحولته الشديدة ، يبدو مثل كتاب ليس فيه سوى التعبير . أنظر إلى الرجل الوحيد الذي يجالس طاولة تحت الأشجار ، فأراه يشرب قهوته ، وينظر نحوي ، وقد أدار ظهره لجمهرة الناس ، والبغالة والبغال ، والكلاب الصامتة . .

وعاد إليَّ أبو العبد ، فسألته متى أخذ الإذن بفتح المقهى . فقال : أغلقوه ثلاثة أيام ، وفي أول يوم فتحته ، جاءني البغالة ومعهم جماعة من وزارة الصحة ، دخلوا إلى العريشة ، وراحوا يرشون المبيدات فوق الأواني ، وأكياس السكر ، والقهوة ، والأعشاب اليابسة ، أغرقوا كل شيء بالمبيدات . . ثم خرجوا ورشوا الطاولات والكراسي . . قلت : أفسدوا كل شيء . قال : أفسدوا كل شيء ، فظللت نهاراً كاملاً ، وطوال الليل ، أنظف العريشة والمقهى بالماء والصابون . . رميت كل ما أفسدوه في حاويات القمامة ، ومضيت ، فاستدنت ثمن كل ما يحتاج إليه المقهى . قلت : أي عذاب هذا؟ قال : هذا ليس عذاباً فقط . قلت : ما هو إذن يا أبو العبد؟ قال : هذا تعذيب يا خواجة . قلت : أنت حكيم هذا الصباح يا أبو العبد . فأحنى رأسه ، وغرق في تمتمات الشكر ، وسألني كيف وجدت القهوة ، فقلت : ممتعة . قال : أصارحك بأنني ، ومنذ المرة الأولى ، رأيت فيك ما لم

أره في الآخرين . كثيرون يأتون إلى هنا ، ومعهم حقائب مثل حقيبتك هذه ، فيها كل ما يحتاجون إليه ، ما إن يجلسوا حتى يخرجوا منها كل ما يريدونه . أنا ، ودون أن أريهم انزعاجي ، يأكلني الغيظ ، فهم يأتون إلى هنا من أجل الجلوس . وبعد أن ينتهوا من طعامهم وشرابهم ، عليَّ أن أنظف طاولاتهم ، وكراسيهم . . فلا يرمون إليَّ سوى ما يجعل النفس تخجل حين تراه ، أنت غير هؤلاء . تأكل وتشرب ، وتعطي بسخاء . قلت : وهل هذا غريب يا أبو العبد . قال : ليس غريباً فقط ، بل يجعلني أفكر بأن لك نسب دم مع الفلسطينيين . قلت : أصارحك ، يا أبو العبد ، أنني عرفت الفلسطينيين ، وفلسطين من زوجتي الفلسطينية ، رشيدة ، تعرفت إليها في الجامعة ، كانت آتية إلى بطرسبورغ في منحة دراسية من قبل حزب الشعب الفلسطيني ، هناك ، ولكثرة نشاطها ، وحيويتها ، وجمالها المميز ، وقدرتها على استقطاب الآخرين . . جذبتني إليها . . فرحت ألتقيها ، وأناقشها ، وأتعلم منها شيئاً عن فلسطين ، قبل أن أعرف رشيدة يا أبو العبد ، لم أكن أعرف فلسطين إن كانت بلداً ، أو امرأة ، أو تاريخاً ، أو بحيرة . . كنت أعرف شيئاً اسمه [إسرائيل] ، معرفتي بـ رشيدة هي التي عرفتني بفلسطين ، معها قرأت التاريخ الفلسطيني ، ومعها عرفت الجغرافية الفلسطينية ، ومعها وعيت الألم والظلم اللذين وقعا على الشعب الفلسطيني ، وصمتُ .

فسألني أبو العبد . وكيف تزوجتها يا خواجة . قلت : كانت آسرة ، ومدهشة ، وصاحبة إيمان مطلق بوطنها الفلسطيني . حدثتني عن المجازر والحوادث والأذيات التي عرفتها البلاد الفلسطينية ، وعن المخيمات ، والسجون ، والمدارس ، والجامعات . . وعلى الرغم من تصديقي لها ، إلا أنني عددت ذلك من قبيل المبالغة ، وحب الوطن ، والشوق إليه في الغربة . . ولم أتأكد من هذا ، لم أعرفه المعرفة المباشرة إلا عندما قدمت

إلى هنا ، فرشيدة كانت محقة في حبها لبلدها ، ومحقة في أحاديثها عن الظلم ، والألم والأذيات . . . لم أجد مبالغة ، أو خيالاً ، أو تأليفاً . . وإنما رأيت ووعيت ما يفوق المبالغة ، والخيال والتأليف . قال أبو العبد : وأين هي الآن يا خواجة؟ لماذا لا تأتي بها إلى هنا كي ترى ما تراه . قلت : ماتت يا أبو العبد . قال وكأنه يشهق : ماتت! قلت : ماتت . قال : كيف . قلت : حادث سيارة . فهز رأسه بأسى وقال : لكأن الموت يطارد الفلسطينيين في كل مكان . وسألني : منذ متى وقع الحادث . قلت : منذ ست سنوات . قال بتوكيد : ترابها ما زال طرياً . قلت : ماذا تقصد . قال : أعني أن غيابها ما زال حاضراً ، قلت : ألم أقل لك إنك حكيم الصباح يا أبو العبد .

ونهض تلبية لصوت الرجل الذي استظل بالأشجار . وما إن وصل إليه حتى وقف أمامه يستمع لطلباته ، ورأيته يمضي نحو عريشته ، غاب قليلاً ثم خرج بصينيته . يا لصينية (أبو العبد) تبدو وكأنها جزء من شخصيته . رأيت كميات من الدخان تأتي مثل سحب الضباب من خلف السور الشائك ، سألت (أبو العبد) ، عنها فقال هذه سيارات البلدية ، ترش الشارع بالمبيدات كي تقتل الذباب ، والحشرات . تعقيم يا خواجة تعقيم!! واقترب مني ، سألني إن كنت أحتاج لطعام الإفطار . فهو يقلي البيض بطريقة ممتازة ، ولديه أقراص زعتر بزيت الزيتون ، وخيار بلدي ، ولبن مثل الزبدة . . فشكرته . قال : لكن البيض عند (أبو العبد) أمر يفوق التصور ، فقلت له ربما سآكل عنده عندما يأتي صديقي الحوذي جو . وسألت أبو العبد عن عارف الياسين ، فضحك ، وقال : والله ، ومنذ أن رأيتك ، وأنا أفكر بك متى ستسألني عنه . قلت : ما أخباره؟ قال : أتصدق أنه خرج من السجن . قلت : أصدق لأنه لم يفعل شيئاً . قال : كيف تصدق يا خواجة ، وهم يفتعلون أي سبب لجعل أي فلسطيني داخل السجون . قلت : لكن يبدو أن السجون صارت عبئاً عليهم . قال : ليست عبئاً ،

لأنهم يقدمون طعاماً لا يؤكل ، وشراباً لا تقبل عليه الدواب ، كل قذارات الدنيا موجودة في السجن ياخواجة . قلت : لكن طبيعة الإنسان ، فطرته تجعله ينفر من الظلم والعدوانية . قال : أنت الحكيم يا خواجة ، حكمتك هي التي تجعلك تقول هذا ، لكن الحقيقة ليست هكذا . . فالسجون الإسرائيلية أودية جحيم ، مدارس للقتل المنظم ، عفواً جامعات للقتل البطيء . . قلت : بحق ، يا أبو العبد ، ماذا يطعمون المساجين . قال : هذا سؤال يوجه لـ عارف الياسين ، فهو موسوعة ، موسوعة لا تتحدث إلا عن السجن ، قلت : وهل سيأتي إلى هنا . قال : أظن ذلك . أمس كان هنا ، وسألني عنك ، فقلت له إنك لا تأتي . قلت : أما من سبيل لإخباره أنني هنا ، فأنا مشتاق إليه . قال : يوجد ألف سبيل . . سأرسل وراءه ، لكن أرجو ألا تكون مستعجلاً ، قلت : سأنتظره . ومضى أبو العبد من أمامي ، فرأيت بعض الناس يدخلون إلى المقهى ، ورويداً رويداً رأيته يخف من طاولة إلى أخرى ، بدا مثل طائر الشوك ، لا يستطيع المرء التأكد بأنه موجود في مكان واحد ، ورأيت بعض الناس يحاولون التقدم نحو حواجز الحديد وبين أيديهم أوراقهم ، وبعضهم الآخر مرضى يجلسون في كراسي طبية ومن فوقهم تحوّم طيور الحمام ، والأطفال يأكلون ويشربون وهم في وقوف وجلوس . وأسمع أصواتاً راجية ، وأخرى ناهرة ، كلها تشكل ضجة نامية لحيز مكاني صغير . .

من بعيد ، وفي مدخل المقهى ، أرى الحوذي جو يتقدم وطرفا معطفه يلوحان كلما خطا خطوة جديدة . . يتقدم نحوي ، فأرفع له يدي بالتحية ، ومن الطرف الآخر أرى (أبو العبد) يحث الخطا نحوي أيضاً ، لعله رأى الحوذي جو ، يصل الاثنان إلى الطاولة . . الحوذي جو يجلس ، وأبو العبد يظل واقفاً . . وقبل أن يسأله عن مشروبه ، يرفع يده محيياً شخصاً يتقدم من مدخل المقهى ، فيتمتم : عارف الياسين يا خواجة ، أنظر باتجاه

المدخل . إنه عارف الياسين بلحمه وشحمه . . يدنو مثل عود قصب . أقول لـ (أبو العبد) : اكتمل الصباح . يهمهم الحوذي جو : قهوة . فيستدير أبو العبد ، ويقترب عارف الياسين أكثر ، وما إن يصل حتى يأخذني بين ذراعيه مرحباً . ويصافح الحوذي جو . قلت له مرحباً : أهلاً بك يا عارف . . أيها السجين القديم الجديد . قال : لقد سألت عنك يا خواجة . كانت كارثة إنسانية ستحل بي لو أنك سافرت . داخل السجن فكرت بك كثيراً وفرحت . قلت : لماذا؟ قال : لم يبق لي البغالة أحداً أفكر به ، أو أنشغل به . . سواك . قلت : ولماذا فرحت : قال : لأنك رأيتهم رأي العين وهم يأخذونني ، مرة أخرى إلى السجن ، قلت : هذا أمر محزن ، وليس أمراً مفرحاً . قال : قصدت أن ترى تفاهتهم . قلت : كيف قضيت الوقت؟ قال : كالعادة ، ضرب ، ودم وإهانات ، أسئلة وأجوبة ، وجرّ ، وكي بالكهرباء ، وطعام لا تأكله الكلاب . . لقد عشت أحزاناً ومكابدات عظيمة خلال الأيام الماضية . قلت : لماذا؟! قال : لأنني فجعت بأن ما من أحد من رفاقي القدامى موجود في السجن . قلت : وهل السجن حديث؟ قال : لا ، ولكنه سجن للتوقيف السريع .

كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً وبدأت برسم قوس مسارها ، وراحت جمهرة الناس تكبر وتتكاثف ، وازداد عدد البغالة ، والبغال ، وسيارات الجيش ، حتى طيور الحمام بدت أكثر عدداً ، وحركتها بدت أكثر سرعة وتنقلاً .

فجأة ، وبعد أن انضم إلينا أبو العبد ، تعالت أصوات هاتفة (الله أكبر الله أكبر) ، وأخرى تردد (الله الله الله الله الله الله . .) فرفعنا رؤوسنا ، وإذا بتابوت يتأرجح فوق الأذرع المرفوعة ، وسجادة ذات ألوان زاهية تغطي جوانبه ، وطربوش أحمر وكوفية فلسطينية تعلوان مقدمته ، كان التابوت يتقدم فوق الأيدي المرفوعة بثبات نحو حواجز الحديد ، ونهر

البغالة يتعالى أيضاً ، ولكن الناس الذين يحملون التابوت كانوا يتقدمون ، والتابوت يتقدم أيضاً . . فجأة تعالى إطلاق النار ، والتابوت يتقدم ، والأصوات المكبرة تتعالى ، ثم انطلقت عبوات الدخان في خطوط منحنية ساقطة نحو جمهرة الناس ، نحو التابوت تحديداً . . لكن التابوت ظلَّ يتقدم وكأن قوة خرافية لا علاقة لها بالناس تدفعه إلى الأمام ، كنا قد وقفنا نتطاول إلى جوار بعضنا بعضاً كي نرى تفاصيل المشهد ، سمعت عارف الياسين يقول : هذه الجثة ستأخذ معها آخرين ، لن يمر الأمر بسلام ، وأبو العبد يرد عليه موافقاً : سيصير التابوت توابيت ، ربنا يستر .

نظرت إلى وجه الحوذي جو ، فرأيته ممتقعاً ، لا رواء فيه ، ولا زهو ، ولا ألوان . كان الرصاص والدخان يشكلان عريشة فوق الناس المحتشدين ، كنت أتوقع أن يهوي التابوت من فوق الأيدي بين لحظة وأخرى ، ولكنه لم يهو . . صحيح أنه يتأرجح ويتمايل ، ينخفض ويعلو ، يثبت ، ويتراجع ، ويموج فوق الأيدي ، غير أنه لم يهو . .

ودونما إنذار ، ووسط الدخان ، وتحت لمعان الرصاص ، رأينا البغال تندفع بالبغّالة نحو حواجز الحديد ، بدت اندفاعتها قوية وشرسة ، فتطايرت الحواجز بأقدامها ، وحوافرها ، وصدورها العريضة ، وكادت تقترب من التابوت الذي ما زال مرفوعاً فوق الأكف . . وفي لحظة واحدة وصلت إليه فدهمت حامليه ، فارتمى التابوت مثل لوح زجاجي ، وأحدث صوتاً عظيماً ، فداسته البغال ، وراحت تطارد الناس الذين ابتعدوا عن التابوت مثل موجة بحر ، بينما أبصارهم تحيط به ، ولم تتراجع البغال ، بل ظلت تطارد الناس ، وهم يزوغون عنها ، ويتطايرون كالشظايا ، لم أر من قبل اندفاعة للبغال مثل هذه الاندفاعة ، ولم أر البغال وهي في شراسة تشبه هذه الشراسة ، وانكشف التابوت أمامنا ، بعدما انزاحت السجادة وارتمت بعيداً عنه ، وطار غطاؤه العلوي ، فبدا مفتوحاً ، مثل فوهة بئر ، ورأيت

البغال تجول في المكان ، وقد طردت الناس إلى البعيد البعيد ، وكأنهم أعشاب ضارة ، أو حجارة منزوعة من حقل سمسم . . وراحت تقف في مكانها ، وتدور حول نفسها . . منتشية بنصرها الحاسم . . وقد اندفع البغالة الراجلون نحوها ، وبنادقهم تطلق الرصاص في الهواء ، وبين الأرجل ، والكلاب تقف متحفزة بانتظار أن يفلتها الجنود ، وبعض البغالة انحنوا فوق التابوت ، وراحوا يعاينون ما فيه ، كانت جثة لا شك ، رأيناهم يقلبونها ، ويرفعونها من مكانها فتبدو ثيابها البيض ، والناس يراقبون ما يحدث من مكانهم البعيد ، وحين أيقن الجنود أن ما في التابوت جثة ابتعدوا دون أن يغطوها ، أبقوها بادية بعدما تعلق طرف من أطرافها بحافة التابوت العليا ، وتراجعت البغال رويداً رويداً ، وانسحبت الكلاب إلى الوراء ، بينما الجنود يسوون حواجز الحديد ، يعيدونها إلى مكانها الطبيعي كي تظل عائقاً يحول دون تقدم الناس ، والتابوت . .

وفي لحظة واحدة ، وقد صار التابوت في منطقة مكشوفة لا أحد حوله . . انقضت على الجثة غربان كثيفة العدد ، لونها الأسود يشبه قطع الفحم ، وراحت تنهش فيها ، فتعالت الصراخات ، والنداءات ، كما تعالى البكاء . . وشهقنا نحن ، وتطاير الناس نحو الغربان ، فتطاير رصاص الجنود نحوهم ، وعادت قنابل الدخان تنهمر عليهم ، فانغلق المكان بسحابة دخان داكنة السواد ، وما عدنا نرى شيئاً . الأصوات وحدها هي التي كانت تصل إلينا متداخلة مشوشة ، أصوات نداءات ، وبكاء ، وأدعية ، ولوم . . وظل إطلاق النار متواصلاً دقائق ، والدخان يزداد تلبداً ، وما عدنا نعرف شيئاً مما يحصل . فهل أخذ الناس الجثة ونجوا بها ، أو أن الغربان التهمت شيئاً منها . . نظرت حولي فلم أر سوى الحوذي جو ، سألته عن عارف الياسين و(أبو العبد) ، فقال : إنهما هناك وأشار إلى كتلة الدخان الواسعة .

ورويداً رويداً انكشف المشهد ، الناس بعيدون عن التابوت ، وحواجز

الحديد ، والبغالة فوق بغالهم يطلقون النار . . والغربان تتوازع التابوت ، بعضها خارج التابوت ينهش بأطراف الجثة ، وبعضها الآخر غاص في وسط التابوت ينهش الجثة أيضاً ، فقد بدت رؤوس الغربان مثل إبر ماكينات الخياطة في أثناء عملها . . إنها تنقر وتنقر وتنقر . . بدا البغالة وكأنهم يحرسون الغربان كي تنتهي من مهمتها . . كان الناس في إقدام وإحجام نحو التابوت ، والبكاء يتصاعد على شكل نداء خافت للسماء الدنية . بعض الأصوات كانت ترجو الشبان المتحمسين لإنقاذ الجثة كي لا يتقدموا نحوها . . لأن الغربان ، وفي هذه اللحظات شرسة جداً . وسوف تنقض عليهم وإن كانوا أحياءً . . فعلاً كانت أحجام الغربان كبيرة وغريبة ، واندفاعتها شرسة مثل اندفاعة البغال تماماً . . ولم يمر وقت طويل على المشهد حتى تقدم الناس نحو التابوت وتراجع البغالة إلى الوراء وهم يطلقون النار على نحو متقطع ، والغربان التي كانت أشبه بعنقود عنب شديد السواد تغطي التابوت . . راحت تطير نحو الأشجار التي يلفها الضباب .

رأيت التابوت يتقلّب بين أيدي الناس ، وقد خلا من الجثة . . لم يتبقَ منها سوى عظامها . . ومع ذلك لفت بالثياب البيض التي تمزقت ، وأعيد إغلاق التابوت ، والنساء يبكين بكاءً مرًّا وينحبن ، لم أر طوال حياتي مشهداً فجائعياً مثل هذا المشهد ، ولم أر شماتة مثل شماتة الجنود . . الذين راحوا يفتحون زجاجات البيرة ويشربونها وهم يهزجون ويغنون ويرقصون . . يا لقسوة القلب البشري حين يمتلئ بالشر» .

ملحوظة :

حين عاد إلينا أبو العبد ، وعارف الياسين أخبرانا أن اثنتين من النساء فقدتا أعينهما لأن الغربان نقرتها ، وأن ثلاثة أو أربعة من الجرحى برصاص

البغالة نقلوا إلى المشفى ، وحالتهم حرجة . . وقال عارف الياسين إنه رأى غرباناً كثيرة مقتولة برصاص البغالة ، حجم الواحد منهما بحجم الديك الرومي .

أيها الصديق ، ها هي ذي الحال ، فهل أعد حقيبتي ، وأغادر ، أخبرني أرجوك .

رسالة السجن.. الأولى

«يا للمفارقة ،

فأنا أكتب إليك من السجن . لقد صرت سجيناً . لماذا؟ لا أدري .

كنت نائماً ، حين اقتحم نفر من البغالة باب غرفتي ، كان ضجة نعالهم قد تكاثرت وتطاولت أمام الباب . . وقرعهم كاد يكسر الباب . استيقظت مرعوباً ، وكأنني كنت أنام في كابوس . اقتادوني ، ودونما كلمة واحدة . سألتهم : ماذا في الأمر؟ فلم يجب أحد منهم . ضابطهم الكبير ، دفع إليَّ ورقة مكتوبة بالعبرية والإنكليزية تخوله باعتقالي . . فمضيت معهم . لأول مرة أركب في إحدى سيارات الجيش التي كرهت وقوفها ، وجريانها ، ولونها الأوحد . . وكان الصمت يلفني . .

حين اعتقلوني لم تكن العجوز أم أهارون معهم ، ذلك لأنها نقلت ليلة البارحة إلى المشفى إثر هبوط حاد في ضغطها . أيضاً ، سألوني ليلة الأمس ، وحين أخذوا أم أهارون ما إذا كنت سبباً في هبوط ضغطها ، وهل عرضتها لمناقشة حادة . العجوز أم أهارون . . هي التي خلصتني من بين أيدي البغالة الذين جاؤوا لإسعافها ، لعلها هاتفتهم أو وصلت إليهم بطريقة ما . . قالت أم أهارون لهم : لا علاقة له بالأمر . لم أحدثه ، ولم أحاوره .

الآن ، . أكتب إليك . . لكي أقول لك إنني في السجن . لعل هذه هي خاتمة زيارتي إلى بلاد سيدنا» .

ملحوظة :

سألتهم إن كان بمقدوري كتابة رسالة لصديق لي . فقالوا : (بمقدورك) . . لهذا أكتب إليك . .

أيها الصديق الحبيب . . أتعرف بماذا أفكر الآن؟! بـ سيلفا . لعلها تطلُّ عليَّ بين لحظة وأخرى . سأراها هنا على حقيقتها . . بالثياب الرسمية ، والوجه الرسمي ، والحضور الرسمي . . أيضاً . أسألك : هل هي السبب في وجودي هنا؟!

رسالة السجن.. الثانية

«أكتب إليك ،

بعد محاولات عدة قمت بها كي أرسل إليك رسائل عجلى لتعرف ماذا حلَّ بي ، لكنهم ، أعني السجان ، لم يقبلوا بإرسال الرسائل . صحيح أنهم أخذوها ، لكنهم أعادوها إليَّ مرة ثانية ، هنا بحوزتي عشرون رسالة أو أكثر .

المهم ، أنني أكتب إليك ، لأخبرك ، أن إدارة السجن أخبرتني بأن العجوز أم أهارون ماتت ، وأن بيتها أغلق ، وأنهم جاؤوا بأغراضي وحاجياتي إلى السجن . لقد أعطوني ورقة فيها قائمة بالأغراض والحاجيات التي تخصني ، تفيد بأن إدارة السجن استلمتها . رجوتهم أن يخبروا صديقي جو مكملان بأنني موجود في السجن ، فوعدوني خيراً بعد أن أخذوا رقم هاتفه ، وعنوان بيته . . لكن جو لم يتصل بي ، ولم يأت إلى زيارتي ، ولكن فوجئت ، بعد مرور أيام . . أنه موجود هنا في هذا السجن الذي أُحتجز فيه . فطلبت مقابلته ، لكنهم رفضوا بشدة ، لقد عرفت بوجوده مصادفة ، فحين خرجت من غرفة التحقيق ، رأيته ذابلاً مثل نبات عطش ، يقف مرتجفاً بين يدي اثنين من رجال السجن ، فوجئت بوجوده ، فصرخت به : جو . فرفع نظره إليَّ ، فهمهم فلاديمير . . وسحت دموعه مثلما سحت دموعي . ولم أدر كيف قلت له ، وأنا أبتعد عنه ، وهو يبتعد عني : نحن شركاء في المكان ، والمصير . . يا جو . .

سيلفا ، لم أعرف أي شيء عنها . ولم أجرؤ على السؤال عنها ، معنوياتي صفر ، ومزاجي صفر أيضاً» .

ملحوظة :

وعدوني بإرسال هذه الرسالة ، ولكن لا أدري إن كانت ستصل إليك . أنت نافذتي الآن ، ودرب قلبي الذي . . أمشيه .

رسالة السجن.. الثالثة

«اعذرني ،

إن قلت لك ، إنني أدور في متاهة من الأسئلة والأجوبة . الأسئلة أعرفها ، لكن الأجوبة تغيب عني . إذْ ما عدت أدري ماذا قلت لهم ، وكيف أجبت عن أسئلتهم . ما أدريه الآن هو أن جسدي لم يصبه الأذى بعد» .

ملحوظة :

إن كنت بخير اكتب إليَّ . فأنا في شدة ما بعدها شدة . أنت . . سندي .

رسالة السجن.. الرابعة

«بدأ التعذيب ،

أنا أعيش مع الكلاب ، والقطط ، وأسلاك الكهرباء والإهانات . . يسألونني كثيراً وبإلحاح عن رشيدة زوجتي ، وعن علاقتي بها . فأقول لهم إنها زوجتي ، وحبيبتي ، وأستاذتي . . لكنها للأسف ماتت! فيجن جنونهم . . يسألوني عن علاقتي بحزب الشعب الفلسطيني ، ومن أعرف من كوادره . . فأقول لهم : لا أعرف أحداً . فيزيدون من تعذيبي وضربي . لم أكن أدرك أو أعي أن الشاعر ماجد أبو غوش الذي اصطحبنا إلى مخيم شعفاط . . هو من كوادر حزب الشعب . . لقد سألوني عنه أيضاً . مسكين ماجد . مسكين هذا الشاعر ، لعله هنا أيضاً ، لعله جاري في المعتقل الآن . لم يخطر ببالي أن أسأل ماجد أبو غوش إن كان يعرف رشيدة مراد ، زوجتي . . لأنهم يسألونني عن علاقته بها . وأنا لا أدري إن كانت هي ، رحمها الله ، على معرفة بـ ماجد ، . . ومع ذلك يريدون مني إجابة .

قلت لهم : رشيدة ماتت . . فما نفع السؤال عنها الآن؟ فنهروني زاجرين ، وأفهموني ، أنني هنا ، في السجن ، أجيب عن الأسئلة ، فقط ، وأنه ليس من حقي السؤال» .

ملحوظة :

قل لي ، بربك ، ماذا أفعل؟

رسالة السجن.. الخامسة

«**قل لي ،**
أما زلت تكتب شعراً .
أرجوك . . اشحذ قريحتك ، وهيئ قصيدة رثائي . .
فقد كُسرت ساقي ، ضربوها بقضيب حديد ، فانكسرت . . وجرحها يتعفن . إنني خجل من رائحته . ما زلت وحيداً في زنزانة ضيقة جداً ، لها رائحة تشبه رائحة القطران .
هنا ، وفي داخل هذه الزنزانة ، أرى أسراب القمل ، والبق . . تبدو وكأنها [مستعمرات العقاب . .] رحمك الله يا كافكا . .»

ملحوظة :
أمنيتي ، وقد صرت في السجن ، أن أجتمع بالسجناء الفلسطينيين هنا . . كي أتعلم منهم الدرس الذهبي للصبر . محبتي .

رسالة السجن.. السادسة

«**أنا حزين ،**

كل خلية من خلايا جسدي . . تتألم .

روحي مألومة أيضاً . . فأنا لم أزر البحر الميت ، لم أتعمد بماء النهر المقدس . لم أر طبريا . . ولم أذهب إلى عكا . . كي أرى بيت رشيدة مراد/ زوجتي في حي المنارة . . ولم أزر بيت الشرق ، كما لم أعد إلى الحي الأرمني ، كي أرى ميرنا . .

يا للأماني ، يا صديقي ، كم تبدو وتتكاثر . . وأنت وحيد وحيد وحيد وحيد ، . . وأين؟! في السجن» .

ملحوظة :

ليتني طائر الآن ، كي أمر ولو للحظات فقط بـ مقهى (أبو العبد) كي أراه ، وإن أكرمني ربي أكثر . . سأنتظر كي أرى عارف الياسين ، لأقول له . . إنني في المكان الذي عرفه طويلاً .

أرجوك . . لا تكتب إليَّ . . فعناوين السجن . . ليست بعناوين .

صدر للمؤلف

أولاً ، القصص :

١) اثنا عشر برجاً لبرج البراجنة
٢) ممارسات زيد الغاثي المحروم .
٣) زعفران والمداسات المعتمة .
٤) دويّ الموتى
٥) طار الحمام
٦) أحزان شاغال الساخنة
٧) قرنفل أحمر . . لأجلها
٨) مطر وأحزان وفراش ملون .
٩) هناك . . . قرب شجر الصفصاف .
١٠) حمى الكلام
١١) كائنات الوحشة .
١٢) في البحث عنها .
١٣) صباح مساء .
١٤) في شرفتها .

ثانياً ، الروايات :

١) السواد - الخروج من البقارة
٢) تعالي نطيّر أوراق الخريف
٣) جسر بنات يعقوب
٤) الوناس عطية
٥) أنين القصب

ثالثاً ، الدراسات :

١) ألف ليلة و ليلة (غيبوبة القص/ غيبوبة الاستماع) .

٢) البقع الأرجوانية في الرواية الغربية (دوستويفسكي- بروست- جويس- كافكا- سرفانتس) .

٣) الأدب العبري (المرجعيات - المصطلحات - الرؤى)

٤) كي لا يفسد الملح .

مكتبة
t.me/soramnqraa

THE CITY OF GOD

رواية
NOVEL

مدينة الله

◆ « هنا ، في القدس ، لا تدري في أيّ وقت تتعالى التكبيرات ودقّات النواقيس ، كما لا تدري من أيّ الجهات تأتي الروائح الطيّبة ، ومن أين يتوافد الناس وأصحاب العربات والسلال ، وكيف تجري الأسواق والحارات بعضها نحو بعض ، وتتلاقى مثل السواقي ، هنا تسلم روحك للشوارع فتماشيك الظلال والأنسام ، وتباريك الوجوه الّتي تشبه أرغفة الخبز ، ويدور بك التلفت والانتباه والصحو كي تلفك غواية المكان ، وكي تظلّ على مبعدة كفّ من غيبوبة الافتتان

أصارحك بأنّني مدهوش ، ومسحور ، أجلس وأمشي ، وأنا في خدر مشتهى أتمنّى أن يطول ، أشعر كأنّني أرى ولا أرى ، وأحسّ بأنّ ضبابًا أبيض فضيًا أو يكاد يغشي المدينة ، فتستدير الهالات هنا وهناك ، وتتعالى في أرجحة كأنها مشدودة إلى حبال خفيّة تحجبها الغيوم .

هنا ، لا تدري من بلّل يديك ووجهك بالرذاذ النثيث ، ومن منح هذه الوجوه الطالعة من كلّ الأمكنة نثار الضوء ، ومن حباها بالبهجة الحالمة ، ومن أطلق طيور الحمام المتفلّتة من أقفاص الهواء ، مثل الفلاحات ، لتمنح الدروب والبيوت والساحات والحقول والأشجار والمفارق والشبابيك نعمة النشور .

هنا تشعر بأنك كائن أثيريّ تمشي وراء حواسّك مندفعًا ، تمامًا مثلما تمشي الأنهار في مجاريها هبوطًا نحو مصبّاتها الدانية .

هنا ، لا شيء يفسد المكان أو الهواء أو الصفاء سوى هذه البغال السمان الّتي يعتليها الجنود السمان الثقال ، وقد اعتلتهم خوذ الحديد الشاحبة ، يهزّون أيديهم بهراواتهم الغليظة وقد أغلقت وجوههم . لا شيء حولهم أو قربهم سوى الكلاب ، وسيّارات الجيش ، وحواجز الحديد ، ولا شيء يلفهم سوى النظرات الكارهة .. يبدون مثل كتابة بالفحم آيتها السواد .. تمرّ بلوحة زاهية الألوان . لا شيء يضيّع إيقاع الخطا والشوارع والحارات الحانية والأشجار ووداعة الطيور سوى نخر البغال السمان ، ونهر من اعتلوها .

بلى ، يبدون ، في هذا المشهد الرائق ، مثل نقطة سوداء حائرة . »

◆ من الرواية

ISBN 978-9953-36-329-3
9 789953 363295

القدس عاصمة الثقافة العربية
Capital of Arab Culture
al-QUDS 2009

40 عاماً في خدمة الثقافة العربية
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
http://www.airpbooks.com